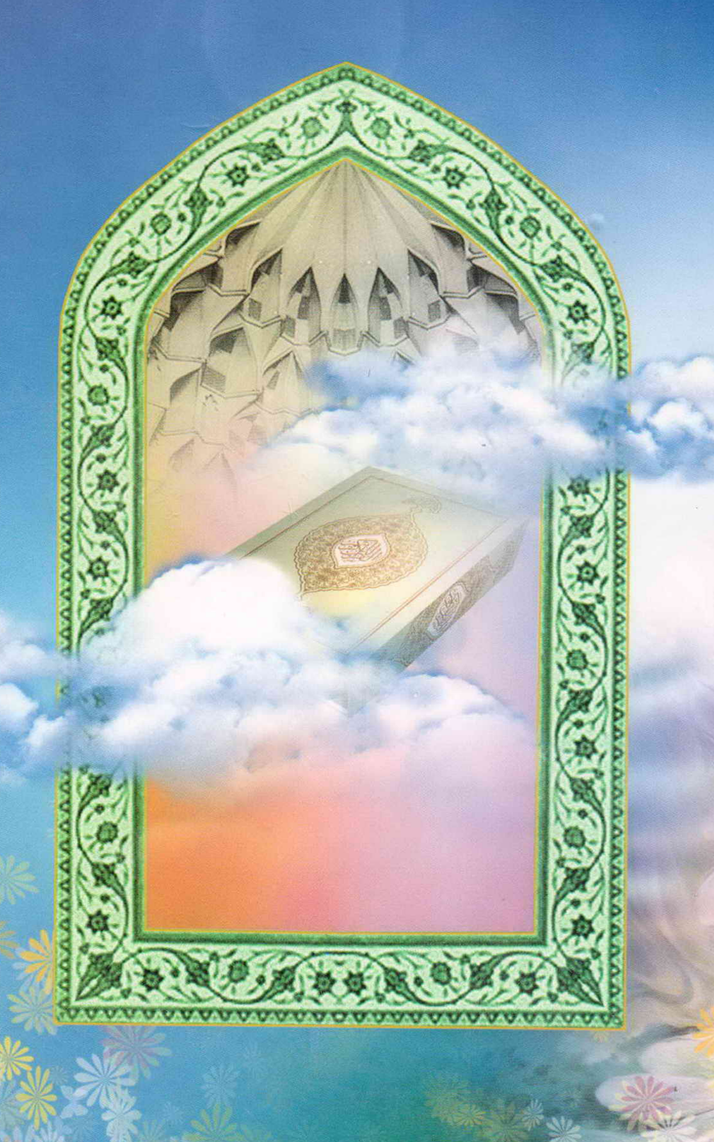
آية اللّٰه العظمى مكارم الشيرازي

مئة موضوع اخلاقي في القرآن و الحديث



آية‌الله العظمىٰ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

مئة موضوع اخلاقي في القرآن والحديث

المشتمل علىٰ ثلاثمئة آية و سبعمئة حديث

اعداد و تنظيم:

السيّد حسين الحسيني



مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ - .
مئة موضوع اخلاقی فی القرآن و الحدیث: المشتمل علی ثلاث مئة آیه و سبع مئة حدیث / تألیف ناصر مکارم شیرازی؛ مع مشارکة محمد رضا آشتیانی ... [و دیگران]؛ اعداد و تنظیم حسین الحسینی. ـ تهران: دارالکتب الاسلامیه، ۱۳۸۳.
۴۴۷ ص.
ISBN : 964-440-265-0 ۴۰۰۰۰ ریال:
فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
کتابنامه: به صورت زیر نویس.
۱. اخلاق اسلامی. ۲. اخلاق شیعه. ۳. احادیث اخلاقی. الف. حسینی، حسین، ۱۳۴۱ - ب. آشتیانی، محمد رضا، ۱۳۱۹ - . ج. عنوان.
۲۹۷/۶۱ BP۲۴۷/۸/م۷۶م۹
کتابخانه ملی ایران ۴۹۱۹-۸۳م

الكتاب: مئة موضوع اخلاقي في القرآن و الحديث
تأليف: آيةالله العظمى الشيخ ناصر مكارم شيرازي
مع مشاركة العلماء و الفضلاء: «محمد رضا آشتياني، محمد جعفر الامامي، عبدالرسول الحسني، السيد حسن الشجاعي، سيد نورالله الطباطبايي، محمود عبداللهي، محسن القرائتي، محمد محمدى الاشتهاردي»
اعداد و تنظيم: السيد حسين الحسيني
الكمية: ٢٠٠٠
الطبعة: الثانية
تاريخ الطبع: ١٣٨٥ هـ. ش. سنة رسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم
المطبعة: گوهر انديشه
ناشر: دارالكتب الاسلامية ـ تهران ـ سوق سلطاني ـ رقم ٩٩
تلفن: ٥٦٢٧٤٤٩ تلفكس: ٥٦٢٠٤١٠ فاكس: ٣٩١٦٩٤٤

شابك ٠ - ٢٦٥ - ٤٤٠ - ٩٦٤ ISBN 964 - 440 - 265 - 0

الفهرس

تقديم آية الله العظمىٰ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

قد هيمنت على العالم في العصر الراهن ثلاث أزمات:

١ ـ الأزمة السياسية .

٢ ـ الأزمة الإقتصاديّة.

٣ ـ الأزمة الأخلاقيّة.

إنّ جميع الأزمات ـ بنظرة ثاقبة ـ تعود جذورها الى الأزمة الأخلاقيّة على الرغم من اهتمام رجال الحكم في العالم بالأزمات الإقصاديّة والسياسيّة.

فإذا كانت كلّ شريحة في المجتمع لا تفكر إلّا في منافعها الخاصّة، وكان رجال الحكم يتحدثون علناً بلغة المصالح، فيقرعون طبول الحرب في منطقة ما من العالم؛ لأنّها تخدم مصالحهم فيها، ويدعون الى السلم في منطقة أخرىٰ لما تلحقه الحرب بمصالحهم من أضرار. وإذا كانت التجارة العالميّة تؤمن أرباح البعض، فهم لذلك يدافعون عنها بكلّ ما أوتوا من قوّة، و تلحق خسارة بآخرين، فيحاولون وضع العراقيل في طريقها، دون أن يأخذ أحد بنظر الإعتبار المصلحة العالميّة العامّة، متناسين بذلك أبسط الأصول الأخلاقيّة التي تقول: «أحبب لأخيك ما تحبّ لنفسك و أكره له ما تكره لنفسك». و إذا اكتسح الفساد والفحشاء والرشوة وتجارة الموت أغلب نقاط العالم، إذا كان جميع ذلك فلا ينبغي أن نتوقع سوى الأزمات

المزمنة والحروب والفتن.

لهذا كان هدف الأنبياء قبل كلّ شيء تهذيب أخلاق الأمم، مقدمين ذلك على سائر المهام الأخرى، حتى اعتبر الرسول الأعظم ﷺ التكامل الأخلاقي هدفاً لبعثته، وفي قوله ﷺ: «إنّي بعثت لأتمم مكارم الاخلاق» ما يكشف بجلاء عن أهداف رسالته السامية.

فعلى كلّ محبٍّ للإنسانيّة وكلّ من يتطلّع إلى عالم حافل بالصلح والعدل والإستقرار أن لا يدّخر وسعاً في سبيل رقي المستوى الأخلاقي للمجتمع الإنساني.

وقد ضمّ القرآن الكريم ـ وهو الدواء لآلام النفس البشريّة ـ في الكثير من آياته وصايا قيّمة وبناءه على الصعيد الخلقي.

ويسعدنا أن نرى عالماً مجداً كحجة الإسلام السيد حسين الحسيني (دامت تأييداته) يصبّ جهوده في جمع مئة موضوع اخلاقي في القرآن والحديث تشتمل على ثلاثمئة آية و سبعمئة حديث مستقاة من (التفسير الامثل) بطريقة رائعة، وذلك في مجهود يمكن اعتباره خطوة إيجابيّة على طريق الرقي بالمستوى الخلقي العام.

ومن هنا نبارك له هذا النجاح آملين أن يكون ـ بعناية الباري عزوجل ـ منهلاً عذباً لجميع طبقات المجتمع ولا سيّما جيل الشباب الواعي.

قم ـ ناصر مكارم الشيرازي

رمضان المبارك ١٤٢٣

المدخل

لقد ألّف أعاظم علماء الشيعة تفاسير عديدة للقرآن المجيد علىٰ طول التاريخ كان بعضها ولا يزال محطّة لتزوّد العلماء والحوزات العلميّة وعشّاق القرآن، ولكن كان هناك فراغ علىٰ مستوىٰ تفسير يتّسم بخصائص «تفسير الامثل» وبخاصّة في هذا الزمن الذي يتزايد فيه التوجّه لفهم القرآن من قبل جميع الطبقات والمستويات. وقد لبّىٰ سماحة آية الله العظمىٰ مكارم الشيرازي مع ثلّة من الفضلاء، هذه الحاجة الملحّة وقدّموا للقرآن المجيد خدمة جليلة. وهنا نشير إلىٰ بعض خصائص هذا التفسير والّتي منحته شموليّة وجذّابيّة:

١ ـ رغم أنّ هذا التفسير يفتح الآفاق لعامّة من يتطلّعون إلى درك القرآن ولكنّه لم يغفل عن الجانب العلمي والبحثي مما يجعل الفائدة تعمّ أهل الفضل والعلم أيضاً.

٢ ـ أكّد هذا التفسير علىٰ قضايا حياتيّة تعدّ من صميم واقع الإنسان الاجتماعي والفردي معرضاً عن الخوض في غير الضروري.

٣ ـ تطرّق بما يتناسب والعناوين الموجودة في الآيات إلىٰ أبحاث مختصرة ومستقلّة، تغني القاريء من خلال مطالعة اجماليّة عن الرجوع إلىٰ الكتب الاخرىٰ.

٤ ـ تجنّب الاصطلاحات العلميّة المعقّدة ولكنّه في نفس الوقت تضمّن حسب الضرورة في الهوامش توضيحات ينتفع بها العلماء والمفكّرون فضلاً عن غيرهم.

٥ ـ إنّ إحدى المميّزات المهمّة لهذا التفسير تناوله للمسائل الاخلاقيّة بتناسب الآيات القرآنيّة.

لقد كانت هذه الخصائص سبباً لاستئذان سماحة الاستاذ لجمع الموضوعات الاخلاقيّة في التفسير علىٰ حدة لتكون في متناول الجميع فقوبل الطلب لحسن الحظّ بموافقة سماحته

فتمّت مطالعة دورة تفسير الأمثل بدقّة واستخرجت جميع الموادّ فاعدّ هذا الكتاب وينبغي التأكيد علىٰ نكات ضروريّة.

١ ـ قد يوجد موضوعاً اخلاقيّاً في عدّة مواضع من التفسير فجمع في مكان واحد و هذا ما استدعىٰ الوقت الكثير لمطالعة التفسير واستخراج الموضوع وتنظيمه و تبويبه وان ترای عملاً سهلاً و بسيطاً.

٢ ـ علماً بأنّ ترتيب هذه المجموعة استخرج من مئات الاقسام من التفسير الامثل ولكثرة عددها امتنعنا عن ذكر مصادر هذا الكتاب في التفسير.

٣ ـ سلكنا في ترتيب واختيار هذه المجموعة نفس الطريقة والتنسيق الموجود في كتاب «المحجّة البيضاء» للمرحوم الفيض الكاشاني.

٤ ـ إنّ مطالعة هذا الكتاب مفيدة جداً للعموم خاصّة لجيل الشباب والمبلّغين ومعلّمي الدين والمربّين.

وفي الخاتمة نذكّر بانّنا وفّقنا في العام الماضي لإعداد كتاب «قصص القرآن» تمّ استخراجها من تفسير الامثل وقد لاقت استقبالاً واسعاً لا سيّما من قبل جيل الشباب والمثقّفين.

نأمل أن يكون هذا العمل القليل موضع قبول بقيّة الله الأعظم (ارواحنا فداه)

قم ـ السيد حسين الحسيني

١

العلم

إنّ أهم ما يدعو إليه الأنبياء هو طلب العلم والمعرفة، وقد أعلنوا عداءهم للجهل أينما كان، وإضافة إلى أنّ القرآن الحكيم استغل الكثير من المناسبات كي يوضح هذا الأمر، كما وردت في الروايات الإسلامية أحاديث تصور عدم وجود شيء أفضل من العلم.

سبعة عشر حديثاً حول فضل العلم والعلماء

١ ـ ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا خير في العيش إلّا لرجلين: عالم مطاع، أو مستمع واع**»[1].

ورثة الانبياء

٢ ـ كما ورد حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، جاء فيه: «**إنّ العلماء ورثة الأنبياء وذاك أنّ الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيءٍ منها فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه فإن فينا أهل البيت في كلّ خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»[2].

---

١ ـ اصول الكافي: المجلد الأوّل، باب صفة العلم وفضله الحديث (٧).

٢ ـ اصول الكافي: المجلد الأوّل، باب صفة العلم وفضله الحديث(٢).

افضل من الشهيد

٣ ـ بالرغم من أنّ «الشهيد» في الإسلام يتمتع بمقام سامٍ جدّاً، إلّا أنّنا نقرأ حديثاً للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن لنا فيه مقام أهل العلم حيث قال: **«فضل العالم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة .. وفضل العالم على سائر الناس، كفضلي، على أدناهم»**[1].

٤ ـ وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام نقرأ الحديث التالي: **«من جاءته منيّته وهو يطلب العلم فبينه وبين الأنبياء درجة»**[2].

٥ ـ معلوم أنّ الليالي المقمرة لها بهاء ونضرة، خصوصاً ليلة الرابع عشر من الشهر، حيث يكتمل البدر ويزداد ضوؤه بحيث يؤثّر على ضوء النجوم .. هذا المعنى الظريف ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: **«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»**[3].

والطريف هنا أنّ العابد ينجز عبادته التي هي الهدف من خلق الإنسان، ولكن بما أنّ روح العبادة هي المعرفة، لذا فإنّ العالم مفضّل عليه بدرجات.

٦ ـ وما جاء حول أفضلية العالم على العابد في الروايات أعلاه يقصد منه بيان الفرق الكبير بين هذين الصنفين، لذا ورد في حديث آخر حول الإختلاف بينهما بدلاً من درجة واحدة مائة درجة، والمسافة بين درجة وأُخرى بمقدار عدو الخيل في سبعين سنة[4].

مقام الشفاعة

٧ ـ إنّ مقام الشفاعة لا يكون لأي شخص في يوم القيامة، بل هي مقام المقرّبين في الحضرة الإلهية، ولكن نقرأ في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: **«يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء»**[5].

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٩/٢٥٣.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ تفسير جوامع الجامع، مطابق لنقل تفسير نور الثقلين: ٥/٢٦٤، وتفسير القرطبي: ٩/٦٤٧٠.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ تفسير روح المعاني: ٢٨/٢٦ وتفسير القرطبي: ٩/٦٤٧٠.

لا يتخرّج أحدٌ

ولا حدّ في الإسلام لمقدار السعي والإجتهاد، فهو يغوص في أعماق البحر ليكتسب العلم، وقد يضحّي بروحه في طريق تحصيل العلم. وعلى هذا فإنّ كلمة (خرّيج) أو (أنهى دراسته) لا معنى لها في منطق الإسلام، فإنّ المسلم الحقيقي لا يعرف نهاية في تحصيله للعلوم، فهو دائماً طالب جامعي، وطالب علم، حتّى لو أصبح أكثر الأساتذة تفوّقاً وأفضلهم.

٨ ـ الطريف أنّنا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «**إنّ لنا في كلّ جمعة سروراً**» قال: قلت: وما ذاك؟ قال: «**إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله صلى الله عليه وآله العرش، ووافى الأئمّة عليهم السلام ووافينا معهم، فلا ترد أرواحنا بأبداننا إلّا بعلم مستفاد، ولولا ذلك لأنفذنا**»[١].

وقد ورد هذا المضمون في روايات عديدة بعبارات مختلفة، وهو يوضّح أنّ النّبي والأئمّة يضاف ويزاد على علمهم إلى نهاية العالم:

اليوم المشئوم

٩ ـ ونقرأ في رواية أُخرىٰ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بارك الله لي في طلوع شمسه**»[٢].

١٠ ـ وكذلك نقرأ في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله: «**أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه، وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقلّ الناس قيمة أقلّهم علماً**»[٣].

١١ ـ روي عن نبي الإسلام الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إذا جاء الموت طالب العلم وهو علىٰ هـذا الحال مات شهيداً**»[٤].

١٢ ـ عن جابر بن عبدالله الأنصاري، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**ساعة من عالم يتّكىء**

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٣٩٧/٣.

٢ ـ تفسير مجمع البيان، وتفسير نور الثقلين، وتفسير الصافي في ذيل الآيات ١١٤ ـ ١١٣ من سورة طه.

٣ ـ سفينة البحار: ٢١٩/٢ (مادّة علم).

٤ ـ سفينة البحار، المجلد الأول، مادة شهد.

على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاماً»[١].

حارس الحدود الثقافيّة

١٣ ـ هذا وقد أطلق على العلماء ـ كما في بعض الأحاديث ـ صفة المرابط، فعن الإمام الصادق عليه السلام:

«علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، ويمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلط عليهم إبليس...»[٢].

وتعتبر نهاية هذا الحديث العلماء أعلى مكانة من الجنود والقادة الذين يحرسون الثغور ويذبون عنها أعداء الإسلام. وما ذلك إلّا أن العلماء حماة الدين وحرّاسه والأمناء المدافعون عن القيم الإسلامية، والجنود حماة الثغور الجغرافية، ومن الثابت المسلم به أن الثغور الفكرية والثقافية لأُمّة من الأمم لو تعرضت لكيد الأعداء، ولم تستطع الذّب عنها بنجاح، فإنّها سرعان ما تصبيها الهزائم العسكرية والسياسية أيضاً.

١٤ ـ يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»**[٣].

١٥ ـ وفي بعض الروايات نرى أن كل الموجودات تدعو لطلب العلم كقول المعصوم: **«وَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ»**[٤].

١٦ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«ثلاثة تخرق الحجب، وتنتهي إلى ما بين يدي الله: صرير أقلام العلماء، ووطء أقدام المجاهدين، وصوت مغازل المحصنات»**[٥].

---

١ ـ تفسير مجمع البيان في ذيل الآية ١٨ من سورة آل‌عمران.

٢ ـ الإحتجاج للطبرسي، الفصل الأول.

٣ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٤٧.

٤ ـ أصول الكافي: المجلد الاوّل ، باب ثواب العالم والمتعلم.

٥ ـ الشهاب في الحكم والآداب: ص ٢٢.

١٧ ـ في حديث آخر لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**فالذين يحملون العرش، هم العلماء، الذين حمّلهم الله علمه**»[١].

بلا حدّ

إنّ العلم من وجهة نظر الإسلام لا يعرف حدّاً، وزيادة الطلب في كثير من الأُمور مذمومة إلّا في طلب العلم فانّها ممدوحة، والإفراط قبيح في كلّ شيء إلّا في طلب العلم.

فالعلم ليس له حدّ مكاني، فيجب الإجتهاد لتحصيله ولو كان في الصين أو الثريا، وليس له حدّ زماني فهو يستمرّ من المهد إلى اللحد.

ولا يعرف حدّاً من جهة المعلّم، فإنّ الحكمة ضالّة المؤمن أينما وجدها أخذها، وإذا ما سقطت جوهرة من فم ملوّث فاسق فإنّه يلتقطها.

ولا حدّ في الإسلام لمقدار السعي والإجتهاد، فهو يغوص في أعماق البحر ليكتسب العلم، وقد يضحّي بروحه في طريق تحصيل العلم. حتّى لو أصبح أكثر الأساتذة تفوّقاً وأفضلهم.

---

١ ـ المصدر السابق، (حديث ٢٦).

٢

العالم بلا عمل

ممّا لا شكّ فيه أنّ لطلب العلم تبعات ومسؤوليات عديدة، ولكن مع كثرة هذه التبعات فإنّها لا تساوي شيئاً أمام بركاته. وأشدّ ما يخيف الإنسان ويقلقه أن يتحمّل مصاعب طلب العلم، ويعاني في سبيل ذلك الأمّرين دون أن يحصد بركاته، وعندها سيكون مثل هذا الإنسان كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً على ظهره لا يعلم منها شيئاً.

وقد شبّه العالم بلا عمل في بعض الأمثال بأنّه (كالشجر بلا ثمر) أو (كالسحاب بلا مطر) أو (كالشمعة التي تحرق نفسها لتضيء أطرافها ولكنّها تفنى وتزول) أو (كالحيوان الذي يدير الطاحونة فإنّه يمشي ساعات طويلة دون أن يقطع أيّة مسافة بل يبقى دائماً يدور حول نفسه)، وما إلى ذلك من التشبيهات التي يوضّح كلّ واحد منها جانباً من جوانب النقص حينما لا يُقرن العلم بالعمل.

العالم بلا عمل في كلام المعصوم

وقد حملت الروايات بشدّة على مثل هؤلاء العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون.

١ ـ ففي رواية عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**من إزداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلّا بعداً**»[١].

٢ ـ وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «**العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل، والعلم**

١ ـ المحجّة البيضاء: ١ / ١٢٥ ـ ١٢٦.

يهتف بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل عنه»[١].

٣ ـ وفي رواية أُخرى عن رسول الله ﷺ يعتبر العالم الذي لا يعمل بموجب علمه غير جدير بهذا اللقب حيث يقول: **«لا يكون المرء عالماً حتّى يكون بعلمه عاملاً»**[٢].

٤ ـ وليس أفضل من العالم الذي يعمل بعلمه دون أن يستفيد من مزايا العلم ذاتياً ومادياً، فقد ورد عن أمير المؤمنين في خطبة له على المنبر **«أيّها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلّكم تهتدون، إنّ العالم العامل بغيره، كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق عن جهله بل قد رأيت أنّ الحجّة عليه أعظم والحسرة أدوم»**[٣].

حينما يصبح الذئب راعياً

ومثل هؤلاء العلماء سيكونون بلاءً على المجتمع ووبالاً عليه، وسينتهي المجتمع الذي علماؤه من هذا القبيل إلى مصير خطير.

يقول الشاعر:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها   فكيف إذا الرعاة لها ذئاب!

٥ ـ ونقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«يعني بالعلماء من صدق فعله قوله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم»**[٤].

منهج الدعاة إلى الله يقوم على أساس العمل أوّلاً ثم القول. فالدّاعية إلى الله يبلّغ بعمله قبل قوله.

٦ ـ في الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: **«كُونُوا دُعَاةَ النَّاسِ بِأَعْمَالِكُمْ وَلاَ تَكُونُوا دُعَاةً بِأَلْسِنَتِكُمْ»**[٥].

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار (٣٦٦).

٢ ـ أُصول الكافي، ج ١، باب استعمال العلم، حديث ٢٢٦.

٣ ـ اصول الكافي؛ ج ١ باب استعمال العلم، الحديث ٦.

٤ ـ أُصول الكافي، ج ١ (باب صفة العلماء / حديث رقم ٢).

٥ ـ سفينة البحار، مادة «عمل».

التأثير العميق للدعوة العملية يأتي من قدرة مثل هذه الدعوة علىٰ فتح منافذ قلب السامع، فالسامع يثق بما يقوله الداعية العامل، ويرى أن هذا الداعية مؤمن بما يقول وأن ما يقوله صادر عن القلب. والكلام الصادر عن القلب ينفذ إلى القلب. وأفضل دليل علىٰ إيمان القائل بما يقوله، هو العمل بقوله قبل غيره، كما يقول علي عليه السلام:

٧ ـ «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللهِ مَا أَحُثُّكُمْ علىٰ طَاعَةٍ إِلَّا وأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلاَ أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَىٰ قَبْلَكُمْ عَنْهَا»[١].

٨ ـ في حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَصَفَ عَدْلاً وَعَمِلَ بِغَيْرِهِ»[٢].

صلاح و فساد الامّة

قال النّبي صلى الله عليه وآله: «صنفان من أُمتي إذا صلحا صلحت أُمتي، وإذا فسدا فسدت أُمتي، فقيل: يا رسول اللّه، مَنْ هما؟ قال: الفقهاء والأمراء».

وذكر المحدّث القمّي في (سفينة البحار) حديثاً بعد نقله لهذا الحديث مروياً عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «تكلم النّار يوم القيامة ثلاثة: أميراً، وقارئاً، وذا ثروة من المال، فتقول للأمير: يا مَنْ وهب اللّه له سلطاناً فلم يعدل، فتزدرده كما تزدرد الطير حبّ السمسم، وتقول للقاريء: يا مَنْ تزين للناس وبارز اللّه بالمعاصي، فتزدرده، وتقول للغني: يا مَنْ وهب اللّه له دنيا كثيرة واسعة فيضاً وسأله الحقير اليسير قرضاً، فأبىٰ إلّا بخلاً، فتزدرده؟[٣]

إذا صار العالم في خدمة الجبابرة

إنّ الخطر الاكيد الذي يهدد المجتمعات الإنسانية هو خطر المثقفين والعلماء الذين يسخّرون معارفهم للفراعنة والجبارين لأجل أهوائهم وميولهم الدنيوية (والإخلاد إلى الأرض) ويضعون كل طاقاتهم الفكرية في سبيل الطاغوت الذي يعمل ما في وسعه لإستغلال مثل هذه الشخصيات لإغفال وإضلال عامّة الناس.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ١/٦٤.

٣ ـ سفينة البحار مادة (أمر).

بعد عصرالنّبي الكريمﷺ إلى يومنا هذا نجد أمثال بلعم بن باعوراء وأبي عامر الراهب وأمية بن الصلت، يضعون علومهم ومعارفهم ونفوذهم الإجتماعي من أجل الدرهم والدينار، أو المقام، أو لأجل الحسد، تحت إختيار المنافقين وأعداء الحق والفراعنة أمثال بني أمية وبني العباس وسائر الطواغيت.

ويمكن معرفة أُولئك العلماء من خلال أوصافٍ أشارت إليها الآيات القرآنيّة، فإنّهم ممن نسي ربّه واتبع هواه، وهم ذوو نزوات سخروها للرذيلة بدل التوجه نحو الله وخدمة خلقه، وبسبب هذا التسافل فقدوا كل شيء ووقعوا تحت سلطة الشيطان ووساوسِه، فسهل بيعهم وشراؤهم، وهم كالكلاب المسعورة التي لا ترتوي أبداً، ولهذه الأُمور ترك هؤلاء سبيل الحقيقة وضلوا عن الطريق حتى غدوا أئمّة الضلال.

ويجب على المؤمنين معرفة مثل هؤلاء الأشخاص والحذر منهم وإجتنابهم.

٣

التفكر

إهتّمت الرواية الإسلامية ـ وعلى خطى القرآن الكريم ـ بمسألة التفكّر إلى حدّ أن جعلتها في المقام الأوّل من الأهميّة، ويلاحظ المطالع للروايات تعبيرات جميلة ومعبّرة أوردنا نماذج منها هنا:

ألف ـ التفكّر أعظم عبادة:

نقرأ عن الإمام الرضا عليه السلام «**ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّوجلّ**»[1].

ونقرأ في رواية أُخرى: «**كان أكثر عبادة أبي ذكر التفكّر**»[2].

ب ـ ساعة تفكّر أفضل من ليلة من العبادة:

عن الحسن الصيقل قال: سألت أبا عبدالله الصادق عليه السلام: عمّا يروي الناس أنّ تفكّر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكّر؟ قال: «**يمرّ بالخربة أو بالدار فيقول: أين ساكنوك وأين بانوك، ما لك لا تتكلّمين؟**»[3].

ج ـ التفكّر مصدر العمل:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ التفكّر يدعو إلى البرّ والعمل به**»[4].

---

١ ـ أُصول الكافي: ٢/٥٥، كتاب الكفر والإيمان ـ باب التفكّر ـ حديث ٤.

٢ ـ سفينة البحار، مادة (فكر).

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ المصدر السابق.

٤

قيمة العقل

يشير القرآن الكريم إلى مقام العقل السامي، ويصرّح بأنّ العامل الأساسي لتعاسة الإنسان ودخوله عوالم الخسران والضياع والعاقبة التعيسة، وسقوطه وفي وحل الذنوب وجهنّم .. هو عدم الإستفادة من هذه القوّة الإلهيّة العظيمة، وإغفال هذه القدرة الجبّارة، وعدم إستثمار هذه الجوهرة والنعمة الربّانية، وذلك واضح وبيّن لكل من قرأ القرآن وتدبّر آياته، حيث يلاحظ أنّ هذا الأمر مؤكّد عليه في مناسبات شتّى ..

وعلى الرغم من الأكاذيب التي يطلقها البعض بأنّ الدين هو وسيلة لتخدير العقول والإعراض عن أوامرها ومتطلّباتها، فإنّ الإسلام قد وضع أساس معرفة الله تعالى وسلوك طريق السعادة والنجاة، ضمن مسؤولية العقل.

لذا فإنّ القرآن الكريم يوجّه نداءاته بصورة مستمرّة وفي كلّ مكان إلى (أُولو الألباب) و (أُولو الأبصار) وأصحاب الفكر من العلماء والمتعمّقين في شؤون المعرفة.

اختيار العقل من جانب آدم

ولقد وردت في المصادر الإسلامية روايات كثيرة في هذا الصدد، بشكل لا يمكن إحصاؤه، والطريف أنّ كتاب الكافي المعروف، والذي هو أكثر الكتب اعتباراً في مجال الحديث يحتوي على (أبواب) أو (كتب) أوّلها كتاب باسم كتاب (العقل والجهل) وكلّ من يلاحظ الروايات التي وردت بهذا الخصوص يدرك عمق النظرة الإسلامية إلى هذه المسألة.

ونحن هنا نقتطف منها روايتين:

جاء في حديث عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: **«هبط جبرائيل على آدم، فقال: ياآدم، إنّي أُمرت أن أُخيّرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع إثنين، فقال له آدم: ياجبرائيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم إنّي قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: إنصرفا ودعاه. فقالا: ياجبرئيل، إنّا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما وعرج»**[١].

وهذا من أجمل ما يمكن أن يقال في العقل، وطبيعة علاقته مع الحياء والدين، إذ أنّ العقل إذا ما انفصل عن الدين فإنّ الدين سيكون في مهبّ الرياح ويتعرّض إلى الإنحراف بسبب الأهواء وفقدان الموازن الموضوعية الأساسية.

أمّا «الحياء» الذي هو المانع والرادع للإنسان عن ارتكاب القبائح والذنوب، فهو الآخر من ثمار شجرة العقل والمعرفة.

وهكذا نرى أنّ آدم عليه السلام كان يتمتّع بدرجة عالية من العقل، حيث أنّه عليه السلام اختار العقل ممّا خيّر به من الأُمور الثلاث، وبذلك إصطحب الدين والحياء أيضاً.

كيف عقل الرجل؟

وقد ورد في الحديث الشريف، أنّ بعض المسلمين ذكروا شخصاً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأثنوا عليه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**كيف عقل الرجل**» فقيل: يارسول الله نحن نسأل عن سعيه وعبادته وخيراته وأنت تسأل عن عقله؟! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنّ الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنّما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم!»**[٢].

اوّل ما خلق الله

وجاء في بعض الروايات **«إنّ أوّل ما خلق الله العقل»**[٣].

ونقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنّة»**[٤].

---

١ ـ أُصول الكافي طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٥/ ٣٨٢.

٢ ـ تفسير مجمع البيان : ١٠/ ٣٢٤.

٣ ـ التفسير الكبير: ٣٠/ ٧٨.

٤ ـ أُصول الكافي طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٥/ ٣٨٢.

وبناءً على هذا فإنّ الجنّة هي مكان أُولي الألباب، ومن الطبيعي أنّ المقصود من العقل هنا: هو المعرفة الحقيقيّة الراسخة وليس ألاعيب الشياطين التي تلاحظ في أعمال وممارسات السياسيين والظالمين والمستكبرين في عالمنا المعاصر. حيث أنّ ذلك كما يقول الإمام الصادق هو (شبيهة بالعقل، وليست بالعقل)[1].

وجاء في بعض الرّوايات، أنّ الدقّة والتشديد في الحساب يوم القيامة تتناسب ودرجة عقل وإدراك الإنسان.

فعن الإمام الباقرعليه السلام، أنّه قال: «**إنّما يداق اللّه العباد في الحساب يوم القيامة على ما آتاهم من العقول في الدنيا**»[2].

---

١ ـ المصدر السابق أعلاه.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٥٣٧.

٥

اسرار الصلاة

﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[١].

طبيعة الصلاة ـ حيث أنّها تذكر بأقوى رادع للنفس، وهو الاعتقاد بالمبدأ والمعاد ـ فإنّها تردع عن الفحشاء والمنكر، فالإنسان الذي يقف للصلاة، ويكبّر، يرى الله أعلى من كل شيء وأسمى من كل شيء، ويتذكر نعمه فيحمده ويشكره، ويثني عليه وينعته بأنّه رحمان رحيم، ويذكر يوم الجزاء «يوم الدين» ويعترف بالعبودية له، ويطلب منه العون، ويستهديه الصراط المستقيم، ويتعوذ به من طريق المغضوب عليهم، ويلتجىء إليه (مضمون سورة الحمد).

فلا شك أنّ قلب مثل هذا الإنسان وروحه سوف تدبّ فيها حركة نحو الحقّ، واندفاع نحو الطهارة، ونهوض نحو التقوى.

يركع لله.. ويضع جبهته على الأرض ساجداً لحضرته، ويغرق في عظمته، وينسى أنانيته وذاتيّاته جميعاً.

ويشهد بوحدانيته وبرسالة النّبيﷺ.

ويصلي ويسلم على نبيّه، ويرفع يديه متضرعاً بالدعاء ليجعله في زمرة عباده الصالحين.

جميع هذه الأُمور تمنح وجوده موجاً من المعنوية، وتكون سداً منيعاً بوجه الذنوب.

ويتكرر هذا العمل عدة مرّات «ليل نهار» فحين ينهض صباحاً يقف بين يدي ربّه وخالقه ليناجيه..

---

١ ـ سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

وعند منتصف النهار وبينما هو غارق في حياته المادية يفاجأ بصوت تكبير المؤذن، فيقطع عمله ويسرع إلى حضرته، بل في آخر النهار بداية الليل أيضاً وقبل أن يدلف إلى فراش الدعة والراحة، يدعوه ويطلب منه حاجته، ويجعل قلبه مركز أنواره.

وبغض النظر عن كل ما تقدم فإنّ الإنسان حين يتهيأ لمقدمات الصلاة، يطهّر بدنه ويبعد عنه مسائل الحرام والغصب، ويتجه إلى الحبيب، فكلّ هذه الأُمور لها تأثير رادع لنوازع الفحشاء والمنكر.

غاية ما في الأمر أنّ كل صلاة ـ بحسب شروط الكمال وروح العبادة ـ لها أثر رادع ناهٍ عن الفحشاء والمنكر، فتارة تنهى نهياً كليّاً وأُخرىٰ جزئياً.. ومحدوداً.

ولا يمكن لأحد أن يصلي ولا تدع الصلاة فيه أثراً حتى لو كانت الصلاة صورية، وحتى لو كان ملوّثاً بالذنب! وبالطبع فإنّ مثل هذه الصلاة قليلة الفائدة ومثل هؤلاء الأفراد لو لم يصلّوا صلاةً كهذه لكانوا أسوأ ممّا هم عليه.

ولنوضّح أكثر فنقول: النهي عن الفحشاء والمنكر له سلسلة درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

في حديث عن ا لنّبي الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله أنّ شاباً من الأنصار أدّىٰ الصلاة معه، ولكنّه كان ملوثاً بالذنوب القبيحة، فأخبروا النّبي صلى الله عليه وآله فقال: «**إن صلاته تنهاه يوماً**»[١].

معيار قبول الصلاة

هذا الأثر للصلاة له أهمية قصوى إلى درجةٍ أنّنا نجده في الرّوايات الإسلامية معياراً لقبول الصلاة وعدمها، إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر؟! فبقدر ما منعته قبلت منه!**»[٢].

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره ومن شأن الصلاة ﴿**ولذكرُ الله أكبر**﴾.[٣]

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة أُخرىٰ فيالصلاة، أي أن أثراً آخر من آثار الصلاة

---

١ ـ تفسير مجمع البيان ذيل الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ سورة العنكبوت : الآية ٤٥.

وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربّه، هذا الذكـر هـو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلي للنهي عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكـر الله، وكونه أكبر لأنّه العلّة والأساس للصلاة!.

وأساساً... فإنّ ذكر الله فيه حياة القلوب ودعتها، ولا شيء يبلغ مبلغه ﴿ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾[1].

ولا ريب أنّ روح العبادة بجميع أقسامها ـ صلاة كانت أم غيرها ـ هو ذكر الله، فأذكار الصلاة، وأفعالها ومقدماتها، جميعها في الواقع تحيي ذكر الله في قلب الإنسان.!

وممّا يلفت النظر أن فيالآية (١٤) من سورة طه إشارة إلى هذه الحكمة الأساسية مـن الصلاة، إذ نلاحظ فيها الخطاب لموسى قائلاً: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾.

في حديث عن معاذ بن جبل أنّه قال: لا شيء من أعمال ابن آدم لنجاته من عذاب الله أكبر من ذكر الله، فسألوه: حتى الجهاد في سبيل الله؟! فقال: أجل، فالله يقول: ﴿ولذكر الله أكبر﴾.

تأثير الصلاة في تربية الفرد والمجتمع:

بالرغم من أن فائدة الصلاة لا تخفى على أحد، لكن التدقيق في متون الروايات الإسلامية يدلنا على لطائف ودقائق أكثر في هذا المجال!.

١ ـ إنّ روح الصلاة وأساسها وهدفها ومقدمتها ونتيجتها... وأخيراً حكمتها وفلسفتها[2]، هي ذكر الله، كما بيّنت في الآية على أنّها أكبر النتائج.

وبالطبع فإنّ الذكر المراد هنا، هو الذكر الذي يكون مقدمة للفكر، والفكر الذي يكون باعثاً على العمل، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير جملة ﴿ولذكر الله أكبر﴾ قال: «ذكر الله عندما أحلّ وحرّم» أي على أن يتذكر الله فيتبع الحلال ويغضي أجفانه عن الحرام.[3]

٢ ـ إنّ الصلاة وسيلة لغسل الذنوب والتطهر منها، وذريعة إلى مغفرة الله، لأنّ الصلاة ـ كيف ما كانت ـ تدعوا الإنسان إلى التوبة وإصلاح الماضي، ولذلك فإننا نقرأ في حديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله إذ سأل بعض أصحابه: «لو كان على باب دار أحدكم نهر واغتسل في كل يوم منه

١ ـ سورة الرعد: الآية ٢٨.

٢ ـ «الفلسفة» كلمة يونانية معناها «الحكمة» فهي ليست عربية لكنّها شاعت في العربية أيضاً.

٣ ـ بحار الأنوار: ٨٢/٢٠٠.

خمس مرات أكان يبقي في جسده من الدرن شيء؟! قلت لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري كلما صلّى كفرت ما بينهما من الذنوب»[١].

وعلى هذا فإنّ الجراح التي تخلفها الذنوب في روح الإنسان، وتكون غشاوة على قلبه، تلتئم بضماد الصلاة وينجلي بها صدأ القلوب!

سدٌّ امام الذنوب

٣ ـ إنّ الصلاة سدّ أمام الذنوب المقبلة، لأنّ الصلاة تقوي روح الإيمان في الإنسان، وتربّي شجيرة التقوى في قلب الإنسان، ونحن نعرف أن الإيمان والتقوى هما أقوى سدّ أمام الذنوب، وهذا هو ما بيّنته الآية المتقدمة عنوان «النهي عن الفحشاء والمنكر»، وما نقرؤه في أحاديث متعددة من أن أفراداً كانوا مذنبين، فذكر حالهم لأئمّة الإسلام فقالوا: لا تكترثوا فإنّ الصلاة تصلح شأنهم... وقد أصلحتهم.

٤ ـ إن الصلاة توقظ الإنسان من الغفلة، وأعظم مصيبة على السائرين في طريق الحقّ أن ينسوا الهدف من إيجادهم وخلقهم، ويغرقوا في الحياة المادية ولذائذها العابرة!

إلّا أنّ الصلاة بما أنّها تؤدى في أوقات مختلفة، وفي كل يوم وليلة خمس مرات، فإنّها تخطر الإنسان وتنذره، وتبيّن له الهدف من خلقه، وتنبهه إلى مكانته وموقعه في العالم بشكل رتيب، وهذه نعمة كبرى للإنسان بحيث أنّها في كل يوم وليلة تحثه وتقول له: كن يقظاً.

التنزيه عن الكبر

٥ ـ إنّ الصلاة تحطّم الأنانية والكبر، لأنّ الإنسان في كل يوم وليلة يصلي سبع عشرة ركعة، وفي كل ركعة يضع جبهته على التراب تواضعاً لله، ويرى نفسه ذرة صغيرة أمام عظمة الخالق، بل يرى نفسه صفراً بالنسبة إلى ما لا نهاية له!.

ولأمير المؤمنين عليعليه السلام كلام معروف تتجسد فيه، فلسفة العبادات الإسلامية بعد الإيمان بالله، فبيّن أوّل العبادات وهي الصلاة مقرونة بهذا الهدف إذ قال: «فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر»[٢].

---

١ ـ وسائل الشيعة: ٣/٧ (الباب الثّاني من أبواب أعداد الفرائض الحديث ٣).

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار ٢٥٢.

٦ ـ الصلاة وسيلة لتربية الفضائل الخُلقية والتكامل المعنوي للإنسان، لأنّها تخرج الإنسان عن العالم المحدود وتدعوه إلى ملكوت السماوات، وتجعله مشاركاً للملائكة بصوته ودعائه وابتهاله، فيرى نفسه غير محتاج إلى واسطة إلى الله أو أن هناك «حاجباً» يمنعه... فيتحدث مع ربّه ويناجيه!.

إن تكرار هذا العمل في اليوم والليلة ـ وبالإعتماد على صفات الله الرحمن الرحيم العظيم، خاصة بالاستعانة بسور القرآن المختلفة بعد سورة الحمد التي هي خير محفّزٍ للصالحات، والطهارة ـ له الأثر في تربية الفضائل الخُلقية في وجود الإنسان!

لذلك نقرأ في تعبير الإمام علي أمير المؤمنينعليه السلام عن حكمتها قوله: «**الصلاة قربان كل تقيّ!**»[1].

عمود الدين

٧ ـ إن الصلاة تعطي القيمة والروح لسائر أعمال الإنسان؛ لأنّ الصلاة توقظ في الإنسان روح الإخلاص... فهي مجموعة من النية الخالصة والكلام الطاهر «الطيب» والأعمال الخالصة... وتكرار هذه المجموعة في اليوم والليلة ينثر في روح الإنسان بذور سائر الأعمال الصالحة ويقوّي فيه روح الإخلاص.

لذلك فإنّنا نقرأ في بعض ما روي عن أمير المؤمنينعليه السلام في ضمن وصاياه المعروفة بعد أن ضربه ابن ملجم بالسيف ففلق هامته، أنّه قال: «**الله الله في صلاتكم فإنها عمود دينكم**»[2].

ونعرف أنّ عمود الخيمة إذا انكسر أو هوى، فلا أثر للأوتاد والطنب مهما كانت محكمة... فكذلك إرتباط عباد الله به عن طريق الصلاة، فلو ذهبت لم يبق لأي عمل آخر أثر.

ونقرأ عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: «**أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل سائر عمله، وإن ردّت ردّ سائر عمله!**»[3].

ولعل الدليل على هذا الحديث هو أن الصلاة رمزٌ للعلاقة والإرتباط بين الخالق والمخلوق! فإذا ما أدّيت بشكل صحيح، وكان فيها قصد القربة والإخلاص «حيّاً» كان وسيلة

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، الجملة ١٣٦.

٢ ـ نهج البلاغة، ومن كتاب له «وصية له» ٤٧.

٣ ـ بحار الانوار: ٢٦٧/٧.

القبول لسائر الأعمال، وإلّا فإنّ بقية أعماله تكون مشوبة وملوّثة وساقطةً من درجة الاعتبار.

٨ ـ إنّ الصلاة ـ بقطع النظر ـ عن محتواها، ومع الإلتفات إلى شرائط صحتها، فإنّها تدعوا إلى تطهير الحياة! لأنّنا نعلم أن مكان المصلي، ولباس المصلي، وبساطه الذي يصلي عليه، والماء الذي يتوضأ به أو يغتسل منه، والمكان الذي يتطهر فيه «وضوء أو غسلاً» ينبغي أن يكون طاهراً من كل أنواع الغصب والتجاوز على حقوق الآخرين. فإنّ من كان ملوّثاً بالظلم والغصب والبخس في الميزان والبيع وآكلاً للرشوة ويكتسب أمواله من الحرام... كيف يمكن له أن يهيء مقدمات الصلاة!؟ فعلى هذا فإنّ تكرار الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة ـ هو نفسه ـ دعوة إلى رعاية حقوق الآخرين!

شروط الكمال

٩ ـ إنّ للصلاة ـ بالإضافة إلى شرائط صحتها ـ شرائط لقبولها، أو بتعبير آخر: شرائط لكمالها، ورعايتها ـ أيضاً ـ عامل مؤثر ومهم لترك كثير من الذنوب!.

وقد ورد في كتب الفقه ومصادر الحديث روايات كثيرة تحت عنوان موانع قبول الصلاة، ومنها «**شرب الخمر**» إذ جاء في بعض الرّوايات: **لا تقبل صلاة شارب الخمر أربعين يوماً إلّا أن يتوب**[1].

كما نقرأ في روايات متعددة أنّ من جملة «**من لا تقبل صلاته «الإمام الظالم»**»[2].

كما صُرّح في بعض الرّوايات بأنّ الصلاة لا تُقبل من «مانع الزكاة».

كما أنّ هناك بعض الرّوايات تقول: «**إنّ الصلاة لا تقبل ممن يأكل السحت والحرام، ولا ممن يأخذه العجب والغرور**» وهكذا تتّضح الحكمة والفائدة الكبيرة من وجود هذه الشروط.

محيي روح الانضباط

١٠ ـ إنّ الصلاة تقوي في الإنسان روح الإنضباط والإلتزام، لأنّها ينبغي أن تؤدى في أوقات معينة، لأنّ تأخيرها عن وقتها أو تقديمها عليه موجب لبطلانها.

---

١ ـ بحار الأنوار: ٣١٧/٨٤ و٣٢٠.

٢ ـ بحار الأنوار: ٣١٨/٨٤.

وكذلك الآداب والأحكام الأُخرىٰ في موارد النية والقيام والركوع والسجود وما شابهها، إذ أن رعايتها تجعل الإستجابة للإلتزام في مناهج الحياة ممكناً وسهلاً.

كل هذه من فوائد الصلاة ـ بغض النظر عن صلاة الجماعة ـ وإذا أضفنا إليها خصوصية الجماعة، حيث أنّ روح الصلاة هي الجماعة، ففيها بركات لا تحصى ولا تعدّ، ولا مجال هنا لشرحها وبيانها، مضافاً الى أن الجميع يدرك خيراتها وفوائدها على الإجمال.

ونختم كلامنا في مجال حكمة الصلاة وفلسفتها وأسرارها بحديث جامع منقول عن الإمام الرضاعليه السلام إذ سئل عنها فأجاب بما يلي: «إن علة الصلاة أنّها إقرار بالربوبيةلله عزّوجلّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يدي الجبار جل جلاله بالذل والمسكنة والخضوع والاعتراف، والطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كل يوم إعظاماً لله عزّوجلّ، وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطر، ويكون خاشعاً متذللاً، راغباً طالباً للزيادة في الدين والدنيا مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله عزّوجلّ بالليل والنهار، لئلا ينسى العبد سيده ومديره وخالقه فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصي ومانعاً له عن أنواع الفساد».[1]

---

١ ـ وسائل الشيعة: ٣/٤.

٦

حضور القلب في الصلاة

القرآن اعتبر الخشوع صفة المؤمنين، وليس إقامة الصلاة، ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[١] إشارة منه إلى أنّ الصلاة ليست مجرّد ألفاظ وحركات لا روح فيها ولا معنى، وإنّما تظهر في المؤمن حين إقامة الصلاة حالة توجّه إلى الله تفصله عن الغير وتلحقه بالخالق، ويغوص في إرتباط مع الله، ويدعوه بتضرّع في حالة تسود جسمه كلّه، فيرى نفسه ذرّة إزاء الوجود المطلق لذات الله، وقطرة في محيط لا نهاية له.

لحظات هذه الصلاة درساً للمؤمن في بناء ذاته وتربيتها، ووسيلة لتهذيب نفسه وسمو روحه.

وقد جاء في حديث عن الرّسول الأكرمﷺ حين شاهد رجلاً يلهو بلحيته وهو يصلّي قوله: «**أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**»[٢].

إشارة منهﷺ إلى أنّ الخشوع الباطني يؤثّر في ظاهر الإنسان. وكان كبار قادة المسلمين يؤدّون صلاتهم بخشوع حتّى تحسبهم في عالم آخر، يذوبون في الله، حيث نقرأ عنهم في حديث عن رسول اللهﷺ «**إنّه كان يرفع بصره إلى السّماء في صلاته، فلمّا نزلت الآية طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض**»[٣].

---

١ ـ سورة المؤمنون: الآية ٢.

٢ ـ تفسير الصافي، وتفسير مجمع البيان، في تفسير الآية موضع البحث.

٣ ـ تفسير مجمع البيان، وتفسير الفخر الرازي، في تفسير الآية موضع البحث.

الخشوع روح الصلاة

إذا اعتبر الركوع والسجود والقراءة والتسبيح جسم الصلاة، فالتوجّه الباطني إلى حقيقة الصلاة، وإلى من يناجيه المصلّي، هو روح الصلاة. والخشوع ما هو إلّا توجّه باطني مع تواضع. وعلى هذا يتبيّن أنّ المؤمنين لا ينظرون إلى الصلاة كجسم بلا روح، بل إنّ جميع توجّههم إلى حقيقة الصلاة وباطنها.

وهناك عدد كبير من الناس يودّ بشوق بالغ أن يكون خاشعاً في صلاته، إلّا أنّه لا يتمكّن من تحقيق ذلك.

ثمانية اوامر لحضور القلب

ولتحقيق الخشوع والتوجّه التامّ إلى الله في الصلاة وفي سائر العبادات، أُوصي بما يلي:

١ ـ نيل معرفة تجعل الدنيا في عين المرء صغيرة تافهة، وتجعل الله كبيراً عظيماً، حتّى لا تشغله الدنيا بما فيها عن الذوبان في الله عند مناجاته وعبادته.

٢ ـ الإهتمام بالأُمور المختلفة يمنع الإنسان من تركيز أفكاره وحواسّه، وكلّما تمكّن الإنسان من التخلّص من مشاغله حصل على توجّه إلى الله في العبادة.

٣ ـ إختيار مكان الصلاة وسائر العبادات له أثر كبير في هذه المسألة، لهذا فإنّ الصلاة مع إنشغال البال بغيرها تعدّ مكروهة، وكذلك في موضع مرور الناس أو قبال المرآة والصورة، ولهذا الأسباب تكون المساجد الإسلامية أفضل إن كانت أبسط بناءً وأقلّ زخرفة وأُبّهة، ليكون التوجّه كلّه لله فاطر السموات والأرض.

٤ ـ إجتناب المعاصي عامل مؤثّر في التوجّه إلى الله، لأنّ المعصية والذنب تبعد الشقّة بين قلب المسلم وخالقه.

٥ ـ معرفة معنى الصلاة وفلسفة حركاتها والذكر عامل مؤثّر كبير على ذلك.

٦ ـ ويساعد على ذلك أداء المستحبّات، سواء كانت قبل الدخول في الصلاة أو في أثنائها.

٧ ـ وعلى كلّ حال فإنّ هذا العمل هو كبقيّة الأعمال الأُخرىٰ يحتاج إلى تمرين متواصل، ويحدث كثيراً أن يحصل الإنسان على قدرة التركيز الفكري في لحظة من لحظات الصلاة، وبمواصلة هذا العمل ومتابعته يحصل على قدرة ذاتية يمكنه بها إغلاق أبواب فكره في أثناء

الصلاة إلّا على خالقه.

وروي عن علي بن الحسين السجادعليه السلام: «أَنَّه كَانَ إذا قَرَأَ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يُكَـرِّرُهَا حَتَّى يَكَادَ أَنْ يَمُوتَ»[1].

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ١/١٩.

٧

القرآن دواء شاف

القرآن يُعتبر وصفة شفاء للذين يريدون محاربة الجهل والكبر والغرور والحسد والنفاق ...
القرآن وصفة شفاء لمعالجة الضعف والذّلة والخوف والإختلاف والفرقة. وكتاب الله الأعظم وصفة شفاء للذين يئنّون مِن مرض حبّ الدنيا والإرتباط بالمادة والشهوة.

والقرآن وصفة شفاء لهذه الدنيا التي تشتعل فيها النيران في كل زاوية، وتئن مِن وطأة السباق في تطوير الأسحلة المدمرة وخزنها، حيثُ وضعت رأسمالها الإقتصادي والإنساني في خدمة الحرب وتجارة السلاح.

وأخيراً فإنَّ كتاب الله وصفة شفاء لإزالة حُجب الشهوات المظلمة التي تمنع مِن التقرب نحو الخالق عزّوجلّ.

نقرأ في سوره يونس قوله تعالىٰ: ﴿قد جاءتكم موعظة مِن ربّكم وشفاء لما في الصدور﴾[1].

وفي سورة فصّلت نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء﴾[2].

ولإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام قول جامع في هذا المجال، حيث يقول عليه السلام في نهج البلاغة: «فاستشفوه مِن أدوائكم واستعينوا به علىٰ لأوائكم، فإنَّ فيه شفاء مِن أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغي والضلال»[3].

---

١ ـ الآية (٥٧)

٢ ـ الآية (٤٤)

٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٦.

وفي مكانٍ آخر نقرأ لإمام المتقين علي عليه السلام قوله واصفاً كتاب الله: «ألا إنَّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي وَدواء دائكم وَنظم ما بينكم».[١]

ماء الحياة

وَفي مقطع آخر يَضُمُّهُ نهج علي عليه السلام، نقرأ وصفاً لكتاب الله يقول فيه عليه السلام: «وعليكم بكتاب الله فإنَّهُ الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والري الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع، مَن قالَ بِهِ صدق، وَمَن عمل به سبق»[٢].

هذه التعابير العظيمة والبليغة، والتي نجد لها أشباهاً كثيرة في أقوال النّبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وفي كلمات الإمام علي عليه السلام الأُخرىٰ والأئمّة الصادقين عليهم السلام، هي دليل يُثبت بدقة ووضوح أنَّ القرآن وصفة لمعالجة كل المشاكل والصعوبات والأمراض، ولشفاء الفرد والمجتمع مِن أشكال الأمراض الأخلاقية والإجتماعية.

روي عن الإمام علي عليه السلام: «إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّها ستكون فتنة!» قلت: فما المخرج منها يا رسول اللّه؟!

قال: «كتاب اللّه فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل مَن تركه من جبار قصمه اللّه، ومَن ابتغى الهُدى في غيره أضله اللّه».[٣]

الشفاء والرحمة

إنَّ أفضل دليل لإثبات هذه الحقيقة هي مقايسة وضع العرب في الجاهلية مع وضع الذين تربوا في مدرسة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في مطلع الإسلام. إنَّ المقايسة بين الوضعين ترينا كيف أنَّ أُولئك القوم المتعطشون للدماء، والمصابون بأنواع الأمراض الإجتماعية والأخلاقية، قد تمّ شفاؤهم ممّا هم فيه بالهداية القرآنية، وأصبحوا برحمة كتاب الله مِن القوّة والعظمة بحيث أنَّ

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٥٨.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٥٨.

٣ ـ تفسير روح المعاني: ٣٠/١٠٠؛ وتفسير المراغي: ٣٠/١١٨؛ عن صحيح الترمذي وسنن الدارمي.

القوىٰ السياسية المستكبرة أنذاك خضعت لهم أعنّتها، وذلت لهم رقابها.

وهذه هي نفس الحقيقة التي تناساها مسلمو اليوم، وأصبحوا علىٰ ما هم عليه مِن واقع بائس مرير غارق بالأمراض والمشاكل ... إنَّ الفرقة قد اشتدت بينهم، والناهبين سيطروا علىٰ مقدراتهم وثرواتهم، مستقبلهم أصبح رهينة بيد الآخرين بعد أن أصيبوا بـالضعف والهـوان بسبب الإِرتباط بالقوىٰ الدولية والتبعية الذليلة لها.

وهذه هي عاقبة من يستجدي دواء علّته من الآخرين الذين هم اسوأ حالاً منه، في حين أن الآخرين، ليأخذ مِنهم علاج الدواء حاضر بين يديه وموجود في مَنزله!

القرآن لا يشفي من الأمراض وحسب، بل إِنّهُ يساعد المرضىٰ علىٰ تجاوز دور النقاهة إِلىٰ مرحلة القوّة والنشاط والإِنطلاق، حيثُ تكون (الرحمة) مرحلة لاحقة لمرحلة (الشفاء).

دواء دون الآثار السلبية

الطريف في الأمر أنَّ الأدوية التي تستخدم لشفاء الإِنسان لها نتائج وتأثيرات عـرضية حتمية لا يمكن توقيها أو الفرار مِنها، حتىٰ أنَّ الحديث المأثور يقول: **«ما مِن دَواء إِلَّا ويهيج داء»**[1].

أمّا هذا الدواء الشافي، كتاب الله الأعظم، فليست لهُ أي آثار عرضية علىٰ الروح والأفكار الإِنسانية، بل علىٰ عكس ذلك كله خير وبركة ورحمة.

وفي واحدة مِن عبارات نهج البلاغة نقرأ في وصف هذا المعنىٰ قول علي عليه السلام: **«شفاء لا تخشىٰ أسقامه»** واصفاً بذلك القرآن الكريم[2].

يكفي أن نتعهد باتباع هذه الوصفة لمدّة شهر، نطيع الأوامر في مجالات العلم والوعـي والعدل والتقوىٰ والصدق وبذل النفس والجهاد ... عندها سنرىٰ كيف ستُحل مشاكلنا بسرعة.

وأخيراً ينبغي القول: إِنَّ الوصفة القرآنية حالها حال الوصفات الأُخرىٰ، لا يمكن أن تعطي ثمارها وأكلها مِن دون أن نعمل بها ونلتزمها بدقة، وإِلَّا فإِنَّ قراءة وصفة الدواء مائة مرَّة لا تغني عن العمل بها شيئاً!!

---

١ ـ اصول الكافي: ٨/٢٧٣.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٨.

رسوخ القرآن في القلوب المستعدّة

والتأريخ الإسلامي مليء بالشواهد علىٰ التأثير العجيب للقرآن في قلوب المؤمنين، وحتىٰ غير المؤمنين من أصحاب القلوب المستعدة لتقبل الإيمان، فالجاذبية أو النفوذ الخارق للقرآن دليل واضح على أنّ القرآن كتاب نزل من السماء بواسطة الوحي.

وقد ورد حديث عن (أسماء)، جاء فيه:

كان أصحاب النّبي إذا قرىء عليهم القرآن ـ كما نعتهم الله ـ تدمع أعينهم و تقشعر جلودهم[١].

أمير المؤمنينعليه السلام وصف هذه الحقيقة بأفضل وجه في الخطبة الخاصة بالمتقين، إذ قال: **«أمّا الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أنّ زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم»**[٢].

لقد كان لآيات الكتاب العزيز تأثير بالغ ونفوذ سريع في أفئدة المسلمين الأوائل، فما إن سمعوا آيات جديدة النزول، إلّا وظهر هذا التأثير على سلوكهم ومواقفهم وتصرفاتهم، ونذكر من باب المثال ما نقرأه في كتب التفسير والتاريخ الإسلامي.

نماذج من رسوخ القرآن

١ ـ كان «أبو طلحة» أكثر أنصاري المدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت **﴿لن تنالوا البر حتّى تنفقوا ممّا تحبون﴾**[٣] قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن الله يقول: لن تنالوا البر حتّى تنفقوا ممّا تحبون وأن أحب أموالي إلي بيرحاء، وأنها صدقة لله أرجو برها وذخرها

---

١ ـ تفسير القرطبي: ٥٦٩٣/٨ .

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣ .

٣ ـ سورة آل عمران: الآية ٩٢ .

عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال رسول الله ﷺ: بخ بخ ذلك مال رابح لك وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. قال أبو طلحة: افعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[١].

٢ ـ أضاف أبو ذر الغفاري ضيفاً، فقال للضيف: إني مشغول، وأن لي إيلاً فاخرج وآتني بخيرها، فذهب فجاء بناقة مهزولة، فقال أبو ذر: خنتني بهذه، فقال: وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إن يوم حاجتي إليه ليوم اوضع في حفرتي، مع أن الله يقول:

﴿لن تنالوا البر حتّى تنفقوا ممّا تحبون[٢]﴾[٣].

٣ ـ كان لزبيدة زوجة هارون الرشيد مصحف ثمين جدّاً، قد زينت غلافه بأغلى أنواع المجوهرات والأحجار الكريمة وكانت تحبه حباً شديداً وتعتز به أكبر إعتزاز، وفيما هي تتلو القرآن في ذلك المصحف ذات يوم وإذا بها مرت على قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتّى تنفقوا ممّا تحبون﴾[٤] فتأملت فيه، وغاصت في معناه وتأثرت بندائه فقالت في نفسها: «إنه ليس هناك ما هو أحب إلي من هذا المصحف المزين الثمين فلأنفقه في سبيل الله»، فأرسلت إلى باعة الجواهر وباعت جواهره وأحجاره الكريمة عليهم ثمّ هيأت بثمنها آباراً وقنوات من الماء في صحراء الحجاز ليشرب منه سكان الصحراء وينتفع به المسافرون، ويقال أن بقايا هذه الآبار لا تزال باقية وتدعى باسمها عند الناس[٥].

---

١ ـ تفسير مجمع البيان وصحيح مسلم والبخاري كتاب التفسير باب ما جاء في سورة آل عمران، وبرحاء موضع كان لأبي طلحة بالمدينة.

٢ ـ سورة آل عمران: الآية ٩٢.

٣ ـ تفسير مجمع البيان: ٤٧٤/٢.

٤ ـ سورة آل عمران: الآية ٩٢.

٥ ـ راجع تفسير أبي الفتوح الرازي: ١٥٧/٣ في تفسير الآية ٩٢ من سورة آل عمران.

٨

آداب تلاوة القرآن

كل شيء يحتاج الى برنامج معين ولا يستثنىٰ كتاب عظيم ـ كالقرآن الكريم ـ من هذه القاعدة، لذلك فقد ذكر في القرآن بعض الآداب والشروط لتلاوة كلام اللّه والإستفادة من آياته:

١ ـ يقول تعالىٰ أوّلاً: **﴿لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾**[١]، ويمكن أن يشير هذا التعبير إلىٰ الطهارة الظاهرية، كأن يكون مس كتابة القرآن مشروط بالطهارة والوضوء، وكذا الإشارة إلىٰ إمكان تيسر الوصول لفهم محتوىٰ آيات القرآن من خلال تطهير النفس من الرذائل الأخلاقية، لأنّ الصفات القبيحة تمنع من مشاهدة جمال الحق باعتبارها حجاباً مظلماً بين الإنسان والحقائق.

وفي المسّ الظاهري نقلت روايات لأهل البيت عليهم السلام عن أبي الحسن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: (**المصحف لا تمسّه على غير طهر، ولا جنب، ولا تمسّ خطّه ولا تعلّقه، إنّ الله تعالى يقول: ﴿لا يمسّه إلّا المطهّرون[٢]﴾**[٣].

ونقل نفس المعنى في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام مع إختلاف مختصر[٤].

وجاء في مصادر أهل البيت عليهم السلام من طرق مختلفة أنّ الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يمسّ

---

١ ـ سورة الواقعة: الآية ٧٩.

٢ ـ سورة الواقعة: الآية ٧٩.

٣ ـ وسائل الشيعة: ١/٢٦٩، الحديث (٣) وطبقاً لهذا الحديث فإنّ النفي في الآية أعلاه كناية عن النهي.

٤ ـ وسائل الشيعة: ١/٢٧٠، الحديث ٥.

القرآن إلّا الطاهر»[١].

وحول اللمس المعنوي نقل عن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**﴿إنّه لقرآن كريم * في كتاب مكنون﴾**[٢] قال: «**عند الله في صحف مطهّرة**» **﴿لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾**[٣] قال: «**المقرّبون**»[٤].

وهذا المعنى يمكن الإستدلال عليه بواسطة العقل أيضاً، لأنّه رغم أنّ القرآن الكريم هو كتاب هداية لعموم الناس، ولكنّنا نعلم أنّ الكثير ممّن سمعوا القرآن من فم النّبي الأكرم، ورأوا هذا الماء الزلال في عين الوحي الصافية، إلّا أنّهم بسبب تلوّثهم بالعصبية والعناد والغرور لم يؤثّر فيهم أي تأثير ولم ينتفعوا به أقلّ إنتفاع، وهناك أشخاص اهتدوا به لمجرّد أنّهم سعوا ولو قليلاً لتطهير أنفسهم وتهذيبها وجاءوا إلى القرآن بروح باحثة عن الحقّ والحقيقة، فعلى هذا كلّما إزدادت طهارة وتقوى الإنسان فإنّه مرشّح لإستيعاب المفاهيم القرآنية بصورة أعمق، ومن هنا فإنّ الآية تصدق في البعدين (المادّي والمعنوي) و (الجسمي والروحي).

وممّا لا شكّ فيه أنّ شخص الرّسول ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام والملائكة المقرّبين هم أوضح مصداق للمقرّبين الذين أدركوا حقائق القرآن الكريم بصورة متميّزة عن الجميع.

الإستعاذة بالله

٢ ـ يجب الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل الشروع بتلاوة آيات اللّه ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾[٥].

وعندما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن طريقة العمل بهذا القول، يروىٰ أنّه قال: «**قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم**».

وفي رواية أُخرىٰ، عند تلاوته عليه السلام لسورة الحمد قال: «**أعوذ بالله السميع العليم**

---

١ ـ نقل هذا الحديث في تفسير الدر المنثور عن عبدالله بن عمر ومعاذ بن جبل وابن حزم الأنصاري عن رسول الله ﷺ: ٩/١٦٢.

٢ ـ سورة الواقعة: الآية ٧٨ ـ ٧٧.

٣ ـ سورة الواقعة: الآية ٧٩.

٤ ـ تفسير الدر المنثور: ٦/١٦٢.

٥ ـ سورة النحل: الآية ٩٨.

من الشيطان الرجيم وأعوذ بالله أنْ يحضرون».

وكما قلنا، فإنّ التلفظ ـ فقط ـ في الإستعاذة لا يغني من الحق شيئاً، مالم تنفذ الإستعاذة إلىٰ أعماق الروح بشكل ينفصل فيه الإنسان عند التلاوة عن إرادة الشيطان، ويقترب من الصفات الإلٰهية، لترتفع عن فكره موانع فهم كلام الحق، وليرىٰ جمال الحقيقة بوضوح تام.

فالإستعاذة بالله من الشيطان ـ إذنْ ـ لازمة قبل الشروع بالتلاوة، ومستمرّة مع التلاوة إلىٰ آخرها وإنْ لم يكن ذلك باللسان.

الترتيل في القراءة

٣ ـ تجب القراءة ترتيلاً، أي مع التفكّر والتأمّل ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾[١].

وفي تفسير هذه الآية روي عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «إنَّ القرآن لا يُقرأ هذرمةً ولكنْ يرتل ترتيلاً، إذا مررت بآية فيها ذكر النّار وقفت عندها وتعوّذت بالله من النّار»[٢].

في تفسير «مجمع البيان» «نقل عن النّبيصلى الله عليه وآله وسلم أنّه أمر ابن عباس: «إذا قرأت القرآن فرتلْه ترتيلاً» فسألته: وما الترتيل؟ قال: «بينه تبييناً ولا تنثره نثر الدقل ولا تهزه هزَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكونن همُّ أحدكم آخر السورة».[٣]

و هناك رواية بهذه المضمون رواه الشيخ الكليني في «أصول الكافي» عن أمير المؤمنين عليعليه السلام.[٤]

و نقل أيضاً عن الإمام الصادقعليه السلام «الترتيل أن تتمكث به وتحسن به صوتك، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فتعوّذ بالله من النار، وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فاسأل الله الجنّة».[٥]

وفي رواية أُخرىٰ عنهعليه السلام: «هو أن تتمكث فيه وتحسن به صوتك»[٦].

---

١ ـ سورة المزمل: الآية ٤.

٢ ـ بحار الأنوار: ٨٩/١٠٦.

٣ ـ تفسير مجمع البيان: ١٧٠/٧ ذيل الآيات ٣٤ ـ ٣٠ من سورة الفرقان .

٤ ـ أصول الكافي: ٤٤٩/٢ (باب ترتيل القرآن بالصوت الحسن).

٥ ـ مجمع البحرين مادة رتل.

٦ ـ تفسير مجمع البيان : ١٠ /٣٧، اصول الكافي: ٤٤٩/٢ (باب ترتيل القرآن بالصوت الحسن) .

وقد نقل عن حالات النّبي ﷺ أنّه كان يقطع قراءته آية آية، ويمدُّ صوته مدّاً[١].

التدبّر و التفكّر

٤ ـ وقد ورد الأمر بالتدبّر والتفكّر في القرآن إضافةً إلىٰ الترتيل. حيث جاء في سورة النساء: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾[٢].

وعن أبي عبدالرحمن السلمي قال: حدثنا مَنْ كان يُقرئنا من الصحابة أنّهم كانوا يأخذون من رسول اللّه ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأُخَر حتىٰ يعلموا ما في هذه من العلم والعمل[٣].

وفي حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»[٤].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لقد تجلّىٰ اللّه لخلقه في كلامه ولكنّهم لا يبصرون»[٥].

ولكنّ ذوي الضمائر الحيّة والعلماء المؤمنين، يستطيعون رؤية جماله المتجلّي في كلامه جل وعلا.

اعجب احوال النّبي

عن «عطاء بن رباح» قال: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ قالت: وأي شأن لم يكن عجباً، أنّه أتاني ليلة فدخل معي في لحافي ثمّ قال: ذريني أتعبد لربّي، فقام فتوضأ ثمّ قام يصلي، فبكى حتى سالت دموعه على صدره فركع فبكى، ثمّ سجد فبكى، ثمّ رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم لا أفعل وقد أنزل عليّ هذه الليلة: ﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات

---

١ ـ تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات ٥ ـ ١ من سورة المزمّل.

٢ ـ الآية (٨٢).

٣ ـ بحار الأنوار: ٩٢/١٠٦.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ بحار الأنوار: ٩٢/١٠٧.

لأُولي الألباب﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿سبحانك فقنا عذاب النّار﴾ ثمّ قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[١].

والعبارة الأخيرة التي تأمر الجميع ـ بتأكيد كبير ـ بأن يفكروا في هذه الآيات، وقد رويت في روايت عديدة بعبارات مختلفة.

تؤكّد آيات القرآن المختلفة علىٰ حقيقة أنّ هذا الكتاب السماوي العظيم ليس للتلاوة وحسب، بل إنّ الهدف النهائي منه هو الذكر، والتدبّر في عواقب الأُمور، والإنذار، وإخراج البشر من الظلمات، والشفاء والرحمة والهداية.

فنقرأ في الآية (٥٠) من سورة الأنبياء: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾.

وفي الآية (٢٩) من سورة ص: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته﴾.

وجاء في الآية (١٩) من سورة الأنعام: ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾.

وتقول الآية الأولىٰ من سورة إبراهيم: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور﴾.

وأخيراً، جاء في الآية (٨٢) من سورة الإسراء: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾.

ولهذا، فإنّ القرآن الكريم يجب أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين، ويكون في صميمها لا علىٰ هامشها، وعليهم أن يجعلوه قدوتهم وأسوتهم، وأن ينفذوا كلّ أوامره، وأن يجعلوا خطوط حياتهم وطبيعتها منسجمة معه.

شكوى الرسول صلى الله عليه وآله

يتناول القرآن الكريم حزن وشكاية الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بين يدي الله عزّوجلّ من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فيقول: ﴿وقال الرّسول يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾[٢].

قول الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من

---

١ ـ تفسير الدر المنثور: ٢/١١١، وتفسير أبي الفتوح الرازي في ذيل الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.

٢ ـ سورة الفرقان: الآية ٣٠.

المسلمين، يشكو بين يدي الله أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الذي هو رمز الحياة ووسيلة النجاة، القرآن الذي هو سبب الإنتصار والحركة والترقي، القرآن الممتلىء ببرامج الحياة، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الإستجداء إلى الآخرين، حتىٰ في القوانين المدنية والجزائية.

إلى الآن، لو تأملنا في وضع كثير من البلدان الإسلامية، خصوصاً أُولئك الذين يعيشون تحت هيمنة الشرق والغرب الثقافية، لوجدنا أنّ القرآن بينهم كتاب للمراسم والتشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، ويستخدمونه في زخرفة المساجد بعنوان الفن المعماري، ولافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، وشفاء مريض، وعلى الأكثر للتلاوة من أجل الثواب.

ويستدلون بالقرآن، أحياناً وغايتهم إثبات أحكامهم المسبّقة الخاطئة من خلال الإستعانة بالآيات، وبالإستفادة من المنهج المنحرف في التّفسير بالرأي.

في بعض البلدان الإسلامية، هناك مدارس في طول البلاد وعرضها بعنوان: مدارس «تحفيظ القرآن» وفريق عظيم من الأولاد والبنات مشغولون بحفظ القرآن، في الوقت الذي تؤخذ أفكارهم عن الغرب حيناً، وعن الشرق حيناً آخر، وتؤخذ قوانينهم وقراراتهم من الأجانب، أمّا القرآن فغطاء لمخالفاتهم فقط.

نعم، اليوم أيضاً يصرخ النبيﷺ: **﴿يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾**. مهجوراً من ناحية لبّه ومحتواه، متروكاً من ناحية الفكر والتأمل، ومهملاً من ناحية برامجه البناءَة.

اذكار مبهمة

لكنّ، جماعة من المسلمين ـ مع الأسف الشديد ـ لا يتعاملون مع القرآن إلّا علىٰ أنّه مجموعة أوراد وأذكار، فهم يتلونه جميعاً تلاوةً مجرّدة، ويهتمون أشدّ الإهتمام بالتجويد ومخارج الحروف وحسن الصوت، وأكثر شقاء المسلمين وتعاستهم يكمن في أنّهم أخرجوا القرآن عن كونه دستوراً جامعاً لحياة البشر، واكتفوا بترديد ألفاظه، وقنعوا بذلك.

لكن، ينبغي أن لا ننسىٰ أنّ الإستفادة من القرآن تحتاج إلىٰ نوع من تهذيب النفس وجهادها، وإن كان القرآن بنفسه معيناً في تهذيبها، لأنّ القلوب إذا كانت مقفلة بأقفال الهوىٰ

والشهوة، والكبر والغرور، واللجاجة والتعصّب، فسوف لا يلجها نور الحق، وقد أشارت الآيات القرآنيّة إلىٰ هذا المعنىٰ.

تقسيم الناس قبال آيات القرآن

قسم يكرسون اهتمامهم علىٰ أداء الألفاظ بشكل صحيح وعلىٰ قواعد التجويد، ويشغل ذهنهم دوماً الوقف والوصل والإدغام والغنّة في التلاوة، ولا يهتمون إطلاقاً بمحتوى القرآن فما بالك بالعمل به! وهؤلاء بالتعبير القرآني ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[1].

وقسم يتجاوز إطار الألفاظ، ويتعمق في المعاني، ويدقّق في الموضوعات القرآنية، ولكن لا يعمل بما يفهم!

الفريق الثالث

وقسم ثالث، وهو المؤمنون حقّاً، يقرأون القرآن باعتباره كتاب عمل، ومنهجاً كاملاً للحياة، ويعتبرون قراءة الألفاظ والتفكير في المعاني وإدراك مفاهيم الآيات الكريمة مقدمة للعمل، ولذلك تصحو في نفوسهم روح جديدة كلما قرأوا القرآن، وتتصاعد في داخلهم عزيمة وإرادة واستعداد جديد للأعمال الصالحة، وهذه هي التلاوة الحقة.

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير الآية ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته اولئك يؤمنون به و من يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾[2]: «يُرَتِّلُونَ آيَاتِهِ، وَيَتَفَقَّهُونَ بِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهِ، وَيَرْجُونَ وَعْدَهُ، وَيَخَافُونَ وَعِيدَهُ، وَيَعْتَبِرُونَ بِقَصَصِهِ، ويَأْتَمِرُونَ بِأَوَامِرِهِ، وَيَنْتَهُونَ بِنَوَاهِيهِ، مَا هُوَ وَاللهِ حفظُ آيَاتِهِ وَدَرسُ حُرُوفِه، وَتِلَاوَةُ سُوَرِهِ وَدَرسُ أَعْشَارِهِ وَأَخْمَاسِهِ[3]، حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَأَضَاعُوا حُدُودَهُ، وإِنَّمَا هُوَ تَدَبُّرُ آيَاتِهِ وَالْعَمَلُ بِأَرْكَانِهِ، قَالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[4]».

ومن الطريف أنّ هناك رواية وردت عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسير ذيل الآية: ﴿فاقرؤوا

---

١ ـ سورة الجمعة: الآية ٥.

٢ ـ سورة البقرة: الآيات ١٢١ ـ ١٢٠.

٣ ـ المقصود من الأعشار والأخماس تقسيمات القرآن.

٤ ـ تفسير الميزان، نقلاً عن إرشاد الديلمي.

ما تيسر منه﴾[١] رواها عن جدّه ﷺ: «ما تيسّر منه لكم فيه خشوع القلب وصفاء السر»[٢]، لم لا يكون كذلك والهدف الأساس للقراءة هو التعليم والتربية.

الادب الخامس واجب المستمعين

٥ ـ علىٰ الذين يستمعون إلىٰ تلاوة القرآن أنْ ينصتوا إليه بتفكّر وتأمّل ﴿**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلّكم ترحمون**﴾[٣].

كما نقل الزّهري أنّه لما كان النّبي يقرأ القرآن، كان شاب من الأنصار يقرأ معه القرآن بصورت مرتفع، فالآية نزلت ونهت عن ذلك.

وقد إختلف في أن الإنصات والسكوت هنا في الآية، هل هو عند قراءة القرآن في جميع الموارد؟ أم هو منحصر وقت الصلاة وعند قراءة إمام الجماعة؟ أم هو عندما يقرأ إمام الجمعة ـ في خطبة الصلاة ـ القرآن؟

كما أنّ هناك أحاديث شتى في هذا الصدد في كتب الفريقين. والذي يستفاد من ظاهر الآية أن هذا الحكم عام غير مختص بحال ما ولا وقت معيّن. إلّا أنّ الرّوايات المتعددة الواردة عن الأئمّة الطاهرين، بالإضافة إلى إجماع العلماء واتفاقهم على عدم وجوب الإستماع عند قراءة القرآن في أية حال، يُستدل من ذلك على أن هذا الحكم بصورة كليّة حكم استحبابي، أي ينبغي إن قُرىء القرآن – حيثما كان، وكيف كان ـ أن يستمع الآخرون وينصتوا احتراماً للقرآن، لأنّ القرآن ليس كتاب قراءة فحسب، بل هو كتاب فهم وإدراك، ثمّ هو كتاب عمل أيضاً.

وهذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجة أنّ بعض الرّوايات عبّرت عنه بالوجوب.

إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**يجب الإنصات للقرآن في الصّلاة وفي غيرها وإذا قرىء عندك القرآن وجب عليك الإنصات والإستماع**»[٤].

---

١ ـ سورة المزمّل: الآية ٢٠.

٢ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠/٣٨٢.

٣ ـ سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

٤ ـ تفسير البرهان: ٢/٥٧.

حتى أنّه يستفاد من بعض الرّوايات أن لو كان إمام الجماعة مشغولاً بالقراءة في الصلاة، وقرأ شخص آخر آية من القرآن فيستحب للإمام السكوت حتى ينهي قراءة الآية، ثمّ يكمل الإمام قراءته.

سكوت الامام علي عليه السلام

ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ أميرالمؤمنين عليّاً عليه السلام كان مشغولاً بصلاة الصبح، وكان ابن الكوّا ـ ذلك المنافق الفظّ القلب ـ خلف الإمام مشغولاً بالصلاة، فقرأ فجأة **﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من الخاسرين﴾**[١] وكان هدفه من قراءة الآية أن يعترض على الإمام عليّ مكنيّاً عن قبول الحكم في صفين ـ كما احتملوا ذلك ـ لكن الإمام سكت احتراماً للقرآن حتى ينتهي ابن الكوّا من قراءة الآية، ثمّ رجع الإمام إلى قراءته فأعاد ابن الكوا عمله مرّة ثانية، فسكت الإمام أيضاً، فكرر ابن الكوّا القراءة ثالثة فسكت علي عليه السلام أيضاً، ثمّ تلا قوله تعالى: **﴿فاصبر إنّ وعدَ الله حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون﴾**[٢] وهو يشير إلى أن عذاب الله وعقابه الأليم في إنتظار المنافقين وغير المؤمنين، وينبغي أن يتحمل الإنسان أذاهم، ثمّ أن الإمام أكمل السورة وهوىٰ إلى الركوع[٣].

ويستفاد من مجمع ما تقدّم، ولا سيما من البحث آنف الذكر، أن الإستماع والسكوت عند قراءة آيات القرآن أمر حسن جدّاً إلّا أنّه بشكل عام غير واجب... ولعلّ جملة **﴿لعلّكم ترحمون﴾** إضافة إلى الرّوايات والإجماع، تشير إلى استجباب هذا الحكم أيضاً.

كلام من فاضل المقداد

ولا بأس أن نذكر الملاحظة التي بيّنها الفقيه المعروف الفاضل المقداد السيوري في كتابه «كنز العرفان» إذ فسّر الآية **﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلّكم ترحمون﴾**[٤].

---

١ ـ سورة الزّمر: الآية ٦٥.

٢ ـ سورة الروم: الآية ٦٠.

٣ ـ تفسير البرهان: ٥٦/٢.

٤ ـ سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

تفسيراً آخر فقال: إنّ المراد من الآية هو الإصغاء للآيات وإدراك مفاهيمها والإذعان لإعجازها.

ولعل هذا التّفسير كان بسبب أنّ الآية السابقة كانت تتكلم عن المشركين، إذ كانوا يتذرعون بحجج واهية في شأن نزول القرآن، فالقرآن يقول لهم: فاستمعوا وانصتوا لعلكم تعرفون الحق[1].

وليس هناك مانع من أن نعتبر مفهوم الآية واسعاً بحيث يشمل جميع الكفار والمسلمين، فغير المسلمين عليه أن يستمع وينصت للقرآن ويفكر فيه حتى يؤمن فينال رحمة ربّه، والمسلم عليه أن يستمع ويدرك مفهوم الآي ويعمل به لينال رحمة ربّه، لأنّ القرآن كتاب إيمان وعلم وعمل للجميع، لا لطائفة خاصّة أو فريق معين.

الصوت الحسن

وثمة أحاديث شريفة تحث علىٰ قراءة القرآن بصوت حسن، لما له من فعل مؤثر في تحسّس مفاهيمه.

ونقرأ في حديث عن النّبي ﷺ: «**حسّنوا القرآن بأصواتكم فإنّ الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً**» وقرأ ﴿**يزيد في الخلق ما يشاء**﴾[2].[3]

---

١ ـ كنزالعرفان: ١/١٩٥.

٢ ـ سورة فاطر: الآية ١.

٣ ـ كنزل العمال: رقم الحديث ٢٧٦٥.

٩

ذكر الله

«الذكر» هو ذكر الشيء باللسان أو القلب، لذلك قالوا: إنّ الذكر نوعين «ذكر القلب» و «ذكر اللسان» وكلّ واحد منها على نوعين: بعد النسيان أو بدونه.

وليس المقصود من الذكر الذي تطمئنّ به القلوب هو ذكر الله باللسان فقط فنقوم بتسبيحه وتهليله وتكبيره، بل المقصود هو التوجّه القلبي له وإدراك علمه وبأنّه الحاضر والناظر، وهذا التوجّه هو مبدأ الحركة والعمل والجهاد والسعي نحو الخير، وهو سدّ منيع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذي له الآثار والبركات كما أشارت إليه عدّة من الرّوايات.

ثلاث لا تطيقها هذه الأمّة

من وصايا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم للإمام علي عليه السلام يقول له:

«ياعلي، ثلاث لا تطيقها هذه الأمّة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كلّ حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عزّوجلّ عنده وتركه»[١].

وقال الإمام علي عليه السلام: «الذكر ذكران: ذكر الله عزّوجلّ عند المصيبة، وأفضل من ذلك ذكر الله عندما حرّم الله عليك فيكون حاجزاً»[٢].

---

١ ـ سفينة البحار: مادة (ذكر).

٢ ـ المصدر السّابق.

ذكر الله او الجنّة من النّار

ولهذا السبب إعتبرت بعض الرّوايات الذكر وقاية ووسيلة دفاعية، كما ورد عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «إنّ النّبيصلى الله عليه وآله خاطب أصحابه يوماً فقال لهم: اتّخذوا جُنناً، فقالوا يارسول الله أمن عدو وقد أظلنا؟ قال: لا، ولكن من النار، قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر»[١].

نقرأ في حديث عن أبي ذرّ أنّه قال: دخلت المسجد فأتيت النّبيصلى الله عليه وآله ... فقال لي: «عليك بتلاوة كتاب الله وذكر الله كثيراً فإنّه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض»[٢].

وفي حديث آخر عن النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله أنّه قال لأصحابه: «ألا أُخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلونهم ويقتلونكم؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: ذكر الله كثيراً»[٣].

افضل العباد درجة يوم القيامة

أجل .. لمّا كانت عوامل الغفلة في الحياة المادية كثيرة جدّاً، وسهام وسوسة الشياطين ترمى من كلّ جانب صوب الإنسان، فلا طريق لمحاربتها إلّا بذكر الله الكثير.

إنّ «الذكر الكثير» ـ بالمعنى الواقعي للكلمة ـ يعني التوجّه إلى الله سبحانه بكلّ الوجود، لا بلقلقة اللسان وحسب.

«الذكر الكثير» هو الذي يقذف النور في كلّ أعمال الإنسان، ويغمرها بالضياء، ولهذا فإنّ القرآن أمر كلّ المؤمنين في هذه الآية أن يذكروا الله على كلّ حال:

فاذكروه أثناء العبادة، فاحضروا قلوبكم وأخلصوا فيها.

واذكروه عند إقدامكم على المعصية وتجنّبوها وإذا ما بدرت منكم عثرة وهفوة فبادروا إلى التوبة، وارجعوا إلى طريق الحقّ.

---

١ ـ المصدر السّابق.

٢ ـ الخصال، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٢٥٧/٤.

٣ ـ سفينة البحار: مادة (ذكر).

واذكروه عند النعم واشكروه عليها.

واذكروه عند البلايا والمصائب واصبروا عليها وتحمّلوها.

والخلاصة: لا تنسوا ذكره في كلّ مشهد من مشاهد الحياة والإبتعاد عن سخطه، والتقرّب لما يجلب رضاه.

ونطالع في حديث مروي في «سنن الترمذي» و«مسند أحمد» عن أبي سعيد الخدري عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: أنّه سئل: **أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ فقال: «الذاكرون الله كثيراً».**

قال أبو سعيد: فقلت: يارسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟! قال: **«لو ضرب بسيفه في الكفّار والمشركين حتّى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون أفضل درجة منه»**[1]، وذلك لأنّ الجهاد المخلص لا يمكن أن يتمّ بدون ذكر الله الكثير.

ذكر الله حتى الموت

في حديث عن معاذ بن جبل أنّه قال: **لا شيء من أعمال ابن آدم لنجاته من عذاب الله أكبر من ذكر الله، فسألوه: حتى الجهاد في سبيل الله؟! فقال: أجل، فالله يقول: ﴿ولذكر الله أكبر﴾**[2].

والظاهر أنّ «معاذ بن جبل» سمع هذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه وآله: لأنّه نفسه ينقل إنّه سأل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **أيّ الأعمال أفضل؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»**[3].

كما جاء عنه عليه السلام أنه قال: **من أشدّ مافرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً... ثمّ قال عليه السلام: «لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، وإن كان منه، ولكن ذكر الله عِنْدَما أحلّ وحرّم! فإن كان طاعةً عمل بها، وإن كان معصيةً تركها!»**.[4]

---

١ ـ تفسير الدر المنثور، طبقاً لنقل تفسير الميزان: ٣٥٣/١٦.

٢ ـ سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

٣ ـ بحار الانوار: ٢٠/٩٢.

٤ ـ تفسير نور الثقلين: ٧٣/٤، نقلاً عن اصول الكافي.

رياض الجنّة

لا ينبغي أن يتصوّر أنّ المراد من ذكر الله بكلّ هذه الفضيلة هو الذكر اللساني فقط، بل قد صرّحت الروايات الإسلامية أنّ المراد منه إضافة لما مرّ هو الذكر القلبي والعملي، أي أنّ الإنسان يذكر الله عندما يواجه حراماً فيتركه.

إنّ الهدف أن يجعل الإنسان الله نصب عينيه دائماً، ويشعر بحضوره وشهادته الدائمة، وأن يغمر نور الله كلّ حياته، فيفكّر فيه ويذكره دائماً، ولا يغفل عن أوامره بل يطيعها.

إنّ مجالس الذكر ليست تلك المجالس التي يجتمع فيها جماعة من المغفّلين ويشرعون في الطعام والشراب، وتتخلّل مجالسهم تلك مجموعة من الأذكار المخترعة، والبدع التي يروجونها، فقد ورد في حديث أنّ النبي ﷺ قال: «**بادروا إلى رياض الجنّة، قالوا: وما رياض الجنّة؟ قال: حلق الذكر**»[1]، والمراد منها الحلقات التي تُحيا فيها العلوم الإسلامية، وتطرح البحوث التربوية التي تؤدّي إلى تهذيب الناس وتطهير المذنبين وتدفعهم إلى سبيل الله.

عبادة لا حدّ لها

ورد في الروايات الإسلامية أنّ لكلّ شيء حدّاً، إلّا ذكر الله فإنّه لا حدّ له!

يقول الإمام الصادق عليه السلام في الرواية التي وردت في أُصول الكافي: «**ما من شيء إلّا وله حدّ ينتهي إليه، إلّا الذكر فليس له حدّ ينتهي إليه**».

ثمّ يضيف: «**فرض الله عزّوجلّ الفرائض، فمن أدّاهنّ فهو حدّهنّ، وشهر رمضان فمن صامه فهو، والحجّ فمن حجّ حدّه، إلّا الذكر، فإنّ الله عزّوجلّ لم يرض منه بالقليل، ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ثمّ تلا: ﴿ياأيّها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرةً وأصيلاً﴾[2]**»[3].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام في ذيل هذه الرواية: «**وكان أبي كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنّه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وإنّه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك**

---

١ ـ سفينة البحار: ١/٤٨٦، مادة (ذكر).

٢ ـ سورة الاحزاب: الآية ٤١.

٣ ـ اصول الكافي، المجلّد الثّاني، كتاب الدعاء. باب ذكر الله عزّوجلّ كثيراً.

عن ذكر الله».

وأخيراً ينتهي هذا الحديث الغني المحتوى بهذه الجملة: «والبيت الذي يقرأ فيه القرآن، ويذكر الله عزّوجلّ فيه تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّي لأهل الأرض»[١].

ظلّ الله في الجنّة

إنّ هذا الموضوع من الأهميّة بمكان بحيث عُدّ «ذكر الله» في حديث يعدل خير الدنيا والآخرة، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من أُعطي لساناً ذاكراً فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة»[٢].

عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «من أكثر ذكر الله عزّوجلّ أظلّه الله في جنّته»[٣].

كيف يطمئن القلب بذكر الله؟

إنّ الإضطراب والقلق من أكبر المصاعب في حياة الناس، والنتائج الحاصلة منهما في حياة الفرد والمجتمع واضحة للعيان، والإطمئنان واحد من أهمّ إهتمامات البشر، وإذا حاولنا أن نجمع سعي وجهاد الإنسانية على طول التأريخ في بحثهم للحصول على الإطمئنان بالطرق الصحيحة غير الصحيحة، فسوف تتكوّن لدينا كتب كثيرة ومختلفة تعرض تلك الجهود.

يقول بعض العلماء: عند ظهور بعض الأمراض المُعدية ـ كالطاعون ـ فإنّ من بين العشرة الأفراد الذين يموتون بسبب المرض ـ ظاهراً ـ أكثرهم يموت بسبب القلق والخوف، وعدّة قليلة منهم تموت بسبب المرض حقيقة. وبشكل عام «الإطمئنان» و «الإضطراب» لهما دور مهمّ في سلامة ومرض الفرد والمجتمع وسعادة وشقاء الإنسانية، وهذه مسألة لا يمكن التغافل عنها، ولهذا السبب أُلّفت كتب كثيرة في موضوع القلق وطرق التخلّص منه، وكيفيّة الحصول على الراحة، والتاريخ الإنساني مليء بالمواقف مؤسفة لتحصيل الراحة، وكيف أنّ الإنسان يتشبّث بكلّ وسيلة غير مشروعة كأنواع الإعتياد على المواد المخدّرة لنيل

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

الإطمئنان النفسي.

ولكن القرآن الكريم يبيّن أقصر الطرق من خلال جملة قصيرة ولكنّها كبيرة المعنى حيث يقول: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾!

ولتوضيح هذا المعنى ومعرفة عوامل القلق والإضطراب لابدّ من ملاحظة ما يلي:

عوامل القلق والاضطراب

١ ـ يحدث الإضطراب مرّةً بسبب ما يجول في فكر الإنسان عن المستقبل المظلم، فيحتمل زوال النعمة، أو الأسر على يد الأعداء، أو الضعف والمرض، فكلّ هذه تؤلم الإنسان، لكن الإيمان بالله القادر المتعال الرحمن الرحيم، الله الذي تكفّل برحمة عباده .. هذا الإيمان يستطيع أن يمحو آثار القلق والإضطراب ويمنحه الإطمئنان في مقابل هذه الأحداث ويؤكّد له أنّك لست وحيداً، بل لك ربّ قادر رحيم.

٢ ـ ومرّةً يشغل فكر الإنسان ماضيه الأسود فيمسي قلقاً بسبب الذنوب التي إرتكبها وبسبب التقصير والزلّات، ولكن بالنظر إلى أنّ الله غفّار الذنوب وقابل التوبة وغفور رحيم، فإنّ هذه الصفات تمنح الإنسان الثقة وتجعله أكثر إطمئناناً وتقول له: إعتذر إلى الله من سوالف أعمالك السيّئة واتّجه إليه بالنيّة الصادقة.

٣ ـ ضعف الإنسان في مقابل العوامل الطبيعيّة، أو مقابل كثرة الأعداء يؤكّد في نفسه حالة القلق وأنّه كيف يمكن مواجهة هؤلاء القوم في ساحة الجهاد أو في الميادين الأُخرىٰ؟

ولكنّه إذا تذكّر الله، وإستند إلى قدرته ورحمته .. هذه القدرة المطلقة التي لا يمكن أن تقف أمامها أيّة قدرة أُخرىٰ، سوف يطمئنّ قلبه، ويقول في نفسه: نعم إنّني لست وحيداً، بل في ظلّ القدرة الإلهيّة المطلقة!

فالمواقف البطولية للمجاهدين في ساحات القتال، في الماضي أو الحاضر، وشجاعتهم النادرة حتّى في المنازلة الفردية لهم، كلّها تبيّن حالة الإطمئنان التي تنشأ في ظلّ الإيمان.

نحن نشاهد أو نسمع أنّ أحد الضبّاط المؤمنين فقد بصره مثلاً أو أصابته جراحات كثيرة بعد قتال شديد مع أعداء الإسلام ولكن عندما يتحدّث كأنّه لم يكن به شيء، وهذه نتيجة الإستقرار والطمأنينة في ظلّ الإيمان بالله.

٤ ـ ومن جانب آخر يمكن أن يكون أصل المشقّة هي التي تؤذي الإنسان، كالإحساس

بتفاهة الحياة أو اللاهدفية في الحياة، ولكن المؤمن بالله الذي يعتقد أنّ الهدف من الحياة هو السير نحو التكامل المعنوي والمادّي، ويرى أنّ كلّ الحوادث تصبّ في هذا الإطار، سوف لا يحسّ باللاهدفيّة ولا يضطرب في المسيرة.

٥ ـ ومن العوامل الأُخرىٰ أنّ الإنسان مرّةً يتحمّل كثيراً من المتاعب للوصول إلى الهدف، ولكن لا يرى من يُقيّم أعماله ويشكر له هذا السعي، وهذه العملية تؤلمه كثيراً فيعيش حالة من الإضطراب والقلق، وأمّا إذا علم أنّ هناك من يعلم بهذا السعي ويشكره عليه ويثيبه، فليس للإضطراب والقلق هنا محل من الإعراب.

٦ ـ سوء الظنّ عامل آخر من عوامل الإضطراب والذي يصبّ كثيراً من الناس في حياتهم ويبعث فيهم الألم والهمّ، ولكنّ الإيمان بالله ولُطفه المطلق وحُسن الظنّ به التي هي من وظائف الفرد المؤمن سوف تزيل عنه حالة العذاب والقلق وتحلّ محلّها حالة الإطمئنان والإستقرار.

٧ ـ الهوى وحبّ الدنيا من أهمّ عوامل القلق والإضطراب، وقد تصل الحالة في عدم الحصول على لون خاص في الملبس، أو أي شيء آخر من مظاهر الحياة البرّاقة أن يعيش الإنسان حالة من القلق قد تستمر أيّاماً وشهوراً.

ولكن الإيمان بالله وإلتزام المؤمن بالزهد والإقتصاد وعدم الإستئسار في مخالب الحياة المادية ومظاهرها البرّاقة ينهي حالة الإضطراب هذه، وكما قال الإمام علي عليه السلام: «**دُنياكم هذه أهون عندي من ورقة في فمّ جرادة تقضمها**[1]» فمن كانت له مثل هذه الرؤية كيف يمكن أن تحدث عنده حالة الخوف والقلق نتيجة لعدم الحصول على شيء من وسائل الحياة الماديّة أو فقدانها؟!

٨ ـ من العوامل المهمّة الأُخرىٰ الخوف من الموت، وبما أنّ الموت لا يحصل فقط في السنّ المتأخّرة، بل في كافّة السنين وخصوصاً أثناء المرض والحروب، والعوامل الأُخرىٰ فالقلق يستوعب كافّة الأفراد. ولكن إذا إعتقدنا أنّ الموت يعني الفناء ونهاية كلّ شيء (كما يعتقده المادّيون) فإنّ الإضطراب والقلق في محلّه، ولابدّ أن يخاف الإنسان من هذا الموت الذي يُنهي عنده كلّ الآمال والأماني والطموحات. ولكن الإيمان بالله يمنحنا الثقة بأنّ الموت

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

هو باب لحياة أوسع وأفضل من هذه الحياة، وبرزخ يمرّ منه الإنسان إلى دار فضاؤها رحب، فلا معنى للقلق حينئذ، بل إنّ مثل هذا الموت ـ إذا ما كان في سبيل الله يكون محبوباً ومطلوباً.

إنّ عوامل الإضطراب لا تنحصر بهذه العوامل، فهناك عوامل كثيرة أُخرىٰ، ولكن كلّ مصادرها تعود إلى ما ذكرناه أعلاه.

وعندما رأينا أنّ كلّ هذه العوامل تذوب وتضمحلّ في مقابل الإيمان بالله سوف نصدّق أنّه **﴿ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾**[١].

قصّة من الشيخ عبدالله الشوشتري

جاء في أحوال الشيخ والعالم الكبير «عبدالله الشوشتري» وهو من معاصري العلّامة «المجلسي» أنّه كان يحبّ ولده كثيراً، فاتّفق أنّه مرض مرضاً شديداً، فلمّا حضر أبوه المرحوم الشيخ عبدالله إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة كان مشدوه البال مشتّت الشعور ـ وحينما بلغ قوله تعالى: **﴿ياأيّها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾**[٢] أخذ يكرّرها مرّات عديدة، وحينما سئل بعد الفراغ عن سبب ذلك قال: لقد تذكّرت ولدي حينما بلغت هذا المقطع من السورة، فجاهدت نفسي وروّضتها بتكرار هذه الآية إلى الحدّ الذي اعتبرته ميّتاً وكأنّ جثمانه أمامي فانصرفت من الآية[٣].

اذكار النّبي ﷺ

بدأت دعوة النّبي ﷺ باسم اللّه وذكره: **﴿اقرأ باسم ربّك﴾**[٤].

واستمرت حياة الرّسول مقرونة في كلّ حال بذكر اللّه... اقترن الذكر بأنفاسه... بقيامه... بجلوسه... بنومه... بمشيه... بركوبه... بترجله... بتوقفه... كان كلّه باسم اللّه.

عندما كان يستيقظ يقول: «**الحمد للّه الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**».

يقول ابن عباس: بتّ ليلة مع النّبي، وعندما استيقظ رفع رأسه إلى السماء، وتلا الآيات

---

١ ـ سورة الرعد: الآية ٢٨.

٢ ـ سورة المنافقون: الآية ٩.

٣ ـ سفينة البحار: ١٣١/٢، مادة (عبد).

٤ ـ سوره العلق: الاية ٢.

العشر الأخيرة من سورة آل عمران: ﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار...﴾ ثمّ قال: «اللّهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ..اللّهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت...».

حين كان يخرج من البيت يقول: «بسم اللّه، توكلت على اللّه، اللّهم إنّي أعوذ بك أن أضِلّ، أو أضَل، أو أزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل، أو يُجهل عليَّ».

وحين يرد المسجد يقول: «أعوذ باللّه العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم».

وحين يرتدي لباساً جديداً يقول: «اللّهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما صنع له».

وحين يعود إلى المنزل يقول: «الحمد للّه الذي كفاني وأواني، والحمد للّه الذي أطعمني وسقاني».

وقد ورد في سيرة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه ما وضع رجله في الركاب إلّا وقال: «الحمد لله»، وإذا ما استوى على ظهر الدابّة فإنّه يقول: «الحمد لله على كلّ حال، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون»[1].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام أنّه رأى رجلاً ركب دابّة فقال: سبحان الذي سخّر لنا هذا، فقال له: «ما بهذا أُمرت، أُمرت أن تقول: «الحمد لله الذي هدانا للإسلام، الحمد لله الذي منّ علينا بمحمّد، والحمد لله الذي جعلنا من خير أمّة أخرجت للناس، ثمّ تقول: سبحان الذي سخّر لنا هذا»[2]، إشارة إلى أنّ الآية لم تأمر بأن يقال: سبحان الذي سخّر لنا هذا، بل أمرت أوّلاً بذكر نعم الله العظيمة: نعمة الهداية إلى الإسلام، نعمة نبوّة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، نعمة جعلنا في زمرة خير أُمّة، ثمّ تسبيح الله على تسخيره لما نركب!

فضل التسبيح والتكبير والتهليل

جاء في الحديث أنّ جمعاً من الفقراء ذهبوا إلى رسول الله وقالوا: «يارسول الله، إنّ

---

١ ـ تفسير الفخر الرازي: ١٩٩/٢٧.

٢ ـ المصدر السابق.

للأغنياء ما يتصدّقون وليس لنا ما نتصدّق ولهم ما يحجّون وليس لنا ما نحجّ ولهم ما يعتقون وليس لنا ما نعتق.

فقال ﷺ: «من كبّر مائة مرّة كان أفضل من عتق رقبة، ومن سبّح الله مائة مرّة كان أفضل من مائة فرس في سبيل الله يسرجها ويلجمها. ومن هلّل الله مائة مرّة كان أفضل الناس عملاً في ذلك اليوم إلّا من زاد».

فبلغ ذلك الأغنياء فقالوه. فرجع الفقراء إلى النبي فقالوا: يارسول الله قد بلغ الأغنياء ما قلت فصنعوه، فقال ﷺ: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾، (وهذه إشارة إلى أنّ ذلك لأمثالكم فإنّكم مشتاقون إلى الإنفاق ولا تملكون ما تنفقون)[1].

وقد ورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه طلب من رسول الله ﷺ توضيح معنىٰ كلمة (مقاليد) فقال رسول الله ﷺ: «يا علي، لقد سئلت عن عظيم المقاليد، هو أن تقول عشراً إذا أصبحت، وعشراً اذا أمسيت، لا إله الاّ الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله واستغفر الله ولا قوة إلا بالله (هو) الأوّل والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد (يحيي و يميت) بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير»[2].

ثم أضاف: «من قالها عشراً إذا أصبح، وعشراً إذا أمسى، أعطاه الله خصالاً ستاً... أوّلها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان».

أمّا من ردد هذه الكلمات بصورة سطحية فإنّه ـ حتماً ـ لا يستحق كل، هذه المكافآت، فيجب الإيمان بمحتواها والتخلق بها.

فضل سورة التوحيد

ورد عن رسول اللّه ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»؟ قيل: يا رسول اللّه ومن يطيق ذلك؟

قال: «اقرأوا قل هو اللّه أحد»[3].

---

١ ـ تفسير مجمع البيان : ٢٨٤/١٠.

٢ ـ تفسير القرطبي : ٥٧١٩/٨، وتفسير أبوالفتوح الرازي: ٤١٧/٩ (مع اختصار ذيل الحديث).

٣ ـ تفسير نور الثقلين: ٧٠٥/٥ الحديث ٤٢، نقلاً عن تفسير مجمع البيان.

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال: «إنّ رسول اللّه صلّى على سعد بن معاذ. فلمّا صلّى عليه قال: لقد وافى من الملائكة سبعون ألف ملك، وفيهم جبرائيل يصلون عليه. فقلت: يا جبرائيل بم استحق صلاتهم عليه؟ قال: بقراءة قل هو اللّه أحد قاعداً وقائماً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً».[1]

وعن الإمام الصادقعليه السلام أيضاً قال: «من مضىٰ به يوم واحد فصلىٰ فيه الخمس صلوات ولم يقرأ فيها بقل هو اللّه أحد، قيل له: يا عبد اللّه لست من المصلين».[2]

وعن رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم قال: «من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يدع أن يقرأ في دبر الفريضة بقل هو اللّه أحد. فإنّه من قرأها جمع له خير الدنيا والآخرة وغفر اللّه له ولوالديه وما ولدا»[3].

إنّ بعض الرّوايات أشارت إلى ذكر «يافتّاح» في الأدعية لحلّ بعض المعضلات، لأنّ هذا الإسم الإلهي العظيم وهو بصيغة المبالغة من الفتح ـ يدلّل على قدرة الله على حلّ أي مشاكل ورفع أي حسرة وغمّ، وتهيئة أسباب أي فتح ونصر، وفي الواقع فإنّه هو وحده (الفتّاح)، ومفتاح كلّ الأبواب المغلقة في يد قدرته تعالى.

ذكر اليونسيّة

نقلت الآية (٨٧) في سورة الأنبياء صورة توجّه يونسعليه السلام بالدعاء الذي يسمّيه أهل العرفان باليونسية، قال تعالى: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين﴾.

أي إنّه نادى من بطن الحوت بأن لا معبود سواك، وأنّني كنت من الظالمين، إذ ظلمت نفسي وإبتعدت عن باب رحمتك.

إعتراف يونس الخالص بالظلم، وتسبيحه الله المرافق للندم أدّى مفعوله، إذ إستجاب الله له وأنقذه من الغمّ، كما جاء في الآية (٨٨) من سورة الأنبياء، ﴿فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين﴾.

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٧٠٠، الحديث ١٢؛ نقلاً عن كتاب ثواب الأعمال.

٢ ـ المصدر السابق، ص ٦٩٩، الحديث ١.

٣ ـ تفسير مجمع البيان: ٥٦١/١٠.

لا حول ولا قوّة الا بالله

(عوف بن مالك) وهو أحد أصحاب الرّسول ﷺ الذي أُسر إبنه فجاء يشكو هذا الحادث وفقر حاله وضيق ذات يده إلى الرّسول فنصحه رسول الله بقوله: «اتّق الله واصبر، وأكثر من قول «لا حول ولا قوّة إلّا بالله» ففعل ذلك وفجأة بينما هو جالس في بيته دخل عليه ولده، فتبيّن أنّه قد استغفل الأعداء وفرّ من قبضتهم وجاء بجمل معه منهم.[1]

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٤٣/١٠.

١٠

التقوىٰ

إنّ القرآن جعل أكبر امتياز للتقوىٰ، وعدّها معياراً لمعرفة القيم الإنسانية فحسب!

وعدّها خير الزاد إذ يقول: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوىٰ﴾[١].

وفي سورة الأعراف قد عبّر عنها باللباس: ﴿ولباس التقوىٰ ذلك خير﴾[٢].

كما أنّه عبّر عنها في آيات أُخر بأنّها واحدة من أُوَل أسس دعوة الأنبياء، ويسمو بها في بعض الآيات إلىٰ أن يعبّر عن الله بأنّه أهل التقوىٰ فيقول: ﴿هو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة﴾[٣].

والقرآن يعدّ التقوىٰ نوراً من الله، فحيثما رسخت التقوىٰ كان العلم والمعرفة إذ يقول: ﴿واتقوا الله ويعلّمكم الله﴾[٤].

ويقرن التقوىٰ بالبرّ في بعض آياته فيقول: ﴿وتعاونوا علىٰ البرّ والتقوىٰ﴾[٥].

أو يقرن العدالة بالتقوىٰ فيقول: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ﴾[٦].

حقيقة التقوىٰ

والآن ينبغي أن نرىٰ ما هي «حقيقة التقوىٰ» التي هي أعظم رأس مال معنوي وافتخار للإنسان.

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ١٩٧.

٢ ـ سورة الأعراف: الآية ٢٦.

٣ ـ سورة المدّثر: الآية ٥٦.

٤ ـ سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

٥ ـ سورة المائدة : الآية ٢ .

٦ ـ سورة المائدة : الآية ٨.

أشار القرآن إشارات تكشف أستاراً عن حقيقة التقوىٰ، فيذكر في آيات متعدّدة «القلب» مكاناً للتقوىٰ، ومن ضمنها قوله تعالىٰ: **﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ﴾**[1].

ويجعل القرآن «التقوىٰ» في مقابل «الفجور» كما نقرأ في سورة الشمس: **﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾**[2].

ويعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان والإخلاص والنية الصادقة أساسه التقوىٰ، كما جاء في وصفه في شأن «مسجد قبا» (في المدينة) حيث بنىٰ المنافقون في قباله «مسجد ضرار» فيقول: **﴿لمسجد أُسس علىٰ التقوىٰ من أوّل يوم أحقُّ أن تقوم فيه﴾**[3].

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ التقوىٰ هي الإحساس بالمسؤولية والتعهّد الذي يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجةً لرسوخ إيمانه في قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنب ويدعوه إلىٰ العمل الصالح والبر ويغسل أعمال الإنسان من التلوّثات ويجعل فكره ونيّته في خلوص من أية شائبة.

وحين نعود إلىٰ الجذر اللغوي لهذه الكلمة نصل إلىٰ هذه النتيجة أيضاً لأنّ «التقوىٰ» مشتقّة من «الوقاية» ومعناها المواظبة والسعي علىٰ حفظ الشيء، والمراد في هذه الموارد حفظ النفس من التلوّث بشكل عام، وجعل القوىٰ تتمركز في أمور يكون رضا الله فيها:

المراحل الثلاثة للتقوىٰ

وقد ذكر بعض الأعاظم للتقوىٰ ثلاث مراحل:

١ ـ حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الإعتقادات الصحيحة.

٢ ـ تجنّب كلّ إثم وهو أعم من أن يكون تركاً لواجب أو فعلاً لمعصية.

٣ ـ التجلّد والإصطبار عن كلّ ما يشغل القلب ويصرفه عن الحقّ، وهذه تقوىٰ الخواص بل خاص الخاص[4].

وفي نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام تعابير حيّة وبليغة في شأن التقوىٰ، حيث

---

١ ـ سورة الحجرات: الآية ٣.

٢ ـ الآية (٨).

٣ ـ سورة التوبة: الآية ١٠٨.

٤ ـ بحار الأنوار: ١٢٦/٧٠.

ذكرت التقوىٰ في كثير من خطب الإمام وكلماته القصار!

ففي بعض كلماته يقارن عليه السلام بين التقوىٰ والذنب فيقول: **«ألا وإنّ الخطايا خيل شُمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النّار ألا وإنّ التقوىٰ مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنّة»**(١).

وطبقاً لهذا التشبيه اللطيف فإنّ التقوىٰ هي حالة ضبط النفس والتسلّط علىٰ الشهوات، في حين أنّ عدم التقوىٰ هو الإستسلام للشهوات وعدم التسلّط عليها.

ويقول الإمام علي في مكان آخر: **«اعلموا عباد الله أنّ التقوىٰ دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه ألا وبالتقوىٰ تقطع حمة الخطايا»**(٢).

ويضيف في مكان آخر أيضاً: **«فاعتصموا بتقوىٰ الله فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروتهُ ومعقلاً منيعاً ذروتهُ»**(٣).

كان لقمان يقول لإبنه: **«يابني، إنّ الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله، واجعل شراعها التوكّل على الله، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك»**(٤).

ونقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كما في تفسير الدرّ المنثور، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام كما في تفسير العيّاشي ومعاني الأخبار ـ في تفسير قوله: ﴿**حق تقاته**﴾(٥) أنهما قالا: **«أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى (ويشكر فلا يكفر)»**.

يقول الامام عليّ عليه السلام: **«اِنَّ تَقْوىٰ اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ من كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ»**(٦).

وتتّضح حقيقة التقوىٰ وروحها من خلال مجموع التعبيرات آنفة الذكر.

---

١ ـ نهج البلاغة الخطبة رقم ١٦.

٢ ـ نهج البلاغة الخطبة ١٥٧.

٣ ـ نهج البلاغة الخطبة ١٩٠.

٤ ـ تفسير مجمع البيان: ٣١٦/٨، ذيل الآية ١٣ ـ ١٢ من سوره لقمان.

٥ ـ سورة آل‌عمران: الآية ٢.

٦ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٠.

وينبغي الإلتفات إلىٰ هذه «اللطيفة» وهي أنّ التقوىٰ ثمرة شجرة الإيمان، ومن أجل الحصول علىٰ هذه الثمرة النادرة والغالية ينبغي أن تكون قاعدة الإيمان راسخة ومُحكمة!

التقوىٰ فوق الإيمان

وبالطبع فإنّ ممارسة الطاعة وتجنّب المعصية والإلتفات إلىٰ المناهج الأخلاقية تجعل التقوىٰ راسخة في النفس، ونتيجتها ظهور نور اليقين والإيمان في نفس الإنسان، وكلّما إزداد نور التقوىٰ إزداد نور اليقين أيضاً، ولذلك نجد التقوىٰ في بعض الروايات الإسلامية علىٰ أنّها درجة أعلىٰ من الإيمان وأدنىٰ من اليقين!

يقول الإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام: **«الإيمان فوق الإسلام بدرجة والتقوىٰ فوق الإيمان بدرجة واليقين فوق التقوىٰ بدرجة وما قسم في الناس شيء أقلّ من اليقين»**[1].

ونختتم بحثنا بأبيات تجسّد حقيقة التقوىٰ ضمن مثال جلي:

خلّ الذنوب صَغيرها — وكبيرها فهو التقىٰ
واصنع كماش فوق أرض — الشوك يحذر ما يرىٰ
لا تحقرنّ صغيرةً — إنّ الجبال من الحصىٰ

خطبة النّبي صلى الله عليه وآله في مكّة

ونقرأ في بعض الروايات الإسلامية أنّ النّبي صلى الله عليه وآله خطب يوماً في مكّة فقال:

«يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برّ تقي كريم علىٰ الله وفاجر شقي هيّن علىٰ الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالىٰ: ﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير﴾»[2].

وقد جاء في كتاب «آداب النفوس» للطبري أنّ النّبي صلى الله عليه وآله التفت إلىٰ الناس وهو راكب علىٰ بعيره في أيّام التشريق بمنىٰ «وهي اليوم الحادي عشر والثّاني عشر والثّالث عشر» من

---

١ ـ بحار الأنوار ١٣٦/٧٠.

٢ ـ تفسير القرطبي: ٦١٦١/٩.

ذي الحجة فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربي علىٰ عجمي ولا لعجمي علىٰ عربي ولا لأسود علىٰ أحمر ولا لأحمر علىٰ أسود إلّا بالتقوىٰ ألا هل بلّغت: قالوا نعم! قال: ليبلغ الشاهد الغائب»[١].

كما ورد في حديث آخر بهذا المعنىٰ ضمن كلمات قصيرة ذات معاني غزيرة أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الله لا ينظر إلىٰ أحسابكم ولا إلىٰ أنسابكم ولا الىٰ أجسامكم ولا إلىٰ أموالكم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه وإنّما أنتم بنو آدم وأحبّكم إليه أتقاكم»[٢].

حلّال المشاكل

جاء في حديث عن أبي ذرّ الغفاري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّي لأعلم آية لو أخذها بها الناس لكفتهم ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾[٣] فما زال يقولها ويعيدها»[٤].

وفي حديث آخر عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير هذه الآية أنّه قال: «من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، وشدائد يوم القيامة»[٥].

صفات المتّقين

في نهج البلاغة ضمن الخطبة المعروفة بخطبة همّام، ذلك الرجل الزاهد العابد الذي طلب من أمير المؤمنين عليه السلام أنْ يصف له المتقين، حيث اكتفىٰ أمير المؤمنين عليه السلام بذكر الآية المباركة من مجموع القرآن وقال: ﴿إتق اللّه وأحسن إنّ اللّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون[٦]﴾[٧].

---

١ ـ المصدر السابق، ص٦١٦٢، والتعبير «بالأحمر» في هذه الرواية لا يعني من بشرته حمراء بل من بشرته حنطيّة لأنّ أغلب الناس في ذلك المحيط كانوا بهذه الصفة ومن الطريف أن يطلق الأحمر علىٰ الحنطة أيضاً.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ سورة الطلاق : الآية ٢.

٤ ـ تفسير مجمع البيان : ٣٠٦/١٠.

٥ ـ تفسير نور الثقلين : ٣٥٦/٥، الحديث ٤٤.

٦ ـ سورة النمل : الآية ١٢٨.

٧ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

ولكنّ السائل العاشق للحقّ لم يروَ عطشه بهذا البيان المختصر، ممّا اضطر الإمامعليه السلام أنْ يعرض له بياناً أكثر تفصيلاً حتىٰ استخرجت من فمه الشريف أكمل خطبة في وصف المتقين، حوت علىٰ أكثر من مائة صفة لهم، إلاّ أنّ جوابه المختصر يبيّن أنّ الآية المباركة مختصر جامع لكل صفات المتقين.

«أمّا الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً، يحزنون بـه أنـفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نـفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أنّ زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم»[١].

التقوىٰ والوعي

لقد بيّن القرآن الكريم آثاراً كثيرة للتقوى، ومن جملتها إزالة الحجب عن فكر الإنسـان وقلبه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى إرتباط «الإيمان والتقوى» مع «البصيرة» منها قوله تـعالى: **﴿ياأيّها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾**[٢].

إنّ هذه الجملة الموجزة والكبيرة في معناها قد بيّنت إحدى أهم المسائل المـؤثره فـي مصير الإنسان، وهي أنّ درب الإنسان نحو النصر محفوف دائماً بالمصاعب والحفر فإذا لم يبصرها جيداً ويحسنُ معرفتها واتقاءها فسيسقط فيها لامحالة، فأهم مسألة في هذا الطريق هي معرفة الحق والباطل، معرفة الحسن والقبيح، معرفة الصديق والعـدو، مـعرفة الفـوائـد والأضرار، معرفة عوامل السعادة والضياع، فإذا استطاع الإنسان معرفة هذه الحقائق جيداً فسيسهل عليه الوصول إلى الهدف.

إنّ المشكلة التي تعترض الانسان غالباً هي خطأه في تشخيص الباطل واختياره على الحق، وإنتخاب العدوّ بدل الصديق، وطريق الضلال بدل طريق الهداية، وهنا يحتاج الإنسان إلى بصر وبصيرة قويّة، ووضوح رؤية. إنّ هذه الآية المباركة تقول: إنّ هذه البـصيرة ثـمرة لشجرة التقوىٰ.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

٢ ـ سورة الأنفال: الآية ٢٩.

أمّا كيف تعطي هذه التقوى البصيرة للإنسان؟ فقد يكون الأمر مبهماً لدى البعض، لكن قليلاً من الدقّة والتأمل كافية لتوضيح العلاقة الوثيقة بين هذين الإثنين، ولإيضاح ذلك نقول:

أوّلاً: إنّ قوّة عقل الإنسان تستطيع إدراك الحقائق بقدر كاف، ولكن ستائر من الحرص والطمع والشهوة وحبّ النفس والحسد، والحبّ المفرط للمال والأزواج والأولاد والجاه والمنصب كل ذلك يغدُوّ كالدخان الأسود أمام بصيرة العقل، أو كالغبار الغليظ الذي يملأ الآفاق، وهنا لا يمكن للإنسان معرفة الحق والباطل في أجواء مظلمة، أمّا إذا غسل تلك الغشاوة بماء التقوى وانقشع ذلك الدخان الأسود، عند ذاك تسهل عليه رؤية نور الحق.

ثانياً: أنّنا نعلم أنّ كل كمال في أي مكان إنّما هو قبس من كمال الحق، وكلّما اقترب الإنسان من الله فإنّ نور الكمال المطلق سينعكس في وجوده أكثر، وعلى ذلك فإنّ أي علم ومعرفة فهو نبع من علمه ومعرفته تعالى، وكلّما تقدّم الإنسان في ظلال التقوىٰ وترك المعاصي من الله، ذابت قطرة وجوده في بحر وجود العظيم أكثر، وسيحصل على مقدار أكثر من العلم والمعرفة.

وبعبارة أُخرىٰ فإنّ قلب الإنسان كالمرآة، ووجود الله كالشمس الساطعة على الوجود، فإذا تلوثت مرآة قلبه من الأهواء حتى اسودت، فسوف لا تعكس النور، فإذا تمّ جلاؤها بالتقوىٰ وزال الدرن عنها، فإنّ تلك الشمس الوضاءة الساطعة ستنعكس فيها وتنير كل مكان.

ولذلك فإنّنا نرى على مدىٰ التأريخ بعض النساء والرجال المتّقين يملكون وضوحاً من الرؤية لا يمكن بلوغه بوسائل العلم والمعرفة أبداً، فهم يرون أسباب الكثير من الحوادث التي تعصف بالمجتمع غير المرئية، ويرون وجود أعداء الحق وإن حجبتها آلاف الستائر الخادعة.

المؤمن ينظر بنور الله

وهذا الأثر العجيب للتقوىٰ في معرفة الواقع، جاء ذكره في الكثير من الرّوايات والآيات الأُخرىٰ، ففي سورة البقرة تقول الآية: ﴿اتقوا الله ويعلمكم الله﴾[1]، وجاء في الحديث المعروف: «المؤمن ينظر بنور الله»[2].

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

٢ ـ بحار الأنوار: ٣٢٣/٧ و ١٢٣/٢٤.

وفي نهج‌البلاغة في قصار الكلم: «**أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع**»[١].

ثالثاً: بالتحليل العقلي يمكن فهم العلاقة الوثيقة بين التقوى وإدراك الحقائق أيضاً، لأنّ المجتمعات التي تسير في دروب الفساد والرذيلة وأجهزة الإعلام فيها تطبل لذلك الميسر، والصحافة والراديو والتلفزيون كلها تدعو للتلوث والإنحراف وخدمة الفساد، فمن البديهي أن يصعب على الناس تمييز الحق من الباطل، الجيد من الرديء، ونتيجة الأمر، فإنّ إنعدام التقوى يكون سبباً لفقدان القدرة على هذه المعرفة أو سوء المعرفة.

ومثال آخر: فإنّ عائلة غير متقيّة، وصغارها يشبون في محيط ملوث بالفساد والرّذيلة، فمن العسير على هؤلاء في المستقبل تمييز الجيد من الرديء، وإهدار القوى والطاقات في الذنوب يتسبب بقاء الناس على مستوىً دانٍ من البصيرة والمعرفة وانحطاط في التفكير حتىٰ وإن كانوا متقدمين في الصناعة والحياة المادية.

وبناءً على ما تقدم فإنّنا نرى أنّ ادنىٰ انحراف عن التقوى يسبب نوعاً من العمىٰ وسوء المعرفة، لذلك نرى في العالم الصناعي اليوم مجتمعات متقدمة جدّاً في العلم والصناعة، ولكنّها في حياتها اليومية مصابة بأمراض ومشاكل شديدة تبعث على الإستغراب والتعجب، وهنا تتجلىٰ عظمة ما قاله القرآن الكريم.

تقوى الفكر

ونظراً إلى أنّ التقوى لا تنحصر بالتقوى في العمل، بل تشمل التقوى في الفكر والعقل، فإنّ هذه الحقيقة تتّضح بصورة أجلى. فالتقوى في الفكر تعني مواجهة التسيّب وعدم الإنضباط في التفكير، بمعنى أن نبحث في دراساتنا وتحقيقاتنا عن أصح الأدلة وأوثق البراهين، وأن لا نلتزم بعقيدة دون التحقيق الكافي والدقة اللازمة.

والذين يراعون التقوى ويلتزمونها في تفكيرهم سيبلغون النتائج الصحيحة أسرع بكثير ممن لا يلتزم بها، كما أنّ الخلط والخطأ يكثر عند من لايتقي الله في استدلالاته وأسلوب تفكيره.

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢١٩.

ولإدراك هذا الحديث نصغي لما قاله الإمام علي عليه السلام: «لا دين مع هوى، لا عقل مع هوى، من اتّبع هواه أعماه وأصمّه، وأذلّه وأضلّه»(١).

وهناك أمر آخر يجب الإنتباه إليه، لأنّ الكثير من مفاهيمنا الإسلامية قد تعرضت للتشويه بين المسلمين، وهو أنّ الكثير من الناس يتصور أنّ الإنسان المتقي هو الذي يكثر من غسل بدنه ولباسه ويعتبر كل فرد وكل شيء نجساً ومشكوكاً فيه، وينزوي جانباً متجنباً الخوض في الأُمور الإجتماعية، ويسكت أمام كل واقعة، فهذه النظرات المغلوطة عن التقوىٰ والمتقين في الحقيقة إحدىٰ عوامل انحطاط المجتمعات الإسلامية، لأنّ هذه التقوىٰ لا تنتج معرفة ولا وضوح رؤية ولا تكون فرقاناً بين الحق والباطل.

---

١ ـ غرر الحكم: ٦/٣٦٢.

١١

الدعاء

الدعاء باعتباره أحد وسائل الإرتباط بين العباد والمعبود سبحانه. القرآن الكريم يخاطب النّبيﷺ وتقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

إنه أقرب ممّا تتصورون، أقرب منكم إليكم، بل ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1].

ثم تقول الآية: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

إذن ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2].

ويلفت النظر في الآية، أن الله سبحانه أشار إلى ذاته المقدسة سبع مرات، وأشار إلى عباده سبعاً! مجسداً بذلك غاية لطفه وقربه وإرتباطه بعباده.

فلسفة الدعاء

أُولئك الجاهلون بحقيقة الدعاء وآثاره التربويّة والنفسية، يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

١ ـ يقولون: الدعاء عامل مخدّر، لأنه يصرف النّاس عن الفعّالية والنشاط وعن تطوير الحياة، ويدفعهم بدلاً من ذلك إلى التوسّل بعوامل غيبية.

٢ ـ ويقولون: إن الدعاء تدخّل في شؤون الله، والله يفعل ما يريد، وفعله منسجم مع مصالحنا، فما الداعي إلى الطلب منه والتضرّع إليه؟!

---

١ ـ سورة ق: الآية ١٦.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ١٨٦.

٣ ـ ويقولون أيضاً: إنّ الدعاء يتعارض مع حالة الإنسان الراضي بقضاء الله المستسلم لإرادته سبحانه!

هؤلاء، ـ كما ذكرنا ـ يطلقون هذا التشكيك لجهلهم بالآثار التربوية والنفسية والإجتماعية للدعاء، فالإنسان بحاجة أحياناً إلى الملجأ الذي يلوذ به في الشدائد، والدعاء يضيء نور الأمل في نفس الإنسان.

من يبتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفة نفسية واجتماعية. وعلىٰ حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين:

«ابتعاد الأُمّة عن الدعاء يعني سقوط تلك الأُمّة! المجتمع الذي قمع في نفسه روح الحاجة إلى الدعاء سوف لا يبقى مصوناً عادة من الفساد والزوال.

ومن نافلة القول أنه من العبث الإكتفاء بالدعاء لدى الصباح وقضاء بقية اليوم كالوحش الكاسر، لابدّ من مواصلة الدعاء، ومن اليقظة المستمرة، كي لا يزول أثره العميق من نفس الإنسان».[1]

وأُولئك الذين يصفون الدعاء بأنه تخديري لم يفهموا معنى الدعاء، لأن الدعاء لا يعني ترك العلل والوسائل الطبيعية واللجوء بدلها إلى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهاية جهدنا للإستفادة من كل الوسائل الموجودة، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، وأعيتنا الوسيلة، نلجأ إلى الدعاء، وبهذا اللجوء إلى الله يحيى في أنفسنا روح الأمل والحركة، ونستمد من عون المبدأ الكبير سبحانه.

الدعاء إذن لا يحل محل العوامل الطبيعية.

ادعية لا تستجاب

لو جعل الإنسان الدعاء بديلاً عن العمل والجهد فسوف لا يجاب إلى مطلبه حتماً.

لذلك نقرأ في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال:

«أربعةٌ لا تستجاب لهم دعوة: رجل جالس في بيته يقول: اللّهم أُرزقني، فيقال له: ألم آمرك بالطلب؟. ورجلٌ كانت له امرأة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟ ورجل كان

١ ـ الدعاء، الطبيب وعالم النفس الشهير «الكسيس كاريل».

له مال فأفسده، فيقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك بالإقتصاد؟ ألم آمرك بالإصلاح؟ ورجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة، فيقال له: ألم آمرك بالشهادة؟!(١).

ومن الواضح أنّ الموارد التي يتحدّث عنها الحديث الشريف، إنّما مُنِعَ فيها الإنسان عن إجابة دعوته لعدم بذله قصارى جهده وسعيه، فعليه أن يتحمّل تبعة تقصيره وتفريطه.

من هنا يتضح أنّ أحد عوامل عدم استجابة الدعاء يتمثل في التباطؤ وترك الجهد المناسب للعمل واللجوء إلى الدعاء وقد جرت سنة الله تعالىٰ على عدم إجابة مثل هذه الدعوات.

طبعاً، هناك عوامل وأسباب أُخرىٰ لعدم استجابة بعض الأدعية. فمثلاً عادة ما يحدث أن يخطيء الإنسان في تشخيص مصالحه ومفاسده، إذ يصر أحياناً على موضوع معين ويطلبه من الخالق جلّ وعلا في حين ليس من مصلحته ذلك. ولكنّه يفهم ذلك فيما بعد.

وهذا الأمر يشبه إلى حدٍ كبير الطفل أو المريض الذي يطلب بعض الأطعمة والأشربة ويشتهيها، فلا يجاب لطلبه ولا تلبّىٰ رغباته، لأنّها قد تؤدي إلى مضاعفة الخطر على صحته أو حتىٰ المجازفة بحياته. ففي مثل هذه الموارد لا يستجيب الله تعالى لدعاء العبد، بل يدخر له الثواب يوم القيامة.

الاجابة عن الاشكال الثاني

«الدعاء ـ إضافة إلى قدرته في بث الطمأنينة في النفس ـ يؤدي إلى نوع من النشاط الدماغي في الإنسان، وإلى نوع من الإنشراح والإنبساط الباطني وأحياناً إلى تصعيد روح البطولة والشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة ... صفاء النظرة، وقوة الشخصية، والإنشراح والسرور، والثقة بالنفس، والإستعداد للهداية، واستقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكنز عظيم دفين في نفوسنا. وانطلاقاً من هذه القوّة يستطيع حتى الأفراد المتخلفون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية والأخلاقية بشكل أفضل، وأكثر.

لكن الأفراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جداً ـ مع الأسف ـ في عالمنا اليوم»(٢).

---

١ ـ أصول الكافي، المجلد الثّاني، باب من لا يستجاب له دعوة الحديث رقم (٢).

٢ ـ الدعاء، الكسيس كاريل.

ممّا تقدم نفهم الرد علىٰ من يقول أن الدعاء يخالف روح الرضا والتسليم، لأن الدعاء ـ كما ذكرنا ـ نوع من كسب القابلية علىٰ تحصيل سهم أكبر من فيض الله اللامتناهي.

بعبارة أُخرىٰ: الإنسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول علىٰ فيض الباري تعالى. وواضح أن السعي للتكامل ولكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة، لا عكس ذلك.

أضف إلى ذلك، الدعاء نوع من العبادة والخضوع والطاعة، والإنسان ـ عن طريق الدعاء ـ يزداد إرتباطاً بالله تعالى، وكما أن كلّ العبادات ذات أثر تربوي كذلك الدّعاء له مثل هذا الأثر.

الاجابة عن الاشكال الثالث

والقائلون أن الدعاء تدخّل في أمر الله وأن الله يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الإلّهية تغدق علىٰ الإنسان حسب استعداده وكفاءته ولياقته، وكلّما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

لذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ عِنْدَ اللهِ عَزّ وَجلَّ مَنْزِلَةً لاتُنَالُ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ»[1].

ويقول أحد العلماء: «حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها»[2].

ويقول: «إنّ أحدث العلوم الإنسانية ـ أعني علم النفس ـ يعلّمنا نفس تعاليم الأنبياء، لماذا؟ لأن الأطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء والصلاة والإيمان القوي بالدين يزيل عوامل القلق والاضطراب والخوف والهيجان الباعثة علىٰ أكثر أمراضنا»[3].

المفهوم الحقيقي للدعاء

علمنا أنّ الدعاء إنّما يكون فيما خرج عن دائرة قدرتنا، بعبارة أُخرىٰ الدعاء المستجاب هو ما صدر لدى الاضطرار وبعد بذل كل الجهود والطاقات ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

---

١ ـ أصول الكافي: ٢/٣٣٨، باب فضل الدعاء والحثّ عليه، حديث ٣.

٢ ـ آئين زندگي (فارسي)، ص ١٥٦.

٣ ـ المصدر السابق: ص ١٥٢.

وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[١]. يتضح من ذلك أن مفهوم الدعاء طلب تهيئة الأسباب والعوامل الخارجة عن دائرة قدرة الإنسان، وهذا الطلب يتجه به الإنسان إلى من قدرته لا متناهية ومن يهون عليه كل أمر.

هذا الطلب طبعاً يجب أن لا يصدر من لسان الإنسان فقط، بل من جميع وجوده، واللسان ترجمان جميع ذرات وجود الإنسان وأعضائه وجوارحه.

يرتبط القلب والروح بالله عن طريق الدعاء إرتباطاً وثيقاً، ويكتسبان القدرة عن طريق اتصالهما المعنوي بالمبدأ الكبير، كما تتصل القطرة من الماء بالبحر الواسع العظيم.

جدير بالذكر أن هناك نوعاً آخر من الدعاء يردّده المؤمن حتى فيما اقتدر عليه من الأمور، ليعبّر به عن عدم استقلال قدرته عن قدرة الباري تعالى، وليؤكد أن العلل والعوامل الطبيعية إنما هي منه سبحانه، وتحت إمرته. فإن بحثنا عن الدواء لشفاء دائنا، فإنّما نبحث عنه لأنّه سبحانه أودع في الدواء خاصية الشفاء (هذا نوع آخر من الدعاء أشارت إليه الروايات الإسلامية أيضاً).

بعبارة موجزة: الدعاء نوع من التوعية وإيقاظ القلب والعقل، وإرتباط داخلي بمبدأ كل لطف وإحسان، لذلك نرى أمير المؤمنين علياًعليه السلام يقول: «لاَ يَقْبَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَ قَلْبٍ لاَهٍ»[٢].

وعن الإمام الصّادقعليه السلام: «إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً بِظَهْرِ قَلْبٍ سَاهٍ»[٣].

شروط استجابة الدعاء

دراسة شروط استجابة الدعاء توضّح لنا كثيراً من الحقائق الغامضة في مسألة الدعاء، وتبين لنا آثاره البناءة، والروايات الإسلامية تذكر شروطاً لاستجابة الدعاء منها:

١ ـ ينبغي لمن يدعو أن يسعى أولاً لتطهير قلبه وروحه، وأن يتوب من الذنب، وأن يقتدي بحياة قادة البشرية الإلٓهيين.

عن الإمام الصادقعليه السلام: «إيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ شَيْئاً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ حَتَّى

---

١ ـ سورة النمل: الآية ٦٢.

٢ ـ أصول الكافي: ٣٤٢/٢، باب الإقبال على الدعاء، الحديث ١.

٣ ـ المصدر السابق.

يَبْدَأَ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ، وَالْمِدْحَةِ لَهُ وَالصَّلاَةِ عَـلَى النَّـبِّي وَآلِـهِ، وَالْإِعْـتِرافِ بِـالذَّنْبِ، ثُـمَّ الْمَسْأَلَة»[١].

طهّر مأكلك

٢ ـ أن يسعى الداعي إلى تطهير أمواله من كل غصب وظلم، وأن لا يكون طعامه من حرام.

عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعاؤُهُ فَلْيَطِبْ مَطْعَمَهُ وَمَكْسَبَهُ»[٢].

ففي رواية نقرأ أنّه جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ وسَألهُ قائلاً: أحبُّ أن يُستجاب دُعائي. فقال لهُ رسول الله ﷺ: «**طهِّر مأكلك ولا تدخل بطنك الحرام**»[٣].

٣ ـ أن لا يفترق الدعاء عن الجهاد المستمرّ ضدّ كل ألوان الفساد، لأنّ الله لا يستجيب ممن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن النّبي ﷺ: «لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَـتَنْهُنَّ عَـنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ شَرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ»[٤].

ترك هذه الفريضة الآلهية (فـريضة المـراقـبة الإجـتماعية) يـؤدي إلى خـلوّ السـاحة الإجتماعية من الصالحين، وتركها للمفسدين، وعند ذاك لا أثر للـدعاء، لأن هـذا الوضـع الفاسد نتيجة حتمية لأعمال الإنسان نفسه.

الوفاء بالمواثيق الإلهيّة

٤ ـ العمل بالمواثيق الآلهية، الإيمان والعمل الصـالح والأمـانة والصـلاح مـن شـروط استجابة الدعاء، فمن لم يف بعهده أمام بارئه لا ينبغي أن يتوقع من الله استجابة دعائه.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، وشكا له عدم استجابة دعائه، فقال الإمام:

«إِنَّ قُلُوبَكُمْ خَانَتْ بِثَمَـانِ خِصَالٍ:

أَوَّلُهَا: إِنَّكُمْ عَرَفْتُمُ اللهَ فَلَمْ تُؤَدُّوا حَقَّهُ كَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْكُمْ مَعْرِفَتُكُمْ شَيئاً.

وَالثَّانِيَةُ: إِنَّكُمْ آمَنْتُمْ بِرَسُولِهِ ثُمَّ خَالَفْتُمْ سُنَّتَهُ، وَأَمَتُّمْ شَرِيعَتَهُ فَأَيْنَ ثَمَرَةُ إِيمانِكُمْ؟!

---

١ ـ سفينة البحار: ٤٤٨/١ و ٤٤٩، مادة (دعا).

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ وسائل الشيعة، المجلد الرابع، أبواب الدعاء، باب (٦٧) الحديث الرابع.

٤ ـ سفينة البحار: مادة (دعا).

وَالثَّالِثَةُ: إِنَّكُمْ قَرَأْتُمْ كِتَابَهُ الْمُنْزَلَ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَعْمَلُوا بِهِ، وَقُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ثُمَّ خَالَفْتُمْ!

وَالرَّابِعَةُ: إِنَّكُم قُلتُم تخَافُونَ مِنَ النَّارِ، وَأَنْتُم فِي كُلِّ وَقتٍ تَقدُمُونَ إِلَيها بِمَعاصِيكُم فَأينَ خَوفُكُم؟!

وَالْخَامِسَةُ: إِنَّكُمْ قُلْتُمْ تَرْغَبُونَ في الْجَنَّةِ، وأَنْتُمْ في كُلِّ وَقْتٍ تَفْعَلُونَ مَا يُبَاعِدُكُمْ مِنْها فَأَيْنَ رَغْبَتُكُمْ فِيهَا؟

وَالسَّادِسَةُ: إِنَّكُمْ أَكَلْتُمْ نِعْمَةَ الْمَوْلىٰ فَلَمْ تَشْكُرُوا عَلَيْهَا!

وَالسَّابِعَةُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِعَداوَةِ الشَّيْطَانِ، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً﴾، فَعَادَيْتُمُوهُ بِلاَ قَوْلٍ، وَوَاليتُمُوهُ بِلاَ مخَالَفَةٍ.

وَالثَّامِنَةُ: إِنَّكُمْ جَعَلْتُمْ عُيُوبَ النَّاسِ نَصْبَ أَعْيُنِكُمْ وَعُيُوبَكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ تَلُومُونَ مَنْ أَنْتُمْ أَحَقُّ بِاللَّوْمِ مِنْهُ فَأَيُّ دُعَاءٍ يُسْتَجَابُ لَكُمْ مَعَ هَذا، وَقَدْ سَدَدْتُمْ أَبْوَابَهُ وَطُرُقَهُ؟ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا أَعْمَالَكُمْ وَأَخْلِصُوا سَرَائِرَكُمْ وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَسْتَجِيبُ اللهُ لَكُمْ دُعَاءَكُمْ»[١].

هذا الحديث يقول بصراحة: إن وعد الله باستجابة الدعاء وعد مشروط لا مطلق. مشروط بتنفيذ المواثيق الإلٰهية، وإن عمل الإنسان بهذه المواثيق الثمانية المذكورة فله أن يتوقع استجابة الدعاء، وإلّا فلا.

العمل بالأُمور الثمانية المذكورة باعتبارها شروطاً لاستجابة الدعاء كافٍ لتربية الإنسان ولإستثمار طاقاته علىٰ طريق مثمر بنّاء.

موانع استجابة الدعاء

لقد ذكرت بعض الروايات ذنوباً متعدّدة إذا ارتكبها الإنسان تحول بينه وبين إجابة دعائه، مثل سوء النية، النفاق، تأخير الصلاة عن وقتها، اللسان البذيء الذي يخشاه الناس، الطعام الحرام، وترك الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالىٰ[٢].

عن الإمام الصادق عليه السلام ينقله «الشيخ الطبرسي» في «الإحتجاج» أنّه سئل: أليس يقول الله:

---

١ ـ سفينة البحار: مادة (دعا).

٢ ـ معاني الأخبار، طبقاً لما أورده تفسير نور الثقلين: ٥٣٤/٤ وأصول الكافي.

﴿ادعوني أستجب لكم﴾ وقد نرىٰ المضطر يدعوه ولا يجاب له، والمظلوم يستنصره علىٰ عدوه فلا ينصره؟

قال: «ويحك! ما يدعوه أحد إلّا استجاب له، أما الظالم فدعاؤه مردود إلىٰ أن يتوب، وأما المحق فإذا دعا استجاب له وصرف عنه البلايا من حيث لا يعلمه، أو ادخر له ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه، وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خير له إن أعطاه، أمسك عنه»[1].

ما معنىٰ الآيتين؟

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سأله أحدهم قال: قلت: آيتان في كتاب الله عزّوجلّ أطلبهما فلا أجدهما.

قال عليه السلام «وما هما؟».

قلت: قول الله عزّوجلّ: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾، فندعوه ولا نرى إجابة.

قال عليه السلام: أفترى الله عزّوجلّ أخلف وعده؟».

قلت: لا.

قال: فممّ ذلك؟

قلت: لا أدري.

قال عليه السلام: «لكنّي أخبرك، من أطاع الله عزّوجلّ فيما أمره من دعائه من جهة الدعاء أجابه».

قلت: وما جهة الدعاء.

قال: «تبدأ فتحمد الله وتذكر نعمه عندك ثمّ تشكره ثمّ تصلّي على النّبي صلى الله عليه وآله، ثمّ تذكر ذنوبك فتقرّ بها، ثمّ تستعيذ منها فهذا جهة الدعاء»[2].

الداعي بلا عمل

٥ ـ من الشروط الأُخرىٰ لاستجابة الدعاء العمل والسعي، عن علي عليه السلام: «الدَّاعِي بِلاَ عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلاَ وَتَرٍ»[3].

---

١ ـ تفسير الصافي ذيل تفسير الآيات ٦٣ ـ ٦٠ من سورة مؤمن (غافر).

٢ ـ تفسير البرهان: ٣/٣٥٣.

٣ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٣٣٧.

الوتر بحركته يدفع السهم نحو الهدف، وهكذا دور العمل في الدعاء.

من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أن الدعاء لا يغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعية، بل أكثر من ذلك يدفعنا إلى توفير شروط إستجابة الدعاء في أنفسنا، ويحدث بذلك تغييراً كبيراً في حياة الإنسان وتجديداً لمسيرته، وإصلاحاً لنواقصه.

أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامي أنه مخدّر؟!

آداب الدعاء

القرآن الكريم يعلّم حملة العرش والملائكة والمؤمنين أُسلوب الدعاء.

ففي البداية ينبغي التمسك بكلمة «ربّنا».

ثمّ مناداته تعالىٰ بصفات الجلال والجمال، وطلب العون من مقام رحمته المطلقة وعلمه غير المتناهي: ﴿**وسعت كلّ شيء رحمة وعلماً**﴾.

وأخيراً الدعاء وطلب الحاجة بحسب أهميتها وبشروط توفّر الأرضية للإستجابة: ﴿**فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك**﴾[١].

ثم ينتهي الدعاء بذكر صفاته تعالى الجمالية والجلالية، والتوسّل برحمته تعالى مرّة أُخرىٰ.

والطّريف في الأمر أنّ حملة العرش الالهي يعتمدون علىٰ خمسة أوصاف إلهية مهمّة في دعائهم وهي: الربوبية، والرحمة، والقدرة، والعلم، والحكمة.

لماذا تبدأ الأدعية بكلمة «ربّنا»؟

عند قراءة آيات القرآن الكريم نرىٰ أنّ أولياء الله ـ سواء منهم الأنبياء أو الملائكة أو الصالحون ـ كانوا يبدأون كلامهم بـ«ربّنا» أو «ربّي» عند الدعاء...

فآدمعليه‌السلام يقول: ﴿**ربّنا ظلمنا أنفسنا**﴾[٢].

ونوحعليه‌السلام يقول: ﴿**ربّ اغفرلي ولوالدي**﴾[٣].

---

١ ـ سورة غافر: الآية ٧.

٢ ـ سورة الاعراف: الآية ٢٣.

٣ ـ سورة نوح: الآية ٢٨.

و إبراهيمعليه‌السلام يقول:﴿ربِّ اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[١].

أما يوسفعليه‌السلام فيقول: ﴿ربِّ قد آتيتني من الملك﴾[٢].

وموسى الكليمعليه‌السلام يقول: ﴿ربِّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾[٣].

أما سليمانعليه‌السلام فيقول: ﴿ربِّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾[٤].

أما عيسىٰ المسيحعليه‌السلام فيقول: ﴿ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾[٥].

والرّسول الأعظمصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول: ﴿ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطن﴾[٦].

وعلى لسان المؤمنين نقرأ في أماكن متعدّدة كلمة «ربّنا» في فاتحة الدعاء، فـفي آخـر سورة «آل عمران» نرىٰ دعائهم: ﴿ربّنا ماخلقت هذا باطلاً﴾.

من خلال هذه النماذج والمواقف نستنتج أنّ أفضل الدعاء هو مايبدأ بالربوبية صحيح أنّ الاسم المبارك «الله» هو أكثر شمولية لأسماء الخالق، ولكن لارتباط الحاجات بمقام الرّبوبية، هذا المقام الذي يرتبط به الإنسان منذ اللحظة الأولىٰ من وجوده وحتىٰ آخر عمره، وتستمر بعد ذلك صفة الإرتباط بـ «الربوبية» التي تغرق الإنسان بالألطاف الإلهية، لذا فإنّ ذكر هذه الكلمة في بداية الأدعية يعتبر أكثر تناسباً من باقي الأسماء الأُخرىٰ[٧].

وفي مستدرك الوسائل نقلاً عن أبي الفتوح الرّازي في تفسيره، أنّهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال: من كان له إلى الله حاجة فليقل خمس مرات ربّنا يعطى حاجته، ومصداق ذلك في كلام الله في قـوله تعالى: ﴿ربّنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ إلى آخر الآيات فيها ربّنا خمس مرّات ثمّ قـال تـعالى: ﴿فاستجاب لهم ربّهم﴾[٨].

---

١ ـ سورة ابراهيم: الآية ٤١.

٢ ـ سورة يوسف: الآية ١٠١.

٣ ـ سورة القصص: الآية ١٧.

٤ ـ سورة القصص: الآية ٣٥.

٥ ـ سورة المائدة: الآية ١١٤.

٦ ـ سورة المؤمنين: الآية ٩٧.

٧ ـ التّفسير الكبير، الفخر الرازي في ذيل الآيات ٩ ـ ٧ من سورة غافر (مؤمن).

٨ ـ مستدرك الوسائل: ٣٦٩/١.

انّك مليكٌ مقتدر

نقل بعض المفسّرين أنّ هذين الإسمين المقدّسين ﴿مليك ومقتدر﴾ لهما تأثير عميق في إستجابة الدعاء حتّى نقل بعض الرواة: إنّني داخل المسجد وكنت أتصوّر بأنّه الصبح ولكن تبيّن لي عدم إنقضاء الليل وبقي قسط كبير منه، ولم يكن أحد غيري في المسجد، وفجأة سمعت حركة من ورائي، فخفت ولكنّي رأيت أنّ شخصاً مجهولاً قد ناداني: أيّها الشخص المملوء قلبك خوفاً لا تخف وقل: «**اللهم إنّك مليك مقتدر، ما تشاء من أمر يكون**». ثمّ اطلب ما تريد، فيقول: إنّي قرأت هذا الدعاء المختصر ولم أطلب شيئاً إلّا وأُجيب[١].

يا ذا الجلال والاكرام

نقرأ في حديث للرسول الأعظم ﷺ أنّ رجلاًكان يدعو الله في حضرته حيث قال: «**ياذا الجلال والإكرام** فقال ﷺ: **قد استجيب لك فسل**[٢].

وجاء في حديث آخر أنّ الرّسول ﷺ شاهد رجلاً يقيم الصلاة حيث دعا بعد الركوع والسجود والتشهّد بهذا الدعاء: **اللهمّ انّي أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، المنّان بديع السماوات والأرض ياذا الجلال والإكرام ياحي ياقيّوم انّي أسألك ...** فقال ﷺ: **لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[٣].

خير الدعاء الخفيّ

يقول تعالىٰ: ﴿**ادعوا ربّكم تضرعاً وخفيةً**﴾[٤].

إنّ الآية تحثّنا على أن نقبل على الله بمنتهى الخضوع والخشوع والتواضع، بل يجب أن تنعكس روح الدعاء في أعماق روح الإنسان، وعلى جميع أبعاد وجوده، ويكون اللسان مجرّد ترجمانها، ويتحدث نيابة عن جميع أعضائه.

---

١ ـ تفسير روح المعاني: ٨٣/٢٧.

٢ ـ تفسير الدرّ المنثور: ١٥٣/٦.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ سورة الاعراف: الآية ٥٥.

وأمره تعالى ـ في الآية الحاضرة ـ بأن يدعى الله «خفية» وفي السّر، لأنّه أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأجل أن يكون الدعاء مقروناً بتمركز الفكر وحضور القلب.

ونحن نقرأ في حديث أنّ رسول الله ﷺ لما كان في إحدى غزواته، ووصل جنود الإسلام إلى واد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير قائلين: «لا إله إلّا الله» و «الله أكبر» فقال النّبي ﷺ: «**يا أيّها الناس اربعوا على أنفسكم، أمّا إنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنّكم تدعون سميعاً قريباً، إنّه معكم**»[1].

روي عن رسول الله ﷺ قال: «**خير الدعاء الخفي وخير الرزق ما يكفي**» (لا الثروات الضخمة التي هي حصيلة حرمان الآخرين، وتكون عبئاً على كاهل الإنسان).

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٤/٤٢٩.

١٢

صلاة الليل

إنَّ التأثيرات المختلفة لضوضاء الحياة اليومية تؤثر علىٰ الإنسان وعلىٰ أفكاره وتـجرّه إلىٰ وديان مُختلفة بحيث يصعب معها تهدئة الخاطر، وصفاء الذهن، والحضور الكامل للقلب في مثل هذا الوضع. أمّا في منتصف الليل وعند السحر عندما تهدأ هذه ضـوضاء حـياتيه المادية، ويرتاح جسم الإنسان، وتهدأ روحه بعد فترة مِن النوم، فـإنَّ حـالةً مِـن التـوَّجه والنشاط الخاص تُخالج الإنسان.

في مثل هذا المحيط الهادىء والبعيد عن كل أنواع الرياء، مع حـضور القـلب، يـعيش الإنسان حالة خاصّة قادرة علىٰ تربيته وتكامل روحه.

لهذا السبب نرىٰ أن عباد الله ومحبيه يتوقون إلىٰ التعبُّد مِنتصف الليل، لأنَّهُ يزكّي أرواحهم، ويحيي قُلوبهم، ويقوي إرادتهم، ويكمل إخلاصهم.

وفي بداية عصر الإسلام كان الرّسول الله ﷺ يستفيد مِن هذا البرنامج الروحي في تربية المسلمين، وكانت يبني شخصياتهم بحيث كانوا يتغيّرون تماماً عمّا كانوا عليه في السابق، يعني أنَّهُ ﷺ كان يجعل مِنهم شخصيات جديدة ذات إرادة قوية وشجاعة، ومؤمنين ذوي إخلاص ونقاء.

عشرون حديثاً في فضل صلاة الليل

وعندما نبحث الرّوايات الواردة في المصادر الإسلامية عن فضيلة صلاة الليل، نرىٰ أنّها

توضح هذه الحقيقة. وعلىٰ سبيل المثال يمكن أن نقف مع هذه النماذج:

١ ـ عن الرّسول ﷺ قال: «**خيركم مَن أطابَ الكلام وأطعم الطعام وصلّىٰ بالليل والناس نيام**»[١].

٢ ـ وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أنَّهُ عليه السلام قال: «**قيام الليل مصحة للبدن، ومرضاة للرّب عزَّوجلّ، وتعرّض للرحمة، وتمسك بأخلاق النّبيين**»[٢].

٣ ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنَّهُ أوصىٰ أحد أصحابه بقوله: «**لا تدع قيام الليل فإنَّ المغبون مَن حُرِمَ قيام الليل**»[٣].

٤ ـ وعن رسول الله ﷺ قال: «**مَن صلّىٰ بالليل حَسُنَ وجههُ بانهار**»[٤].

ونقرأ في بعض الرّوايات أنّ هذه العبادة (صلاة الليل) على قدر مِن الأهمية بحيث أنَّ غير الطاهرين والمحسنين لا يوفقون إليها.

٥ ـ جاء رجل إلىٰ أمير المؤمنين علي عليه السلام وقال لهُ: إنّي محروم مِن صلاة الليل، فأجابه عليه السلام: «**أنت رجل قد قيدتك ذنوبك**»[٥].

٦ ـ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنَّ الرجل ليكذب الكذبة ويحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم بها صلاة الليل حُرِمَ بها الرّزق**»[٦].

٧ ـ وبالرغم مِن أننا نعلم أن شخصاً مِثل علي بن أبي طالب لا يترك صلاة الليل أبداً، ونظراً لأهمية هذه الصلاة نرىٰ رسول الله ﷺ أوصاهُ بها في جملةٍ مِن وصاياه لهُ، إذ قال له ﷺ: «**أوصيك في نفسك بخصالٍ فاحفظها، ثمّ قال: اللهم أعنهُ ... وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل!**»[٧].

٨ ـ وعن الرّسول الأكرم ﷺ أنَّهُ قال لجبرئيل عليه السلام: عظني، فقال جبرائيل لرسول

---

١ ـ بحار الأنوار: ٨٧/١٤٢ ـ ١٤٨.

٢ ـ المصدر السّابق.

٣ ـ المصدر السّابق.

٤ ـ المصدر السّابق.

٥ ـ المصدر السابق .

٦ ـ المصدر السّابق.

٧ ـ وسائل الشيعة: ٥/٢٦٨.

الله ﷺ: يا محمّد، عش ما شئت فإنّك ميت، وأحبب ما شئت فإنّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنّك ملاقيه، واعلم أنَّ شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزَّه كفُّه عن أعراض النّاس»[١].

إنَّ هذه الوصايا الملكوتية لجبرائيل تدل علىٰ أنَّ صلاة الليل تضفي علىٰ الإنسان من الإيمان والروحانية وقوة الشخصية ما يكون سبباً في شرفه كما أن كفّه الاذىٰ عن الآخرين يكون سبباً في عزته.

٩ ـ عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «ثلاثة هنّ فخر المؤمن وزينة في الدنيا والآخرة، الصّلاة في آخر الليل ويأسه ممّا في ايدي الناس وولاية الإمام من آل محمّد»[٢].

١٠ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما مِن عملٍ حسن يعملهُ العبد إلّا ولهُ ثواب في القرآن إلّا صلاة الليل، فإنَّ الله لم يبيّن ثوابها لعظيم خطرها عنده فقال: تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً ﴿وممّا رزقناهم يُنفقون * فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم مِن قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون[٣]﴾[٤].

١١ ـ ففي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «ألا أُخبرك بالإسلام أصله وفرعه وذروة سنامه»؟ قال: بلى، جعلت فداك، قال: «أمّا أصله فالصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنامه الجهاد»!

ثمّ قال: «إن شئت أخبرتك بأبواب الخير»؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: «الصوم جنّة، والصدقة تذهب بالخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل بذكر الله، ثمّ قرأ: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾[٥].

١٢ ـ وروي في (تفسير مجمع البيان) عن معاذ بن جبل، قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقد أصابنا الحرّ فتفرّق القوم، فإذا رسول الله ﷺ أقربهم منّي، فدنوت منه، فقلت: يارسول الله، أنبئني بعمل يدخلني الجنّة، ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم وإنّه ليسير على من يسّره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة،

---

١ ـ وسائل الشيعة: ٥/٢٦٩.

٢ ـ الأمالي: ١/٤٣٧.

٣ ـ سورة السجدة: الآيات ٢٠ ـ ١٥.

٤ ـ بحار الأنوار: ٨٧/١٤٠.

٥ ـ أُصول الكافي، الجزء ٢، باب دعائم الإسلام صفحة ٢٠ حديث ١٥، والمصدر السابق.

وتؤدّي الزكاة المفروضة، وتصوم شهر رمضان».

قال: «وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير» قال: قلت: أجل يارسول الله، قال: «الصوم جنّة، والصدقة تكفّر الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله» ثمّ قرأ هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾[١].

١٣ ـ ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّ من روح اللّه تعالىٰ ثلاثة، التهجد بالليل، وإفطار الصّائم، ولقاء الإخوان»[٢].

١٤ ـ وعن الصادق عليه السلام أيضاً في تفسير: ﴿إنّ الحسنات يذهبن السيئات﴾[٣] قال: «صلاة الليل تذهب بذنوب النهار»[٤].

١٥ ـ يعدّ النّبي بأنّ صلاة الليل كفّارة عن الذنوب فيقول: «ياعلي ثلاث كفّارات: ... منها: التهجّد بالليل والناس نيام»[٥].

١٦ ـ وفي حديث آخر ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «أشراف اُمّتي حملة القرآن وأصحاب الليل»[٦].

١٧ ـ في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم يوصي علياً عليه السلام إذ قال أربع مرّات: عليك بصلاة الليل[٧].

١٨ ـ ينقل عن الإمام الصادق في تفسير الآية: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾[٨]: أنّه قال: كانوا أقلّ الليالي تفوتهم لا يقومون فيها[٩].

١٩ ـ ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: الركعتان في جوف الليل أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها[١٠].

---

١ ـ تفسير مجمع البيان ذيل الآيات ٢٠ ـ ١٥ من سورة السجدة، وتفسير نور الثقلين: ٤/٢٢٩.

٢ ـ بحار الأنوار: ٨٧/١٤٣.

٣ ـ سورة هود: الآية ١١٤.

٤ ـ المصدر السّابق.

٥ ـ وسائل الشيعة: ٥/٢٧٣.

٦ ـ وسائل الشيعة: ٥/٢٧٥.

٧ ـ وسائل الشيعة: ٥/٢٧٧.

٨ ـ سورة الذاريات: الآية ١٧.

٩ ـ وسائل الشيعة: ٥/٢٧٩.

١٠ ـ بحار الأنوار: ٨٧/١٤٨.

٢٠ ـ عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال لسليمان الديلمي «أحد أصحابه»: **لا تدع قيام الليل فإنّ المغبون من حُرم قيام الليل**[١].

وبالطبع فإنّ الرّوايات في هذا الصدد كثيرة ويلاحظ فيها تعابير مثيرة وطريفة جدّاً ولا سيّما التعبير بأنّ صلاة الليل وسيلة «**لمحو الذنوب**» و «**تيقّظ الفكر**» و «**إشراق القلب**» و «**جلب الرزق**» و «**سعة العيش**» و «**الصحّة**»، ولو جمعنا هذه الرّوايات لحصلنا على كتاب مستقل[٢].

إنّ الروايات الإسلامية قد أولت هذه العبادة إهتماماً عظيماً قلّ أن تحدّثت بهذا المقدار عن عبادة أُخرى.

لقد اهتمّ أنصار الحقّ ومحبّوه وسالكو طريق الفضيلة كثيراً بهذه العبادة الخالية من الرياء، والتي تنير القلب وتصفّيه من كلّ الشوائب.

ومن الممكن أن لا يوفّق البعض إلى هذه العبادة المباركة دائماً، ولكن ما المانع من أن يسعى الفرد إلى نيل هذا التوفيق في بعض الليالي، وفي الوقت الذي يرخي الليل سدوله، وتهدأ الأصوات وتنام العيون يكون الجوّ مهيئاً لحضور القلب، يهبّ إلى مناجاة الله وينوّر قلبه بنور عشق الحبيب ومحبّته.

كيفيّة صلاة الليل

ولصلاة اللّيل – بالطبع – آداب كثيرة، وَلكن لا بأس أن نذكر هُنا أبسط شكل لها، حتىٰ يستطيع عشاق وَمحبّو هَذِهِ العبادة الروحية بها والإستفادة مِنها:

وإنّ صلاة الليل تتكون بأبسط صورها مِن (١١) ركعة، وهي مقسمة إلىٰ ثلاثة أقسام هي:

أ ـ أربع صلوات، ذات رُكعتين، يكون مجموعها ثماني رُكعات وتسمّىٰ **(نافلة الليل)**.

ب ـ صلاة واحدة ذات ركعتين، وتسمّىٰ بـ**(الشفع)**.

---

١ ـ بحار الأنوار: ١٤٦/٨٧.

٢ ـ للإطلاع على هذه الرّوايات يراجع الجزء الخامس من وسائل الشيعة والجزء الأوّل من مستدرك الوسائل، والجزء ٨٧ من بحار الأنوار.

ج ـ صلاة واحدة ذات ركعة واحدة، وتسمّىٰ بـ(الوتر).

أمّا طريقة أداء هذه الصلاة فهي لا تختلف عن صلاة الصبح، إلّا أنّها لا تحتوي علىٰ الأذان والإقامة، والأفضل إطالة قنوت ركعة الوتر[١].

افضل وقت لصلاة الليل

وقد جاء في رواية في تفسير «الدرّ المنثور» أنّ النّبي ﷺ قال: «**إنّ آخر الليل في التهجّد أحبّ إليّ من أوّله، لأنّ الله يقول: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾**[٢]»[٣].

ونقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرّة في السحر**»[٤].

مقدمات صلاة الليل

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قام لصلاة الليل يسوك، ثمّ ينظر إلى السماء ثمّ يقول: **﴿إنّ في خلق السماوات والأرض ...﴾** إلى قوله تعالى: **﴿فقنا عذاب النّار**[٥]**﴾**[٦].

وورد عن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام الأمر بقراءة هذه الآيات الخمس وقت القيام بالليل للصلاة[٧].

وعن نوف البكالي قال: بت ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام فكان يصلي الليل كلّه، ويخرج ساعة بعد ساعة فينظر إلى السماء ويتلو القرآن ـ ويردد هذه الآيات ـ فمرّ بي بعد هدوء الليل، فقال: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟.

---

١ ـ بعض الفقهاء يحتاطون بعدم قراءة القنوت في رُكعتي الشفع أو قراءتها بأمل الرجاء.

٢ ـ سورة الذاريات: الآية ١٨.

٣ ـ تفسير الدر المنثور: ٦/١١٣.

٤ ـ تفسير مجمع البيان ذيل الآية ١٨ من سورة الذاريات.

٥ ـ سورة آل‌عمران: الآيات ١٩٠ ـ ١٩٤.

٦ ـ تفسير نور الثقلين وتفسير مجمع البيان.

٧ ـ المصدر السابق.

قلت: بل رامق ببصري يا أمير المؤمنين.

قال: «يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أُولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن دثاراً، والدعاء شعاراً...»[1].

---

١ ـ سفينة البحار: ٢/٦٢٢، مادة (نوف).

١٣

اليقين ومراحله

«اليقين» يقابل «الشك»، كما إنّ «العلم» يقابل «الجهل»، واليقين يعني وضوح الشيء وثبوته. ويستفاد من الرّوايات أنّ اليقين هو أعلى مراحل الإيمان.

الإمام محمّد بن علي الباقرعليه السلام يجعل الإيمان أعلى من الإسلام درجة، والتقوى أعلى من الإيمان درجة، واليقين أعلى من التقوى درجة ثمّ يقول: «**ولم يقسم بين النّاس شيء أقل من اليقين**».

ويسأل الراوي: ما هو اليقين؟ يقول: «**التوكل على اللّه، والتسليم للّه، والرضا بقضاء اللّه، والتفويض إلى اللّه!**»[١].

علوّ مقام اليقين على مقام التقوى والإيمان والإسلام أكدت عليه روايات أُخرى[٢].

علامة اليقين

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادقعليه السلام قال: «**من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي النّاس بسخط اللّه، ولا يلومهم على ما لم يؤته اللّه... إنّ اللّه بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»[٣].

---

١ ـ بحار الأنوار: ١٤٣/٧٠.

٢ ـ تفسير الميزان: ١٨٧/٦.

٣ ـ اصول الكافي: ٥٧/٢، تحف العقول: ٣٧٧.

ومن هذه النصوص وأمثالها نفهم جيداً أنّ الإنسان ـ حين يصل إلى مقام اليقين ـ تغمر قلبه وروحه طمأنينة خاصّة.

مراتب اليقين

ومع هذا، فلليقين مراتب، أشارت إليها الآية (٩٥) من سورة الواقـعة: **﴿إنّ هذا لهو حق اليقين﴾**، وهي ثلاثة:

١ ـ علم اليقين: وهو الذي يحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفة، كأن يشاهد دخاناً فيعلم علم اليقين أن هناك ناراً.

٢ ـ عين اليقين: وهو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة كأن يرى بعينه مثلاً النّار.

٣ ـ حقّ اليقين: وهو كأن يدخل الإنسان النّار بنفسه ويحسّ بحرقتها، ويتصف بصفاتها. وهذه أعلى مراحل اليقين.

يقول المحقق الطوسي: اليقين اعتقاد جازم مطابق ثابت، لا يمكن زواله، وهو في الحقيقة مؤلف من علمين، العلم بالمعلوم والعلم بأن خلاف ذلك العلم محال، وله مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين[١].

إنّه ذكر عند النّبي ﷺ أنّ بعض أصحاب عيسى عليه السلام كان يمشي على الماء فقال ﷺ: «**لو كان يقينه أشدّ من ذلك لمشى على الهواء**»[٢]

فالحديث ـ كما ترى ـ يوميء إلى أنّ الأمر يدور مدار اليقين باللّه سبحانه ومحو الأسباب الكونية عن الإستقلال في التأثير، فإلى أي مبلغ بلغ ركون الإنسان إلى القدرة المطلقة الإلهية انقادت له الأشياء على قدره[٣].

١ ـ بحار الأنوار: ١٤٣/٧٠.

٢ ـ بحار الانوار: ١٧٩/٧٠.

٣ ـ تفسير الميزان: ١٨٧/٦ «ذيل الآية ١٠٥ من سورة المائدة».

١٤

القلب السليم

كما هو معروف فإنّ كلمة (القلب) تعني في الاصطلاح القرآني الروح والعقل، ولهذا فإنّ (القلب السليم) يعني الروح الطاهرة السالمة الخالية من كافّة أشكال الشرك والشكّ والفساد.

والقرآن الكريم وصف بعض القلوب بـ(القاسية) ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً ممّا ذكروا به ...﴾.[١]

وأحياناً وصفها بأنّها غير طاهرة[٢].

وأُخرى وصفها بالمريضة[٣].

ورابعة وصفها بالقلوب المغلقة المختوم عليها[٤].

وفي مقابل هذه القلوب طرح القلب السليم الخالي من العيوب المذكورة أعلاه، حيث أنّه صاف ورقيق مليء بالعطف وسالم ولا ينحرف عن الحقّ، القلب الذي وصف في الروايات بـ(حرم الله) إذ جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: (**القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله**)[٥].

وهو القلب الذي يتمكّن من رؤية الحقائق الغيبية والنظر إلى الملكوت الأعلى، إذ ورد في

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ١٣.

٢ ـ سورة المائدة: الآية ٤١.

٣ ـ سورة البقرة: الآية ٦.

٤ ـ سورة التوبة: الآية ٨٧.

٥ ـ بحار الأنوار: ٦٧/٢٥، باب حبّ الله الحديث ٢٧.

حديث لرسول الله ﷺ «**لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت**»[١].

الملاحظ أنّ (القلب السليم) هو خير رأسمال للنجاة في يوم القيامة، وبه التحق إبراهيم عليه السلام بملكوت ربّه وتسلّم أمر الرسالة.

وأجمل من فسّر عبارة (القلب السليم) هو الإمام الصادق عليه السلام عندما قال: «**القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه!**»[٢]. حيث جمع بقوله كلّ الأوصاف المذكورة مسبقاً.

وقد جاء في رواية أُخرى للإمام الصادق عليه السلام «**صاحب النيّة الصادقة صاحب القلب السليم، لأنّ سلامة القلب من هواجس المذكورات تخلص النيّة لله في الأُمور كلّها**»[٣].

واعتبر القرآن الكريم القلب السليم رأس مال نجاة الإنسان يوم القيامة، حيث نقرأ في سورة الشعراء، وفي الآيات ٨٨ و٨٩ على لسان النّبي الكبير إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم**﴾.

ورد في الروايات «**إنّ لله في عباده آنية وهو القلب فأحبّها إليه (أصفاها) و (أصلبها) و (أرقّها): أصلبها في دين اللّه، وأصفاها من الذنوب، وأرقّها على الأُخوان**»[٤].

القلوب أربعة

وهناك مسائل كثيرة وردت في الروايات الإسلامية تتحدث حول سلامة القلب والآفات التي تصيبه، وطريق مبارزتها ومكافحتها، ويستفاد من مجموع هذا المفهوم الإسلامي المتين أن الإسلام يهتم قبل كلّ شيء بالأساس الفكري والعقائدي والأخلاقي، لان جميع المناهج التطبيقية والعملية للإنسان هي إنعكاسات لذلك الأساس وآثاره!...

فكما أنّ سلامة القلب الظاهرية سبب لسلامة الجسم، وأن مرضه سبب لمرض أعضائه جميعاً، لأنّ تغذية الخلايا في البدن تتمّ بواسطة الدم الذي يتوزع ويُرسل إلى جميع الأعضاء بإعانةِ القلب على هذه المهمّة... فكذلك هي الحال بالنسبة لسلامة مناهج حياة الإنسان

١ ـ بحار الأنوار: ٥٩/٦٧، باب القلب وصلاحه الحديث ٣٩.

٢ ـ ورد في اصول الكافي ونقله صاحب تفسير الصافي في ذيل الآية (٨٩) من سورة الشعراء.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ بحار الأنوار: ٥٦/٦٧، باب القلب وصلاحه الحديث ٢٦.

وفسادها، كل ذلك انعكاس عن سلامة العقيدة والأخلاق أو فسادهما...

يقول الإمام الصادقعليه‌السلام: «إنّ القلوب أربعة:

قلب فيه نفاق وإيمان.

وقلب منكوس.

وقلب مطبوع.

وقلب أزهر أجرد؛ «أجرد من غير الله».

إلى أن قالعليه‌السلام: وأمّا الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر. وأمّا المنكوس فقلب المشرك ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوّياً على صراطٍ مستقيم﴾[١] فإن القلب الذي فيه إيمان ونفاق، فهم قوم كانوا بالطائف، فإن أدرك أحدُهم أجله على نفاقه هلك، وإن أدركه على إيمانه نجا».[٢]

اسباب موت القلب

قال الرّسول الأكرمصلى‌الله‌عليه‌وآله: «أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب... ومجالسة الموتىٰ» قيل له: يا رسول الله، وما الموتىٰ؟ قال: «كل غني مترف».[٣]

ورد عن الإمام الصادقعليه‌السلام في تفسير جملة: ﴿أم علىٰ قلوب أقفالها﴾[٤]: «إنّ لك قلباً ومسامع، وإنّ الله إذا أراد أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، وإذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً، وهو قول الله عزَّ وجلّ: ﴿أم علىٰ قلوب أقفالها﴾»[٥].

روي عن رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله قال: «ما من مؤمن إلّا ولقلبه في صدره أُذنان: أذن ينفث فيها الملك، وأُذن ينفث فيها الوسواس الخناس، فيؤيد الله المؤمن بالملك، فهو قوله سبحانه: ﴿وأيدهم بروح منه﴾[٦]».[٧]

---

١ ـ سورة الملك : الآية ٢٢.

٢ ـ أصول الكافي: ٤٢٢/٢ ط ـ الرّابعة، باب في ظلمة قلب المنافق.

٣ ـ الخصال، للصدوق، طبقاً لنقل بحار الأنوار: ١٩٥/٧٤.

٤ ـ سورة محمدصلى‌الله‌عليه‌وآله : الآية ٢٤.

٥ ـ تفسير نور الثقلين: ٤١/٥.

٦ ـ سورة المجادلة : الآية ٢٢.

٧ ـ تفسير مجمع البيان: ٥٧١/١٠.

١٥

شرح الصدر

الناس ليسوا على وتبرة واحدة من حيث قبول الحق وإدراك الأُمور، فالبعض يتمكّن من إدارك الحقيقة بمجرّد إشارة واحدة أو جملة قصيرة، وهذا يعني أنّ تذكيراً واحداً يكفي لإيقاظهم فوراً، وموعظة واحدة قادرة على إحداث صيحات في أرواحهم وفي حين أنّ البعض الآخر لا يتأثّر بأبلغ الكلمات وأوضح الأدلّة و أقوىٰ العبارات، وهذه المسألة ليست بالأمر السهل أو الهيّن.

وكم هي جميلة التعابير القرآنية في هذا المجال، وذلك عندما تصف البعض بأنّهم ذوو صدور منشرحة وأرواح واسعة، وتصف البعض الآخر بأنّهم ذوو صدور ضيقة، كما ورد في سورة الأنعام: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصعد في السماء﴾[١].

هذا الموضوع يتّضح بصورة كاملة في حالة دراسة أوضاع وأحوال الأشخاص، فالبعض لهم صدور منشرحة رحبة تتسع لإستيعاب أيّ مقدار من الحقائق، في حين أنّ البعض الآخر على العكس، إذ أنّ صدورهم ضيقة وأفكارهم محدودة لا يمكنها أحياناً استيعاب أيّ حقيقة، وكأن عقولهم محاطة بجدران فولاذية لا يمكن اختراقها. وبالطبع لكلّ واحد منهما أسبابه.

١ ـ سورة الانعام: الآية ١٢٥.

اسباب شرح الصدر وقساوة القلب

فالدراسة الدائمة والمستمرة والإتصال بـالعلماء والحكـماء الصـالحين، وبـناء الذات وتهذيب النفس، واجتناب الذنوب وخاصة أكل الطعام الحرام، وذكر الله دائماً، كلها أسباب وعوامل لإنشراح الصدر، وعلى العكس فإنّ الجهل والذنب والعناد والجدل والرياء، ومجالسة أصحاب السوء والفجار والمجرمين وعبيد الدنيا والشهوات، كلّها تؤدّي إلى ضيق الصدر وقساوة القلب.

فعندما يقول القرآن الكريم: **﴿فمن يرد الله يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾**. فهذه الإرادة وعدم الارادة ليست اعتباطية وبدون دليل. بل هي نابعة من اعماقنا وذواتنا في البداية.

إنّ القرآن والوحي السماوي هما كقطرات المطر التي تهطل على الأرض، وكما أنّ الأرض التي لها الإستعداد هي التي تستفيد من قطرات المطر، فكذلك القلوب المستعدة لبناء ذاتها بالاستعانة بلطف الله، هي ـ فقط ـ التي تستفيد من آيات الله، وذلك طبقاً لقوله تعالىٰ: **﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه﴾** كمن هو قاسي القلب لا يهتدي بنور!!

أمّا القاسية قلوبهم، فهم الذين لا تؤثر بهم المواعظ ولا الوعيد ولا البشرى، ولا الآيات القرآنية المؤثرة، ولا ينمي مطر الوحي الباعث للحياة عندهم ثمار التقوىٰ والفضيلة، وبصورة موجزة يمكن القول بأنّهم كالنباتات التي لا طراوة فيها ولا أوراق ولا ثمار ولا ظلّ.

نعم **﴿أولئك في ظلال مبين﴾**[1].

«القاسية» مشتقّة من (قسوة)وتعني الخشونة والصلابة والتحجر، لذلك تطلق صفة (قاسية) على الأحجار الصلبة، و يقال للقلوب التي لا تظهر أي استجابة لنور الحق والهداية، ولا تلين ولا تستسلم لها، ولا تسمح بنفوذ نور الحقّ والهداية إليها **(قلوب قاسية)**.

على أية حال، فإنّ هذه العبارة جاءت في مقابل (انشـراح الصـدر) وسـعة الروح، لأنّ الرحابة والإتساع كناية عن الإستعداد للإستقبال، فالشارع والبيت الواسع يمكنهما أن يضمّا

---

١ ـ سورة الزمر: الآية ٢٢.

أناساً كثيرين، وكذلك الصدر الواسع والروح المنشرحة، فإنّها مستعدّة لتقبّل حقائق أكثر.

ستة احاديث حول قساوة القلب

١ ـ قد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام جاء فيه: «**أوحىٰ الله عزّوجلّ إلى موسىٰ: يا موسىٰ لا تفرح بكثره المال، ولا تدع ذكري على كلّ حال، فإن كثرة المال تنسي الذنوب، وإن ترك ذكري يقسي القلوب**»(١).

٢ ـ في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام، جاء فيه: «**ما جفت الدموع إلّا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب**»(٢).

٣ ـ جاء في حديث للإمام علي عليه السلام: «**لا تعالجوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، ولا يطولنّ عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم**»(٣).

٤ ـ ونقرأ في حديث آخر عن لسان عيسى المسيح عليه السلام: «**لا تكثروا بالكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم، فإنّ القلب القاسي بعيد من الله، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنّكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنّكم عبيد، والناس رجلان: مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية**»(٤).

٥ ـ كما ورد في حديث ثالث أنّ من جملة كلام الله سبحانه وتعالىٰ مع موسىٰ عليه السلام «**يا موسىٰ لا تطول في الدنيا أملك، فيقسو قلبك، والقاسي القلب مني بعيد**»(٥).

٦ ـ وأخيراً، ورد حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام جاء فيه: «**لمتان: لمة من الشيطان ولمة من الملك، فلمّة الملك الرقة والفهم، ولمّة الشيطان السهو والقسوة**»(٦).

على أية حال، فإن من يريد انشراح صدره وإزالة القساوة من قلبه، عليه أن يتوجه نحو الباريء عزّوجلّ كي يبعث الأنوار الإلهية في قلبه كما وعد بذلك الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

---

١ ـ بحار الانوار: ٧٠/٥٥، الحديث ٢٣.

٢ ـ بحار الأنوار: ٧٠/٥٥، الحديث ٢٤.

٣ ـ بحار الأنوار: ٧٨/٨٣، الحديث ٨٥.

٤ ـ تفسير مجمع البيان: ٩/٢٣٨.

٥ ـ اصول الكافي، المجلد ٢، باب القسوة الحديث (١).

٦ ـ المصدر السابق الحديث (٣).

وعليه أن يصقل مرآة قلبه من صدأ الذنوب، ويطهّر روحه من أوساخ هوىٰ النفس والوساوس الشيطانية، استعداداً لإستقبال المعشوق، وأن يسكب الدموع خوفاً من الله وحباً له، فإنّ في ذلك تأثيراً عجيباً لا نظير له علىٰ رقّة ولين القلب ورحابة الروح، وفي المقابل فان جمود العين هو إحدىٰ علامات القلب المتحجر.

١٦

حياة وموت القلوب

في الإنسان أنواع من الحياة والموت:

الأوّل: الحياة والموت النباتي الذي مظهره النمو والرشد والتغذية والتوالد، وهو في هذا الشأن يشابه جميع النباتات.

الثاني: الحياة والموت الحيواني. وأبرز مظاهرها «الإحساس» و «الحركة»، وهو مشترك في هاتين الصفتين مع جميع الحيوانات.

أمّا النوع الثالث من الحياة الخاصّ بالإنسان فقط، فهو (الحياة الإنسانية والروحية). وهو ما قصدته الروايات بقولها «حياة القلوب». حيث أنّ المقصود بالقلب هنا «الروح والعقل والعواطف» الإنسانية.

ففي حديث أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام حول القرآن يقول: «وتعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب»[١].

وفي حديث آخر له عليه أفضل الصلاة والسلام يقول عن الحكمة والتعلّم: «واعلموا أنّه ليس من شيء إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملّه إلّا الحياة، فإنّه لا يجد في الموت راحة، وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميّت وبصر للعين العمياء»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإنّ من البلاء الفاقة، وأشدّ من الفاقة مرض البدن، وأشدّ

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١١٠.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣.

من مرض البدن مرض القلب، ألا وإنّ من صحّة البدن تقوى القلوب»[١].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه**»[٢].

ومن جهة أُخرى فإنّ القرآن الكريم يشخّص للإنسان نوعاً خاصّاً من الإبصار والسماع والإدراك والشعور، غير النظر والسماع والشعور الظاهري، ففي الآية (١٧١) من سورة البقرة نقرأ: ﴿**صم بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾.

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً**﴾.[٣]

كذلك يقول سبحانه: ﴿**ثمّ قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة**﴾.[٤]

وحول مجموعة من الكافرين يعبّر تعبيراً خاصاً فيقول تعالى: ﴿**أُولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم**﴾.[٥]

وفي موضع أخر يقول تعالى: ﴿**إنّما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثمّ إليه ترجعون**﴾.[٦]ژ

ولإيضاح حقيقة هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: ﴿**فإنّها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور**﴾[٧].

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحياناً أكثر وعياً من الآخرين. أمّا العمي فهم الذين تعمى قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبداً! لهذا يقول الرّسول الأكرمﷺ: «**شرّ العمى، عمى القلب! وأعمى العمى عمى القلب**»[٨].

ونطالح حديثاً للرسول الأكرمﷺ في كتاب غوالي اللآلي «**إذا أراد الله بعبد خيراً فتح**

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٨٨.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار كلمة ٣٤٥.

٣ ـ سورة البقرة: الآية ١٠.

٤ ـ سورة البقرة: الآية ٧٤.

٥ ـ سورة المائدة: الآية ٤١.

٦ ـ سورة الأنعام: الآية ٣٦.

٧ ـ سورة الحج : الآية ٤٦ .

٨ ـ تفسير نور الثقلين: ٣/٥٠٨.

عين قلبه فيشاهد بها ما كان غائباً عنه»[١].

محور الحياة و الموت

من مجموع هذه التعبيرات وتعبيرات كثيرة أُخرى شبيهة لها يظهر بوضوح أنّ القرآن يعدّ محور الحياة والموت، هو ذلك المحور الإنساني والعقلاني، إذ أنّ قيمة الإنسان تكمن في هذا المحور.

وفي الحقيقة فإنّ الحياة والإدراك والإبصار والسماع وأمثالها، تتلخّص في هذا القسم من وجود الإنسان، وإن اعتبر بعض المفسّرين هذه التعبيرات مجازية، إذ أنّ ذلك لا ينسجم مع روح القرآن هنا، لأنّ الحقيقة في نظر القرآن هي هذه التي يذكرها، والحياة والموت الحيوانيان هما المجازيان لا غير.

إنّ أسباب الموت والحياة الروحية كثيرة جدّاً، ولكن القدر المسلّم به هو أنّ النفاق والكبر والغرور والعصبية والجهل والكبائر، كلّها تميت القلب، ففي مناجاة التائبين التي تروى عن الإمام السجّاد عليه السلام في الصحيفة السجادية ورد «**وأمات قلبي عظيم جنايتي**»[٢].

فهل أنّ من يرضى من حياته فقط بأن يعيش غير عالم بشيء في هذه الدنيا، ويجري دائماً مدار العيش الرغيد الرتيب، لا يعبأ بظلامة المظلوم، ولا يلبّي نداء الحقّ، يفكّر في نفسه فقط، ويعتبر نفسه غريباً حتّى عن أقرب الأقرباء، هل يعتبر مثل هذا إنساناً حيّاً؟

وهل هي حياة تلك التي تكون حصيلتها كميّة من الغذاء المصروف، وإبلاء بعض الألبسة، والنوم والإستيقاظ المكرور؟ وإذا كانت تلك هي الحياة فما هو فرقها عن حياة الحيوان؟

إذاً يجب أن نقرّ ونعترف بأنّ وراء هذه الحياة الظاهرية يكمن عقل وحقيقة أكّد عليها القرآن وتحدّث عنها.

الجميل أنّ القرآن يعتبر الموتى الذين كان لموتهم آثار الحياة الإنسانية أحياءاً، ولكن الأحياء الذين ليس فيهم أي من آثار الحياة الإنسانية فانّهم في منطق القرآن الكريم أموات أذلّاء.

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٥٠٩.

٢ ـ المناجات الخامسة عشرة للإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام ، مناجات التائبين.

١٧

حسن الظن بالله تعالى

يوضح القرآن الكريم بشكل قاطع خطورة سوء الظن بالله تعالىٰ، ومآل ذلك إلىٰ الهلاك والخسران.

وبعكس ذلك فإنّ حسن الظن بالله تعالىٰ سبب للنجاة في الدنيا والآخرة.

روي عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **أنّ الله إذا حاسب الخلق يبقى رجل قد فضلت سيئاته على حسناته، فتأخذه الملائكة إلى النّار وهو يلتفت، فيأمر الله بردّه، فيقول له: لم إلتفت؟ ـ وهو تعالىٰ أعلم به ـ فيقول: يا ربّ ما كان هذا ظنّي بك، فيقول الله تعالىٰ: يا ملائكتي! وعزّتي وجلالي والائي وعلوي وارتفاع مكاني، ما ظن بي عبدي هذا ساعة من خير قط، ولو ظنّ بي ساعة من خير ما ودعته بالنّار، أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنّة». ثمّ أضاف رسول الله: ليس من عبد يظن بالله عزّوجلّ خيراً إلّا كان عند ظنّه به وذلك قوله عزّوجلّ: ﴿وذلكم ظنّكم الذي ظننتم بربّكم أرديٰكم فأصبحتم من الخاسرين[1]﴾[2].**

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: **«ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنّه يشرف على النّار، ويرجوه رجاءً كأنّه من أهل الجنّة، إنّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربّكم﴾...ثم قال: إنّ الله عند ظن عبده، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»[3].**

---

١ ـ سورة فصّلت: الآية ٢٣.

٢ ـ تفسير علي بن إبراهيم كما نقل عنه تفسير نور الثقلين: ٤/٥٤٤.

٣ ـ تفسير مجمع البيان في تفسير الآيات ٢٢ ـ ١٩ من سورة القصص.

حسن الظن بالله ثمن الجنّة

إنّ حسن الظن بالله ورحمته ووعده وكرمه ولطفه وعنايته من علائم الإيمان المهمّة ومن الأسباب المؤثّرة في النجاة والسعادة!.

حتىٰ أنّه ورد في بعض أحاديث الرّسول ﷺ قوله: «ليس من عبد يظنّ بالله خيراً إلّا كان عند ظنّه به»[١].

كما ورد عن الإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام أنّه قال: «أحسن بالله الظن فإنّ الله عزَّ وجلَّ يقول أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي إن خير فخير وإن شر فشر»[٢].

وورد حديث آخر عن النّبي ﷺ يقول فيه: «إنّ حسن الظنّ بالله عزَّوجلَّ ثمن الجنّة»[٣]!.

فأي قيمة أيسر من هذا.. وأيُّ متاعٍ أعظم قيمةً منه!؟

و ورد في الحديث عن أمير المومنين عليه السلام وهو ينصح ولده: «بني خف اللّه أنّك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يقبلها منك، وأرج اللّه رجاءً أنّك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك»[٤].

وحتىٰ أنّ الرّسول ﷺ كان يقول: «لن يدخل الجنّة أحداً عمله».

قالوا: ولا أنت يا رسول اللّه؟

قال: «ولا أنا، إلّا أن يتغمدني اللّه برحمته»[٥].

---

١ ـ بحار الأنوار: ٧٠/٣٨٤.

٢ ـ بحار الأنوار : ٧٠/٣٨٥.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ جامع الأخبار، ص١١٣.

٥ ـ جامع الاخبار، ص١١٣ .

١٨

حسن الظن بالناس

الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمن مطلق، ولا يكتفي بأن يكفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضاً فحسب، بل أسمىٰ من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم، بل وأرقىٰ من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم وظنّهم أيضاً.. وأن يُحسّ كلٌّ منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال الإتهامات في منطقة أفكاره.

وهذا الأمن في أعلىٰ مستوىٰ ولا يمكن تحقّقه إلّا في مجتمع رسالي مؤمن.

نموذج من الآيات والروايات

١ ـ يقول النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الصدد: «إنّ الله حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يُظنّ به السوء»[١].

إنّ سوء الظن لا أنّه يؤثر علىٰ الطرف المقابل ويسقط حيثيّته فحسب، بل هو بلاء عظيم علىٰ صاحبه لأنّه يكون سبباً لإبعاده عن التعاون مع الناس ويخلق له عالماً من الوحشة والغربة والإنزواء.

٢ ـ ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «من لم يحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد»[٢].

---

١ ـ المحجّة البيضاء: ٢٦٨/٥.

٢ ـ غرر الحكم الصفحة ٦٩٧.

وبتعبير آخر، إنّ ما يفصل حياة الإنسان عن الحيوان ويمنحها الحركة والرونق والتكامل هو روح التعاون الجماعي، ولا يتحقّق هذا الأمر إلّا في صورة أن يكون الإعتماد علىٰ الناس (وحسن الظن بهم) حاكماً.. في حين أنّ سوء الظن يهدم قواعد هذا الإعتماد، وتنقطع به روابط التعاون، وتضعف به الروح الإجتماعية.

وهكذا الحال في التجسس والغيبة أيضاً.

إنّ سيىء النظرة والظن يخافون من كلّ شيءٍ ويستوحشون من كلّ أحد وتستولي علىٰ أنفسهم نظرة الخوف، فلا يستطيعون أن يقفوا علىٰ ولي ومؤنسٍ يطوي الهموم، ولا يجدون شريكاً للنشاطات الإجتماعية، ولا معيناً ونصيراً ليوم الشدّة!

في غير الصورة التي يكون فيها العلم اساس الاحكام والمواقف، فإنّ حالة من الفوضىٰ ستضرب العلاقات الاجتماعيّة، إذ سوف لا يبقىٰ اي شخص بمنأىٰ عن الشك والريب، وبمأمن عن سوء الظن وستنعدم الثقة بين الافراد، وتكون مكانة المجتمع في خطر.

٣ ـ الآيات والأحاديث الإسلاميّة تنتقد بشدة الافراد الذين يتبعون الظنّ ويجعلونه مقياساً لقناعاتهم **﴿وما يتبع اكثرهم الّا ظنّاً، إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾**[١].

٤ ـ أما الآية (٢٣) من سورة النجم، فإنّها اعتبرت الظن في مرتبة اتباع هوىٰ النفس **﴿إن يتّبعون الّا الظنّ و ما تهوي الأنفس﴾**.

حقيقة الإيمان

٥ ـ وفي حديث عن الامام الصادقعليه‌السلام نقرأ: **«إن من حقيقة الإيمان أن لا يجوز منطقك علمك»**[٢].

٦ ـ وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر نقل عن آبائهعليهم‌السلام، قوله: **«ليس لك ان تتكلم بما شئت، لأنّ الله عزوجلّ يقول: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾**[٣].[٤]

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٣٦.

٢ ـ وسائل الشيعة: ١٦/١٨.

٣ ـ سورة الاسراء: الآية ٣٦.

٤ ـ وسائل الشيعة: ١٧/١٨.

٧ ـ و عن الرسول ﷺ قال: «ايّاكم و الظن فإنّ الظنّ أكذب الكذب»[١].

٨ ـ وفي من لا يحضره الفقيه: قال رجل للصادق عليه السلام : إن لي جيراناً ولهم جوار يتغنين و يضربن العود، فربما دخلت المخرج فاطيل الجلوس استماعاً مني لهنّ قال له الصادق عليه السلام: «تالله أنت أما سمعت الله يقول: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولاً﴾[٢]. فقال الرجل: كأني لم اسمع بهذه الآية من كتاب الله عزوجل من عربي ولا عجمي ولا جرم أني قد تركتها و أنا استغفر الله تعالى[٣].

وفي بعض المصادر الحديثية نقرأ أن الامام الصادق عليه السلام امر الرجل أن ينهض ويغسل غسل التوبة، و ان يصلي ما استطاع، لانّه قد ارتكب عملاً سيئاً لو قبض عليه لكانت مسؤولية عظيمة.

من خلال مجموع هذه الآيات والروايات تتضح مدىٰ المسؤولية التي تقع على العين والاذن ، وكيف انّ الاسلام ينهىٰ عن ان يقول إنسان ما لم يسمع، أو ما لا يقوم على العلم، أو ان يتحدث عن اشياء لم يرها، اذ العلم وحده هو الميزان دون اتباع الظن والوهم والحدس، او الاعتماد على الشك والاشاعه، لان سبيل الاعتماد علىٰ هذه المصادر يؤدي اليٰ آثار خطرة علىٰ حياة الفرد والمجتمع.

سؤال وجواب

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو أنّ الظنّ السيء أو الظن الحسن ليسا اختياريين (غالباً) وإنّما يكون كلٌّ منهما علىٰ أثر سلسلةٍ من المقدّمات الخارجة عن اختيار الإنسان والتي تنعكس في ذهنه، فكيف يصحُّ النهي عن ذلك؟!

وفي مقام الجواب يمكن القول بأنّه:

١ ـ المراد من هذا النهي هو النهي عن ترتيب الآثار، أي متىٰ ما خطر الظنّ السيء في الذهن عن المسلم فلا ينبغي الإعتناء به عمليّاً، ولا ينبغي تبديل أُسلوب التعامل معه ولا تغيير الروابط مع ذلك الطرف، فعلىٰ هذا الأساس فإنّ الإثم هو إعطاء الأثر وترتّبه عليه.

---

١ ـ وسائل الشيعة : ٣٨/١٨.

٢ ـ سورة الاسراء : الآية ٣٦.

٣ ـ تفسير نور الثقلين: ١٦٤/٣ .

ولذلك نقرأ في هذا الصدد حديثاً عن نبيّ الإسلام يقول فيه: «**ثلاث في المؤمن لا يستحسنّ، وله منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظن ألّا يحقّقه**»[١]... إلىٰ آخر الحديث الشريف.

٢ ـ يستطيع الإنسان أن يبعد عن نفسه سوء الظن بالتفكير في المسائل المختلفة، بأن يفكر في طرق الحمل علىٰ الصحة، وأن يجسّد في ذهنه الإحتمالات الصحيحة الموجودة في ذلك العمل، وهكذا يتغلّب تدريجاً علىٰ سوء الظنّ!

فبناءً علىٰ هذا ليس سوء الظن شيئاً (ذا بال) بحيث يخرج عن اختيار الإنسان دائماً!

لذلك فقد ورد في الروايات أنّه: «**ضع أمر أخيك علىٰ أحسنه حتىٰ يأتيك ما يقلبك منه، ولا تظنّنّ بكلمةٍ خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجدُ لها في الخير محملاً**»[٢].

وعلىٰ كلّ حال فإنّ هذا الأمر واحد من أكثر الأوامر والتعليمات جامعيّةً ودقّةً في مجال روابط الإنسان الإجتماعية الذي تضمن الأمن في المجتمع بشكل كامل! وسيأتي بيانه وتفصيله في فقرة البحوث.

---

١ ـ المحجّة البيضاء: ٥/٢٦٩.

٢ ـ أصول الكافي، ج ٢، باب التهمة وسوء الظن، الحديث ٣، وقد ورد شبيه هذا المعنىٰ في نهج البلاغة مع شيءٍ من التفاوت في «الكلمات القصار، رقم ٣٦٠».

١٩

جذبة الشهود عند اولياء الله

إنّ أولياء الله غارقون في صفات جماله وجلاله، وذائبون في مشاهدة ذاته المقدسة إلى الحد نسوا كل شيء غيره، ومعلوم أنّ الغم والحزن والخوف والوحشة تحتاج حتماً إلى تصور فقدان وخسارة شيء ما، أو مواجهة عدو أو موجود خطر، فمن لم يجعل لغير الله مكاناً في قلبه ولا طريقاً الى فكره، ولا يقبل في روحه إله غيره، كيف يمكن أن يغتم ويخاف ويستوحش؟

لقد اتّضحت ممّا قلناه هذه الحقيقة أيضاً، وهي أنّ المقصود من الغموم هي الغموم المادية والأخاويف الدنيوية، وإلّا فإنّ وجود أولياء الله مملوء بالخوف والخشية .. الخوف من عدم أداء الواجبات والمسؤولية. والأسف والحسرة على أن يكون قد فاتهم شيء من الموفقية، ولهذا الخوف والحسرة صفة معنوية، فهما أساس تكامل وجود الإنسان ورقيّه، بعكس الخوف والحزن الدنيويين فهما أساس الإنحطاط والتسافل.

يقول أميرالمؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة مع همام، حيث يجسد فيها حالات أولياء الله في أرقى وصف: «قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة»، ثمّ يقول: «ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب»[1].

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣. صبحي الصالح.

سلام الله علىٰ أهل الجنّة

في رواية عن النّبيﷺ أنّه قال: «بينا أهل الجنّة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فـرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف من فوقهم فقال: السلام عليكم ياأهل الجنّة، وذلك قول الله تعالى: ﴿سلام قولاً من ربٍّ رحيم﴾[١] قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتّى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم»[٢].

نعم فإنّ جذبة مشاهدة المحبوب، ورؤية لطفه، تبعث اللذّة والشوق في النفس بحيث أنّ لحظة واحدة من تلك المشاهدة العظيمة لا يمكن مقارنتها بأيّة نعمة، بـل بـالعالم أجـمع، وعشّاق رؤيته والنظر إليه هائمون في ذلك إلى درجة أنّه لو قـطعت عـنهم تـلك الإفـاضة المعنوية فإنّهم يحسّون بالحسرة والألم، وكما ورد في حديث لأمير المؤمنين عليه أفـضل الصلاة والسلام «لو حجبت عنه ساعة لمتّ»[٣].

الملفت للنظر أنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّ سلام الله الذي ينثره على المؤمنين في الجنّة، هو سلام مستقيم بلا واسطة، سلام منه تعالى، وأي سلام ذلك الذي يمثّل رحمته الخاصّة! أي أنّه ينبعث من مقام رحيميته وجميع ألطافه وكراماته مجموعة فيه، ويا لها من نعمة عظيمة!!

وفي حديث عن النّبيﷺ أنّه قال:

«إذا دخل أهل الجنّة الجنّة يقول الله تعالىٰ تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تـبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجينا من النّار»؟

قال: « فيكشف الله تعالىٰ الحجاب فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر الىٰ ربّهم»![٤]

اوصاف المشتاقين

يقول الإمام الصادقؑ ـ كما روي عنه ـ «المشتاق لا يشتهي طعاماً، ولا يلتذّ شراباً، ولا

١ ـ سورة يس : الآية ٥٨.

٢ ـ تفسير روح المعاني: ٣٥/٢٣. في تفسير الآية ٥٨ ـ ٥٤ من سورة يس .

٣ ـ تفسير روح البيان: ٤١٦/٧.

٤ ـ تفسير روح المعاني: ١٤٥/٢٩.

يستطيب رقاداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوي داراً ... ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه ... كما أخبر الله عن موسى بن عمران في ميعاد ربّه بقوله: وعجلت إليك ربّ لترضى[1]»[2].

١ ـ سورة طه: الآية ٨٤.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٣٨٨/٣.

٢٠

السعادة والشقاء

السعادة ضالّة كل الناس، وكلّ واحد يبحث عنها في شيءٍ ما ويطلبها في مكان ما، وهي توفّر أسباب تكامل الفَرد في المجتمع، والنقطة المقابلة لها هي الشقاء الذي يتنفر منه كل أحد، وهو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح والتقدم والتكامل.

فعلى هذا، كل من توفرت له اسباب التحرك والتقدم نحو الاهداف السامية روحياً وجسمياً وعائلياً وبيئياً وثقافياً، فهو أقرب للسعادة، وبتعبير آخر هو أكثر سعادة!

ولكن ينبغي الإلتفات الى أنّ أساس السعاده أو الشقاء هو إرادة الإنسان نفسه، فهو يستطيع أن يوفر الوسائل لترشيد نفسه وحتى مجتمعه، وهو الذي يستطيع أن يواجه عوامل الشقاء ويهزمها أو يستسلم لها.

وليس الشقاء أو السعادة في منطق الوحي ومدرسة الانبياء في داخل ذات الإنسان شيئاً وحتى النواقص في المحيط والعائلة والوراثة كل ذلك قابل للتغيير بتصميم الإنسان وإرادته إلّا أن ننكر أصل الإرادة في الإنسان وحريته، ونعدّه محكوماً بالظروف الجبرية، وكل من سعادته أو شقائه ذاتي أو هو نتيجة جبرية لمحيطه، وما الى ذلك.

وهذا الرأي مرفوض في نظر الأنبياء وفي نظر المذهب العقلي أيضاً.

اسباب السعادة و الشقاوة في الروايات

الطريف أنّنا نجد في الرّوايات المنقولة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام اشارات الى مسائل مختلفة على أنّها أسباب السعادة، أو أسباب الشقاء ... بحيث يتعرف الإنسان خلال

مطالعتها على طريقة التفكير الإسلامي في هذه المسألة المهمّة، وسيقفُ على الواقعيات العينية وأسباب السعادة الحقيقية، بدلاً من أن يقف عليها في المسائل الخرافية والتصوّرات والسنن الخاطئة الموجودة في كثير من المجتمعات.

ونلفت نظر القارىء الكريم على سبيل المثال الى بعض الأحاديث الشريفة في هذا الصدد:

١ ـ ينقل الإمام الصّادق عليه السلام عن جدّه أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال «**حقيقة السعادة أن يختم للرجل عمله بالسعادة وحقيقة الشقاوة أن يختم للرجل بالشقاوة**»[١].

فهذه الرّواية تقول بصراحة: إنّ المرحلة النهائية لعمر الإنسان وأعماله هي المرحلة التي تكشف عن سعادته و شقاوته، وعلى هذا فهي تنفي السعادة أو الشقاء الذاتيين، وتجعل الإنسان رهين عمله، كما تجعل طريق العودة مفتوحاً في جميع المراحل حتى نهاية عمره.

٢ ـ ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام «**السعيد من وُعظ بغيره والشقي من انخدع لِهواه وغروره**»[٢].

وكلام الإمام علي عليه السلام هذا تأكيد آخر على عدم ذاتية السعادة والشقاء وبيان بعض أسبابهما.

اربعة اسباب للسعادة

٣ ـ ويقول نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «**أربع من أسباب السعادة وأربع من الشقاوة، فالأربع التي من السعادة المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب البهيّ. والأربع التي من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء**»[٣].

مع ملاحظه أنّ هذه الأُمور الأربعة لها تأثير بالغ في الحياة المادية والمعنوية لكل أحد، ويمكن أن تكون من عوامل النجاح او الفشل وتتّضح بهذا سعة مفهوم السعادة والشقاوة في منطق الإسلام.

---

١ ـ تفسير نورالثقلين : ٣٩٨/٢.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

٣ ـ مكارم الاخلاق، ص ٦٥.

فالمرأة الصالحة ترغّب الإنسان في أنواع «الحسنات»، والبيت الواسع يهب روح الإنسان وفكره الهدوء والراحة ويهيؤه للنشاط والفعالية، والجار الصالح الذي يقدم له عوناً مؤثراً في راحته واستقراره وحتى في تقدم أهداف الإنسانية، المركب الجيد عامل مؤثر في الوصول إلى الأعمال والوظائف الإجتماعية، في حين أنّ المركب السوء يكون عاملاً في التأخير ولا يوصل صاحبه الى هدفه.

علامات الشقاء

٤ ـ روي عن النّبي ﷺ: **«من علامات الشقاء: جمود العينين، وقسوة القلب، وشدّة الحرص في طلب الرزق، والإصرار على الذنب»**[١].

هذه الأُمور الأربعة التي وردت في الحديث المتقدم، هي أُمور اختيارية وهي نتيجة أعمال الإنسان وأخلاقه الإكتسابية نفسه، وعلى هذا فإنّ أبعاد أسباب الشقاء هذه تكمن في اختيار الإنسان نفسه.

وإذا لاحظنا أسباب السعاده والشقاوة في الأحاديث المتقدمة وحقيقتهما وأثرهما البالغ في حياة البشر، وقارنّاهما مع الأسباب والمسائل الخرافية التي يعتقد بها جمع كثير ـ حتى في عصرنا عصر الذّرة والفضاء ـ لوصلنا الى هذا الواقع الذي يؤكّد أنّ التعاليم الإسلامية منطقيّة ومدروسة الى أقصى حد.

الآراء الخرافيّة

ولا يزال الى اليوم من يعتقد أنّ نعل الفرس سبب للسعادة، وأنّ اليوم الثّالث عشر سبب لسوء الحظّ ... والقفز على النّار في بعض ليالي السنة من أسباب السعادة، وصوت بعض الطيور سبب للشقاء وسوء الحظ، وسكب الماء عند خروج المسافر من أسباب السعادة، والعبور من تحت السلم سبب للشقاء!!

وحتى تعليق بعض الأشياء في رقبة الفرد أو على وسائل النقل من أسباب السعادة والعطاس علامة على الفشل اذا كان حين العمل وكثير من أمثال هذه الخرافات نجدها في

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٢/٣٩٨.

الشرق والغرب بين الأقوام والأُمم المتعددة.

وكم من أُناس تعطلوا عن نشاطهم في الحياة نتيجة ابتلائهم بمثل هذه الخرافات وأصبحوا رهن المصائب الكثيرة.

لقد شطب الإسلام بقلم أحمر على جميع هذه التصوّرات الخرافية، وحدّد ـ مبيّناً بوضوح ـ سعادة الإنسان وشقاوته في الفعاليّات الإيجابية والسلبية ونقاط الضعف والقوّة في الأخلاق والمناهج العملية وطريقة التفكير والعقيدة لكل فرد، من خلال الأمثلة التي قدمناها في الأحاديث الأربعة عن أهل البيت عليهم السلام.

٢١

الامتحان الإلهي

إن مفهوم الإختبار الإلهي يختلف عن الإختبار البشري.

إختباراتنا البشرية تستهدف رفع الإبهام والجهل، والإختبار الإلهي قصده «التربية».

في أكثر من عشرين موضعاً تحدث القرآن عن الإختبار الإلهي، باعتباره سنّة كونية لا تنقض من أجل تفجير الطاقات الكامنة، ونقلها من القوّة إلى الفعل، وبالتالي فالإختبار الإلهي من أجل تربية العباد، فكما أن الفولاذ يتخلص من شوائبه عند صهره في الفرن، كذلك الإنسان يخلص وينقىٰ في خضمّ الحوادث، ويصبح أكثر قدرة علىٰ مواجهة الصعاب والتحديات.

الإختبار الإلهي يشبه عمل زارع خبير، ينثر البذور الصالحة في الأرض الصالحة، كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة وتبدأ بالنمو، ثمّ تصارع هذه البذرة كل المشاكل والصعاب بالتدريج، وتقاوم الحوادث المختلفة كالرّياح العاتية والبرد الشديد والحر اللافح، لتخرج بعد ذلك نبتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

ومن أجل تصعيد معنويات القوات المسلحة، يؤخذ الجنود إلى مناورات وحرب إصطناعية، يعانون فيها من مشاكل العطش والجوع والحر والبرد والظروف الصعبة والحواجز المنيعة.

وهذا هو سرُّ الإختبارات الإلهية.

يقول سبحانه في كتابه العزيز: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

---

١ ـ سورة آل‌عمران: الآية ١٥٤.

حكمة الإبتلاءات في كلام اميرالمؤمنين عليه السلام

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في بيان سبب الإختبارات الإلهية: «... وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعَالُ الَّتي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوابُ وَالْعِقَابُ»[١].

أي أن الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلابدّ أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، والله يختبر عباده ليتجلّىٰ ما يضمرونه في أعمالهم، ولكي تنتقل قابليّاتهم من القوّة إلى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب.

لو لم يكن الإختبار الإلهي لما تفجرت هذه القابليات، ولما أثمرت الكفاءات، وهذه هي فلسفة الإختبار الإلهي في منطق الإسلام.

الإختبار الإلهي عام

نظام الحياة في الكون نظام تكامل وتربية، وكل الموجودات الحيّة تطوي مسيرة تكاملها، حتى الأشجار تعبّر عن قابلياتها الكامنة بالأثمار، من هنا فإن كل البشر، حتى الأنبياء، مشمولون بقانون الإختبار الإلهي كي تنجلي قدراتهم.

الإمتحانات تشمل الجميع وإن اختلفت شدّتها وبالتالي تختلف نتائجها أيضاً، يقول سبحانه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[٢].

ثمّ يذكر القرآن هذه الحقيقة ـ بعد الآية المتقدمة مباشرة، وهي أن الإمتحان سنة الهية دائمية، فالامتحان لا يختص بكم ـ أيّها المسلمين ـ بل هو سنة جارية في جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾.

وهكذا ألقينا بهم أيضاً في أفران الإمتحانية الشديدة الصعبة... ووقعوا أيضاً ـ تحت تأثير ضغوط الأعداء القُساة والجهلة المعاندين.. فساحة الإمتحان كانت مفتوحة دائماً، واشترك فيها جماعة كثيرون.

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٩٣.

٢ ـ سورة العنكبوت: الآية ٢.

وينبغي أن يكون الأمر كذلك، لأنّه في مقام الإدعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنّه أشرف مجاهد وأفضل مؤمن وأكثر الناس تضحيةً.. فلابدّ من معرفة قيمة هذه الإدعاءات بالإمتحان، وينبغي أن تعرف النيات والسرائر إلى أي مدى تنسجم مع هذه الإدعاءات.؟!

أجل ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[١].

ظهور علم الله

من البديهي أنّ الله يعرف جميع هذه الأُمور جيداً ـ قبل أن يخلق الإنسان ـ إلّا أنّ المراد من العلم هنا هو التحقق العيني للمسائل.. ووجودها الخارجي، وبتعبير آخر: ظهور الآثار والشواهد العملية.. ومعناه أنّه ينبغي أن يرى علم الله في هذه المجموعة عملياً في الخارج، وأن يكون لها تحقق عيني، وأن يكشف كلٌّ عمّا في نفسه وداخله... هذا هو العلم حين يطلق على مثل هذه المسائل وينسب إلى الله!.

والدليل على هذه المسألة واضح ـ أيضاً ـ لإنّ النيّات والصفات الباطنية إذا لم تحقق في عمل الإنسان وتكون عينيّة، فلا مفهوم للثواب والجزاء والعقاب!.

وبعبارة أُخرى: فإنّ هذا العالم مثله كمثل «المدرسة» أو «المزرعة» [والتشبيهات هذه واردة في متون الأحاديث الإسلامية] والمنهج هو أن تتفتح الإستعدادات وتربّى القابليات وتكون فعلية بعد ما كانت بالقوّة.

وينبغي أن تنمو البذور في هذه المدرسة وأن تطلع البراعم من تحت الأرض فتحاط بالرعاية والعناية لتكون شجيرات صغيرة، ثمّ تكون أشجاراً ذوات أصول قوية وأغصان ومثمرّة على تعاقب الزمن.. وهذه الأُمور لا تكون إلّا بالإمتحان والإختبار.

ومن الطريف أنّنا نقرأ حديثاً عن أحد المعصومين في أصول الكافي في تفسير الآية ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون﴾[٢] يقول فيه: «يُفتنون كما يفتن الذهب، ثمّ قال يخلصون كما يخلص الذهب»[٣].

---

١ ـ سورة العنكبوت: الآيات ٣ ـ ١.

٢ ـ سورة العنكبوت: الآية ٢.

٣ ـ أصول الكافي، طبقاً لما نقل في تفسير نور الثقلين: ١٤٨/٤.

وعلى كل حال، فإن طالبي العافية الذين يظنون أنّ إظهار الإيمان كاف بهذا المقدار ليكونوا في صفوف المؤمنين وفي أعلى عليين في الجنّة مع النّبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهم في خطأ كبير.

لتغربلنّ غربلة

وعلى حدّ تعبير أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «**والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم**»[١].

قال عليه السلام: هذا الكلام والناس جديدو عهد ببيعته، وينتظرون ما سيفعل ببيت المال، أيقسمه حسب الجاه والمقامات بحسب المعايير السابقة، فيبعّض في المال، فيعطى الكثير لبعضهم بحسب المقام، والقليل للبعض الآخر!.. أم سيسير معهم بالعدل المحمّدي؟

وأخيراً، فالاختبار الإلهي ـ كما ذكرنا ـ شامل عام يدخل في نطاقه حتى الأنبياء عليهم السلام، بل إن اختبارهم بسبب ثقل مسؤوليتهم أشدّ بكثير من اختبار الآخرين.

القرآن الكريم يعرض صوراً لاختبارات شديدة مرّ بها الأنبياء عليهم السلام وبعضهم مرّ بمراحل طويلة شاقة قبل وصوله إلى مقام الرسالة، كي يكون على أتمّ الإستعداد لتحمل أعباء قيادة أُمّته.

نماذج من الإختبارات الإلهيّة

القرآن يعرض نماذج لإختبارات الأنبياء إذ يقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾[٢].

ورد في الروايات الإسلامية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ أشد الناس بلاءاً الأنبياء، ثمّ الذين يلونهم، الأمثل فالأمثل**»[٣].

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ في الجنّة منزلة لا يبلغها عبد إلّا بالإبتلاء**»[٤].

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ١٢٤.

٣ ـ سفينة البحار: ١/١٠٥، مادّة (بلاء).

٤ ـ المصدر السابق.

ويقول القرآن الكريم بشأن إختبار سليمان: ﴿فَلَمّا رَءَاهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قَالَ: هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُونِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ...﴾[١].

الإمتحانات في وجوه مختلفة

إن كل جماعة وطائفة لها نصيب من هذه السنة الإلهية فهم شركاء فيها، إلّا أن الإمتحانات الإلهية لهم تأتي بصور مختلفة.

فالجماعة الذين يعيشون في محيط ملوث بالمفاسد والوساوس تحيط بهم من كل جانب، فإن امتحانهم الكبير في مثل هذا الجو والظروف، هو أن لا يتأثروا بلون المحيط وأن يحفظوا أصالتهم ونقاءهم.

والجماعة الذين يعيشون تحت ضغط الحرمان والفقر، يرون بأنّهم لو صمموا على ترك رأس مالهم الأصيل «الإيمان» فإنّهم سرعان ما يتخلصوا من الفقر والحرمان لكن ثمن ذلك هو فقدانهم للايمان والتقوى والكرامة والحرية والشرف، فهنا يكمن امتحانهم..

وجماعة آخرون على عكس أُولئك غرقى في اللذائذ والنعم، والإمكانات المادية متوفرة لديهم من جميع الوجوه... ترى هل يؤدون في مثل هذه الظروف الشكر على النعم.. أم سيبقون غرقى في اللذائذ والغفلة وحب الذات والأنانية... غرقى الشهوات والإغتراب عن المجتمع وعن أنفسهم!

وجماعة منهم كالمتغربين في عصرنا، يرون بعض الدول بعيدة عن الله والفضيلة والأخلاق حقّاً، ولكنّها تتمتع بالتمدن المادي المذهل والرفاه الإجتماعي. هنا تجذب هؤلاء المتغرّبين قوّة خفية إلى سلوك هذا النوع من الحياة أو سحق جميع القيم والأصول والأعراف التي يعتقدون بها، ويبيعون أنفسهم أذلاء عملاء لتلك الدول، ليوفروا لهم ولمجتمعهم مثل هذه الحياة... وهذا نوع آخر من الإمتحان.

المصائب، والآلآم والهموم، والحروب والنزاعات، والقحط والغلاء، وما تثيره الحكومات الأنانية لتجذبهم إليها وتستعبدهم به وأخيراً الأمواج النفسية القوية والشهوات، كلّ منها وسيلة للإمتحان في طريق عباد الله، والسائرين في الميادين التي تتميز فيها شخصية الأفراد

---

١ ـ سورة النمل: الآية ٤٠.

وتقواهم وإيمانهم وطهارتهم وأمانتهم وحريتهم..

ذكر القرآن نماذج ممّا يختبر به الإنسان، كالخوف والجوع والأضرار المالية والموت ...
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾[١].

لكن سبل الإختبار الإلهي لا تنحصر بما تقدم فذكر القرآن منها في مواضع أُخرىٰ: البنين، والأنبياء، وأحكام الله، بل حتى بعض الوان الرؤيا: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِ وَالْخَيْرِ﴾[٢].

الاختبار بالنعمة والبلاء

ذكر القرآن في سورة الجن: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيْهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾[٣].

ومن هنا يتّضح أن وفور النعمة من إحدىٰ الأسباب المهمّة في الإمتحان الإلهي، وما يُتفق عليه هو أنّ الإختبار بالنعمة أكثر صعوبة وتعقيداً من الإختبار بالعذاب، لأنّ طبيعة ازدياد النعم هو الإنحلال والكسل والغفلة، والغرق في الملذات والشهوات، وهذا ما يُبعد الإنسان عن اللّه تعالى ويُهيء الأجواء لمكائد الشيطان، والذين يستطيعون أن يتخلصوا من شراك النعم الوافرة هو الذاكرون للّه على كلّ حال، غير الناسين له تعالىٰ، حيث يحفظون قلوبهم بالذكر من نفوذ الشياطين.

وجاء في سورة الفجر: ﴿فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعّمه فيقول ربّي أكرمن﴾[٤].

وكأنّه لا يدري بأنّ الابتلاء سنّة ربّانية تارة يأتي بصورة اليسر والرخاء وأُخرىٰ بالعسر والضراء.

فلا ينبغي للإنسان أن يغتر عند الرخاء، ولا أن ييأس عندما تصيبه عسرة الضراء، ولا ينبغي له أن ينسىٰ هدف وجوده في الحالتين، وعليه أن لا يتصور بأن الدنيا إذا ما أرخت نعمها عليه فهو قد أصبح مقرّباً من اللّه، بل لابدّ أن يفهمها جيداً ويؤدّي حقوقها، وإلّا

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ١٥٥.
٢ ـ سورة الأنبياء: الآية ٣٥.
٣ ـ سورة الجن: الآيات ١٧ ـ ١٦.
٤ ـ سورة الفجر: الآية ١٥.

فسيفشل في الإمتحان.

﴿وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن﴾[١].

فيأخذه اليأس، ويظن إنّ اللّه قد ابتعد عنه، غافلاً عن سنّة الإبتلاء في عملية التربية الربّانية لبني آدم، والتي تعتبر رمزاً للتكامل الإنساني، فمن خلال نظرة ومعايشة الإنسان للإبتلاء يرسم بيده لوحة عاقبته، فأمّا النعيم الدائم، وأمّا العقاب الخالد.

الاختبار بالأموال والأولاد

جاء في القرآن الكريم في سورة الأنفال: ﴿واعلموا إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾[٢].

فكيفية جمع المال وكيفية إنفاقه، والمحافظة عليه و ميزان التعلق به، كل تلك ميادين لإمتحان البشر، فكم من أناس يلتزمون بظاهر العبادة وشعائر الدين، حتى المستحبات يلتزمون بشدّة في أدائها، لكنّهم إذا ما ابتلوا بقضية مالية، تراهم ينسون كل شيء ويدعون الأوامر الإلّهية ومسائل الحق والعدل والإنسانية جانباً.

أمّا عن الأبناء فهم ثمار قلب الإنسان وبراعم حياته المتفتحة، ولهذا نجد الكثير من الناس المتمسكين بالدين والمسائل الأخلاقية والإنسانية، لا يراعوا الحق والدين بالنسبة للمسائل المتعلقة بمصلحة أبنائهم، فكأنّ ستاراً يلقى على أفكارهم فينسون كل الأُمور، ويصير حبّهم لأبنائهم سبباً ليحُلُّوا الحرام ويحرموا الحلال، ومن أجل توفير المستقيل لأبنائهم يستحقون كل حق ويقدمون على كل منكر، فيجب علينا الإعتصام بالله العظيم في هذين الميدانين العظيمين للإمتحان، وأن نحذر بشدّةٍ، فكم من الناس زلت أقدامهم وسقطوا فيهما، وظلت لعنة التأريخ تلاحقهم أبداً بذلك.

إنّ من ازواجكم و أولادكم عدّواً لكم

حذّر القرآن الكريم من مغبّة الوقوع في الحبّ المفرط للأولاد والأموال، الذي قد يجرّ إلى

---

١ ـ سورة الفجر: الآية ١٦.

٢ ـ سورة الانفال: الآية ٢٨.

عدم الطاعة لله ورسوله حيث قال: ﴿ياأيّها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾[١].

إنّ هناك مظاهر عديدة لهذه العداوة، فأحياناً يتعلّقون بثيابكم ليحرموكم خير الهجرة، وأُخرى ينتظرون موتكم ليسيطروا على أموالكم وثروتكم، وما إلى ذلك.

وليس كلّ الأولاد، ولا كلّ الزوجات كذلك، لهذا جاءت «من» التبعيضيّة.

وتظهر هذه العداوة أحياناً بمظهر الصداقة وتقديم الخدمة، وحيناً آخر تظهر بسوء النيّة وخبث المقصد.

وعلى كلّ حال فإنّ الإنسان يصبح على مفترق طريقين، فطريق الله وطريق الأهل والأزواج، ولا ينبغي أن يتردّد الإنسان في اتّخاذ طريق الله وإيثاره على غيره، ففيه النجاة والصلاح في الدنيا والآخرة.

في رواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾[٢] وذلك أنّ الرجل إذا أراد الهجرة تعلّق به إبنه وامرأته وقالوا: ننشدك الله أن لا تذهب عنّا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذّرهم الله أبناءهم ونساءهم، ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول: أما والله لئن لم تهاجروا معي ثمّ جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً. فلمّا جمع الله بينه وبينهم أمر الله أن يتوق بحسن وصله فقال: ﴿وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإنّ الله غفور رحيم﴾[٣].

ويشير القرآن الكريم إلى أصل كلّي آخر حول الأموال والأولاد، حيث تقول: ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ فإذا تجاوزتم ذلك كلّه فإنّ ﴿الله عنده أجر عظيم﴾[٤].

وقد تقدّم في الآية السابقة الكلام عن عداء بعض الأزواج والأولاد الذين يدعون الإنسان إلى الإنحراف وسلوك طريق الشيطان والمعصية والكفر، وفي هذه الآية نجد الكلام عن أنّ جميع الأموال والأولاد عبارة عن «فتنة».

---

١ ـ سورة التغابن: الآية ١٤.

٢ ـ سورة التغابن: الآية ١٤.

٣ ـ تفسير علي بن إبراهيم طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٣٤٢/٥، ونقل هذا المعنى باختصار أشدّ في (تفسير الدر المنثور) وتفاسير أُخرى لم تكن شاملة كالرواية أعلاه.

٤ ـ سورة التغابن: الآية ١٥.

إنّ الله يبتلي الإنسان دائماً من أجل تربيته، وهذين الأمرين (الأموال والأولاد) من أهمّ وسائل الإمتحان والإبتلاء، لأنّ جاذبية الأموال من جهة، وحبّ الأولاد من جهة أُخرى يدفعان الإنسان بشدّة إلى سلوك طريق معيّن قد لا يكون فيه رضا الله تعالى أحياناً، ويقع الإنسان في بعض الموارد في مضيقة شديدة، ولذلك ورد التعبير في الآية «إنّما» التي تدلّ على الحصر.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في رواية عنه «**لا يقولنّ أحدكم: اللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿واعلموا إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾**[1]»[2].

الاختبار بالعلاقات العاطفيّة

إنّ واحداً من أهم الإمتحانات الإلهية، هي مسألة «التضاد» بين خط الإيمان والتقوى وبين علاقة العاطفية والقرابة.. والقرآن في هذا المجال ـ يوضح وظيفة المسلمين بجلاء!

في البداية يتحدث عن قانون كلّي يستمد من جذور العواطف الإنسانية وردّ الجميل فيقول: ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه**﴾.

بعد ذلك، ومن أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أنّ العلاقة العاطفية بالوالدين يمكن أن تكون حاكمةً على العلاقة بين الإنسان وربّه وإيمانه، يأتي استثناء صريح ليوضّح هذا الموضوع في الآية، فيقول تعالى: ﴿**وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما**﴾[3].

فائز و خاسر

نعلم أن النّاس إزاء الإختبارات الإلهية علىٰ نوعين: متفوّق في الإمتحان، وخاسر.

فحيثما تسود حالة «الخوف» مثلاً، ترى جماعة يتراجعون كي لا يصيبهم سوء، فينفضون أيديهم من المسؤولية، أو يلجأون إلى المداهنة أو التماس الأعذار، كقولهم الذين يحكيه

---

١ ـ سورة التغابن: الآية ١٥.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار ٩٣.

٣ ـ سورة العنكبوت: الآية ٨.

القرآن: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾[1].

وثمة جماعة تقف كالطود الأشمّ أمام كل المخاوف، تزداد توكلاً وإيماناً، وهؤلاء الذي يقول عنهم القرآن: ﴿أَلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[2].

وهكذا موقف النّاس من ألوان الإمتحانات الأُخرىٰ، يعرض القرآن نماذج لموقف النّاجحين والفاشلين في الإختبار الإلهي.

عوامل النجاح في الإمتحان

هنا يتعرض الإنسان لاستفهام آخر، وهو أنه اذا كان القرار أن يتعرض جميع أفراد البشر للإمتحان الإلهي، فما هو السبيل لاحراز النجاح والتوفيق في هذا الامتحان؟ القرآن يعرض هذه السبل في القسم الأخير من آية بحثنا وفي آيات أُخرىٰ:

١ ـ أهمّ عامل للإنتصار أشارت إليه الآية بعبارة: ﴿وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ﴾[3]، فالآية تبشّر بالنجاح أُولئك الصابرين المقاومين، ومؤكدة أن الصبر رمز الإنتصار.

٢ ـ الإلتفات إلى أن نكبات الحياة ومشاكلها مهما كانت شديدة وقاسية فهي مؤقّتة وعابرة وهذا الادراك يجعل كل المشاكل والصعاب عرضاً عابراً وسحابة صيف، وهذا المعنى تضمنته عبارة: ﴿إِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[4].

«كلمة الاسترجاع» هذه خلاصة كل دروس التوحيد، والإنقطاع إلى الله، والإعتماد علىٰ ذاته المقدسة في كل شيء وفي كل زمان. وأولياء الله ينطلقون من هذا التعليم القرآني، فيسترجعون لدى المصائب كي لا تهزمهم الشدائد، وكي يجتازوا مرحلة الإختبار بسلام في ظل الإيمان بمالكية الله والرجوع إليه.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في تفسير الإسترجاع: «إِنَّ قَوْلَنَا: إِنّا للهِ إِقْرَارٌ عَلىٰ أَنْفُسِنَا

---

١ ـ سورة المائدة: الآية ٥٢.

٢ ـ سورة آل‌عمران: الآية ١٧٣.

٣ ـ سورة البقرة: الآية ١٥٥.

٤ ـ سورة البقرة: الآية ١٥٦.

بِالْمُلْكِ، وَقَوْلَنَا: إِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِقْرَارٌ عَلىٰ أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ».[١]

الإستمداد من الألطاف الإلهية

٣ـ الإستمداد من قوّة الايمان والألطاف الإلهية عامل مهم آخر في اجتياز الإختبار دون اضطراب وقلق وفقدان للتوازن. فالسائرون علىٰ طريق الله يتقدّمون بخطوات ثابتة وقلوب مطمئنة لوضوح النهج والهدف لديهم. وترافقهم الهداية الإلهية في اختيار الطريق الصحيح، يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

الاعتبار من التاريخ

٤ ـ التدقيق في تأريخ الأسلاف، وإمعان النظر في مواقفهم من الإختبارات الإلهية، عامل مؤثر في إعداد الإنسان لاجتياز الإمتحان الإلهي بنجاح.

لو عرف الإنسان بأن ما أُصيب به ليس حالة شاذّة، وإنما هو قانون عام شامل لكل الأفراد والجماعات، لهان الخطب عليه، ولتفهم الحالة بوعي، ولاجتاز المرحلة بمقاومة وثبات. ولذلك يثبّت الله سبحانه علىٰ قلب نبيّه والمؤمنين باستعراض تأريخ الماضين، وما واجهه الأنبياء، والفئات المؤمنة من محن ومصائب خلال مراحل دعوتهم، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اُسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾.[٣]

ويقول تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[٤].

عند الرفيق الأعلىٰ

٥ ـ الإلتفات الى حقيقة علم الله سبحانه بكل مجريات الأُمور، عامل آخر في التثبيت وزيادة المقاومة.

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٩٩.

٢ ـ سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

٣ ـ سورة الأنعام: الآية ١٠.

٤ ـ سورة الانعام: الآية ٣٤.

المتسابقون في ساحة اللعب يشعرون بالإرتياح حينما يعلمون أنهم في معرض أنظار أصدقائهم من المتفرجين، ويندفعون بقوّة أكثر في تحمل الصعاب.

إذا كان تأثير وجود الأصدقاء كذلك، فما بالك بتأثير استشعار رؤية الله لما يجري علىٰ الانسان وهو علىٰ ساحة الجهاد والمحنة؟! ما أعظم القوّة التي يمنحها هذا الإستشعار لمواصلة طريق الجهاد وتحمل مشاقّ المحنة!

حين واجه نوحعليه‌السلام أعظم المصائب والضغوط من قومه وهو يصنع الفلك، جاءه نداء التثبيت الإلهي ليقول له: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[١].

وعبارة «بِأَعْيُنِنَا» كان لها ـ دون شك ـ وقع عظيم في نفس هذا النّبي الكريم، فاستقام وواصل عمله حتى المرحلة النهائية دون الالتفات إلىٰ تقريع الاعداء واستهزائهم.

وَرَدَ عن سيّد الشهداء الحسين بن عليعليه‌السلام أَنَّهُ قَالَ بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشهد أصحابه وأهل بيته: «هَوَّنَ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بِعَيْنِ اللهِ»[٢].

امتحان المرأة البدويّة

وبين أتباع مدرسة الأنبياء نماذج رائعة للصابرين المحتسبين، كل واحد منهم قدوة علىٰ ساحة الإمتحان الإلهي.

فقد روي: «أَنَّ أُمَّ عَقِيل كَانَتْ امْرَأَةً فِي الْبَادِيَةِ فَنَزَلَ عَلَيْهَا ضَيْفَانِ وَكَانَ وَلَدُهَا عَقِيلٌ مَعَ الْإِبلِ فَأُخْبِرَتْ بِأَنَّهُ ازْدَحَمَتْ عَلَيْهِ الْإِبِلُ فَرَمَتْ بِهِ فِي الْبِئْرِ فَهَلَكَ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلنّاعي انْزِلْ وَاقْضِ ذِمَامَ الْقَوْمِ وَدَفَعَتْ إِلَيْهِ كَبْشاً فَذَبَحَهُ وَأَصْلَحَهُ وَقَرَّبَ إِلَى الْقَوْمِ الطَّعَامَ فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ صَبْرِهَا (قَال الرّاوي) فَلَمّا فَرِغْنَا خَرَجَتْ إِلَيْنَا وَقَالَتْ يَا قَوْم هَلْ فِيكُمْ مَنْ يُحْسِنُ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَيْئَاً؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَاقْرَأ عَلَيَّ آياتٍ أَتَعَزَّىٰ بِهَا عَنْ وَلَدِي فَقَرَأْتُ: «وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِلىٰ قَوْلِهِ الْمُهْتَدُونَ».

«فَقَالَتْ السَّلاَمُ عَلَيْكُم، ثُمَّ صَفَّتْ قَدَمَيْهَا وَصَلَّتْ رَكَعَاتٍ ثُمَّ قَالَتْ: اللّهُمَّ إِنّي فَعَلْتُ مَا

١ ـ سورة هود: الآية ٣٧.

٢ ـ بحار الأنوار: ٤٥/٤٦.

أَمَرْتَني فَانْجزْ لي مَا وَعَدْتِني. وَلَوْ بَقِيَ أَحَدُ لِأَحَدٍ ـ قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَبَقِيَ ابْنِي لِحَاجَتِي إِلَيْهِ ـ فَقَالَتْ لَبَقِيَ محمّد ﷺ لأُمَّتِهِ، فَخَرَجْتُ»[1]

١ ـ سفينة البحار: ٧/٢، (مادة صبر).

٢٢

آداب الضيافة

لقد أولى الإسلام مسألة الضيافة أهميّة خاصّة، حتّى أنّه ورد في حديث عن النّبيﷺ: «الضيف دليل الجنّة»[١].

إنّ أهميّة الضيف ووجوب إحترامه وتقديره، بلغ حدّاً إعتبر فيه هدية سماوية، فإنّ رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم خيراً أهدى إليهم هدية، قالوا: وما تلك الهدية؟ قال: الضيف ينزل برزقه، ويرتحل بذنوب أهل البيت»[٢].

والطريف أنّ رجلاً حضر عند النّبي ﷺ فقال: فداك أبي وأُمّي، إنّي أُسبغ الوضوء، وأُقيم الصلاة، وأُؤتي الزكاة في حينها، وأُرحّب بالضيف وأُقريه في الله، فقالﷺ: «بخ بخ بخ! ما لجهنّم عليك سبيل! إنّ الله قد برأك من الشحّ إن كنت كذلك»[٣].

مراعاة البساطة في الضيافة

مع كلّ الأهمية التي يتمتّع بها الضيف، فإنّ الضيافة إذا اتّسمت بالتكلّف فإنّها غير راجحة من وجهة نظر الإسلام، بل ونهى عنها، فإنّ الإسلام يوصي بأن تكون الضيافة بسيطة، وجعل معياراً عادلاً بين الضيف والمضيف، وهو: أن لا يبخل المضيف بما عنده ويحضره، وأن لا يتوقّع الضيف أكثر من ذلك!

---

١ ـ بحار الأنوار: ٧٥/٤٦٠ باب ٩٣ حديث ١٤.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ قرب الاسناد: ص ٧٥.

يقول الإمام الصادقعليه السلام: «**المؤمن لا يحتشم من أخيه، وما أدري أيّهما أعجب؟! الذي يكلّف أخاه إذا دخل عليه أن يتكلّف له، أو المتكلّف لأخيه؟**»[١].

ويروي سلمان الفارسي عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أن لا نتكلّف للضيف ما ليس عندنا، وأن نقدّم إليه ما حضرنا**»[٢].

حقّ الضيف

قلنا: إنّ الضيف كالهدية السماوية من وجهة نظر الإسلام، ويجب أن يرحّب به ويكرم غاية الإكرام، ويحترم أقصى ما يمكن، حتّى أنّ أمير المؤمنين علياًعليه السلام يروي عن النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله أنّه قال: «**من حقّ الضيف أن تمشي معه فتخرجه من حريمك إلى البر**»[٣].

ويجب تهيئة مستلزمات راحته إلى الحدّ الذي لا يبلغ التكلّف، حتّى أنّه ورد في حديث أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «**إنّ من حقّ الضيف أن يعد له الخلال**»[٤].

وقد يكون الضيوف خجولين أحياناً، ولذلك فقد صدر أمر بعدم سؤالهم عمّا إذا كانوا قد تناولوا الطعام أم لا، بل يمدّ لهم السماط فإن شاءوا وأكلوا، كما يقول الإمام الصادقعليه السلام: «**لا تقل لأخيك إذا دخل عليك أكلت اليوم شيئاً؟ ولكن قرّب إليه ما عندك، فإنّ الجواد كلّ الجواد من بذل ما عنده**»[٥].

ومن جملة واجبات المضيف أمام الله سبحانه أن لا يحقّر الطعام الذي أعدّه، لأنّ نعمة الله سبحانه عزيزة ومحترمة مهما كانت، إلّا أنّ المتعارف بين المترفين وأهل التكلّف أنّهم مهما نوّعوا السماط وملؤوه بأنواع الأطعمة فإنّهم يقولون: هذا شيء بسيط لا يليق بمقامكم!

وفي المقابل يجب أن لا يحتقر الضيف ما قدّم إليه، ففي حديث عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «**هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره، وهلك امرؤ احتقر من أخيه ما قدّم إليه**»[٦].

---

١ ـ بحار الأنوار: ٧٥/٤٥٣.

٢ ـ المحجّة البيضاء: ٣/٢٩ الباب الثالث.

٣ ـ بحار الأنوار: ٧٥/٤٥١.

٤ ـ بحار الأنوار: ٧٥/٤٥٥.

٥ ـ المصدر السابق.

٦ ـ المحجّة البيضاء: ٣/٣٠.

إنّ الإسلام دقيق النظرة في إكرام الضيف، فهو يقول: استقبل الضيف وأعنه عندما يدخل إلى بيتك، أمّا إذا أراد الخروج فلا تعنه لئلّا يتصوّر بأنّك راغب في خروجه[١].

واجبات الضيف

إنّ المسؤوليات تكون متقابلة دائماً، فكما أنّ على المضيف واجبات تجاه الضيف، فكذلك توجد على الضيف واجبات ينبغي أن يراعيها.

فعلاوة على ما ذكر في الأحاديث السابقة، فإنّ على الضيف أن ينفّذ ما يطلبه منه صاحب البيت ويقترحه عليه في شأن منزله، فإذا طلب منه أن يجلس في مكان ما مثلاً فليفعل، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**إذا دخل أحدكم على أخيه في رحله فليقعد حيث يأمر صاحب الرحل، فإنّ صاحب الرحل أعرف بعورة بيته من الداخل عليه**»[٢].

وملخّص الكلام أنّ مسألة الضيافة وآدابها قد خصّص لها بحث واسع في آداب المعاشرة الإسلامية.

إلّا أنّ هذه السنّة الإنسانية القديمة قد تقلّصت وللأسف الشديد في عصرنا الحاضر .. عصر غلبة المادية وطغيانها في العالم، وهيمنتها عليه، بل إنّها قد اجتثّت تقريباً في بعض المجتمعات الغربية، وقد سمعنا أنّ بعض أُولئك عندما يأتون إلى البلاد الإسلامية ويرون إنتشار مسألة الضيافة التي لا زالت قائمة في البيوتات الأصيلة، ومدى العواطف التي تكتنفها، فإنّهم يتعجّبون كيف يمكن أن يقدّم الناس أفضل الوسائل الموجودة في البيت، وأنفس الأطعمة وألذّها للضيوف الذين ربّما تربطهم بهم رابطة ضعيفة أحياناً، وربّما كانوا قد تعارفوا في سفرة قصيرة؟!

إلّا أنّ ملاحظة الأحاديث الإسلامية ـ التي ورد قسم منها قبل قليل ـ تبيّن سبب هذه التضحية والإيثار، وتوضّح الحسابات المعنوية في هذا المجال .. تلك الحسابات التي لا تعني شيئاً لدى عبّاد المادّة والغارقين في بحرها.

---

١ ـ بحار الأنوار: ٧٥/٤٥٥ حديث ٢٧.

٢ ـ بحار الأنوار: ٧٥/٤٥١.

٢٣

الزواج وآدابه

على الرغم من أن الزواج في الوقت الحاضر قد تعقد بما أحاطته الأعراف الإجتماعية من عاداتٍ خاطئة وخرافية أحياناً، فأصبح طريقاً صعباً لا يتمكن الشاب من سلوكه، فإنّه لو آجتزنا هذه العراقيل لأدركنا أنّ الزواج تعبير فطري منسجم مع قانون الخليقة وضروري لبقاء نسل الإنسان، وسكن لروحه، وراحة لجسمه، وحل للمشاكل النفسية والإجتماعية.

فالإسلام يخطو بانسجام مع الخلق، وله تعابير جميلة مؤثرة، ومن جملتها حديث مشهور عن الرّسول الأعظم ﷺ «تناكحوا وتناسلوا تكثروا. فإنّي أباهي بكم الأُمم يوم القيامة ولو بالسقط»[1].

ونقرأ حديثاً آخر له ﷺ «من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الباقي»[2].

والسبب في كلّ هذا الإهتمام هو أنَّ الغريزة الجنسية من أقوىٰ وأشرس الغرائز في الإنسان، وتنافس الغرائز الأُخرىٰ بأجمعها، وانحرافها يعرّض دين المرء إلى الخطر، ولذا يعلو صوت حديث نبوي آخر: «شراركم عزّابكم»[3] لهذا شجعت الآيات القرآنيّة وأحاديث عديدة المسلمين علىٰ التعاون في تزويج العزّاب، وتقديم ما بوسعهم من مساعدات في هذا السبيل.

---

١ ـ سفينة البحار: ٥٦١/١ (مادة زوج).

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ تفسير مجمع البيان، في تفسير الآيات ٣٢ ـ ٣٤ من سورة النور.

سكينة الروح

يعتبر القرآن الزواج سبباً للسكينة و يقول: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾. أي من جنسكم والغاية هي السكينة الروحية والهدوء النفسي

وحيث أن استمرار العلاقة بين الزوجين خاصة، وبين جميع الناس عامة، يحتاج إلى جذب قلبي وروحاني، فإنّ الآية تعقب على ذلك مضيفةً ﴿وجعل بينكم مودةً ورحمة﴾.

ولمزيد التأكيد تُختتم الآية بالقول: ﴿إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[١].

الطريف هنا أن القرآن ـ في هذه الآية ـ جعل الهدف من الزواج الإطمئنان والسكن، وأبان مسائل كثيرة في تعبير غزير المعنى «لتسكنوا».

والحقّ أن وجود الأزواج مع هذه الخصائص للناس التي تعتبر أساس الإطمئنان في الحياة، هو أحد مواهب الله العظيمة.

وهذا السكن أو الإطمئنان ينشأ من أن هذين الجنسين يكمل بعضهما بعضاً، وكل منهما أساس النشاط والنماء لصاحبه، بحيث يعد كل منهما ناقصاً بغير صاحبه، فمن الطبيعي أن تكون بين الزوجين مثل هذه الجاذبيّة القوية.

ومن هنا يمكن الإستنتاج بأنّ الذين يهملون هذه السنةالإلهية وجودهم ناقص، لأنّ مرحلة تكاملية منهم متوقفة، (إلّا أن توجب الظروف الخاصة والضرورة في بقائهم عزّاباً).

وعلى كل حال، فإنّ هذا الإطمئنان أو السكن يكون من عدّة جهات «جسمياً وروحيّاً وفردياً واجتماعيّاً».

ولا يمكن إنكار الأمراض التي تصيب الجسم في حالة عدم الزواج، وكذلك عدم التعادل الروحي والإضطراب النفسي عند غير المتزوجين.

ثمّ أنّ الأفراد العزّاب لا يحسّون بالمسؤولية ـ من الناحية الإجتماعية ـ كثيراً.. ولذلك فإن الإنتحار تزداد بين أمثال هؤلاء أكثر.. كما تصدر منهم جرائم مهولة أكثر من سواهم أيضاً.

وحين يخطو الإنسان من مرحلة العزوبة الى مرحلة الحياة الأُسرية يجد في نفسه شخصية جديدة، ويحس بالمسؤولية أكثر،، وهذا السكن والإطمئنان في ظل الزواج.

---

١ ـ سورة الروم: الآية ٢١.

المعارضة الايجابية

شجعت آيات القرآن وأحاديث عديدة المسلمين علىٰ التعاون في تزويج العزّاب، وتقديم ما بوسعهم من مساعدات في هذا السبيل.

وقد أشارت الآيات القرآنيّة إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا وهو الزواج اليسير الذي يتمّ بعيداً عن أجواء الرياء والبذخ، لأنّ إشباع الغرائز بشكل سليم وشرعي خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب، أو بعبارة أُخرىٰ: كل مكافحة سلبية لابدّ أن ترافقها مكافحة إيجابية.

لهذا يقول: ﴿**وأنكحوا الايامىٰ منكم والصالحين من عبادكم وإمائِكم**﴾[1].

وعبارة «أنكحوا» أي «زوّجوا» ـ وبما أنّ الزواج يتمّ بالتراضي وحرية الإختيار الطرفين، فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج، عن طريق تقديم العون المالي عند الحاجة، أو العثور على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج والإستفادة من وساطة الأشخاص لحلّ المشاكل المستجدة.

وباختصار: إنّ مفهوم الآية واسع، حتى أنَّهُ ليضم كلّ خطوة وحديث في هذا المجال. ولا اختلاف في أنّ أصل التعاون الإسلامي يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

وجاء ذلك هنا بصراحة ليؤكّد أهميّة الزواج الخاصّة. وهي أهميّةٌ بالغة المدىٰ، إذ ورد حديث بصددها عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «**أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين في نكاح حتى يجمع الله بينهما**».[2]

في ظلّ عرش الله

وجاء في حديث آخر عن الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام قوله: «**ثلاثة يستظلون بظلّ عرش الله يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلّا ظلّه، رجل زوّج أخاه المسلم، أو خدمه، أو كتم له سرّاً**»[3].

كما جاء في حديث عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله في الذي يسعىٰ لزواج أخيه المسلم

---

١ ـ سورة النور: الآية ٣٢.

٢ ـ وسائل الشيعة: ٢٧/١٤ (الباب ١٢ من أبواب مقدمات النكاح).

٣ ـ المصدر السابق.

«كان له بكلّ خطوة خطاها، أو بكلّ كلمة تكلم بها في ذلك عمل سنة قيام ليلها وصيام نهارها»[١].

شريك الجريمة

وقد حمّل الدّين الإسلامي الآباء مسؤولية كبيرة عن أبنائهم، والآباء الذين يتصرّفون دون مبالاة إزاء هذه القضية، فإنّهم يشاركون في إنحراف أبنائهم. كما نقرأ في حديث للرسول الأعظم ﷺ «من أدرك له ولدٌ وعنده ما يزوجه فلم يزوجه، فأحدث، فالاثم بينهما!»[٢].

وقد أكّدت تعاليم الإسلام ـ لهذا السبب أيضاً ـ بالتيسير في نفقات الزواج والمهر، لإزالة الحواجز من طريق العُزّاب. خاصّة إذا علمنا أنّ المهر الغالي يقف حجر عثرة في وجه زواج العزّاب. ففي حديث للرّسول الأكرم ﷺ يقول: «من شؤم المرأة غلاء مهرها»[٣].

وجاء في حديث آخر أعقب الحديث السابق: «من شؤمها شدّة مؤونتها»[٤].

وقد صرّح القرآن الكريم بأنّ الفقر لا يمكن أن يكون مانعاً للزواج، وقد يغني الله المرء بالزواج ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾[٥].

وبهذا حكمت الآية وأدانت الذين يفرون من الزواج بحجّة أنّهم فقراء، ولا يتحملون هذه المسؤولية الإلهية والإنسانية، بأعذار واهية.

والسبب في التأكيد علىٰ الزواج، هو أنّ المرء يشعر بعد زواجه بمسؤوليته في الحياة، فيزج قواه للكسب الحلال. بينما نجد العزاب في معظم الحالات مشردين! لعدم شعورهم بالمسؤولية. والمتزوج يكتسب شخصية إجتماعية، حيث يجد نفسه مسؤولاً عن المحافظة على زوجته، وماء وجه أُسرته، وتأمين حياةٍ سعيدة ومستقبل زاهر لها. ويستغلّ المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد في نفقاته ليتغلّب على الفقر بأسرع وقت ممكن.

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ تفسير مجمع البيان في تفسير الآيات ٣٢ ـ ٣٤ من سورة النور.

٣ ـ وسائل الشيعة: ١٥/١٠، الباب الخامس من أبواب المهور.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ سورة النور: الآية ٣٢.

الرزق مع النّساء والعيال

ذكر الإمام الصادقعليه السلام «الرزق مع النساء والعيال»[١].

جاء في حديث للرسول الأكرمصلى الله عليه وآله حين شكا رجل إليه فقره فأجابهصلى الله عليه وآله: «تزوّج». فتزوّج فوسع له[٢].

ولا جدال في أنَّ الإمدادات الإلهية والقوى الروحية الخفية تساعد هذا الشخص الذي تزوج ليحفظ نفسه ويطهرها. وعلى كلّ مؤمن أن يطمئن لما وعده الله، فقد ذكر رسول اللهصلى الله عليه وآله «**من ترك التزويج مخافة العيلة فقد ساء ظنّه بالله، إن الله عزَّوجلّ يقول: ﴿أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله[٣]﴾**»[٤].

اوصاف المرأة الصالحة

يضع القرآن الكريم ستّة صفات للمرأة الصالحة التي يمكنها أن تكون نموذجاً يقتدى به في إنتخاب الزوجة اللائقة.

﴿مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰئِحَـٰتٍ﴾[٥].

الأوّل «الإسلام» ثمّ «الايمان» أي الإعتقاد الذي ينفذ ويترسّخ في أعماق قلب الإنسان. ثمّ حالة «القنوت» أي التواضع وطاعة الزوج. بعد ذلك «التوبة» ويقصد أنّ الزوجة إذا ما ارتكبت ذنباً بحقّ زوجها فإنّها سرعان ما تتوب وتعتذر عن ذلك. وتأتي بعد ذلك «**العبادة**» التي جعلها الله سبحانه ليطهّر بها قلب الإنسان وروحه ويصنعها من جديد، ثمّ «**إطاعة أوامر الله**» والورع عن محارمه.

إن الوصف الوحيد الذي استعمله القرآن لمدح الأزواج في جنّات النعيم هو أنّها «مطهرة».

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٣/٥٩٥.

٢ ـ وسائل الشيعة ١٤/٢٥، الباب ١١ «من أبواب مقدمات النكاح».

٣ ـ سورة النور: الآية ٣٢.

٤ ـ وسائل الشيعة: ١٤/٢٤، الباب ١٠ «من أبواب مقدمات النكاح».

٥ ـ سورة التحريم: الآية ٥.

﴿لهم فيها ازواج مطهّرة﴾[١] وهي إشارة إلى أول شرط في الزوجة هو «الطهر». وكل ما سواه من الشروط والأوصاف ثانوي.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنْ. قَيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنْ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ في مَنْبَتِ السُّوءِ»[٢].

هل العزوبة فضيلة؟

نقرأ في القرآن الكريم في وصف «يحيىٰ» النّبي العظيم ﴿وسيّداً و حصوراً﴾[٣].

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: إذا كان «الحصر» هو العزوف عن الزواج، فهل هذا مَحمَدة يمتاز بها الإنسان، بحيث يوصف بها يحيىٰ؟

في الجواب نقول: ليس هناك ما يدلّ على أنّ «الحصر» المذكور في الآية يقصد به العزوف عن الزواج، فالحديث المنقول بهذا الخصوص ليس موثوقاً به من حيث أسانيده. فلا يُستبعد أن يكون المعنىٰ هو العزوف عن الشهوات والأهواء وحبّ الدنيا، وفي صفات الزاهدين.

ثانياً: من المحتمل أن يكون يحيىٰ ـ مثل عيسىٰ ـ قد عاش في ظروف خاصّة اضطرّته إلى الترحال من أجل تبليغ رسالته، فاضطرّ إلى حياة العزوبة. وهذا لا يمكن أن يكون قانوناً عامّاً للناس. فإذا مدحه الله لهذه الصفة فذلك لأنّه تحت ضغط ظروفه عزف عن الزواج، ولكنّه استطاع في الوقت نفسه أن يحصن نفسه من الزلل وأن يحافظ على طهارته من التلوّث. إنّ قانون الزواج قانون فطري، فلا يمكن في أيّ دين أن يشرع قانون ضدّه. وعليه فالعزوبة ليست صفة محمودة، لا في الإسلام ولا في الأديان الأُخرىٰ.

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٢٥.

٢ ـ وسائل الشيعة: ١٩/١٤.

٣ ـ سورة آل‌عمران: الآية ٣٩.

٢٤

آداب التجارة

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام قد أُولوا لموضوع آداب التجارة اهتماماً بالغاً، حتىٰ روي عن الأصبغ بن نباتة، أنّه قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول على المنبر: «يا معشر التجار! الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر» إلى أن قال: «التاجر فاجر، والفاجر في النّار، إلّا من أخذ الحقّ وأعطىٰ الحقّ».[1]

آداب التجارة في كلام اميرالمؤمنين عليه السلام

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة يغتدي كل يوم بكرة من القصر، فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدّرة على عاتقه (لمعاقبة المخالفين)، فينادي: يا معشر التجّار اتقوا اللّه عزّوجلّ، فإذا سمعوا صوته عليه السلام ألقوا ما بأيديهم، وأرعوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بآذانهم، فيقول عليه السلام: قدموا الإستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا النّاس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فيطوف عليه السلام في جميع أسواق الكوفة ثمّ يرجع فيقعد للناس».[2]

---

١ ـ أُصول الكافي: ٥/ ١٥٠، الحديث ١.

٢ ـ المصدر السابق، الحديث ٣.

وقد نقل في هذا الصدد قول عن الصحابي المشهور عبد اللّه بن مسعود: «أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند اللّه بمنزلة الشهداء» ثمّ قرأ: ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾[١][٢].

---

١ ـ سورة المزمّل: الآية ٢٠.

٢ ـ تفسير مجمع البيان، وتفسير أبي الفتوح، وتفسير القرطبي، ذيل الآية ٢٠ من سورة المزمّل وقد نقل القرطبي حديثاً عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم يشابه هذه الحديث، فيستفاد من ذلك أنّ عبد اللّه بن مسعود قد ذكر الحديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس هو من قوله.

٢٥

الربا

إنّ الحرب التي أعلنها القرآن على الربا تعتبر من أهمّ الحروب الإجتماعية التي خاضها الإسلام.

يقول تعالى:

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبّطه[١] الشيطان من المس﴾[٢].

فالآية تشبّه المرابي بالمصروع أو المجنون الذي لا يستطيع الإحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبّط في خطواته.

ولعلّ المقصود هو وصف طريقة «سير المرابين الإجتماعي» في الدنيا على اعتبار أنّهم أشبه بالمجانين في أعمالهم، فهم يفتقرون إلى التفكير الإجتماعي السليم، بل أنّهم لا يشخّصون حتّى منافعهم الخاصّة، وأنّ مشاعر المواساة والعواطف الإنسانية وأمثالها لا مفهوم لها في عقولهم إذ أنّ عبادة المال تسيطر على عقولهم إلى درجة أنّها تعميهم عن إدراك ما ستؤدّي إليه أعمالهم الجشعة الإستغلالية من غرس روح الحقد في قلوب الطبقات المحرومة الكادحة وما سيعقب ذلك من ثورات وانفجارات اجتماعية تعرض أساس الملكية للخطر، وفي مثل هذا المجتمع سينعدم الأمن والإستقرار، وستصادر الراحة من جميع الناس بمن فيهم هذا المرابي، ولذلك فإنّه يجني على نفسه أيضاً بعمله الجنوني هذا.

---

١ ـ «يتخبّطه» من مادة «الخبط» هو فقدان توازن الجسم عند المشي أو القيام.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

ولكن بما أنّ وضع الإنسان في العالم الآخر تجسيد لأعماله في هذا العالم فيحتمل أن تكون الآية إشارة إلى المعنيين. أي أنّ الذين يقومون في الدنيا قياماً غير معتقّل وغير متوازن يخالطه اكتناز جنوني للثروة سيحشرون يوم القيامة كالمجانين.

تجسيد حال المرابين

ومن الطريف أنّ الروايات والأحاديث تشير إلى كلا المفهومين. ففي حديث عن الإمام الصادقعليه السلام في تفسير هذه الآية المذكورة أنّه قال:

«آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتّى يتخبّطه الشيطان»[1].

وفي رواية أُخرى عن رسول اللهصلى الله عليه وآله بشأن تجسيد حال المرابين الذين لا يهمّهم غير مصالحهم الخاصّة، وما ستجرّه عليهم أموالهم المحرّمة قال: **«لمّا أُسري بي إلى السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل! قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس»**[2].

الحديث الأوّل يبيّن اضطراب الإنسان في هذه الدنيا، ويعكس الحديث الثاني حال المرابين في مشهد يوم القيامة، وكلاهما يرتبطان بحقيقة واحدة، فكما أنّ الإنسان المبطان الأكول يسمن بإفراط وبغير حساب، كذلك المرابون الذين يسمنون بالمال الحرام لهم حياة اقتصادية مريضة تكون وبالاً عليهم[3].

---

١ ـ تفسير العياشي: ٥٠٣/١٥٢/١.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ١١٥٧/٢٩١/١.

٣ ـ سؤال: هل الجنون والصرع اللذين أشارت إليهما الآية المذكورة من عمل الشيطان، مع أننا نعلم أنّ الصرع والجنون من الأمراض النفسية التي لها أسباب معروفة في الغالب؟

الجواب: يرىٰ بعضهم أنّ تعبير «مسّ الشيطان» كناية عن الأمراض النفسية والجنون، وهو تعبير كان شائعاً عند العرب، ولا يعني أنّ للشيطان تأثيراً فعلياً في روح الإنسان.

ولكن مع ذلك لا يُستبعد أن يكون لبعض الأعمال الشيطانية التي يرتكبها الإنسان دون تروٍّ أثر يؤدّي إلى نوع من الجنون الشيطاني، أي يكون للشيطان على إثر هذه الأعمال فاعلية في الشخص يسبّب اختلال تعادله النفسي. ثمّ إنّ الأعمال الشيطانية الخاطئة إذا تكرّرت وتراكمت يكون أثرها الطبيعي هو أن يفقد الإنسان قدرته على تمييز السقيم من السليم والصالح من الطالح والتفكير المنطقي من المعوج.

منطق المرابين

﴿ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الربا﴾[١].

هذه الآية تبيّن منطق المرابين فهم يقولون: ما الفرق بين التجارة والربا؟ ويقصدون أنّ كليهما يمثّلان معاملة تبادل بتراضي الطرفين واختيارهما.

يقول القرآن جواباً على ذلك: ﴿وأحلّ الله البيع وحرّم الربا﴾[٢] ولم يزد في ذلك شرحاً وتفصيلاً، ربما لوضوح الإختلاف:

فأوّلاً: في صفقة البيع والشراء يكون كلا الطرفين متساويين بإزاء الربح والخسارة، فقد يربح كلاهما، وقد يخسر كلاهما، ومرّة يربح هذا ويخسر ذاك، ومرّة يخسر هذا ويربح ذاك، بينما في المعاملة الربوية لا يتحمّل المرابي أيّة خسارة، فكلّ الخسائر المحتملة يتحمّل ثقلها الطرف الآخر، ولذلك نرى المؤسّسات الربوية تتوسّع يوماً فيوماً، ويكبر رأسمالها بقدر اضمحلال وتلاشي الطبقات الضعيفة.

وثانياً: في التجارة والبيع والشراء يسير الطرفان في «الإنتاج والإستهلاك»، بينما المرابي لا يخطو أيّة خطوة إيجابية في هذا المجال.

وثالثاً: بشيوع الربا تجري رؤوس الأموال مجرى غير سليم وتتزعزع قواعد الإقتصاد الذي هو أساس المجتمع، بينما التجارة السليمة تجري فيها رؤوس الأموال في تداول سليم.

ورابعاً: الربا يتسبّب في المخاصمات والمنازعات الطبقية، بينما التجارة السليمة لا تجرّ المجتمع إلى المشاحنات والصراع الطبقي.

يمحق الله الرّبا

ثمّ إن القرآن الكريم يبيّن الفرق بين الربا والصدقة ويقول:

﴿يمحق الله الرّبا ويربي الصدقات﴾.

ثُمّ يضيف: ﴿والله لا يحبّ كلَّ كفّارٍ أثيمٍ﴾ يعني الذين تركوا ما في الصدقات من منافع

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

طيبة والتمسوا طريق الربا الذي يوصلهم إلى نار جهنم.

«المـحق» النقصان التدريجي. و «الربا» هو النموّ التدريجي. فالمرابـي بـما لديـه مـن رأسمال وثروة يستحوذ على أتعاب الطبقة الكادحة، وقد يؤدّي عمله هذا إلى القضاء عليهم، أو يبذر على الأقل بذور العداء والحقد في قلوبهم بحيث يصبحون بالتدريج متعطّشين إلى شرب دماء المرابين ويهدّدون أموالهم وأرواحهم.

فالقرآن يقول إنّ الله يسوق رؤوس الأموال الربوية إلى الفناء.

إنّ هذا الفناء التدريجي الذي يحيق بالفرد المرابي يحيق بالمجتمع المرابي أيضاً.

اعلان الحرب على المرابين

يخاطب الله المؤمنين ويأمرهم بالتقوى ثمّ يأمرهم أن يتنازعوا عمّا بقي لهم في ذمّة الناس من فوائد ربوية.

﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقي من الربوا إن كنتم مؤمنين[١]﴾[٢].

ثمّ تتغيّر في هذه الآية لهجة السياق القرآني، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح وتعظ، تهاجم هذه الآية المرابين بكلّ شدة، وتنذرهم بلهجة صارمة أنّهم إذا واصلوا عملهم الربوي ولم يستسلموا لأوامر الله في الحـقّ والعـدل واسـتمرّوا فـي امـتصاص دمـاء الكـادحين المحرومين فلا يسع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا أن يتوسّل بالقوّة لإيقافهم عند حدّهم وإخضاعهم للحق، وهذا بمثابة إعلان الحرب عليهم. ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾[٣].

لذلك عندما سمع الإمام الصادق عليه السلام أنّ مرابياً يتعاطى الربا بكلّ صـراحـة ويسـتهزيء بحرمته هدّده بالقتل.

ويستفاد من هذا الحديث أن حكم القتل إنّما هو لمنكر تحريم الربا.

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٢٧٨.

٢ ـ يلاحظ أنّ الآية بدأت بذكر الإيمان بالله واختتمت بذكره، ممّا يدلّ بوضوح على عدم انسجام الربا مع الإيمان بالله.

٣ ـ (فاذنوا) من مادة «اذن» وكلما كانت متعدية بالأمر بالمعنى هو السماح وإذا تعدت بالياء فتعني العلم فعلى هذا يكون قوله (فاذنوا بحرب من الله) يعني اعلموا أن الله ورسوله سيحاربوكم وهذا في الحقيقة بمثابة إعلان الحرب على هذه الفئة، فعلى هذا ليس من الصحيح ما ذهب إليه البعض في معنى هذه الآية بأنه «اسمحوا بإعلان الحرب من الله».

أضرار الربا

١ ـ الربا يخلّ بالتوازن الإقتصادي في المجتمع، ويؤدي إلى تراكم الثروة لدىٰ فئة قليلة، لأنّ هذه الفئة هي وحدها التي تستفيد من الأرباح بينما لا يجني الآخرون سوى الخسائر والأضرار والضغوط.

الربا يشكّل اليوم أهم عوامل اتّساع الهوة المستمر بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وما يعقب ذلك من حروب دموية طاحنة.

٢ ـ الربا لون من ألوان التبادل الإقتصادي غير السليم، يضعف العلائق العاطفية، ويغرس روح الحقد في القلوب، ذلك لأنّ الربا يقوم في الواقع على أساس أنّ المرابي لا ينظر إلّا إلى أرباحه، ولا يهمّه الضرر الذي يصيب المدّين.

هنا يبدأ المدين بالإعتقاد بأنّ المرابي يتّخذ من أمواله وسيلة لتدمير حياة الآخرين.

٣ ـ صحيح أنّ دافع الربا يرضخ لعمله هذا نتيجة حاجة قد ألجأته إلى ذلك. ولكنّه لن ينسى هذا الظلم أبداً، وقد يصل به الأمر إلى الإحساس بأصابع المرابي تشدّد من ضغطها على عنقه وتكاد تخنقه. وفي هذه الحالة تبدأ كلّ جوارح المدين المسكين ترسل اللعنات على المرابي، ويتعطّش لشرب دمه. إنّه يرىٰ بأُمّ عينيه كيف أنّ حاصل شقاءه وتعبه وثمن حياته يدخل إلى جيب هذا المرابي، في مثل هذه الحالة الهائجة تُرتكب عشرات الجرائم المرعبة، فقد يقدم المدين على الإنتحار، وقد تدفعه حالته اليائسة إلى أن يقتل المرابي شرّ قتلة، وقد ينفجر الشعب المضطهد انفجاراً عامّاً في ثورة عارمة.

إنّ انفصام علائق التعاون بين الدول المرابية والدول التي تستقرض منها بالربا واضح للعيان أيضاً. إنّ الدول التي تجد ثرواتها تصبّ في خزائن دولة أُخرىٰ باسم الربا تنظر دون شكّ بعين البغض والحقد إلى الدولة المرابية، وفي الوقت الذي هي تستقرض منها لحاجتها الماسة فإنّها تتحيّن الفرصة للإعراب عن نقمتها وكرهها بشتّى الوسائل والطرق.

وهذا هو الذي يحدونا إلى القول بأنّ للربا أثراً أخلاقياً سيئاً جدّاً في نفسيّة المدين ويثير في قلبه الكره والضغينة، ويفصم عرى التعاون الإجتماعي بين الأفراد والملل.

٤ ـ في الأحاديث الإسلامية إشارة إلى آثار الربا الأخلاقية السيئة وردت في جملة قصيرة ولكنها عميقة المعنىٰ. جاء في كتاب «وسائل الشيعة» عن علّة تحريم الربا عن الإمام

الصادقعليه السلام قال: «إنّما حرّم الله عزّوجلّ الربا لكي لا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف»(١).

الربا الحلال

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام «الربا رباءان، أحدهما حلال والآخر حرام، فأمّا الحلال فهو أن يقرض الرجل أخاه قرضاً يريدأن يزيده ويعوضه بأكثر ممّا يأخذه بلا شرط بينهما، فإن أعطاه أكثر ممّا أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له، وليس له عند الله ثواب فيما أقرضه، وهو قوله: ﴿فلا يربو عندالله﴾ وأمّا الحرام فالرجل يقرض قرضاً ويشترط أن يردّ أكثر ممّا أخذه فهذا هوالحرام».(٢)

١ ـ وسائل الشيعة: ج ١٢، أبواب الربا، الباب ١، ص ٤٢٢.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٤/١٩١.

٢٦

الإرتشاء

من الأوبئة الإجتماعية التي ابتلي بها البشر منذ أقدم العصور وباء الإرتشاء، وكانت هذه الظاهرة المرضيّة دوماً من موانع إقامة العدالة الإجتماعية ومن عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المقتدرة، بينما سُنّت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليهم. الأقوياء قادرون بما يمتلكونه من قوّة أن يدافعوا عن مصالحهم، بينما لا يملك الضعفاء إلّا أن يلوذوا بالقانون ليحميهم، ولا تتحقّق هذه الحماية في جوّ الإرتشاء، لأنّ القوانين ستصبح أُلعوبةً بيد القادرين على دفع الرشوة، وسيستمر الضعفاء يعانون من الظلم والإعتداء على حقوقهم.

ولهذا شدّد الإسلام على مسألة الرشوة وأدانها وقبّحها واعتبرها من الكبائر، فهي تفتّت الكيان الإجتماعي، وتؤدي إلى تفشّي الظلم والفساد والتمييز بين الأفراد في المجتمع الإنساني، وتصادر العدالة من جميع مؤسّساته.

جدير بالذكر أنّ قبح الرشوة قد يدفع بالراشين إلى أن يغطّوا رشوتهم بقناع من الأسماء الأُخرى كالهدية ونظائرها، ولكن هذه التغطية لا تغيّر من ماهيّة العمل شيئاً، والأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرّمة غير مشروعة.

هبلتك الهبول

وهذا «الأشعث بن قيس» يتوسّل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة إلى بيت أميرالمؤمنين علي عليه السلام أملاً في أن يستعطف الإمام تجاه قضيةٍ رفعها إليه، ويسمّي ما قدّمه

هديّة، فيأتيه جواب الإمام صارماً قاطعاً، قال:

«هبَلتك الهُبول، أعَنْ دين الله أتيتني لتخدعني؟... والله لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصِيَ الله في نملة أسلبُها جَلبَ شعيرة ما فعلته، وأنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمُها. ما لِعليّ ونعيمٍ يفنىٰ ولذّة لا تبقى؟ !...»[١].

وورد في الحديث النبوي المعروف: **«لعن الله الراشي والمرتشي والماشي بينهما»**[٢].

علامة الرشوة

وفي السيرة أنّ واحداً ممّن ولّاه رسول الله ﷺ قَبِلَ رشوة قدِّمت إليه بشكل هديةٍ، فقال له الرسول: **«كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟ !»** قال: كانت هدية يا رسول الله. قال: **«أرايت لو قعد أحدكم في داره ولم نولّه عَمَلاً أكان الناسُ يهدونه شيئاً؟ !»**[٣].

لا يدخل القاضي السوق

ومن أجل أن يصون الإسلام القضاة من الرشوة بكلّ أشكالها الخفيّة وغير المباشرة، أمر أن لا يذهب القاضي بنفسه إلى السوق للشراء، كي لا يؤثّر فيه بائع من الباعة فيبيعه بضاعة بثمنٍ أقل، ويكسب على أثرها تأييد القاضي في المرافعة.

أين المسلمون اليوم من هذه التعاليم الدقيقة الصارمة الهادفة إلى تحقيق العدالة الإجتماعية بشكل حقيقيّ عمليّ في الحياة؟ !

إن مسألة الرشوة مهمّة في الإسلام إلى درجة أن الإمام الصادق عليه السلام يقول عنها: **«وأمّا الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم»**[٤].

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤.

٢ ـ بحار الأنوار: ٢٧٤/١٠١ و ج ١١ باب الرشا في الحكم.

٣ ـ الامام علي عليه السلام: ١٥٦/١ ـ ١٥٥.

٤ ـ وسائل الشيعة: ج ١٢ باب ٥ من أبواب ما يكتسب به ح ٢



آداب العشرة

لقد اهتّمت الروايات الإسلامية الواردة عن النّبيﷺ وأئـمّة أهـل البـيتعليهم السلام بـمسألة التواضع وحسن الخُلُق والملاطفة في المعاملة، وترك الخشونة والجفاء في المعاشرة، إهتماماً قلّ نظيره في الموارد الأُخرى، وبالرغم من أنّ الإنتصارات التي تـمّت عـلى يـد الرّسـول محمّدﷺ كانت برعاية الله سبحانه وإمداده، إلّا أنّ ذلك كان اقتراناً بعوامل عديدة أيضاً، ولعلّ أحد أهمّ هذه العوامل هو: سمو الأخلاق عند رسول اللهﷺ وجاذبيته الشخصية.

إنّ أخلاقيتهﷺ كانت من العلو والصفات الإنسانية السامية لدرجة أنّ ألدّ أعدائه كان يقع تحت تأثيرها كما أنّ مكارم الأخلاق التي أودعت فيه كانت تجذب وتشـدّ المـحبّين والمريدين إليه بصورة عجيبة.

وإذا ما ذهبنا إلى القول بأنّ السمو الأخلاقي لرسول اللهﷺ كان معجزة أخلاقية، فإنّنا لا نبالغ في ذلك، كما سنوضّح لذلك نموذجاً من هذا الإعجاز الأخلاقي ..

ففي فتح مكّة وعندما إستسلم المشركون أمام الإرادة الإسـلامية، ورغـم كـلّ حـربهم للإسلام والمسلمين وشخص الرّسول الكريم بالذات، وبعد تماديهم اللئيم وكلّ ممارساتهم الإجرامية ضدّ الدعوة الإلهية .. بعد كلّ هذا الذي فعلوه، فإنّ رسول الإنسانية أصـدر أمـراً بالعفو العامّ عنهم جميعاً، وغضّ الطرف عن جميع الجرائم التي صدرت منهم، وكـان هـذا مفاجأة للمقرّبين والبعيدين، الأصدقاء والأعداء، وكان سبباً في دخولهم في دين الله أفواجاً، بمصداق قوله تعالى: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾.

وصف خلق النّبي في كلام علي عليه السلام

لقد وردت في كتب التّفسير والتاريخ قصص كثيرة حول حسن خُلُق الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في عفوه وتجاوزه وعطفه ورأفته، وتضحيته وإيثاره وتقواه ... بحيث أنّ ذكرها جميعاً يخرجنا عن البحث التّفسيري .. إلّا أنّنا سنكتفي بما يلي:

جاء في حديث عن الحسين بن علي عليه السلام أنّه قال: سألت أبي أمير المؤمنين عن رسول الله كيف كان سيرته في جلسائه؟ فقال: كان دائم البِشر، سهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليس بفظّ، ولا غليظ ولا صخّاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، فلا يؤيّس منه ولا يخيب فيه مؤمّليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث كان لا يذمّ أحداً ولا يعيّره، ولا يطلب عثراته ولا عورته ولا يتكلّم إلّا في ما رجا ثوابه، إذا تكلّم أطرق جلساؤه كإنّما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا، ولا يتنازعون عنده الحديث ...»[1].

نعم لو لم تكن هذه الأخلاق الكريمة وهذه الملكات الفاضلة، لما أمكن تطويع تلك الطباع الخشنة والقلوب القاسية، ولما أمكن تليين أُولئك القوم الذين كان يلفّهم الجهل والتخلّف والعناد، ويحدث فيهم إنعطافاً هائلاً لقبول الإسلام .. ولتفرّق الجميع من حوله بمصداق قوله تعالى: ﴿لانفضّوا من حولك﴾[2].

وكم كان رائعاً لو أحيينا والتزمنا بهذه الأخلاق الإسلامية القدوة، وكان كلّ منّا يحمل قبساً من إشعاع خلق وأخلاق رسولنا الكريم وخاصّة في عصرنا هذا حيث ضاعت فيه القيم، وتنكبّ الناس عن الخُلُق القويم.

(٥)

ثمانية عشر حديثاً حول آداب المعاشرة

والروايات في هذا الصدد كثيرة، سواء ما يتعلّق منها حول شخص الرّسول الكريم أو ما يتعلّق بواجب المسلمين في هذا المجال، ونستعرض الآن بعضاً من الروايات في هذا الموضوع.

---

١ ـ معاني الأخبار، ص ٨٣ (بتلخيص قليل).

٢ ـ سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

١ ـ جاء في حديث أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[١]. ولذا فإنّ أحد الأهداف الأساسية لبعثة الرّسول السعي لتكامل الاخلاق الفاضلة وتركيز الخُلُق السامي.

٢ ـ وجاء في حديث آخر عنه ﷺ: «**إنّ المؤمن ليدرك بحسن خُلُقه درجة قائم الليل وصائم النهار**»[٢].

٣ ـ وورد عنه أيضاً ﷺ: «**ما من شيء أثقل في الميزان من خُلُق حسن**»[٣].

٤ ـ ونقل عنه ﷺ أنّه قال: «**أحبّكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلّفون. وأبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة، المفرّقون بين الإخوان، الملتمسون للبراء العثرات**»[٤].

٥ ـ ونقرأ في حديث عن رسول الله ﷺ: «**أكثر ما يدخل الناس الجنّة تقوى الله وحسن الخُلُق**»[٥].

٦ ـ وجاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: (**إنّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً**»[٦].

٧ ـ وورد حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّ الرّسول ﷺ قال: «**عليكم بحسن الخُلُق، فإنّ حسن الخُلُق في الجنّة لا محالة، وإيّاكم وسوء الخُلُق، فإنّ سوء الخُلُق في النار لا محالة**»[٧].

إنّ ما يستفاد من مجموع الأخبار ـ أعلاه ـ بشكل واضح وجليّ، أنّ حسن الخُلُق مفتاح الجنّة، ووسيلة لتحقيق مرضاة الله عزّوجلّ، ومؤشّر على عمق الإيمان، ومرآة للتقوى والعبادة ..

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ١/٣٣٣.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ تفسير مجمع البيان: ١/٣٣٣.

٥ ـ سفينة البحار: ١/٤١٠، وجاء هذا المضمون في وسائل الشيعة، ج٨، في ٥٠٤، وكذلك في تفسير القرطبي: ١٠/٦٧٠٧.

٦ ـ وسائل الشيعة: ٨/٥٠٦، حديث ٢١.

٧ ـ تفسير روح البيان: ١/١٠٨.

٨ ـ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: «الق أخاك بوجه منبسط»[١].

٩ ـ وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «البرّ وحسن الخُلُق يعمران الديـار، ويزيدان في الأعمار»[٢].

١٠ ـ وعن علي عليه السلام في شأن التواضع: «زينة الشريف التواضع»[٣].

١١ ـ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «التواضع أصل كلّ خير نفيس، ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب .. ومن تواضع لله شرّفه الله على كثير من عباده .. وليس لله عزّوجلّ عـبادة يـقبلها ويـرضاها إلّا وبـابها التواضع»[٤].

١٢ ـ وجاء في بعض الرّوايات أنّه لما نزلت الآية ﴿خذ العفو وأمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين﴾[٥] سأل رسول الله ﷺ جبرئيل عن ذلك فقال جـبرئيل: لا أدري، حـتى أسأل العالم ثم أتاه فقال: «يا محمّد، إنّ الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك[٦]».

١٣ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه ويحقّ علىٰ المسلم الإجتهاد في التواصل والتعاون علىٰ التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم علىٰ بعض، حتىٰ تكونوا كما أمركم الله عزَّ وجلَّ رحماء بينكم متراحمين، مغتّمين لما غاب عنكم من أمرهم علىٰ ما مضىٰ عليه معشر الأنصار علىٰ عهد رسول الله»[٧].

١٤ ـ يقول الإمام علي عليه السلام: «الآداب حُلَلٌ مجدّدة»[٨].

---

١ ـ بحار الأنوار: ١٧١/٧٤.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ بحار الأنوار: ١٢٠/٧٥.

٤ ـ بحار الأنوار: ١٢١/٧٥.

٥ ـ سورة الاعراف: الآية ١٩٩.

٦ ـ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ١٩٩ من سورة الاعراف.

٧ ـ أصول الكافي ـ طبقاً لتفسير نور الثقلين: ٧٧/٥، الحديث ٩١.

٨ ـ نهج البلاغة الحكمة ـ ٥.

١٥ ـ ويقول في مكان آخر: **الأدب يُغني عن الحسب**[١].

١٦ ـ كما أنّنا نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادقعليه السلام يقول فيه: «**خمس من لم تكن فيه لم يكن كثير فيه مستمتع؛ قيل: وما هنّ يا بن رسول الله قالعليه السلام: الدين والعقل والحياء وحُسن الخلق وحسن الأدب**»[٢].

١٧ ـ ونقرأ في مكان آخر حديثاً عنهعليه السلام أيضاً يقول فيه: **لا يطمعنّ ذو الكبر في الثناء الحسن ولا الخبّ في كثرة الصديق ولا السيء الأدب في الشرف**[٣]...

ولذلك فإنّنا حين نقرأ تأريخ حياة القادة في الإسلام وننعم النظر فيها نلاحظ أنّهم يراعون أهم النقاط الحسّاسة واللطائف الدقيقة في الأخلاق والآداب حتىٰ مع الأناس البسطاء، وأساساً فإنّ الدين مجموعة من الآداب، الأدب بين يدي الله والأدب بين يدي الرّسول والأئمة المعصومين، والأدب بين يدي الأستاذ والمعلم، أو الأب والأم والعالم والمفكّر...

والتدقيق في آيات القرآن الكريم يكشف عن أنّ الله سبحانه بما له من مقام العظمة حين يتكلّم مع عباده، يراعي الآداب بتمامها...

فحيث يكون الأمر علىٰ هذه الشاكلة فمن المعلوم عندئذٍ ما هي وظيفة الناس أمام الله؟ وما هو تكليفهم؟!

١٨ ـ وجاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**من علامات الفقه: العلم والحلم والصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة**»[٤].

---

١ ـ بحار الأنوار: ٦٨/٧٥.

٢ ـ المصدر السابق، ص٦٧.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ المصدر السابق.

٢٨

آداب السفر

في حوار لقمان مع إبنه حول آداب السفر يقول:

يابنيّ، سافر بسيفك وخفّك وعمامتك، وخبائك وسقائك، وخيوطك ومخرزك، وتـزوّد معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً إلّا في معصية الله عزّوجلّ.

يابنيّ، إذا سافرت مع قوم فاكثر إستشارتهم في أمرك وأُمورهم.

وأكثر التبسّم في وجوههم.

وكن كريماً على زادك بينهم.

وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم.

واستعمل طول الصمت، وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابّة أو ماء أو زاد.

وإذا استشهدوك على الحقّ فاشهد لهم.

واجهد رأيك إذا استشاروك، ثمّ لا تعزم حتّى تتثبّت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتّى تقوم فيها وتقعد، وتنام وتأكل وتصلّي، وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته، فإنّ من لم يمحض النتيجة من إستشاره سلبه الله رأيه.

وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم.

واسمع لمن هو أكبر منك سنّاً.

وإذا أمروك بأمر، وسألوك شيئاً فقل: نعم، ولا تقل: لا، فإنّ (لا) عي ولؤم.

يابنيّ، إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشيء، صلّها واسترح منها فإنّها دَين.
وصلّ في جماعة ولو على رأس زجّ.
وإن إستطعت أن لا تأكل طعاماً حتّى تبتديء فتتصدّق منه فافعل.
وعليك بقراءة كتاب الله[1].

١ ـ اصول الكافي : ١١٣/١ (كتاب العقل و الجهل).

٢٩

الحبّ في الله والبغض في الله

إنّ أعمق رابطة تربط أبناء البشرية مع بعضهم هي الرابطة العقائدية، حيث تبتني عليها سائر العلاقات الأُخرى.

ولقد أكّد القرآن الكريم مراراً على هذا المعنى وهذا اللون من الإرتباطات، وشجب صور الروابط القائمة على أساس الصداقة والحميّة الجاهلية والمنافع الشخصية التي تكون على حساب مرتكزات المبدأ، إذ أنّ ذلك يعني الإهتزاز والتصدّع في بناء الشخصية الرسالية ..

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ المعيار الأساس للإنسان هو الإيمان والتقوى، ولذا فإنّ إقامة العلاقات مع الأشخاص الذين يفقدون هذه المقوّمات أمر لا يقدم عليه الإنسان الملتزم ويحذّر من الوقوع في شراكه، ولابدّ من الرجوع إلى المعيار الايماني في إقامة العلاقات وفق منهج الإسلام، وجعل العلاقة مع الله والموقف من الله هو الحكم والفصل في طبيعة هذه العلاقة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من أحبّ لله وأبغض لله وأعطى لله جلّ وعزّ فهو ممّن كمل إيمانه**»[1].

ونقرأ في حديث آخر عنه عليه السلام: «**من أوثق عرى الإيمان، أن تحبّ في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله**»[2].

---

١ ـ أُصول الكافي، ج ٢، باب الحبّ في الله حديث (١، ٢).

٢ ـ أُصول الكافي، ج ٢، باب الحبّ في الله، حديث (١، ٢).
والأحاديث في هذا المجال كثيرة جدّاً ويراجع المجلّد الثاني من كتاب أُصول الكافي، باب الحبّ في الله، حيث نقل العلّامة الكليني في هذا الباب (١٦) حديثاً حول هذا الموضوع.

هل الإيمان الّا الحبّ والبغض

إنّنا نقرأ حديثاً عن الإمام الصادقعليه السلام حين سألوه: هل الحب والبغض من الإيمان، فأجابعليه السلام: «وهل الإيمان إلّا الحبّ والبغض»؟! ثمّ تلا هذه الآية: ﴿... ولكنّ الله حبَّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون[١]﴾[٢].

الدين هو الحبّ والحبّ هو الدين

وورد في حديث آخر عن الإمام الباقرعليه السلام قوله في هذا المجال «وهل الدين إلّا الحبّ»؟! ثمّ استدلّعليه السلام ببعض الآيات وقال بعدئذٍ: «الدين هو الحبّ والحبّ هو الدين»[٣].

لا يجتمع حبّان في قلب واحد

القرآن يحذّر المؤمنين من إمكانية الجمع بين حبّ الله وحبّ أعدائه، إذ لابدّ من إختيار طريق واحد لا غير، وإذا ما كانوا حقّاً مؤمنين صادقين فعليهم إجتناب حبّ أعداء الله، يقول تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخرين يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم﴾[٤].

نعم، لا يجتمع حبّان متضادّان في قلب واحد، والذين يدّعون إمكانية الجمع بين الإثنين، فإنّهم إمّا ضعفاء الإيمان أو منافقون، ولذلك نلاحظ في الغزوات الإسلامية أنّ جمعاً من أقرباء المسلمين كانوا في صفّ المخالفين والأعداء، ومع ذلك قاتلهم المسلمون حتّى قتلوا قسماً منهم.

إنّ حبّ الآباء والأبناء والأُخوان والعشيرة شيء ممدوح، ودليل على عمق العواطف الإنسانية، إلّا أنّ هذه المحبّة حينما تكون بعيدة عن حبّ الله فإنّها ستفقد خاصيّتها.

---

١ ـ سورة الحجرات: الآية ٧.

٢ ـ أصول الكافي، ج ٢، باب الحب في الله والبغض في الله، الحديث ٥.

٣ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٨٣ ـ ٨٤.

٤ ـ سورة المجادلة: الآية ٢٢.

حبّ الله والرسول افضل من كلّ حبّ

إنّ الإنسان لا يصل إلى أوج الإيمان إلّا عند ما يضحّي بأقوى العلائق والدوافع فيه، وهو عشقه لذاته في طريق عشقه لذات الله وخلفائه، ولذلك نقرأ في حديث: «**لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[١].

وجاء في حديث آخر: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين**»[٢].

ورد في حديث أنّ جبرئيل عليه السلام ظهر عند النّبي صلى الله عليه وآله وسلم على هيئة أعرابي، فسأله عن الساعة، فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**» فأعاد عليه السؤال رافعاً صوته: يا محمّد متىٰ الساعة؟ فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ويحك، إنّها كائنة فما أعددت لها؟**» فقال الأعرابي: لم أعد كثيراً من الصلاة والصيام، ولكن أُحبّ اللّه ورسوله، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**فأنت مع من أحببت**»، فقال أنس (وهو أحد الصحابة): فما فرح المسلمون بشيء كفرحهم بهذا الحديث.[٣]

وكذلك روي عنه صلى الله عليه وآله: «**ما من مؤمن إلّا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة**»[٤].

إنّ مسألة الولاية بالمعنى الخاصّ، ومسألة الحبّ في الله والبغض في الله بالمعنى العامّ، ورد التأكيد عليهما في كثير من الروايات الإسلامية حتّى أنّ الصحابي الجليل سلمان الفارسي قال لأمير المؤمنين عليه السلام: **ياأبا الحسن، ما اطلعت على رسول الله إلّا ضرب بين كتفي، وقال ياسلمان «هذا ـ وأشار إلى الإمام علي ـ وحزبه هم المفلحون»**[٥].

وحول المورد الثاني ـ يعني الولاية نقرأ في حديث عن الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «**ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان**»[٦].

---

١ ـ تفسير في ظلال القرآن، ذيل الآيات ٦ ـ ٤ من سورة الاحزاب.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ تفسير المراغي: ١٠٥/٢٩.

٤ ـ صحيح البخاري: ١٤٥/٦ تفسير سورة الأحزاب، ومسند أحمد: ٣٣٤/٢.

٥ ـ نقل هذا الحديث في تفسير البرهان عن كتب أهل السنّة (البرهان: ٣١٢/٤).

٦ ـ أُصول الكافي ج ٢ باب الحبّ في الله حديث ٣.

هل واليت لي وليّاً

وجاء في حديث آخر أنّه: «قال الله تعالى لموسى: هل علمت فيّ عملاً قطّ، قال: صلّيت لك، وصمت وتصدّقت، وذكرت لله. قال الله تبارك وتعالى: وأمّا الصلاة فلك برهان، والصوم جنّة، والصدقة ظلّ والزكاة والذكر نور، فأي عمل عملت لي؟ قال موسى عليه السلام: دلّني على العمل الذي هو لك. قال ياموسى: هل واليت ليّ وليّاً؟ وهل عاديت لي عدوّاً قطّ، فعلم موسى أنّ أفضل الأعمال الحبّ في الله والبغض في الله»[١].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يمحّض رجل الإيمان في الله حتّى يكون الله أحبّ إليه من نفسه وأبيه وأُمّه وولده وأهله وماله ومن الناس كلّهم»[٢].

كما توجد روايات كثيرة حول هذا الموضوع في جانبه الإيجابي (حبّ أولياء الله) وكذلك الجانب السلبي (البغض لأولياء الله) ويطول بنا ذكرها هنا، ومن المناسب أن ننهي الحديث عنها بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إذا أردت أن تعلم انّ فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فإن كان يحبّ أهل طاعة الله عزّوجلّ ويبغض أهل معصيته، ففيك خير والله يحبّك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحبّ أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحبّ»[٣].

---

١ ـ سفينة البحار: ١/٢٠١، مادة (حبب).

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

٣٠

الصديق و آداب الصداقة

لا شك في أن عوامل بناء شخصية الإنسان ـ بعد عزمه وإرادته وتصميمه ـ أُمور مختلفة، من أهمها الجليس والصديق والمعاشر، ذلك لأنّ الإنسان قابل للتأثر شاء أم أبىٰ، فـيأخذ قسطاً مهماً من أفكاره وصفاته الأخلاقية عن طريق أصدقائه، ولقد ثبتت هذه الحقيقة من الناحية العلمية وعن طريق التجربة والمشاهدات الحسية أيضاً.

قابلية التأثر هذه نالت اهتماماً خاصّاً لدىٰ الإسلام إلى حدّ أنّه نقل في الرّوايات الإسلامية، عن نبيّ الله سليمان عليه السلام أنّه قال: «لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا إلى من يصاحب، فإنّما يعرف الرجل بأشكاله وأقرانه، وينسب إلى أصحابه وأخدانه».[1]

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: «ومن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه، فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، وإن كانوا على غير دين الله، فلا حظّ له من دين الله».[2]

حقّاً، إنّ أثر الصديق في سعادة وشقاوة إنسان ما قد يكون من أهم العوامل أحياناً، فقد يؤدي به إلى دركات الشقاء الأبدي، وقد يرقىٰ به أحياناً إلىٰ غاية المجد.

ومن خلال الأحاديث الشريفة نلمس بكل جلاء نهي الأئمّة عليهم السلام عن مصاحبة مجموعة معينة من الناس، منهم الكذّابون لعدم الثقة بهم.

---

١ ـ سفينة البحار: ٢٧/٢ مادة (صدق).

٢ ـ بحار الأنوار: ١٩٧/٧٤ .

فعن علي عليه السلام أنّه قال: «إيّاك ومصادقة الكذّاب، فإنّه كالسراب يقرّب عليك البعيد ويبعد عليك القريب»[١].

نقرأ في حديث عن التاسع من أئمة الإسلام العظام، الإمام محمد التقي الجواد عليه السلام «اِيّاك ومصاحبة الشرير، فإنه كالسيف المسلول، يحسن منظره ويقبح أثره».[٢]

وقال الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب... ومجالسة الموتىٰ» قيل له: يا رسول الله، وما الموتىٰ؟ قال: «كل غني مترف».[٣]

شروط الصداقة

ومن المناسب هنا أن نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام ضمّ مفهوم الصداقة الواسع وشروطها الكاملة:

«لا تكون الصداقة إلّا بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء منها فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة.

فأوّلاها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة.

والثّاني: أن يرىٰ زينك زينه وشينك شينه.

والثّالثة: أن لا تغيره عليك ولاية ولا مال.

والرّابعة: أن لا تمنعك شيئاً تناله مقدرته.

والخامسة: وهي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات».[٤]

خليل اضلّ خليله

كان عقبة بن أبي معيط، وأُبي بن خلف متخالّين، وكان عقبة لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة الرّسول، فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى طعامه، فلما قربوا الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

١ ـ نهج البلاغة، الكمات القصار، رقم ٣٧.

٢ ـ بحار الأنوار: ١٩٨/٧٤.

٣ ـ الخصال، للصدوق، طبقاً لنقل بحار الأنوار: ١٩٥/٧٤.

٤ ـ أصول الكافي: ٤٦٧/٢.

ما أنا بآكل من طعامك حتىٰ تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وبلغ ذلك أُبي بن خلف فقال: صبئتَ يا عقبة؟ قال: لا والله ما صبأتُ، ولكن دخل عليَّ رجل فأبىٰ أن يطعم من طعامي إلّا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدتُ له فطَعم، فقال أُبي: ما كنتُ براضٍ عنك أبداً حتىٰ تأتي فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة وارتدَّ، وأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه، فقال النبي ﷺ: لا ألقاك خارجاً من مكّة إلّا علوتُ رأسك بالسيف، فضرب عنقه يوم بدرٍ صبراً. وأمّا أُبي بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أُحد بيده في المبارزة».

نزلت آيات من القرآن الكريم لترسم صورة مصير الرجل الذي يُبتلىٰ بخليل ضال، ويجره إلى الضلال[1].

يقول تعالى أوّلاً: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرّسول سبيلاً﴾.

و هذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، ويعتبرون أنفسهم مقصرين. فيصممون على الإنتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب في نفوسهم والشعور بالراحة.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّ هذا الظالم المعتدي الغارق في عالم الأسف، يقول: ﴿يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلّني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾.[2]

الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوّ

رفع القرآن الكريم الغطاء عن حالة الأخلاء الذين يودّ بعضهم بعضاً، ويسيرون معاً في طريق المعصية والفساد، والإغترار بزخارف الدنيا، فيقول: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلّا المتقين﴾[3].

١ ـ تفسير مجمع البيان في تفسير الآية ٢٧ من سورة الفرقان: ١٦٦/٧.

٢ ـ سورة الفرقان: الآيات ٢٩ ـ ٢٧.

٣ ـ سورة الزخرف: الآية ٦٧.

إن هذه الآية التي تصف مشهداً من مشاهد القيامة، تبيّن بوضوح أنّ المراد من الساعة في الآية السابقة هو يوم القيامة أيضاً، اليوم الذي تنفصم فيه عرى العلاقات الأخوية والصداقة والرفقة، إلّا العلاقات التي قامت لله وفي الله وباسمه.

إن تبدل مثل هذه المودة إلى عداوة في ذلك اليوم أمر طبيعي، لأنّ كلاً منهم يرىٰ صاحبه أساس تعاسته وسوء عاقبته، فأنت الذي دللتني على هذا الطريق ودعوتني إليه، وأنت الذي زينت الدنيا في نظري ورغبتني فيها وأطمعتني.

نعم، أنت الذي أغرقتني في بحر الغفلة والغرور، وجعلتني جاهلاً بمصيري، غافلاً عنه.

وهكذا يقول كل واحد منهم لصاحبه مثل هذه المطالب، إلّا المتقين الذين تبقى روابط أخوتهم، وأواصر مودّتهم خالدة، لأنّها تدور حول محور القيم والمعايير الخالدة، وتتّضح نتائجها المثمرة في عرصة القيامة أكثر، فتمنحها قوّة إلى قوّتها.

من الطبيعي أنّ الأخلاء يعين بعضهم بعضاً في أُمور الحياة، فإن كانت خلتهم على أساس الشرّ والفساد، فهم شركاء في الذنب والجريمة، وإن كانت على أساس الخير والصلاح فهم شركاء في الثواب والعطية، وعلى هذا فلا مجال للعجب من أن يتبدل الخليل من القسم الأوّل إلى عدوّ، ومن القسم الثّاني إلى خليل يشتد حبّه ومودّته أكثر من ذي قبل.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«ألا كل خُلّة كانت في الدنيا في غير الله عزَّ وجلّ فإنّها تصير عداوة يوم القيامة»**[1].

---

١ ـ تفسير علي بن إبراهيم، طبقاً لما نقل في تفسير نور الثقلين: ٦١٢/٤.

٣١

آداب المجلس

أشار القرآن الكريم مرّات عديدة إلى الآداب الإسلامية في المجالس ضمن المسائل الأساسية، ومنها آداب التحيّة، والدخول إلى المجلس، وآداب الدعوة إلى الطعام. وآداب التكلّم مع الرّسول ﷺ وآداب التفسّح للأشخاص القادمين، خصوصاً ذوي الفضيلة والسابقين في العلم والإيمان[١].

وهذا يرينا بوضوح أنّ القرآن الكريم يرى لكلّ موضوع في محلّه أهميّة وقيمة خاصّة، ولا يسمح لتساهل الأفراد وعدم إهتمامهم أن تؤدّي إلى الإخلال بالآداب الإنسانية للمعاشرة.

وقد نقلت في كتب الحديث مئات الروايات عن الرّسول ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام حول آداب المعاشرة مع الآخرين. جمعها المحدّث الكبير الشيخ الحرّ العاملي في كتابه وسائل الشيعة، ج٨، حيث رتّبها في ١٦٦ باباً.

وملاحظة الجزئيّات الموجودة في هذه الروايات ترشدنا إلى مبلغ إهتمام الإسلام بالآداب الإجتماعية.

حيث تتناول هذه الروايات حتّى طريقة الجلوس، وطريقة التكلّم والإبتسامة والمزاح والإطعام، وطريقة كتابة الرسائل، بل حتّى طريقة النظر إلى الآخرين.

وهنا نشير الیٰ بعض آداب المجلس.

---

١ ـ جاءت هذه التعليمات من خلال التسلسل في الآيات التالية: آداب التحيّة والسلام. النساء / ٨٦، آداب الدعوة إلى الطعام. الأحزاب / ٥٣، آداب التكلّم مع الرّسول. الحجرات / ٢، وآداب التفسّح. في الآيات مورد البحث.

١ ـ السّلام، تحية الإسلام الكبرىٰ

لا يخفى أنّ لكل جماعة إنسانية تقاليد خاصّة في التحية لدى التلاقي فيما بـينهم، بـها يتبادلون مشاعر الحبّ والصفاء، والمودة، والتحية كما هي صيغة لفظية يمكن أن تكـون ـ أيضاً ـ حركة عملية يستدل منها على مشاعر الحبّ والودّ المتبادلة.

وقد جاء الإسلام بكلمة «السّلام» مصطلحاً للتحية بين المسلمين.

وبناء على ذلك فإنّ المسلمين مكلّفون بردّ السّلام بأحسن منه، أو على الأقل بما يماثله.

وفي القرآن إشارة واضحة إلى أنّ السّلام هو التحية حيث تقول:

﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم تحية من عند الله﴾[١].

ويمكن الإستدلال من هذه الآية على أن عبارة (السلام عليكم» هي في الأصل «سلام الله عليكم» أي ليهبك الله السلامة والأمن، وهكذا يتّضح لنا أنّ السلام يعتبر دلالة على الحبّ والود المتبادل، كما هو دلالة على نبذ الحرب والنزاع والخصام.

وقد دلت آيات قرآنية أُخرىٰ على أنّ السّلام هو تحية أهل الجنّة، حيث يقول سبحانه: ﴿أُولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿تحيتهم فيها سلام ...﴾[٣].

كما أنّ آيات قرآنية أُخرىٰ دلت على أنّ السلام أو أي صيغة أُخرىٰ تعادله، كان سائداً بين الأقوام التي سبقت الإسلام، وهذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم في قصة إبراهيم مع الملائكة حيث يقول: ﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون﴾.[٤]

والشعر الجاهلي فيه دلائل تثبت أن السلام كان ـ أيضاً ـ تحية أهل الجاهلية[٥].

---

١ ـ سورة النّور: الآية ٦١.

٢ ـ سورة الفرقان: الآية ٧٥.

٣ ـ سورة إبراهيم: الآية ٢٣.

٤ ـ سورة الذاريات : الآية ٢٥ .

٥ ـ روي أن «نوبة» وهو من شعراء الجاهلية قال:

ولو أن ليـلى الأخـيلية سـلمت   عـلي ودونـي جـندل وصـفائح
لسلمت تسـليم البشـاشة أو زقـا   إليها صدى من جانب القبر صائح

إنّ تحية الإسلام تبرز أهميتها وقيمتها العظيمة، لدى مقارنتها بما لها من نظائر لدى الأُمم والأقوام الأُخرىٰ.

النصوص الإسلامية تؤكد كثيراً على السّلام والتّحية، حيث يروى عن النّبيﷺ قال: «**من بدأ بالكلام قبل السّلام فلا تجيبوه**»[١].

كما يروى عن الإمام الصادقعليه السلام أنّ الله يقول: «**البخيل من يبخل بالسّلام**»[٢]

وعن الإمام الباقرعليه السلام: «**إنّ الله يحبّ إفشاء السلام**»[٣].

آداب السلام

وقد رود في الروايات والأحاديث آداب كثيرة للتحية والسلام، منها أنّ السلام يجب أن يشيع بين جميع أبناء المجتمع وأن لا ينحصر في إطار الأصدقاء والأقارب، فقد روي عن النّبيﷺ أنّه سئل: أي العمل خير: فأجابﷺ: «**تطعم الطّعام وتقرأ السّلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[٤].

كما ورد في الأحاديث أن من آداب التحية أن يسلم الراكب على الراجل، والراكب على دابة غالية الثمن يسلم على من يركب دابة أقل ثمناً، وقد يكون الأمر حثّاً على التزام التواضع، ونهياً عن التكبر أو محاربة له. فالتكبر غالباً ما يستولي على أهل المال والجاه وهذا عكس ما نشاهده في عصرنا حيث يتحتم على الطبقات الدانية من المجتمع أن تبادر الطبقات العليا بالسّلام، وبذلك يضفون على هذا الأمر طابعاً استعبادياً وثنياً، بينما كان النّبيﷺ هو أوّل من يبادر الآخرين بالسلام، وكانﷺ يبتدىء بالسلام حتى على الصبية الصغار، وبديهي أنّ هذا الأمر لا ينافي ما ورد في الروايات من حثّ صغار السن على مبادرة كبارهم بالسلام والتحية والإحترام، لأنّ هذا السلوك يعتبر نوعاً من الآداب الإنسانية الحميدة، ولا ارتباط له بالتمييز الطبقي.

---

١ ـ أصول الكافي، الجزء الثاني، باب التسليم.

٢ ـ المصدر السابق .

٣ ـ المصدر السابق .

٤ ـ تفسير في ظلال القرآن، في تفسير الآية ٨٦ من سورة النساء.

لا تسلّموا

ومن جانب آخر نجد روايات تأمر بعدم السّلام على المرآبين والفاسقين وأمثالهم، ويعتبر هذا الأمر سلاحاً لمحاربة الفساد والربا، أمّا إذا كان السلام يؤدي إلى التأثير على المفسد والمنحرف، ويجعله يرتد عن غيه ويترك الفساد والإنحراف، فلا مانع منه ولا بأس به.

ردّ التحية بأحسن منها

ورد في تفسير «تفسير الدر المنثور» أنّ شخصاً أتىٰ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: السّلام عليكم. فاجابه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: وعليك السّلام ورحمة الله. ثمّ جاءه آخر وقال: السّلام عليكم ورحمة الله. فأجابه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته. فجاءه ثالث وقال: السّلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «وعليك» ـ وعندما سئل عن علّة هذا الجواب القصير، قال: إنّ القرآن يقول: «**اذا حيّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها**[١]، **ولكنك لم تبق شيئاً**»[٢].

وفي الحقيقة أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم قد ردّ التحية بأحسن منها في الموردين السابقين، أمّا في المورد الثّالث ردّها بالمساوي كلمة «وعليك» تعني أنّ كل ما قلتَه لي مردود عليك.

٢ ـ تفسّحوا

يتحدّث القرآن عن أدب آخر من آداب المجالس حيث يقول سبحانه: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم**[٣]﴾[٤].

إنّ التفسّح بمعنى التوسّع، وهذه واحدة من آداب المجالس، فحين يدخل شخص إلى المجلس فإنّ المرجو من الحاضرين أن يجلسوا بصورة يفسحوا بها مجالاً له، كي لا يبقى في

---

١ ـ سورة النساء: الآية ٨٦.

٢ ـ تفسير الدر المنثور: ٢/٨.

٣ ـ سورة المجادلة: الآية ١١.

٤ ـ إنّ إختلاف التعبيرين ـ تفسّحوا و افسحوا ـ عن الآخر وهو أنّ أحدهما من تفعّل، والآخر من الثلاثي المجرّد، ويمكن أن يكون الفرق أنّ الأوّل له صفة التكلّف، والآخر خالٍ من هذه الصفة، يعني كما لو قال قائل: افسحوا للشخص الذي يقدم توّاً، فإنّ الجالسين بدون أن يشعروا بالتكلّف يتفسّحون، (يرجى ملاحظة ذلك).

حيرة وخجل، وهذا الأدب أحد عوامل تقوية أواصر المحبّة والودّ على عكس النجوى التي أُشير إليها في الآيات السابقة، والتي هي أحد عوامل التفرقة والشحناء، وإثارة الحساسيات والعداوة.

والشيء الملاحظ أنّ القرآن الكريم، الذي هو بمثابة دستور لجميع المسلمين لم يهمل حتّى هذه المسائل الجزئية الأخلاقية في الحياة الإجتماعية للمسلمين، بل أشار إليها بما يناسبها ضمن التعليمات الأساسية، حتّى لا يظنّ المسلمون أنّه يكفيهم الإلتزام بالمبادىء الكليّة.

وبما أنّ المجالس تكون مزدحمة أحياناً بحيث أنّه يتعذّر الدخول إلى المجلس في حالة عدم التفسّح أو القيام، وإذا وجد مكان فإنّه غير متناسب مع مقام القادمين وإستمراراً لهذا البحث يقول تعالى: ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾[1] أي إذا قيل لكم قوموا فقوموا.

ولا ينبغي أن تضجروا أو تسأموا من الوقوف، لأنّ القادمين أحياناً يكونون أحوج إلى الجلوس من الجالسين في المجلس، وذلك لشدّة التعب أو الكهولة أو للإحترام الخاصّ لهم، وأسباب أُخرى.

وهنا يجب أن يؤثّر الحاضرون على أنفسهم ويتقيّدوا بهذا الأدب الإسلامي، كما مرّ بنا في سبب نزول الآية، حيث كان رسول الله ﷺ قد أمر المجموعة التي كانت جالسة بالقرب منه بالتفسّح للقادمين الجدد لأنّهم كانوا من مجاهدي بدر، وأفضل من الآخرين من ناحية العلم والفضيلة.

٣ ـ الاجتناب من النجوىٰ

للنجوىٰ من الوجهة الفقهيّة الإسلامية أحكام مختلفة حسب إختلاف الظروف، ويصنّف إلى خمسة حالات تبعاً لطبيعة الأحكام الإسلامية في ذلك.

فتارةً يكون هذا العمل «حراماً» وفيما لو أدّى إلى أذى الآخرين أو هتك حرمتهم كالنجوى الشيطانية حيث هدفها إيذاء المؤمنين.

وقد تكون النجوى أحياناً (واجبة) وذلك في الموضوعات الواجبة السرّية، حيث أنّ

---

١ ـ سورة المجادلة: الآية ١١.

إفشاءها مضرّ ويسبّب الخطر والأذى، وفي مثل هذه الحالة فإنّ عدم العمل بالنجوى يستدعي إضاعة الحقوق وإلحاق خطر بالإسلام والمسلمين.

وتتصف النجوى في صورة أُخرى بالاستحباب، وذلك في الأوقات التي يتصدّى فيها الإنسان لأعمال الخير والبرّ والإحسان، ولا يرغب بالإعلان عنها وإشاعتها وهكذا حكم الكراهة والإباحة.

وأساساً، فانّ كلّ حالة لا يوجد فيها هدف مهمّ فالنجوى عمل غير محمود، ومخالف لآداب المجالس، ويعتبر نوعاً من اللامبالاة وعدم الإكتراث بالآخرين.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه**»[١].

كما نقرأ في حديث عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: كنّا نتناوب رسول الله ﷺ يطرقه أمر أو يأمر بشيء فكثر أهل الثوب المحتسبون ليلة حتّى إذا كنّا نتحدّث فخرج رسول الله ﷺ من الليل فقال: ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى»[٢].

---

١ ـ تفسير مجمع البيان نهاية الآيات ١٠ ـ ٨ من سورة المجادلة، وتفسير الدر المنثور: ٦/١٨٤ وأُصول الكافي: ٢/٤٨٣ (باب المناجاة) حديث ١، ٢.

٢ ـ تفسير الدر المنثور: ٦/١٨٤.



الكبر. التفاخر. التواضع

المستفاد تربوياً من قصة إبليس في القرآن هو أن الكبر والغرور من الأسباب الخطيرة في عملية الإنهيار والسقوط من المكانة المحترمة المرموقة إلىٰ مدارك الدون والخسران.

فكما هو معلوم أنّ إبليس لم يكن من الملائكة[1] إلّا أنّه ارتقىٰ الدرجات العُلا ونال شرف العيش بين صفوف الملائكة نتيجة لطاعته السابقة للّه عزّوجلّ، حتىٰ أنّ البعض قال عنه: إنّه كان معلماً للملائكة، ويستفاد من الخطبة القاصعة في (نهج البلاغه) أنّه عبد اللّه عزّ وجلّ آلاف السنين.

لكن شراك التعصب الأعمىٰ وعبادة هوىٰ النفس المهلك قد أدّيا الىٰ خسرانه كل ذلك في لحظة تكبر وغرور.

بل إنّ حب الذات والغرور والتعصب والتكبر قد جعلته يستمر في موقفه المريض ويوغل قدمه في وحل الإصرار علىٰ الإثمّ والسير المتخبط في جادة العناد، فنسي أو تناسىٰ ما للتوبة والإستغفار من أثر إيجابي، حتىٰ دعته الحال لأن يشارك كل الظلمة والمذنبين من بني آدم في جرائمهم وذنوبهم بوسوسته لهم.. وبات عليه أن يتحمل نصيبه من عذاب الجميع يوم الفزع الأكبر.

الشياطين المغرورون

وليس ابليس فحسب، بل إنّ التأريخ يحدثنا عن أصحاب النفوس المريضة ممن ركبهم الغرور والكبر فعاثوا في الأرض فساداً بعد أن غطت العصبية رؤاهم، وحجب الجهل

---

١ ـ كما تشير إلىٰ ذلك الآية الخمسون من سورة الكهف.

بصيرتهم، وسلكوا طريق الظلم والإستبداد وسادوا علىٰ الرقاب بكل جنون فهبطوا إلىٰ أدنىٰ درجات الرذيلة والإنحراف عن الطريق القويم.

إنّ هاتين السمتين الأخلاقيتين (التكبر والغرور) في الواقع.. نار رهيبة محرقة. فكما أن مَنْ صرف وطراً من عمره في بناء وتأثيث دارٍ، لربّما في لحظات معدودات يتحول إلىٰ هباء منثور بسبب شرارة صغيرة.. فالتكبر والغرور يفعل فعل النّار في الحطب ولا تنفع معه تلك السنين المعمورة بالطاعة والبناء.

فأيُّ درسٍ أنطق من قصة إبليس وأبلغ؟!

إنّ إبليس قد اختلطت عليه معاني الأشياء فراح يضع المعاني حسب تصوراته الخادعة المحدودة ولم يدرك أن النّار ليست أفضل وأشرف من التراب، والتراب مصدر جميع البركات كالنباتات والحيوانات والمعادن وهو محل حفظ المياه، وبعبارة اشمل هو منبع وأصل كل الكائنات الحية، وما عمل النّار إلّا الإحراق وكثيراً ما تكون مخربة ومهلكة.

امام المتعصبين وسلف المستكبرين

ويصف أمير المؤمنين عليه السلام إبليسَ بأنّه «عدو للّه، إمام المتعصبين وسلف المستكبرين» ثمّ يقول: «**ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبره ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً وأعد له في الآخرة سعيراً، فاعتبروا بما كان من فعل الله بابليس إذ أحبط عمله الطويل و جهده الجهيد وكان قد عبدالله ستّة آلاف لا يدري أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة عن كبر ساعة واحدة فمن ذا بعد أبليس يسلم علىٰ الله بمثل معصيته؟ كلّا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمرٍ أخرج به منها ملكاً إنّ حكمه في اهل السماء والأرض لواحد**»[١].

وقد جاء أيضاً عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «**إنّ للمعاصي شعباً، فأوّل ما عصي الله به الكبر، وهي معصية إبليس حين أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين، والحرص وهي معصية آدم وحواء ... ثمّ الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله**»[٢].

---

١ ـ نهج البلاغة، من الخطبة ١٩٢.

٢ ـ سفينة البحار، مادة كبر.

وكذا نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**أُصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، فأمّا الحرص فإن آدم حين نهي عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأمّا الاستكبار فإبليس حيث أُمِر بالسجود لآدم فأبىٰ، وأمّا الحسد فابنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه**»[1].

ورد في الحديث القدسي أنّ الله سبحانه يقول: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النّار**»[2].

ومن البديهي أنّ الله لا يحتاج إلى أوصاف كهذه.. ولكن حالة الطغيان والعدوان تستولي الإنسان حينما ينسى نفسه، وتملأ ريح الكبر والغرور فكره!

علامات الغرور والتكبّر

القرآن الكريم يدعو الىٰ محاربة الكبر والغرور وبتعبير واضح ولطيف ينهى المؤمنين عن هاتين الصفتين حيث يخاطب النّبي صلى الله عليه وآله بالقول: ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً**﴾. لماذا؟ ﴿**إنّك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾[3].

و هذه اشارة الىٰ سلوك المتكبرين والمغرورين الذين يضربون الأرض بعنف اثناء مشيهم لكي يلتفت الناس اليهم ويدفعون رؤوسهم في السماء علامة علىٰ افضليتهم المزعومة بين النّاس لهؤلاء يقول القرآن: انّك لن تخرق الارض و لن تبلغ الجبال طولاً.

إذ مثل هؤلاء كالنملة التي تمشي علىٰ صخرة كبيرة و تضرب برجلها عليها، إلّا أنّ الصخرة تسخر من حماقتها.

ثمّ أنت أيّها المتكبّر هل تستطيع ـ مهما رفعت رأسك في السماء ـ أن تكون مثل الجبال علواً، إنّك مهما تفعل لا ترتفع سوىٰ سنتيمترات قليلة و حتىٰ هذه الجبال لن تكون شيئاً إزاء الكرة الأرضيّة، والكرة الأرضيّة تعتبر ذرّة سابحة في عالم الوجود.

إذن فما هذا الكبر والغرور الموجود عندك ايّها الإنسان؟

---

١ ـ أُصول الكافي: ٢/٢١٩، باب أُصول الكفر.

٢ ـ تفسير روح المعاني، التّفسير الكبير للفخر الرازي، تفسير الميزان وتفاسير أخر ذيل الآية ١٧ من سورة الأسراء.

٣ ـ سورة الاسراء: الآية ٣٧.

آثار الكبر

إنّ القرآن الكريم لم يبحث مباشرة في هذه الصفات الداخليّة الخطرة في تركيب الإنسان ووجوده (أي التكبر والغرور) وانّما اشار إليها من خلال آثارها والظواهر السلوكيّة التي تنتج عنها، حيث تحدث القرآن عن مشية المتكبر والمغرور، وهذه اشارة الىٰ أنّ التكبر والغرور، حتىٰ في أهون الصور واقل الحالات، يعتبر مذموماً مخجلاً مهما كانت آثاره جزئيّة وصغيرة.

وفي القرآن ـ ايضاً ـ اشارة إلىٰ أنّ الصفات الداخليّة ـ الباطنيّة ـ للانسان تظهر ـ شاء أم أبىٰ ـ من خلال الاعمال والتصرفات، من خلال الشيء مثلاً، أو النظر أو الكلام وفي كل الاعمال الاخرىٰ.

لهذا السبب ينبغي علينا إذا ما واجهتنا أدنىٰ ظاهرة أو أثر لهذه الصفات، أن نعرف أنّ الخطر اصبح قريباً، وإنّ هذه الصفة المذمومة (التكبر والغرور) قد عششت في روحنا ويجب علينا مجاهدتها فوراً.

إن أول صفة لـ «عباد الرحمن» في سورة الفرقان هو نفي الكبر والغرور والتعالي، الذي يبدو في جميع أعمال الإنسان حتىٰ في طريقة المشي، لأنّ الملكات الأخلاقية تظهر نفسها في حنايا أعمال وأقوال وحركات الإنسان بحيث أن من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه ـ بدقّة ـ من أسلوب مشيته.

نعم، إنّهم متواضعون، والتواضع مفتاح الإيمان، في حين يعتبر الغرور والكبر مفتاح الكفر.

الكبر والغرور اعظم موانع الايمان

لقد رأينا بأُم أعيننا في الحياة اليومية، وقرأنا مراراً في آيات القرآن أيضاً، أن المتكبرين المغرورين لم يكونوا مستعدين حتىٰ ليصغوا إلى كلام القادة الإلهيين، كانوا يتلقون الحقائق بالسخرية، ولم تكن رؤيتهم أبعد من أطراف أُنوفهم، تُرىٰ أيمكن أن يجتمع الإيمان في هذه الحال مع الكبر؟!

نعم، هؤلاء المؤمنون، عباد ربهم الرحمن، والعلامة الأُولىٰ لعبوديتهم هو التواضع... التواضع الذي نفذ في جميع ذرات وجودهم، فهو ظاهر حتىٰ في مشيتهم.

حقّاً إذا كان للإنسان أدنىٰ معرفة بنفسه وبعالم الوجود، فسيعلم كم هو ضئيل حيال هذا العالم الكبير، حتىٰ وإن كانت رقبته كالجبال، فإن أعلى جبال الأرض أمام عظمة الأرض أقل من تعرجات قشر (النارنج) بالنسبة إليها، تلكم الأرض التي هي نفسها لا شيء بالنسبة الىٰ الأفلاك العظيمة.

ترىٰ أليست هذه الحالة من الكبر والغرور، دليلاً على الجهل المطلق!؟

المجنون حقّاً

نقرأ في حديث رائع عن النّبي ﷺ، أنّه كان يعبر أحد الأزقة يوماً ما، فرأى جماعة من الناس مجتمعين، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا: مجنون شغل الناس بأعمال جنونية مضحكة، فقال: رسول الله ﷺ: **أتريدون أن أخبركم من هو المجنون حقاً**، فسكتوا وأنصتوا بكل وجودهم فقال ﷺ: «**المتبختر في مشيه، الناظر في عطفيه، المحرك جنبيه بمنكبيه، الذي لا يرجىٰ خيره ولا يؤمن شرّه، فذلك المجنون، وهذا مبتلىٰ!**».

إنّ الإمام علي عليه السلام في صفات المتقين في حديثه الىٰ «همام» يقول: «ومشيهم التواضع»[1] والمقصود بالمشي هنا ليس التجوال في السوق والشارع، وانّما هي كناية عن اسلوب المشي والتعامل في جميع الامور الحياتيّة، بما في ذلك خطوطهم الفكريّة، إذا هم متواضعون في تفكيرهم.

البرنامج الحياتي العملي لقادة الاسلام يعتبر اساساً مفيداً لكلّ مسلم حقيقي في هذا المجال.

ففي سيرة الرسول ﷺ نرىٰ أنّه لم يكن يسمح لأحد أن يمشي بين يديه وهو راكب، بل كان يقول: اذهب أنت الىٰ المكان الفلاني وانا سآتيك الىٰ نفس المكان، حيث أنّ المشي بين يدي الراكب يؤدّي الىٰ غرور الراكب و ذلّة الماشي.

و نقرأ ـ أيضاً ـ أنّ رسول الله ﷺ كان يجلس على التراب تواضعاً، و يأكل الطعام كما يأكله العبيد، وكان ﷺ يجلب الماعز بنفسه، ويركب الدابة دون غطاء[2].

---

١ ـ نهج البلاغة : الخطبة ١٩٣.

٢ ـ سنن النّبي ﷺ.

وقد كان الرسول ﷺ يلتزم هذا السلوك في كلّ مواقفه، بما في ذلك فتح مكة، حتى لا يفكر الناس بأنهم اذا وصلوا الىٰ منصب مهم، او احرزوا انجازاً ما، فإن ذلك مدعاة لهم بان يصابوا بالتكبر والغرور ويكونوا بالتالي بعيدين وغرباء عن الناس والمستضعفين.

وفي سيرة الإمام علي عليه السلام نقرأ أنّه كان يجلب الماء الى البيت، وفي بعض الاحيان كـان ينظف البيت.

أمّا في سيرة الإمام الحسن عليه السلام فنقرأ أنّه عليه السلام، حج الىٰ بيت الله، عشرين مرّة مشياً عـلىٰ الاقدام و النجائب (المحامل والدواب) تقاد بين يديه[1]، وكان عليه السلام يبيّن أنّ هذا العمل تواضع لله تعالى.

التواضع اصل كلّ خير

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «التواضع أصل كلّ خير نفيس، ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب .. ومن تواضع لله شرّفه الله على كثير من عباده .. وليس لله عزّوجلّ عبادة يقبلها ويرضاها إلّا وبابها التواضع»[2].

واد للمتكبرين في الجحيم

قد ورد في حديث لرسول الله ﷺ:

«إنّ في جهنم لوادٍ للمتكبرين يقال له سقر، شكىٰ إلى الله عزّوجلّ شدة حرّه، وسأله أن يتنفس فأذن له فتنفس فاحرق جهنم»[3].

لا سبيل للمتكبرين الىٰ الجنّة

نقرأ في رواية عن الأمامين المعصومين الباقر و الصادق عليهما السلام «لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[4].

---

١ ـ المناقب لابن شهر آشوب: ١٤/٤.

٢ ـ بحار الأنوار: ١٢١/٧٥.

٣ ـ تفسير علي بن إبراهيم، نقلاً عن تفسير نور الثقلين: ٤٩٦/٤، كما ورد نفس المعنىٰ في تفسير الصافي في ذيل الآيات ٦٤ ـ ٦٠ من سورة الزمر.

٤ ـ اصول الكافي، المجلد الثاني، باب الكبر الحديث ٦.

فروع التغطرس

الف: المغترون بالمال

عندما يصل الأفراد الذين يعيشون حياتهم بلا غاية وهدف إيماني إلىٰ منزلة معينة مِن القدرة المالية أو الوجاهة الإجتماعية، فإنّهم في الغالب يُصابون بالغرور. وفي البداية يسعون إلىٰ التفاخر بإمكاناتهم علىٰ الآخرين ويعتبرونها وسيلة تفوّق، ويرون مِن التفاف أصحاب المصالح حولهم دليلاً علىٰ محبوبيتهم، وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك بقوله: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾.

ويتبدّل حبّ هؤلاء للدنيا تدريجياً بفكرة الخلود فيها: ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾.

إنَّ ظنّهم بخلود ثرواتهم المادية يجعلهم يُنكرون المعاد للتضاد الواضح بين ما هم فيه وبين مبدأ البعث والمعاد، فيكون لسان حالهم: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾.

والأنكىٰ مِن ذلك هو أنّهم يعتبرون مقامهم ووجاهتهم في هذه الدنيا دليلاً علىٰ قرب مقامهم من محضر القدس الإلهي، فيقولون: ﴿وَلئن رُددتُ إلىٰ ربّي لأجدنَّ خيراً مِنها مُنقلباً﴾[1].

ب: المغترون بالعلم

القرآن يتبيّن أنّ أساس انحراف قسم كبير من الناس هو التكبر والغرور.

قد يكون امتلاك المال من أسباب العلو والتكبر، أو كثرة الأفراد وامتلاك القدرات العسكرية. أو كمية محدودة من المعلومات في فرع من فروع المعرفة، يظن الإنسان أنّها كبيرة وكثيرة، فتدفعه إلى العلو والإستغناء السخرية.

إنّ حالة عصرنا الراهن تعكس نموذج «الغرور العلمي» بشكل جلّي واضح، ففي ظل التقدم السريع الذي أحرزته المجتمعات المادية في المجالات العلمية والتقنية، نراها عمدت إلى إلغاء دور الدين من الحياة،وقد سيطر الغرور العلمي على بعض علماء الطبيعة الى درجة أنّهم تصوروا أن لا يوجد في هذا العالم شيء خارج اطار علومهم و معارفهم، وبما أنّهم لم

---

١ ـ سورة الكهف : الآية ٣٦ ـ ٣٤.

يروا الله في مختبراتهم انكروا وجوده وجحدوا نعمته.

لقد ذهب بهم الغرور إلى أكثر من ذلك عندما أصبحوا يجهرون أن الدين ووحي الأنبياء إنّما كانا بسبب الجهل أو الخوف، أما وقد حلّ عصر التقدم العلمي فإنّ الحاجة إلى مثل هذه المسائل انعدمت تماماً، بل وعمدوا إلى فرض تفسير معين لتطوّر الحياة يماشي ادعاءهم هذا، فقالوا: إنّ الحياة الفكرية للبشر مرّت عبر المراحل الآتية:

١ـ مرحلة الأساطير.

٢ـ مرحلة الدين.

٣ـ مرحلة الفلسفة.

٤ـ مرحلة العلم، والمقصود بها العلوم الطبيعية.

بالطبع، نحن لا ننكر أنّ السلطة الديكتاتورية للكنيسة على عقول الناس في أوروبا، وشيوع الخرافات وأنواع التفكير الأسطوري لقرون مديدة في تأريخ تلك القارة، بالإضافة إلى القمع الذي كانت تمارسه طبقة رجال الدين الكنسي (الإكليروس) هناك؛ كلّ هذه العوامل ساهمت ـ إلى درجة كبيرة ـ في نمو المذاهب التي تقوم على أساس رفض الدين والإيمان والغيب، والإعتماد بدلاً عنها على أُسس المادة والتجربة والإلحاد.

ولحسن الحظ لم تستمر هذه المرحلة طويلاً، إذ اجتمعت مجموعة عوامل وساعدت للقضاء على مثل هذه التصورات المنحرفة، وكأنّ العذاب قد مسّهم عندما ركبهم الغرور والعلو.

فمن ناحية أظهرت الحرب العالمية الأولىٰ والثانية أنّ التقدم العلمي والصناعي قد جعل البشرية على حافة السقوط والدمار.

ومن ناحية ثانية، فإنّ ظهور المفاسد الأخلاقية والإجتماعية والقتل والإبادة وأنواع الأمراض النفسية، وسلسلة الإعتداءات المالية والجنسية، كلّ ذلك كشف عن عجز العلوم وقصورها لوحدها عن بناء الحياة الإنسانية بشكلٍ سليم صحيح.

من جانب ثالث، عملت المساحات المجهولة في وعي الإنسان العلمي وقصوره عن الأحاطة بكافة أسباب الظواهر الطبيعية والحياتية إلى اعترافه بالعجز عن إدراك مطلق لأسباب المعرفة من خلال العلم وحده، فعاد الكثير من العلماء إلى ساحة الإيمان وجادّة الدين، وضعفت نوازع الدعاوىٰ الإلحادية.

وفي المعترك الصعب هذا تألق الإسلام بتعليماته الشاملة والجامعة، وبدأت موجات العودة نحو الإسلام الأصيل.

ونأمل أن تكون هذه اليقظة عميقة شاملة قبل أن يشمل البأس الإلهي مرّة أُخرىٰ أجزاء من هذا العالم، ونأمل أن تزول آثار ذلك الغرور باسم العلم حتىٰ لا يكون مدعاةً للخسران الكبير.

منبع التفاخر والتكاثر

من آيات القرآن يتبيّن أنّ أحد العوامل الأساسية للتفاخر والتكاثر والمباهات هو الجهل بجزاء الآخرة وعدم الإيمان بالمعاد.

كما إنّ جهل الإنسان بضعفه ومسكنته... ببدايته ونهايته... من العوامل الأُخرى الباعثة على الكبر والغرور والتفاخر. ولهذا فإنّ القرآن الكريم بهدف كسر روح التفاخر والتكاثر في الأفراد، يقصّ علينا في مواضع كثيرة مصير الأقوام السالفة، وكيف إنّها كانت تمتلك كلّ وسائل القوّة والمنعة، لكنّها أُبيدت بوسائل بسيطة... بالريح... بالصاعقة... بالزلزال... بالسيل...

بعبارة أُخرى بالماء والهواء والتراب.. وأحياناً بالسجّيل وبطير أبابيل!!

فلِمَ ـ والحال هذه ـ كلّ هذا التفاخر والغرور؟!

ثمّ عامل آخر لهذه الظاهرة هو الإحساس بالضعف وعقدة الحقارة الناتجة عن الفشل. والأفراد الفاشلون من أجل أن يغطوا على فشلهم يلجأون إلى الفخر والمباهات ولذلك ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادقعليه‌السلام قال: «**ما من رجل تكبر أو تجبّر إلّا لذلة وجدها في نفسه**»[١].

وعن الإمام محمّد بن علي الباقرعليه‌السلام قال:

«**ثلاثة من عمل الجاهلية: الفخر بالأنساب، والطعن بالأحساب والإستسقاء بالأنواء (طلب الماء بواسطة النجوم)**»[٢].

---

١ ـ أُصول الكافي: ٢/٢٣٦: باب الكبر، الحديث ١٧.

٢ ـ بحار الأنوار، : ٧/٢٩١.

اهلك النّاس اثنان

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «**أهلك النّاس اثنان: خوف الفقر، وطلب الفخر**»[١].

والحق أنّ أهم عوامل الحرص والبخل والخلود إلى الدنيا والمنافسات المخربة، وكثير من المفاسد الإجتماعية هو هذا الخوف الوهمي من الفقر والتفاخر والتعالي بين الأفراد والأُمم والقبائل.

ولذا ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ما أخشى عليكم الفقر ولكن أخشى عليكم التكاثر**»[٢].

«التكاثر» كما أشرنا يعني في الأصل التفاخر، ولكنّه يعني أحياناً حبّ الاستزادة من المال وجمعه، كما ورد في الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«**التكاثر في الأموال: جمعها من غير حقّها، ومنعها من حقها، وشدّها في الأوعية**»[٣].

هذا البحث الموسّع نختمه بحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي؛ وما لَكَ من مالِكَ إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**»[٤].

نعم، حقّاً لا يعود على الإنسان شيء من ماله الذي جمعه وعدده، وتساهل ـ أحياناً ـ في حلاله وحرامه، إلّا ما يأكل ويشرب ويلبس، أو ما ينفقه في سبيل اللّه وما ينفقه على الإحتياجات الشخصية قليل، فما أفضل أن يزيد حظه من ماله بالإنفاق!

---

١ ـ بحار الأنوار: ٧٣/٢٩٠، الحديث ١٢.

٢ ـ تفسير الدر المنثور: ٦/٣٨٧.

٣ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٦٦٢، الحديث ٨.

٤ ـ صحيح مسلم، نقلاً عن تفسير مجمع البيان: ١٠/٥٣٤



آداب المشي

صحيح أنّ المشي مسألة سهلة وبسيطة، إلّا أنّ نفس هذه المسألة السهلة يمكن أن تعكس أحوال وأوضاع الإنسان الداخلية والأخلاقية، وقد تحدّد مـلامح شـخصيته، لأنّ روحـيّة الإنسان وأخلاقه تنعكس في طيّات كلّ أعماله، كما قلنا سابقاً، وقد يكون العـمل الصـغير حاكياً عن روحية متأصّلة أحياناً. ولمّا كان الإسلام قد اهتمّ بكلّ أبعاد الحياة، فإنّه لم يهمل شيئاً في هذا الباب أيضاً.

ففي حديث عن رسول الله ﷺ: **«من مشى على الأرض إختيالاً لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها»**[1].

وفي حديث آخر عن النّبي الأكرم ﷺ أنّه نهى أن يختال الرجل في مشيه، وقال: **«من لبس ثوباً فاختال فيه خسف الله به من شفير جهنّم، وكان قرين قارون لأنّه أوّل من اختال!»**[2].

وكذلك ورد عن الصادقعليه السلام أنّه قال: **«إنّ الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم** وقسّمه عليها وفرّقه فيها ـ إلى أن قال ـ **وفرض على الرجلين أن لا تمشي بهما إلى شيء من معاصي الله، وفرض عليهما المشي إلى ما يرضي الله عزّوجلّ، فقال تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾**[3] **وقال: ﴿واقصد في مشيك﴾**[4]**»**[5].

---

١ ـ ثواب الأعمال وأمالي الصدوق، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٢٠٧/٤.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ سورة لقمان: الآية ١٨.

المجنون حقّاً

وقد نقل عن نبي الإسلام العزيز ﷺ، أنّه كان قد مرّ من طريق، فرأى مجنوناً قد إجتمع الناس حوله ينظرون إليه، فقال: «علام إجتمع هؤلاء؟» فقالوا: على مجنون يصرع، فنظر إليهم النّبي ﷺ وقال: «ما هذا بمجنون! ألا أُخبركم بالمجنون حقّ المجنون؟» قالوا: بلى يارسول الله، فقال: **«إنّ المجنون: المتبختر في مشيه، الناظر في عطفيه، المحرّك جنبيه بمنكبيه، فذلك المجنون وهذا المبتلى»**(٦).

التواضع مع الخطوات المحكمة

التواضع في المشي ليس هو الضعف والخطوة الخائرة، بل إنّ الخطوات المحكمة التي تحكي عن الجدية والقدرة هي من صميم التواضع.

نقرأ في سيرة النّبي ﷺ أن أحد أصحابه يقول: **«مارأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول اللّه ﷺ، كأنّما الأرض تطوىٰ له، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنّه لغير مكترث»**.(٧)

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية **﴿الذين يمشون على الأرض هوناً﴾**(٨) أنّه قال: **«والرجل يمشي بسجيته التي جُبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر»**.(٩)

وورد في حديث آخر، في حالات النّبي ﷺ: **«قد كان يتكفأ في مشيه كإنّما يمشي في صبب»**.(١٠)

يعني حينما كان الرّسول الأكرم ﷺ يمشي فإنّه يخطو خطوات سريعة دونما استعجال،

---

٤ ـ سورة لقمان: الآية ١٩.

٥ ـ أُصول الكافي: ٢٨/٢ باب (أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها).

٦ ـ بحار الأنوار: ٥٧/٧٦.

٧ ـ تفسير في ظلال القرآن، ذيل الآية ٦٣ من سورة الفرقان، وفي تفسير القرطبي ينقل رواية أُخرىٰ في هذا الصدد أيضاً لها شبه كبير بما قلناه أعلاه.

٨ ـ سورة الفرقان: الآية ٦٣.

٩ ـ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٦٣ من سورة الفرقان.

١٠ ـ تفسير روح المعاني، ذيل الآية ٦٣ من سورة الفرقان.

كأنّما يمشي في منحدر.

على أية حال فإنّ طريقة المشي ليست مقصودة بذاتها، بل هي نافذة إلى معرفة الحالة الروحية للإنسان.

٣٤

الوفاء بالعهد

إنّ الثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع تمثل أهم دعائم رسوخ المجتمع، بل من دعائم تشكيل المجتمع وإخراجه من حالة الآحاد المتفرقة وإعطائه صفة التجمع، وبالإضافة لكون أصل الثقة المتبادلة يعتبر السند القويم للقيام بالفعاليات الإجتماعية والتعاون علىٰ مستوىٰ واسع.

والعهد والقسم من مؤكدات حفظ هذا الإرتباط وهذه الثقة، وإذا تصورنا مجتمعاً كان نقض العهد فيه هو السائد، فمعنىٰ ذلك انعدام الثقة بشكل عام في ذلك المجتمع، وعندها سوف يتحول المجتمع الىٰ آحاد متناثرة تفتقد الإرتباط والقدرة والفاعلية الاجتماعيه.

إنّ قضية الوفاء بالعهد والميثاق التي تطرحها الآية ـ موضوع البحث ـ تعتبر واحداً من أهم مستلزمات الحياة الإجتماعية، إذا بدونها لا يتمّ أي نوع من التعاون والتكافل الإجتماعي، وإذا فقد نوع البشر هذه الخصلة فقدوا بذلك حياتهم الإجتماعية وآثارها أيضاً.

ولهذا تؤكد مصادر التشريع الإسلامي بشكل لا مثيل له ـ على قضية الوفاء بالعهود التي قد تكون من القضايا النوادر التي تمتاز بهذا النوع من السعة والشمولية، لأنّ الوفاء لو انعدم بين ابناء المجتمع الواحد لظهرت الفوضى وعم الإضطراب فيه وزالت الثقة العامّة، وزوال الثقة يعتبر من أكبر وأخطر الكوارث.

خمسة احاديث حول الوفاء بالعهد

١ ـ ورد في نهج البلاغة من قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لمالك الأشتر رضي الله عنه مايلي:

«فإنّه ليس من فرائض الله شيء للناس أشدّ عليه اجتماعاً ـ مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ـ من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم ـ دون المسلمين ـ لما استوبلوا من عواقب الغدر إيّاك .. أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك .. والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[١]»[٢].

عدة المؤمن أخاه نذر

٢ ـ ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق أنّه عليه السلام قال: «عدة المؤمن أخاه نذر لا كفّارة فيه، فمن أخلف فبخلف الله بدأ، ولمقته تعرّض، وذلك قوله: ﴿ياأيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[٣]»[٤].

٣ ـ ينقل عن الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله لا يقبل إلّا العمل الصالح، ولا يقبل الله إلّا الوفاء بالشروط والعهود»[٥].

٤ ـ نقل عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لا دين لمن لا عهد له»[٦].

والتأكيدات الشديدة هذه كلها تدل على أنّ موضوع الوفاء بالعهد لا فرق في الإلتزام به بين إنسان وإنسان آخر ـ سواء كان مسلماً أو غير مسلم ـ وهو ـ كما يصطلح عليه ـ يعتبر من حقوق الإنسان بصورة عامّة، وليس ـ فقط ـ من حقوق أنصار الدين الواحد.

٥ ـ في حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ثلاث لم يجعل الله عزّ وجلّ لأحد فيهنّ رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين!»[٧].

---

١ ـ سورة الصف: الآية ٤.

٢ ـ نهج البلاغة الرسالة رقم ٥٣ ص ٤٤٤ صبحي الصالح.

٣ ـ سورة الصف : الآية ٤ ـ ٣.

٤ ـ أُصول الكافي، ج ٢، باب خلف الوعد.

٥ ـ سفينة البحار: ٢/٢٩٤ ، مادة (عهد) .

٦ ـ بحار الأنوار : ١٤٤/١٦.

٧ ـ أصول الكافي: ١٦٢/٢.

نقل عن الإمام علي عليه السلام بأن العهد حتى لو كان بالإشارة يجب الوفاء به، وذلك في قوله: **«إذا أومى أحد من المسلمين أو أشار إلى أحد من المشركين، فنزل على ذلك فهو في أمان»**[١].

١ ـ مستدرك الوسائل: ٢/٢٥٠.

٣٥

حقوق الجيران

إنّ القرآن يوصي بالجيران القريبين والبعيدين ﴿والجار ذي القربىٰ والجار الجنب﴾[١]، وكل أربعين داراً من بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله تعتبر من الجيران، كما تصرح بعض الروايات[٢]، وهذا يستوعب في المدن الصغيرة كل المدينة تقريباً (لأنّنا لو فرضنا دار كل شخص مركز دائرة يقع في امتداد شعاعها من كل صوب أربعون بيتاً لاتّضحت من خلال محاسبة بسيطة مساحة هذه الدائرة التي يكون مجموع البيوت الواقعة فيها ما يقرب من خمسة الآف بيت، ومن المسلم أن المدن الصغيرة قلّما تتشكل من أكثر من هذا العدد من المنازل والبيوت).

إنّ لحقّ الجوار في الإسلام أهميّة بالغة إلى درجة أنّنا نقرأ في وصايا الإمام أمير المؤمنينعليه السلام المعروفة: «**ما زال (رسول الله) يوصي بهم حتى ظننا أنّه سيورثهم**»[٣] (وقد ورد هذا الحديث في مصادر أهل السنة أيضاً فقد روي في تفسير المنار وتفسير القرطبي من البخاري مثل هذا المضمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً).

والله لا يؤمن من ...

وروي في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال ذات يوم «**والله لا يؤمن والله لا يؤمن**

١ ـ سورة النساء: الآية ٣٦.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ١/٤٨٠.

٣ ـ تفسير القرطبي: ٣/١٧٥٤.

والله لا يؤمن، فقيل: يا رسول الله ومن؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»[١].

كما نقرأ في حديث آخر أيضاً أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»**[٢].

وروي عن الإمام الصّادق جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال: **«حسن الجوار يعمر الدّيار ويزيد في الأعمار»**[٣].

في عالمنا المادي حيث لا يعرف الجار عن جاره شيئاً، بل وربّما لا يتعرف على اسم صاحبه بعد عشرين سنة من الجيرة والجوار يتألّق هذا التعليم الإسلامي في حق الجار بشكل خاص، فإنّ الإسلام يقيم للعلاقات العاطفية والتعاون الإنساني وزناً خاصّاً، ويوليها اهتماماً كبيراً، في حين تؤول هذه العلاقات والعواطف في الحياة الصناعية المادية إلى الزوال يوماً بعد يوم، وتعطي مكانها إلى القسوة والجفاء والخشونة.

عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من منع الماعون جاره منعه اللّه خيره يوم القيامة، ووكّله إلى نفسه، ومن وكّله إلى نفسه فما أسوأ حاله»؟!**[٤]

---

١ ـ تفسير المنار: ١٩٢/٥، طبعة بيروت.

٢ ـ تفسير الصافي، ص ١٣٠.

٣ ـ تفسير الصافي، ص ١٢٠.

٤ ـ تفسير نور الثقلين: ٦٧٩/٥، الحديث ٢٠.



احترام الوالدين

بالرغم مِن أنَّ العاطفة الإنسانية ومعرفة الحقائق، يكفيان لوحدهما لاحترام ورعاية حقوق الوالدين، إلّا أنَّ الإسلام لا يلتزم الصمت في القضايا التي يمكن للعقل أن يتوصل فيها بشكلٍ مستقل، أو أن تدلَّ عليها العاطفة الإنسانية المحضة، لذلك تراه يُعطي التعليمات اللازمة إزاء قضية احترام الوالدين ورعاية حقوقهما، بحيث لا يمكن لنا أن نلمس مثل هذه التأكيدات في الإسلام إلّا في قضايا نادرة أُخرىٰ.

وعلىٰ سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلىٰ هذا المعنىٰ:

الاحسان بالوالدين بعد التوحيد

ألف: في أربع سورٍ قرآنية ذكر الإحسان إلىٰ الوالدين بعد التوحيد مُباشرة، وهذا الإقتران يدل علىٰ مدىٰ الأهمية يوليها الإسلام للوالدين.

ففي سورة البقرة نقرأ: ﴿لا تعبدون إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً﴾[1].

وفي سورة النساء نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿واعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا﴾[2].

وفي سورة الأنعام يقول: ﴿ألا تشركوا بهِ شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾[3].

---

١ ـ الآية (٨٣).

٢ ـ الآية (٣٦).

٣ ـ الآية ١٥١.

وفي سورة الاسراء نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿**وقضىٰ ربّك أن لا تعبدوا إلّا إيّاه وبالوالدين إحساناً**﴾[١].

الاحسان بالوالدين ولو كانا مشركين

ب ـ إنَّ مسألة إحترام الوالدين ورعاية حقّهما مِن المنزلة بمكان، حتىٰ أنَّ القرآن والأحاديث والرّوايات الإسلامية، تؤكدان معاً علىٰ الإحسان للوالدين حتىٰ ولو كانا مُشركين، إذ نقرأ في سورة لقمان: ﴿**وإن جاهداك علىٰ أن تُشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تُطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً**﴾[٢].

ج ـ رفع القرآن الكريم منزلة شكر الوالدين إلىٰ منزلة شكر اللّه تعالىٰ، إذ يقول: ﴿**أن أشكر لي ولوالديك**﴾[٣].

وهذا دليل علىٰ عمق وأهمية حقوق الوالدين في منطق الإسلام وشريعته، بالرغم من أن نعم اللّه التي يشكرها الإنسان لا تعدّ ولا تحصىٰ.

د ـ القرآن الكريم لا يسمح بأدنىٰ إهانة للوالدين، ولا يجيز ذلك، إذ نقرأ في سورة الاسراء: ﴿**فلا تقل لهما افٍ**﴾[٤].

في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «**لو علم اللّه شيئاً هو أدنىٰ من أفٍ لنهىٰ عنه، وهو مِن أدنىٰ العقوق، ومِن العقوق أن ينظر الرجل إلىٰ والديه فيحدّ النظر إليهما**»[٥].

هـ ـ بالرغم مِن أنَّ الجهاد يُعتبر مِن أهم التعاليم الإسلامية، إلّا أنَّ رعاية الوالدين تعتبر أهم مِنهُ، بل لا يجوز إذا أدّىٰ الأمر إلىٰ أذية الوالدين، بالطبع هذا إذا لم يكن الجهاد واجباً عينياً، وإذ توفرَّ العدد الكافي مِن المتطوعين له.

---

١ ـ الآية ٢٣.

٢ ـ الآية ١٥.

٣ ـ سورة لقمان: الآية ١٤.

٤ ـ الآية ٢٣.

٥ ـ يلاحظ: جامع السعادات، النراقي: ٢/٢٥٨.

خيرٌ من جهاد سنة

في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام، **أنَّ رجلاً جاءَ إِلىٰ الرّسول**صلى الله عليه وآله وسلم **وقال لَهُ، إِنّي أُحبّ الجهاد، وصحتي جيدة، ولكن لي أمّ لا ترتاحُ لذلك، فماذا أفعل؛** فأجابهصلى الله عليه وآله وسلم: «**إرجع فكن مَع والدتك فوالذي بعثني بالحق لأنسها بك ليلة خيرٌ مِن جهادٍ في سبيل اللّه سنة**»[١].

ولكن عندما يجب الجهاد وجوباً عينياً، وتصبح بلاد الإسلام في خطر يُلزم الجميع بالحضور ولا تُقبل جميع الاعذار حينئذٍ بما فيها عدم رضاء الوالدين.

وما قلناه عن الجهاد ينطبق كذلك على الواجبات الكفائية الأخرىٰ؛ وكذلك المستحبات.

المحروم من ريح الجنّة

و ـ عن الرّسولصلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إيّاك وعقوق الوالدين فإنَّ ريح الجنّة توجد مِن ميسرة ألف عام ولا يجدها عاقّ**»[٢].

هذا التعبير ينطوي علىٰ إشارة لطيفة، إذ أن مِثل هؤلاء الأشخاص (العاقين) ليسوا لا يدخلون الجنّة وحسب، بل إنّهم يبقون علىٰ مسافةٍ بعيدة جداً منها ولا يستطيعون الإقتراب مِنها.

وينقل «سيد قطب» حديثاً عن رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم جاء فيه: «عن بريدة عن أبيه، أنَّ رجلاً كانَ في الطواف حاملاً أُمّه يطوف بها، فرأىٰ النّبيصلى الله عليه وآله وسلم فسأله: هل أديت حقّها؟ فأجابهصلى الله عليه وآله وسلم: «لا، ولا بزفرة واحدة»[٣].

انظروا الىٰ البرّ ما بلغ بأهله

جاء في قصّة بقرة بني اسرائيل، أنّه قتل شخص من بنياسرائيل بشكل غامض ولم يعرف القاتل، وحدث بين قبائل بنياسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، لذلك توجّهوا الىٰ موسىٰ ليقضي بينهم، فأمرهم موسىٰعليه السلام أن يذبحوا بقرة ويضربوا قطعة منها بالمقتول كي يحيىٰ

---

١ ـ جامع السعادات: ٢/٢٦٠.

٢ ـ جامع السعادات: ٢/٢٥٧.

٣ ـ تفسير في ظلال القرآن: ٥/٣١٨.

ويخبرهم بقاتله، وبعد أن سئل بنواسرائيل عن مواصفات البقرة وبيّن لهم موسىٰ عليه السلام تلك المواصفات ذهبوا للبحث عن تلك البقرة.

يقولون إنّ البقرة، كانت وحيدة لا تشاركها بقرة أُخرىٰ في ذلك، ولذلك اضطر القوم إلى شرائها بثمن باهظ.

ويقولون: إن هذه البقرة كانت ملكاً لشابٍ صالح علىٰ غاية البّر بوالده. هذا الرجل واتته سابقاً فرصة صفقة مربحة، كان عليه أن يدفع فيها الثمن نقداً. وكانت النقود في صندوق مغلق مفتاحه تحت وسادة والده. حين جاء الرجل ليأخذ المفتاح وجد والده نائماً، فأبىٰ إيقاظه وازعاجه، ففضّل أن يترك الصفقة علىٰ أن يوقظ والده.

وقال بعض المفسرين: «كان البائع علىٰ استعداد لأن يبيع بضاعته بسبعين ألفاً نقداً، ولكن الرجل أبى أن يوقظ والده واقترح شراء تلك البضاعة بثمانين ألفاً علىٰ أن يدفع المبلغ بعد استيقاظ والده. وأخيراً لم تتم صفقة المعاملة، ولذا أراد الله تعالى تعويضه علىٰ ايثاره هذا بمعاملة أُخرىٰ وفيرة الربح.

وقالوا أيضاً: بعد أن استيقظ الوالد وعلمه بالأمر، أهدى لولده البقرة المذكورة، فدّرت عليه ربحاً عظيماً[١]».

وإلى هذه القصّة يشير رسول الله صلى الله عليه وآله إذ يقول: «أُنْظُروا إِلَى البّر مَا بَلَغَ بَأَهْلِهِ»[٢]

منزلة الأم أفضل أو الأب؟

بالرغم من أنّ ثقافة العصر الحاضر فيها الكثير من الحديث عن مقام ومكانة الأُم، حتىٰ أنّه خصص يوماً وسمي بـ(يوم الأم)، إلّا أن التطور الآلي ـ وللأسف الشديد ـ يقطع بسرعة علاقة الآباء والأمهات بالأولاد بحيث يلاحظ ضعف الروابط العاطفية بين هؤلاء في السنين المتقدمة من أعمارهم.

ولدينا في الإسلام روايات تثير العجب والحيرة في هذا الباب، توصي المسلمين بالأم وتشيد بمكانتها الفائقة الأهمية، وتأمرهم أن يسعوا عملياً ـ وليسَ في الكلام وحسب ـ في برّ الوالدين.

١ ـ تفسير ابن كثير، ج ١.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ١/ ٨٨.

١ ـ نطالع في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن رجلاً أتى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أُمك، قال: ثمّ من؟ قال: أُمك، قال: ثمّ من؟ قال: أُمك، قال: ثمّ من؟ قال: أباك»[١]!

الجنّة تحت اقدام الأمهات

٢ ـ وفي حديث آخر: أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للجهاد ـ حيث لم يكن الجهاد واجباً عينياً ـ فقال: «ألك والدة»؟ قال: نعم، قال: «فألزمها فإنّ الجنّة تحت قدمها»[٢].

لا شك أنّنا إذا لاحظنا ودققنا في المشقات والمتاعب التي تتقبلها وتتحملها الأُم من حين الحمل إلىٰ الوضع، وفي مرحلة الرضاعة إلىٰ أن يكبر الطفل، وكذلك العذاب والأتعاب والسهر في الليالي، والتمريض والرعاية، كل ذلك تقبلته بكل رحابة صدر وأنس في سبيل ولدها .. إذا لاحظنا ذلك فسنرىٰ أن الإنسان مهما سعى وجدّ في هذا الطريق، فإنّه سيبقى مديناً للام.

٣ ـ والجميل في الأمر نطالع في حديث، أن أُم سلمة قالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بكل خير، فأي شيء للنساء؟ قال: النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بلى، إذ حملت المرأة كانت بمنزلة الصائم القائم المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، فإذا وضعت كان لها من الأجر ما لا يدري أحد ما هو لعظمه، فإذا أرضعت كان لها بكل مصة كعدل عتق محرر من ولد إسماعيل، فإذا فرغت من رضاعه ضرب ملك كريم علىٰ جنبها وقال: استأنفي العمل فقد غفر لك»[٣]! وكأن صحيفة عملك ستبدأ من جديد.

٤ ـ وفي حديث آخر ـ وهو وارد في كثير من الكتب ـ أن النّبي صلى الله عليه وآله قال: «الجنّة تحت أقدام الأمّهات»[٤]. فلابدّ للوصول إلى الجنّة من الخضوع والتذلل في مقابلها كتراب الأقدام.

أصعب الأحوال

تطرّق القرآن إلىٰ سبب وجوب معرفة حقّ الأُمّ، فقال: ﴿حملته أُمّه كرهاً ووضعته كرهاً

---

١ ـ وسائل الشيعة: ١٥/٢٠٧.

٢ ـ جامع السعادات: ٢/٢٦١.

٣ ـ وسائل الشيعة: ١٥/١٧٥.

٤ ـ المصدر السابق.

وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾[١].

تضحي خلالها الأُم أعظم التضحيات، وتؤثر ولدها علىٰ نفسها أيّما إيثار.

إنّ حالة الأُم تختلف منذ الأيّام الأولىٰ لإنعقاد النطفة، فتتوالىٰ عليها الصعوبات، وهناك حالة تسمىٰ حالة (الوحام) هي أصعب الحالات التي تواجهها الأُم، ويقول الأطباء عنها: إنّها تنشأ نتيجة قلّة المواد التي تحدث في جسم الأُم نتيجة إيثارها ولدها علىٰ نفسها.

وكلما تكامل نمو الجنين امتص مواداً أكثر من عصارة روح الأُم وجسدها، تترك أثرها علىٰ عظامها وأعصابها، فيسلبها أحياناً نومها وغذاءها وراحتها وهدوءها، أمّا في آخر فترة الحمل فيصعب عليها حتىٰ المشي والجلوس والقيام، إلّا أنّها تتحمل كلّ هذه المصاعب بصبر ورحابة صدر وعشق للوليد الذي سيفتح عينيه علىٰ الدنيا عمّا قريب، ويبتسم بوجه أُمّه.

وتحل فترة وضع الحمل، وهي من أعسر لحظات حياة الأُم، حتىٰ أنّ الأُم أحياناً تبذل نفسها وحياتها من أجل سلامة الوليد.

علىٰ كلّ حال، تضع الأُم حملها الثقيل لتبدأ مرحلة صعبة أُخرىٰ، مرحلة مراقبة الطفل المستمرة ليل نهار... مرحلة يجب أن تلبىٰ فيها كلّ احتياجات الطفل الذي ليست لديه أية قدرة علىٰ بيانها وتوضيحها، فإن آلمه شيء لا يقوىٰ علىٰ تعيين محل الألم، وإذا كان يشكو من الجوع والعطش، والحر والبرد، فهو عاجز عن التعبير عن شكواه، إلّا بالصراخ والدموع، ويجب علىٰ الأُم أن تحدد كلّ واحدة من هذه الإحتياجات وتؤمنها بتفحصها وصبرها وطول أناتها.

إنّ نظافة الوليد في هذه المرحلة مشكلة مضنية، وتأمين غذائه الذي يستخلص من عصارة الأُم، إيثار كبير.

والأمراض المختلفة التي تصيب الطفل في هذه المرحلة، مشكلة أُخرىٰ يجب علىٰ الأم أن تتحملها بصبرها الخارق.

الإطاعة المحدودة

إنَّ الوالدين ـ في بعض الأحيان ـ يقترحان علىٰ الأبناء أشياء غير منطقية وحتىٰ غير

١ ـ سورة الاحقاف: الآية ١٥.

شرعية، طبعاً في مثل هذه الحالات لا تجب الطاعة، ولكن مِن الأفضل أن يتسم التعامل معهما بالهدوء والمنطق، وأن تتم عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأحسن وجه.

أخيراً نختم الكلام بحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام قال فيه: إنَّ رجلاً جاءَ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يسأله عن حق الأدب على ابنه، فأجابهُ صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «لا يسميه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسب له»[1] (اي لا يفعل شيئاً يؤدي الى أن يسبّ الناس والديه).

١ ـ تفسير نور الثقلين: ١٤٩/٣.

٣٧

الاهتمام بالأيتام

لا يخلو مجتمع من أيتام فقدوا الأب في صِغَرهم، وهؤلاء الأطفال يجب أن يتمتعوا بحماية من مختلف الجهات.

الناحية العاطفيّة

١ ـ من الناحية العاطفية، يشعر هؤلاء بنقص، إذا لم يُسدَّ فإنّهم سيشبّون أفراداً غير سالمين، وكثيراً ما يكونون قساة مجرمين خطرين. ومن الناحية الإنسانية يجب أن يعيش هؤلاء في حماية ورعاية كسائر أبناء المجتمع، أضف إلى ذلك يجب أن يشعر أفراد المجتمع بضمان مستقبل أبنائهم الذين قد يصابون باليتم في يوم من الأيّام.

يشير القرآن الكريم ـ بهدف إثارة مشاعر العطف والإشفاق لدى الناس بالنسبة إلى اليتامىٰ ـ إلى حقيقة يغفل عنها الناس أحياناً، وتلك الحقيقة هي: إن على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحبّ أن يعامل الناس يتاماه.

تصوروا مشهد أطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم يعيشون تحت كفالة شخص قاسي القلب خائن لا يرعىٰ مشاعرهم، كما لا يراعي جانب العدالة في حقّهم.

أجل تصوروا هذا المشهد المؤلم، كم يؤلمكم ويحزنكم ذلك؟ هل تحبّون مثل ذلك لأبنائكم الصغار من بعدكم؟ كلا حتماً، فكما تحبّون ورثتكم فأحبّوا ورثة غيركم ويتاماهم، واحزنوا لما يحزنهم.

يقول سبحانه: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾ يعني إنّ الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبة الخيانة في شؤون اليتامى ويخافوا مغبة إيذائهم.

وأساساً: إنّ القضايا الإجتماعية تنتقل في شكل سنة من السنن ـ من اليوم إلى الغد، ومن الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يُروّجون في المجامع سنة ظالمة مثل إيذاء اليتامىٰ فإن ذلك سيكون سبباً لسريان هذه السنة على أولادهم وأبنائهم أيضاً، وعلى هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد أذى يتامى الآخرين وورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده ويتاماه أيضاً.

التعاطف مع عواطف اليتيم

القرآن يؤكّد علىٰ أن يتجنب أولياء اليتامىٰ مخالفة الأحكام الإلهية، ويتقوا الله في اليتامى ويقولوا لهم قولاً عدلاً موافقاً للشرع والحق، قولاً ممزوجاً بالعواطف الإنسانية والمشاعر الأخوية، لكي يندمل بذلك ما في قلوب أُولئك من الجراح، وينجبر ما في أفئدتهم من الكسر، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾[1].

إنّ هذا التعليم الإسلامي الرفيع المذكور في العبارة السابقة إشارة إلى ناحية نفسية في مجال تربية التيامى ـ جديرة بالإهتمام والرعاية، وهي: إنّ حاجة الطفل اليتيم لا تنحصر في الطعام والكساء، بل مراعاة مشاعرهم وأحاسيسهم القلبية هو الأهم، وهو ذو تأثير كبير جدّاً في بناء مستقبلهم، لأن الطفل اليتيم إنسان كغيره، يجب أن يحصل على غذائه اللازم من الناحية العاطفية، فيجب أن يحظى بالحنو والرعاية كما يحظى بذلك أي طفل آخر في حضن أبيه وأُمّه. أنه ليس «حَمَل» يخرج مع القطيع للرعي عند الصباح، ويعود عند الغروب، بل هو إنسان يجب ـ مضافاً إلى الرعاية الجسدية ـ أن يحظى بالرعاية الروحية، والعناية العاطفية، وإلّا نشأ قاسياً مهزوماً، عديم الشخصية، بل وحاقداً خطيراً.

الناحية الماليّة

٢ ـ الأيتام قد يكونون أصحاب تركة مالية يجب أن تصان بكلّ دقّة.

---

١ ـ سورة النساء: الآية ٩.

وأية عادة ترى أقبح من أكل أموال اليتامىٰ؟ ولهذا نرىٰ في القرآن الكريم بعبارات شديدة النكير على من يتصرف في أموال اليتامى تصرفاً غير مشروع، وغير صحيح، وهذه الآية هي أوضح هذه العبارات.

﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً﴾(١).

التعاضد المالي

٣ ـ اليتامىٰ قد يكونون معدمين مالياً فيجب الإهتمام بهم من هذه الناحية، والآخرون يتحملون مسؤولية التعامل مع هؤلاء بكل اهتمام ورفق كي يزيلوا عنهم غبار عناء الوحدة.

لذلك ركزت آيات القرآن الكريم ونصوص الشريعة الأُخرىٰ علىٰ هذه المسألة ذات البعد الأخلاقي والبعد الإجتماعي والإنساني.

١ ـ عن رسول اللّه ﷺ قال: «**إنّ اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول اللّه لملائكته يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غيب أبوه في التراب؟ فتقول الملائكة: أنت أعلم، فيقول اللّه تعالى: «يا ملائكتي، فإنّي أشهدكم أن لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة**»(٢).

دموع اليتيم في كفّ الرحمن

٢ ـ أكثر من ذلك روي عنه ﷺ قال: «**إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمن**»(٣).

٣ ـ روي عنه ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة إذا اتقى اللّه عزّوجلّ، وأشار بالسبابة والوسطىٰ**»(٤).

٤ ـ لأهمية هذه المسألة قرنها علي أمير المؤمنين في وصيته المعروفة بالصلاة والقرآن وقال: «**اللّه اللّه في الأيتام فلا تغبُّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم**»(٥).

---

١ ـ سورة النساء: الآية ١٠.

٢ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠/٥٠٦.

٣ ـ تفسير الفخر الرازي: ٣١/٢١٩.

٤ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٥٩٧/٢٣.

٥ ـ نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة رقم ٤٧.

يد الرحمة

٥ ـ في حديث عن أحد الصحابة قال: كنّا جلوساً عند رسول اللّه فأتاه غلام فقال: غلام يتيم وأخت لي يتيمة، وأُمّ لي أرملة، أطعمنا ممّا أطعمك اللّه، أعطاك الله ممّا عنده حتى ترضىٰ، قال: **ما أحسن ما قلت يا غلام، اذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا** فجاء بواحدة وعشرين تمرة، فقال: سبع لك وسبع لأختك وسبع لأُمّك، فقام إليه معاذ بن جبل فمسح رأسه وقال: جبر اللّه يُتمك وجعلك خلفاً من أبيك وكان من أبناء المهاجرين.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **رأيتك يا معاذ وما صنعت.**

قال: رحمته.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا يلي أحد منكم يتيماً فيحسن ولايته، ووضع يده على رأسه إلّا كتب اللّه له بكل شعرة حسنة ومحا عنه بكلّ شعرة سيئة، ورفع له بكلّ شعرة درجة».**[١]

٦ ـ جاء في الحديث المعروف عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمرّ على يده نور يوم القيامة»**[٢].

ولا يخفىٰ أنّه في المجتمعات الكبيرة مثل مجتمعاتنا اليوم، لا يمكن للمسلمين أن يكتفوا طبعاً بالأعمال الفردية، بل لابدّ أن تتمركز القوىٰ لرعاية الأيتام وفق برنامج اقتصادي وثقافي وتعليمي مدروس، كي ينشأ هؤلاء الأيتام أفراداً لائقين للمجتمع الإسلامي. وهذا يتطلب تعاوناً اجتماعياً عاماً.

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠/٥٠٦.

٢ ـ المصدر السابق.

٣٨

صلة الرحم

أهمية صلة الرحم في الإسلام

لقد أعار الإسلام اهتماماً بالغاً بصلة الرحم وبالتودّد إلى الأهل والأقارب. ونهى بشدّة عن قطع الارتباط بالرحم.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصوّر أهمية صلة الرحم بقوله: «صِلَةُ الرَّحِمِ تَعْمُرُ الدِّيارَ وَتَزِيدُ فِي الأَعْمَارِ، وَإِنْ كَانَ أَهْلُهَا غَيْرَ أَخْيَارٍ»[١].

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «صِلْ رَحِمَكَ وَلَوْ بِشَرْبَةِ مَاءٍ، وَأَفْضَلُ مَا يُوصَلُ بِهِ الرَّحِمُ كَفُّ الأَذىٰ عَنْهَا»[٢].

الإمام علي بن الحسين السّجاد عليه السلام يحذّر ولده من صحبة خمس مجموعات، إحداها قطاع الرحم، ويقول: «... وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْقَاطِعِ لِرَحِمِهِ فَإِنّي وَجَدْتُهُ مَلْعُوناً فِي كِتَابِ اللهِ»[٣].

ويقول سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾[٤].

---

١ ـ سفينة البحار (مادة رحم).

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ سورة محمّد: الآية ٢٢.

ابغض الاعمال

روي أنّ أعرابياً جاء إلى النّبيﷺ فقال: يا رسول اللّه علمني عملاً يدخلني الجنّة.

أجابه رسول اللّهﷺ: «إن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة[1] اعتق النسمة وفك الرقبة».

فقال الأعرابي: أوَليسا واحداً؟!

قال: «لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»

ثمّ قال: «والفيء على ذي الرحم الظالم، فإنّ لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإنّ لم تطق ذلك، فكفّ لسانك إلّا من الخير»[2].

المحروم من الجنّة

وجاء في حديث آخر عن رسول اللهﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنّة: مدمن خمر، ومدمن سحر، وقاطع رحم»[3].

السبب في كل هذا التأكيد الإسلامي علىٰ الرحم هو أن عملية إصلاح المجتمع وتقوية بنيته وصيانة مسيرة تكامله وعظمته في الحقول المادية والمعنوية، تفرض البدء بتقوية اللَّبنات الأساسية التي يتكون منها البناء الإجتماعي، وعند استحكام اللَّبنات وتقويتها يتم إصلاح المجتمع تلقائيّاً.

الإسلام مارس هذه العملية علىٰ النحو الأكمل في بناء المجتمع الإسلامي القوي الشامخ، وأمر بإصلاح الوحدات الإجتماعية. والكائن الإنساني لا يأبىٰ عادة أن ينصاع إلى مثل هذه الأوامر اللازمة لتقوية إرتباط أفراد الأُسرة، لاشتراك هؤلاء الأفراد في الرحم والدم.

وواضح أن المجتمع يزداد قوةً وعظمةً كلّما ازداد التماسك والتعاون والتعاضد في الوحدات الإجتماعية الصغيرة المتمثلة بالأُسرة. وإلى هذه الحقيقة قد يشير الحديث الشريف: «صلة الرحم تعمر الديار».

---

١ ـ أي لقد طرحت بوضوح سؤالك، وإن كنت اجملت في الكلام.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٥٨٣.

٣ ـ الخصال للشيخ الصدوقﷺ.

٣٩

الاخوة في الاسلام

إنّ جملة: ﴿إنّما المؤمنون أخوة﴾[١] واحدة من الشعارات الأساسية و«المتجذّرة» في الإسلام، فهي شعار عميق، بليغ، مؤثر وذو معنىً غزير...

إنّ الآخرين حين يريدون إظهار مزيد من العلاقة بمن يشاركهم في المنهج والعمل، يعبّرون عنهم بالرفاق، «أو الرفيق للمفرد» إلّا أنّ الإسلام رفع مستوىٰ الإرتباط والحب بين المسلمين إلىٰ درجة جعلها بمستوىٰ أقرب العلائق بين شخصين وهي علاقة الأخوين التي تقوم العلاقة بينهما علىٰ أساس المساواة والتكافؤ.

فعلىٰ هذا الأصل الإسلامي المهم فإنّ المسلمين علىٰ اختلاف قبائلهم وقوميّاتهم ولغاتهم وأعمارهم يشعرون فيما بينهم بالأخوّة وإن عاش بعضهم في الشرق والآخر في الغرب...

ففي مناسك الحج مثلاً حيث يجتمع المسلمون من نقاط العالم كافة في مركز التوحيد تبدو هذه العلاقة والإرتباط والإنسجام والوشائج محسوسة وميداناً للتحقّق العيني لهذا القانون الإسلامي المهم...

وبتعبير آخر إنّ الإسلام يرىٰ المسلمين جميعاً بحكم الأسرة الواحدة ويخاطبهم جميعاً بالإخوان والأخوات ليس ذلك في اللفظ والشعار، بل في العمل والتعهّدات المتماثلة أيضاً، جميعهم (أخوة وأخوات).

وفي الروايات الإسلامية تأكيد علىٰ هذه المسألة أيضاً ولا سيما في ما يخص الجوانب

---

١ ـ سورة الحجرات: الآية ١٠.

العملية ونحن نذكر هنا علىٰ سبيل المثال بعضاً من الأحاديث التالية:

١ ـ ورد عن النّبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه»[1].

٢ ـ وورد عنه ﷺ أنّه قال: «مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأُخرىٰ»[2].

٣ ـ ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكىٰ شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده وأرواحهما من روح واحدة»[3].

٤ ـ كما نقرأ حديثاً آخر عنه عليه السلام يقول فيه: «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشّه ولا يعده عدةً فيخلفه»[4].

٥ ـ فمن وصايا النّبي ﷺ للإمام علي عليه السلام يقول له: «ياعلي، ثلاث لا تطيقها هذه الأُمّة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كلّ حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عزّوجلّ عنده وتركه»[5].

ثلاثون حقّاً في الاخوة

وهناك روايات كثيرة في مصادر الحديث الإسلامية المعروفة في ما يتعلّق بحق المؤمن علىٰ أخيه المسلم وأنواع حقوق المؤمنين بعضهم علىٰ بعض وثواب زيارة الإخوان المؤمنين «والمصافحة والمعانقة» وذكرهم وإدخال السرور علىٰ قلوبهم وخاصةً قضاء حاجاتهم والسعي في إنجازها وإذهاب الهم والغم عن القلوب وإطعام الطعام وإكسائهم الثياب وإكرامهم وإحترامهم، ويمكن مطالعتها في أصول الكافي في أبواب مختلفة تحت العناوين الآنفة.

٦ ـ وفي ختام هذا المطاف نشير إلىٰ رواية هي من أكثر الروايات «جمعاً» في شأن حقوق المؤمن علىٰ أخيه المؤمن التي تبلغ ثلاثين حقّاً!...

قال رسول الله ﷺ: «للمسلم علىٰ أخيه ثلاثون حقّاً، لا براءة له منها إلّا بالأداء أو العفو!

---

١ ـ المحجّة البيضاء: ٣٣٢/٣ (كتاب الصحبة والمعاشرة) الباب الثاني.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ و ٤ ـ أصول الكافي: ١٣٣/٢ (باب أخوة المؤمنين بعضهم لبعض الحديث ٣ و٤).

٥ ـ سفينة البحار: ٤٨٤/١ مادة (ذكر).

يغفر زلّته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويُقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلّته، ويرعىٰ ذمّته، ويعود مرضه، ويشهد ميّته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمّت عطسته، ويرشد ضالّته، ويردّ سلامه، ويطيب كلامه، ويُبرّ أنعامه، ويصدق أقسامه، ويوالي وليّه، ولا يعاديه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأمّا نصرته ظالماً فيردّه عن ظلمه، وأمّا نصرته مظلوماً فيعينه علىٰ أخذ حقّه، ولا يُسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يُحبّ لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه»[١].

٧ ـ يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشيد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه[٢].

٨ ـ وايضاً يقول صلى الله عليه وآله «المؤمنون كالنفس الواحدة»[٣].

٩ ـ وايضاً يقول صلى الله عليه وآله «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى»[٤].

١٠ ـ ورد عن أمير المؤمنين قوله: «جمع خير الدنيا والآخرة في كتمان السرّ ومصادقة الأخيار، وجمع الشرّ في الإذاعة ومؤاخاة الأشرار»[٥].

اصلاح ذات البين افضل من عامّة الصلاة والصيام

إنّ واحداً من حقوق المسلمين بعضهم علىٰ بعض هو مسألة الإعانة وإصلاح ذات البين وقد أولت التعاليم الإسلامية عناية فائقة لهذا الموضوع حتى عدته من أفضل العبادات.

يقول أميرالمؤمنين علي عليه السلام في آخر وصاياه ـ عندما عممه ابن ملجم بالسيف ـ لولديه «إنّي سمعت جدّكما رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام»[٦].

---

١ ـ بحار الأنوار: ٧٤/٢٣٦.

٢ ـ تفسير أبو الفتوح الرازي: ٢/٤٥٠ نقلاً عن البخاري كتاب المظالم باب ٥.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ سفينة البحار: ٢/٤٦٩، مادّة كتم.

٦ ـ نهج البلاغة، قسم الرسائل، رقم ٤٧.

وجاء عن الإمام الصادق ﷺ في كتاب الكافي أنّه قال: «صَدَقَةٌ يُحبُّها اللهُ إِصْلاحُ بَيْنَ النَّاسِ إذا تَفَاسَدُوا، وتَقَارُبُ بَيْنَهُمْ إذا تَبَاعَدُوا»[١].

كما ورد عنه عليه السلام في الكتاب آنف الذكر ذاته أنّه قال للمفضل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدِها من مالي»[٢].

ولهذا نقرأ في بعض الرّوايات عن أبي حنيفة سابق الحاجّ قال: مرَّ بنا المفضّل وأنا وختني نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده حتّى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه، قال أمّا إنّها ليست من مالي ولكن أبو عبدالله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أُصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبي عبدالله عليه السلام[٣].

والسبب في كل هذا التأكيد في المسائل الإجتماعية يتجلى بقليل من التأمل، لأنّ عظمة الأُمّة وقدرتها وعزّتها لا يمكن تحقيقه إلّا في ظل التفاهم والتعاون. فإذا لم يتمّ إصلاح ذات البين، ولم تطوِ الخلافات الصغيرة والمشاجرات، تنفذ جذور العداوة والبغضاء في القلوب تدريجاً، وتتحول الأُمّة القوية المتحدة إلى جماعات متفرقة متناحرة، وتضعف أمام الأعداء والحوادث، كما يحدق الخطر بالمسائل العبادية في مثل هذه الأُمّة من صلاة وصيام، وحتى بحيثية القرآن و (موجوديته).

ولذلك فقد أوجبت الشريعة الإسلامية إصلاح ذات البين في بعض مراحله، وجازت الإنفاق من بيت المال لتحقق هذا الأمر، وندبت إلى ذلك في مراحله الأُخرىٰ التي لا تتعلق بمصير المسلمين مباشرة، وعدت ذلك مستحباً مؤكّداً...

---

١ ـ الحديثان ١ و ٢ من أصول الكافي باب إصلاح بين الناس.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

٤٥

التعاون في اعمال الخير

إنّ الدعوة إلى التعاون التي يؤكّد عليها القرآن تعتبر مبدأ إسلامياً عاماً، تدخل في إطاره جميع المجالات الإجتماعية والأخلاقية والسياسية والحقوقية وغيرها، وقد أوجبت هذه الدعوة على المسلمين التعاون في أعمال الخير، كما منعتهم ونهتهم عن التعاون في أعمال الشرّ والإثم اللّذين يدخل إطارهما الظلم والإستبداد والجور بكل أصنافها.

ويأتي هذا المبدأ الإسلامي تماماً على نقيض مبدأ ساد في العصر الجاهلي، وما زال يطبق حتى في عصرنا الحاضر، وهو المبدأ القائل: «**أُنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**».

وكان في العصر الجاهلي إذا غزت جماعة من إحدى القبائل جماعة من قبيلة أُخرىٰ، هب أفراد القبيلة الغازية لموازرة الغازين بغض النظر عمّا إذا كان الغزو لغرض عادل أو ظالم، ونرى في وقتنا الحاضر ـ أيضاً ـ آثار هذا المبدأ الجاهلي في العلاقات الدولية، وبالذات لدى الدول المتحالفة حين تهب في الغالب لحماية بعضها البعض، والتضامن والتعاون معاً حيال القضايا الدولية دون رعاية لمبدأ العدالة ودون تمييز بين الظالم والمظلوم: لقد ألغى الإسلام هذا المبدأ الجاهلي، ودعى المسلمين إلى التعاون في أعمال الخير والمشاريع النافعة والبناءة فقط، ونهى عن التعاون في الظلم والعدوان.

والطريف في هذا المجال هو مجيء كلمتي «البر» و«التقوى» معاً وعلى التوالي في القرآن: ﴿**تعاونوا علىٰ البرّ والتقوىٰ**﴾[1]، حيث أنّ الكلمة الأُولىٰ تحمل طابعاً إيجابياً وتشير

---

١ ـ سورة المائدة: الآية ٢.

الى الأعمال النافعة، والثانية لها طابع النهي والمنع وتشير إلى الإمتناع عن الأعمال المنكرة.

وعلى هذا الأساس ـ أيضاً ـ فإن التعاون والتآزر يجب أن يتمّ سواء في الدّعوة إلى عمل الخير، أو في مكافحة الأعمال المنكرة.

وقد استخدم الفقه الإسلامي هذا القانون في القضايا الحقوقية، حيث حرّم قسماً من المعاملات والعقود التجارية التي فيها طابع الإعانة على المعاصي أو المنكرات، كبيع الأعناب إلى مصانع الخمور أو بيع السلاح إلى أعداء الإسلام وأعداء الحق والعدالة، أو تأجير محل للإكتساب لتمارس فيه المعاملات غير الشرعية والأعمال المنكرة (وبديهي أن لهذه الأحكام شروطاً تناولتها كتب الفقه الإسلامي بالتوضيح).

إنّ إحياء هذا المبدأ لدى المجتمعات الإسلامية، وتعاون المسلمين في أعمال الخير والمشاريع النافعة البناءة دون الإهتمام بالعلاقات الشخصية والعرقية والنسبية، والإمتناع عن تقديم أي نوع من التعاون إلى الأفراد الذين يمارسون الظلم والعدوان، بغض النظر عن تبعية أو انتمائية الفئة الظالمة، كل ذلك من شأنه أن يزيل الكثير من النواقص الإجتماعية.

أمّا في العلاقات الدولية، فلو امتنعت دول العالم عن التعاون مع كل دولة معتدية ـ أيّاً كانت ـ لقضي بذلك على جذور العدوان والإستعمار والإستغلال في العالم، ولكن حين ينقلب الوضع فتتعاون الدول مع المعتدين والظالمين بحجّة أنّ مصالحهم الدولية تقتضي ذلك، فلا يمكن توقع الخير أبداً من وضع كالذي يسود العالم اليوم.

الذين برءوا للظالمين قلماً

لقد تناولت الأحاديث والروايات الإسلامية هذه القضية بتأكيد كبير، ونورد ـ هنا ـ بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر.

١ ـ نقل عن النّبي محمّد ﷺ في هذا المجال قوله:

«إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشباه الظلمة حتى من برىء لهم قلما ولاق لهم دواة؟ قال: فيجتمعون في تابوت من حديد ثمّ يرمى بهم في جهنّم»[1].

---

١ ـ وسائل الشيعة: ١٢/١٣١.

قصة صفوان الجمّال

٢ ـ نقل عن صفوان الجمال، وهو أحد أنصار الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، بأنّه تشرف بلقاء الإمام عليه السلام فقال له الكاظم عليه السلام: **يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً.**

قلت: جعلت فداك، أي شيء؟

قال: اكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني هارون.

قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للهو ولكنّي أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكّة ـ ولا أتولّاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

فقال لي: ياصفوان، أيقع كراؤك عليهم؟

قلت: نعم.

قال: فقال لي اتحبّ بقاؤهم حتىٰ يخرج كراؤك.

قلت: نعم.

قال: من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار ... إلى آخر الحديث[١].

---

١ ـ وسائل الشيعة: ١٢/١٣١ ـ ١٣٢.

٤١

الامانة و الخيانة

إنّ للأمانة معنىً وسيعاً يشمل كلّ شيء مادي ومعنوي، ويجب على كل مسلم أن لا يخون أحداً في أية أمانة دون استثناء، سواء كان صاحب الأمانة مسلماً أو غير مسلم، وهذا هو في الواقع إحدى المواد في «الميثاق الاسلامي لحقوق الإنسان» التي يتساوى تجاهها كل أفراد البشر.

الصدق والأمانة من علائم الايمان وكمال الإنسان، حتىٰ أنّ دلالتهما علىٰ الإيمان أرقىٰ من دلالة الصلاة.

نذكر هنا بعضاً من الاحاديث حول الأمانة:

١ ـ روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا تنظروا إلىٰ طول ركوع الرجل وسجوده، فإنّ ذلك شيء قد اعتاده ولو تركه استوحش لذلك، ولكنْ انظروا إلىٰ صدق حديثه وأداء أمانته**»[١].

فذكر الصدق مع الأمانة لاشتراكهما في جذر واحد، وما الصدق إلّا الأمانة في الحديث، وما الأمانة إلّا الصدق في العمل.

لقد ورد تأكيد كبير على هذه المسألة في المصادر الإسلامية إلى درجة أنّنا قلّما نجد مثله

---

١ ـ سفينة البحار، مادة (صدق)، نقلاً عن اصول الكافي.

في مورد غيره من الأحكام والمسائل، والأحاديث القصيرة التالية توضح هذه الحقيقة:

٢ ـ جاء في حديث آخر عن الإمام الصّادقعليه السلام أنّه قال:

«إن علياً إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة»[١].

٣ ـ روي في حديث آخر عن الإمام الصّادقعليه السلام أيضاً قال لأحد أصحابه:

«أعلم أن ضارب علي بالسيف وقاتله لو ائتمنني واستنصحني واستشارني ثمّ قبلت ذلك منه لأديت إليه الأمانة»[٢].

علامات المنافق

٤ ـ في روايات مروية في مصادر الشيعة والسنة عن النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله نلاحظ هذا الحديث السّاطع:

«آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[٣].

٥ ـ في حديث معروف عن الإمام السجاد عليه السلام قال: «عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمّداً بالحقّ نبياً لو أنّ قاتل أبي الحسين بن علي بن أبي طالب ائتمنني على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه»[٤].

٦ ـ وفي رواية أُخرىٰ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله لم يبعث نبيّاً قط إلّا بصدق الحديث وأداء الأمانة مؤدّاه إلى البرّ والفاجر»[٥].

٧ ـ عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة المكرمة منتصراً فاتحاً، فاستحضر عثمان بن طلحة وكان سادن الكعبة فطلب منه مفتاح الكعبة المعظمة، ليطهرها من الأصنام والأوثان الموضوعة فيها، فلمّا فرغ النّبيصلى الله عليه وآله من ذلك سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين منصب السقاية ومنصب السدانة الذي له في العرب شان وشاو مجيد (والظاهر أنّ العباس أراد أن يستفيد من نفوذ ومكانة ابن أخيه الإجتماعية والسياسية لمصلحته الشخصية)، ولكن

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ صحيح الترمذي والنسائي بناء على نقل تفسير المنار وقد ورد نفس هذا المضمون في سفينة البحار أيضاً.

٤ ـ أمالي الصدوق: ص ١٤٩.

٥ ـ مشكاة الأنوار: عن سفينة البحار.

النّبي ﷺ فعل خلاف ذلك، فإنّه بعد ما طهر الكعبة من الأصنام والأوثان، أمر علياً عليه السلام أن يردّ المفتاح إلى «عثمان بن طلحة» ففعل ذلك وهو يتلو هذه الآية: ﴿**إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها...**﴾[١].

٨ ـ ورد عن الرّسول الأكرم ﷺ قوله: «**من غش مسلماً فليس منّا**»[٢].

وسعة مفهوم الأمانة

الأمانة وإن كانت تطلق على الأمانة المالية غالباً، لكنّها في منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشملُ شؤون الحياة الإجتماعية والسياسية والأخلاقية كافة، ولذلك جاء في الأحاديث: «**المجالس بالأمانة**».

ونقرأ في حديث آخر: «**إذا حدث الرجل بحديث ثمّ التفت فهو أمانة**. ومن ذلك تكون أرض الإسلام أمانة إلهية بأيدي المسلمين وأبنائهم أيضاً. وفوق كل ذلك فإنّ القرآن المجيد وتعاليمه كل ذلك يعد أمانة إلهية كبرى.

نماذج اخرىٰ من الامانة

وتعني الأمانة بمفهومها الواسع أمانة الله ورسوله إضافة إلى أمانات الناس، وكذلك ما أنعم الله على خلقه. وتضمّ أيضاً أمانة الله الدين الحقّ والكتب السماوية وتعاليم الأنبياء القدماء، وكذلك الأموال والأبناء والمناصب جميعها أمانات الله سبحانه وتعالى بيد البشر، يسعى المؤمنون في المحافظة عليها وأداء حقّها. ويحرسونها ما داموا أحياءاً. ويرثها أبناؤهم الذين تربّوا على أداء الأمانات والحفاظ عليها.

والدليل على عموميّة مفهوم الأمانة هنا، إضافة إلى سعة المفهوم اللغوي لهذه الكلمة، هو أحاديث عديدة وردت في تفسير الأمانة بأنّها (**أمانة الأئمّة المعصومين**) أي: ينقلها كلّ إمام إلى وارثه[٣].

وأحياناً تفسير الأمانة بأنّها الولاية بشكل عامّ.

---

١ ـ سورة النساء: الآية ٥٨.

٢ ـ سفينة البحار: ٢/٣١٨، مادة (غش).

٣ ـ تفسير البرهان: ١/٣٨٠.

وممّا يلفت النظر رواية زرارة أحد تلاميذ الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى **﴿أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾**[١] **«أدّوا الولاية إلى أهلها ...»**[٢].

وهكذا يكشف عن أنّ الحكومة وديعة إلهيّة مهمّة جدّاً يجب إيداعها بيد من هو أهلها.

١ ـ سورة النساء: الآية ٥٨.

٢ ـ المصدر السابق.

٤٢

العدالة

قلما نجد قضية أعطى الإسلام لها أهمية قصوى كقضية العدل، فهي وقضية التوحيد سيان في تشعب جذورهما إلى جميع الأُصول والفروع الإسلامية، وبعبارة أُخرىٰ: كما أنّ جميع القضايا العقائدية والعملية والإجتماعية والفردية والأخلاقية والقانونية لا تنفصل مطلقاً عن حقيقة التوحيد، فكذلك لا تنفصل كل هذه القضايا ولا تخلو أبداً من روح العدل.

وليس من العجيب والحالة هذه أن يكون العدل واحداً من أُصول العقيدة والدين، وأساساً من أُسس الفكر الإسلامي، وهو مع كونه صفة من صفات الله سبحانه ويدخل ضمن مبادىء المعرفة الإلهية، إلّا أنّه يشتمل على معان واسعة في خصائصه ومزاياه، ولذلك كان ما أولته البحوث الإجتماعية في الإسلام من الإهتمام بالعدل والإعتماد عليه يفوق ما حـظيت بـه المبادىء الإسلامية الأُخرىٰ من ذلك.

ويكفي إيراد عدد من الأحاديث والرّوايات نماذج لدرك أهمية هذه الحقيقة:

الظلم هو الظلمات

١ ـ روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إيّاكم والظلم فإنّ الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة»[1].

وبديهي أن كل ما هو موجود من خير وبركة ونعم هو من النور وفي النور، وإنّ الظلام هو مصدر كل عدم وفاقة.

---

١ ـ سفينة البحار، مادة (ظلم).

٢ ـ وقال النّبي ﷺ أيضاً: «**بالعدل قامت السموات والأرض**»[١].

ويعتبر هذا القول من أوضح التعابير التي قيلت في شأن العدل، ومعناه أنّ حياة البشر المحدودة في الكرة الأرضية ليست وحدها التي يكون قوامها العدل، بل إنّ حياة ووجود الكون بأكمله، والسماوات والأرضين كلها قائمة بالعدل، وفي ظل حالة من توازن القوى الفاعلة فيها، ووجود واستقرار كل شيء في محله منها، بحيث لو أنّها انحرفت عن هذا التوازن لحظة واحدة أو بمقدار قيد أنملة لحكمت على نفسها بالفناء والزوال.

وهل يمكن تصور وجود قانون أوسع وأشمل من «**العدل**»؟!

فالعدل هو القانون الذي تدور حول محوره جميع أنظمة الوجود، وحتىٰ السماوات والأرض فهي قائمة علىٰ أساس العدل ﴿**بالعدل قامت السماوات والأرض**﴾.

والمجتمع الإنساني الذي هو جزء صغير في كيان هذا الوجود الكبير، لا يقوىٰ أن يخرج عن قانون العدل، ولا يمكن تصور مجتمع ينشد السلام يحظىٰ بذلك دون أن تستند أركان حياته علىٰ أُسس العدل في جميع المجالات.

ولما كان المعنىٰ الواقعي للعدل يتجسد في جعل كل شيء في مكانه المناسب، فالإنحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدي علىٰ حقوق الآخرين، ما هي إلّا صور لخلاف أصل العدل.

فالإنسان السليم هو ذلك الذي تعمل جميع أعضاء جسمه بالشكل الصحيح (بدون أية زيادة أو نقصان). ويحل المرض فيه وتتبيّن عليه علائم الضعف والخوار بمجرّد تعطيل أحد الأعضاء، أو تقصيره في أداء وظيفته.

ويمكن تشبيه المجتمع ببدن إنسان واحد، فإنّه سيمرض ويعتل إنْ لم يُراع فيه العدل.

٣ ـ يؤيد هذا القول حديث آخر هو: «**الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم**»[٢] لأنّ للظلم أثراً سريعاً في هذه الحياة الدنيوية ومن نتائجه الحروب والإضطرابات والقلاقل والفوضى السياسية والإجتماعية والأخلاقية والأزمات الإقتصادية التي تعمّ العالم اليوم، وهذا ما يثبت الحقيقة المذكورة بصورة جيدة.

١ ـ تفسير الصافي، في تفسير الآية ٧ من سورة الرحمن.

٢ ـ تفسير منهج الصادقين : ٤٦٣/٤ ـ تفسير الصافي : ٤٧٧/٢.

العدالة في كلّ مكان

إنّ هذا القانون هو قانون كلّي وعام، ويشمل كل نوع من القضاء والحكومة، سواء في الأُمور الكبيرة والأُمور الصغيرة، إلى درجة أنّنا نقرأ في الأحاديث الإسلامية أنّ صبيين ترافعا إلى الإمام الحسن بن علي في خط كتباه وحكماه في ذلك ليحكم أيَّ الخطين أجود، فبصر به عليّ عليه السلام فقال: «**يا بني أُنظر كيف تحكم فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة**»[١].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام:

«**سوّ بين الخصمين في لحظك ولفظك**»[٢].

جذبة العدالة في قبول الاسلام

وها هو «عثمان بن مظعون» أحد أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: (كنت أسلمت استحياءً من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لكثرة ما كان يعرض عليَّ الإسلام، ولم يقر الإسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنّه يستفهم شيئاً، فلمّا سُرِّي عنه سألته عن حاله فقال: نعم، بيّنا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء فأتاني بهذه الآية ﴿إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان﴾[٣] وقرأها عليَّ إلىٰ آخرها، فقرّ الإسلام في قلبي. وأتيت عمّه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش، اتبعوا محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم ترشدوا، فإنّه لا يأمركم إلّا بمكارم الأخلاق، وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إنْ كان محمّد قاله فنعم ما قال، وإن قاله ربّه فنعم ما قال)[٤].

وروي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**جماع التقوىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان﴾**[٥]»[٦].

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٦٤/٣.

٢ ـ تفسير مجمع البيان: ٦٤/٣.

٣ ـ سورة النحل: الآية ٩٠.

٤ ـ تفسير مجمع البيان، ذيل تفسير الآية ٩٠ من سورة النحل.

٥ ـ سورة النحل: الآية ٩٠.

٦ ـ تفسير نور الثقلين: ٧٨/٣.

ونستفيد من هذه الأحاديث ـ وأحاديث أُخرىٰ أنّ الآية تعتبر دستور عمل إسلامي عام، وتمثل أحد مواد القانون الأساسي للإسلام في كل زمان ومكان، حتىٰ روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه كان يقرأ الآية المباركة قبل الإنتهاء من خطبة الجمعة ثمّ يقول بعدها: «**اللّهم اجعلنا ممن يذكر فتنفعه الذكرىٰ**»[1] ثمّ ينزل من علىٰ المنبر.

---

١ ـ اصول الكافي علىٰ ما نقل عنه تفسير نور الثقلين: ٣/٧٧.

٤٣

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

علاوة على الآيات القرآنية الكثيرة، أحاديث مستفيضة في المصادر الإسلامية المعتبرة تتحدث عن أهمية هاتين الفريضتين الإجتماعيتين الكبيرتين، قد أُشير فيها إلى العواقب الخطيرة المترتبة على تجاهل وترك هاتين الوظيفتين في المجتمع، نذكر من باب المثال طائفة منها:

١ ـ عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر**»[١].

٢ ـ قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفه الله في أرضه، وخليفة رسول الله وخليفة كتابه**»[٢].

خير النّاس

٣ ـ جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر فقال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: «**آمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم**»[٣].

٤ ـ في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لتأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله**

---

١ ـ وسائل الشيعة: ج ١١ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٣٩٥.

٢ و ٣ ـ تفسير مجمع البيان في تفسير الآية ١٠٤ من سورة آل‌عمران.

عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم، وتدعو خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغيثون فلا تغاثون، وتستغفرون فلا تغفرون»[١].

هذه الأُمور كلّها هي الآثار الطبيعية لموقف المجتمع الذي يعطل هاتين الوظيفتين الإجتماعيتين العظيمتين، لأن ترك النظارة العامّة على ما يجري في المجتمع يلازم خروج الأُمور من قبضة الصالحين، والإفساح للأشرار بأن يتسلموا أزمة الأُمور ومقدرات المجتمع ويحكموا فيه بأهوائهم، فيقع ما يقع من المآسي وتصاب الجماعة بما ذكره الحديث المتقدم من التبعات والمفاسد.

وما ذكر في الحديث من عدم قبول توبتهم أيضاً لأنة لا معنى لقبول التوبة مع استمرارهم على السكوت اللهم إلّا أن يعيدوا النظر في سلوكهم.

ما اعمال البرّ كلّها والجهاد في سبيل الله ...

٥ ـ عن علي﵇: «وما أعمال البر كلّها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا كنفثة في بحر لجيء»[٢].

كل هذه التأكيدات هي لكون هاتين الوظيفتين العظيمتين خير ضمان لإجراء وتنفيذ بقية الوظائف الفردية والإجتماعية، ولأنهما بمثابة الروح لها، فبتركهما تندرس كلّ الأحكام والقيم الأخلاقية وتفقد قيمتها وتختفي من حياة المجتمع.

٦ ـ فعن النبي ﷺ أنه قال: «مثل القائم على حدود الله والمرهن فيها كمثل قوم استهمّوا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها... فقال الذين في أسفلها: إننا ننقبها من أسفلها فتستقى، فإن أخذوا على أيدهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً»[٣].

٧ ـ في حديث عن الرّسول ﷺ قال: «من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو دل على خير أو أشار به، فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دل عليه أو أشار به، فهو شريك».

ويبيّن هذا الحديث الشريف ثلاث مراحل لدعوة الأشخاص إلى الخير أو إلى الشر.

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ نهج البلاغة قصار الكلم، الكلمة رقم ٣٧٤.

٣ ـ راجع سنن الترمذي: ج ٤ كتاب الفتن الباب ١٢ ومسند أحمد: ٢٦٨/٤.

المرحلة الأُولى: الأمر، وهي الأقوى.

والثّانية: الدلالة وهي الوسطى.

والثّالثة: الإشارة وهي المرحلة الضّعيفة.

وعلى هذا الأساس فإن حثّ الآخرين أو تحريضهم على ممارسة فعل معين، سيجعل للمحرض نصيباً من نتيجة هذا الفعل يتناسب ومدى قوّة التحريض وفق المراحل الثلاث المذكورة.

من لعنه الله

٨ ـ في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحقّ اطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم»[١].

٩ ـ في حديث آخر عن الامام الصّادق عليه السلام في تفسير ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾[٢] أنّه قال: «أمّا أنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم، ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوهم وأنسوا بهم»[٣]

١٠ ـ عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم اللّه بالعذاب لما عموه بالرضى، فقال سبحانه: ﴿فعقروها فاصبحوا نادمين﴾[٤]»[٥]

وعقب هذا التكذيب أنزل اللّه عليهم العقاب فلم يترك لهم أثراً: ﴿فدمدم عليهم ربّهم بذنبهم فسواها﴾[٦].

١ ـ تفسير (مجمع البيان) في ذيل الآية ٧٩ من سورة المائدة، وفي تفسير القرطبي: ٢٢٥٠/٤ حديث مشابه منقول عن الترمذي.

٢ ـ سورة المائدة : الآية ٧٩.

٣ ـ تفسير البرهان: ٤٩٢/١، وتفسير نور الثقلين: ٦٦١/١.

٤ ـ سورة الشعراء : الآية ١٥٧.

٥ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

٦ ـ سورة الشمس : الآية ١٤.

هكذا ننهىٰ عن المنكر

إن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: أتأذن لي في الزنا؟

فصاح الناس به فقال النبي ﷺ: قربوه ادن، فدنا حتّى جلس بين يديه فقال النبي ﷺ أتحبّه لأُمّك؟

قال لا، جعلني الله فداءك.

قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لأبنتك؟

قال: لا، جعلني الله فداءك.

قال: كذلك لايحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟

قال: لا، جعلني الله فداءك.

فوضع رسول الله ﷺ يده ـ على صدره وقال:

«اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه».

فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا(١).

وكان هذا هو الأثر الطبيعي للأُسلوب اللين في النهي عن المنكر.

---

١ ـ تفسير المنار: ٤/٣٣ـ ٣٤.

٤٤

جهاد النفس

نحن نعرف أنّ أعظم الجهاد في الإسلام هو جهاد النفس، الذي عُبّر عنه في حديث عن النّبي الأكرم ﷺ بـ«الجهاد الأكبر» أي هو جهاد أعظم من جهاد العدوّ الذي عبّر عنه بالجهاد الأصغر .. وإذا لم يتوفّر في الإنسان الجهاد الأكبر بالمعنى الواقعي ـ أساساً ـ فلن ينتصر في جهاده على أعدائه.

ونقرأ في بعض الأحاديث أنّ النّبي ﷺ بعث سرية فلمّا رجعوا قال: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر**» فقيل: يارسول الله، وما الجهاد الأكبر قال: «**جهاد النفس**»[١].

ويقول الإمام علي عليه السلام أيضاً «**المجاهد من جاهد نفسه**»[٢].

كما ينقل عن الإمام الصادق أنّه قال: «**من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي حرّم الله جسده على النار**»[٣].

يوسف البطل

وفي القرآن المجيد ترتسم صور شتّى في ميادين الجهاد، وتتجلّى فيها علاقة الأنبياء

---

١ ـ وسائل الشيعة: ١١/١٢٢.

٢ ـ المصدر السابق، ص١٢٤.

٣ ـ المصدر السابق، ص١٢٣.

وأولياء الله الصالحين. وقصّة يوسف وما كان من عشق امرأة العزيز الملتهب واحدة من هذه الصور، وبالرغم من أنّ القرآن لم يوضّح جميع ما في القصّة من خفايا وزوايا، إلّا أنّه أجملها بصورة موجزة في جملة قصيرة هي ﴿وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه﴾[١] وبيّن شدّة هـذا الطوفان.

لقد خرج يوسف من هذا الصراع منتصراً بوجه مشرق لثلاثة أسباب:

الأوّل: إنّه التجأ إلى الله وإستعاذ به، وقال: ﴿معاذ الله﴾.

الثّاني: التفاته إلى الإحسان الذي أسداه إليه عزيز مصر، وما تناوله في بيته فأثّر فيه، فلم ينس فضله طيلة حياته، ومع ملاحظة نعم الله التي لا تُحصى وإنقاذه له مـن غـيابة الجبّ الموحشة إلى محيط الأمان والهدوء جعلته يفكّر في ماضيه ومستقبله، ولا يستسلم للتيارات العابرة.

الثّالث: بناءُ شخصيّته وعبوديّته المقرونة بالإخلاص التي عبّر عنها القرآن **﴿إنّه من عبادنا المخلصين﴾**[٢] يستفاد منها أنّها منحته القوّة والقدرة ليخرج من ميادين الوسوسة التي تهجم عليه من الداخل والخارج بإنتصار.

وهذا درس كبير لجميع الناس الأحرار الذين يريدون أن ينتصروا على عدوّهم الخطر في ميادين جهاد النفس.

وفي الأثر أن زوج العزيز (زليخا) قالت ليوسف لما أصبح حاكم مصر:

«إنّ الحرص والشهوة تصير الملوك عبيداً، وأن الصبر والتقوىٰ يصير العبيد ملوكاً، فقال يوسف: قال اللّه تعالىٰ: ﴿إنّه من يتق ويصبر فإنّ اللّه لا يضيع أجر المحسنين﴾[٣]**»**[٤].

وعنها أيضاً قالت لما رأت موكب يوسف ماراً من أمامها:

«الحمد للّه الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً»[٥]

نعم، عبادة النفس تؤدي إلى وقوع الإنسان في أغلال الرقية بينما تـزكية النـفس تـوفّر

١ ـ سورة يوسف: الآية ٢٤.
٢ ـ سورة يوسف: الآية ٢٤ ـ ٢٣.
٣ ـ سورة يوسف: الآية ٩٠.
٤ ـ المحجة البيضاء: ١١٦/٥.
٥ ـ المحجة البيضاء: ١١٧/٥.

أسباب التحكم في الكون.

ما أكثر الذين وصلوا بعبوديتهم للّه تعالى درجة جعلتهم أصحاب ولاية تكوينية، ومكنتهم بإذن اللّه أن يؤثروا في حوادث هذا العالم وأن تصدر منهم الكرامات وخوارق العادات!!

يقول الإمام علي بن أبي طالب «أمير المؤمنين» في دعاء الصباح، بأُسلوب جميل رائق: **«وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان، فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان»**.

٤٥

اتباع الهوىٰ

لا شك أنّ في كيان الإنسان غرائز وميولاً مختلفة، وجميعها ضروري لإدامة حياته، الغيظ والغضب، حب النفس، حب المال والحياة المادية، وأمثالها، ولا شك أنّ مبدع الوجود خلقها جميعاً لذلك الهدف التكاملي.

لكن المهم هو أنّها تتجاوز حدها أحياناً، وتخرج عن مجالها، وتتمرّد على كونها أداة طيعة بيد العقل، وتصرُّ على العصيان والطغيان، فتسجن العقل، وتتحكم بكل وجود الإنسان، وتأخذ زمام اختياره بيدها.

هذا هو ما يعبرون عنه بـ«اتباع الهوىٰ» الذي هو أخطر أنواع عبادة الأصنام، بل إن عبادة الأصنام تنشأ عنه أيضاً.

سبعة عشر كلاماً حول اتباع الهوىٰ

١ ـ إنّ الرّسول الأكرم ﷺ اعتبر صنم «الهوىٰ» أعظم وأسوأ الأصنام، لذا قال: **«ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوىً متبع»**[١].

ونقرأ في حديث آخر عن بعض أئمّة الإسلام **«أبغض إله عُبد على وجه الأرض الهوى»**.

وإذا تأملنا جيداً في أعماق هذا القول، نعلم جيداً لماذا كان اتباع الهوىٰ مصدر الغفلة، كما يقول القرآن: **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾**.[٢]

---

١ ـ تفسير الدر المنثور، في ذيل الآية ٤٤ من سورة الانعام، نقلاً عن تفسير الميزان: ٢٥٧/١٥.

٢ ـ سورة الكهف: الآية ٢٨.

منبع الكفر

٢ ـ إن اتباع الهوىٰ منبع الكفر وعدم الايمان، كما يقول القرآن ﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه﴾.(١)

اسوأ الضلال

٣ ـ إنّ اتباع الهوىٰ أسوأ الضلال، يقول القرآن الكريم: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله﴾.(٢)

٤ ـ إن اتباع الهوىٰ نقطة مقابلة لطلب الحق، ويخرج الإنسان عن طريق الله، كما نقرأ في القرآن: ﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوىٰ فيضلك عن سبيل الله﴾.(٣)

٥ ـ إن اتباع الهوىٰ مانع من العدل والإنصاف كما نقرأ في القرآن: ﴿فلا تتبعوا الهوىٰ أن تعدلوا﴾.(٤)

فساد الكون

٦ ـ إنّ نظام السماء والأرض إذا دار حول محور أهواء وشهوات الناس، فإنّ الفساد سوف يعمُّ كلَّ ساحة الوجود: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾.(٥)

وفي الروايات الإسلامية أيضاً، نلاحظ تعبيرات مؤثرة في هذا الصدد:

٧ ـ نقرأ في رواية عن علي عليه السلام: «الشقي من انخدع لهواه وغروره».(٦)

---

١ ـ سورة طه: الآية ١٦.

٢ ـ سورة القصص: الآية ٥٠.

٣ ـ سورة ص: الآية ٢٦.

٤ ـ سورة النساء: الآية ١٣٥.

٥ ـ سورة المؤمنون: الآية ٧١.

٦ ـ نهج البلاغه، الخطبة ٨٦.

عدو العقل

٨ ـ في حديث آخر عنه عليه السلام، نقرأ أن: «الهوىٰ عدو العقل».[١]

أُسّ المحن

٩ ـ نقرأ أيضاً: «الهوىٰ أُسُّ المحن».[٢]

والخلاصة أن اتباع الهوىٰ ليس من الدين وليس من العقل، وليس عاقبة اتباع الهوىٰ إلّا التعاسة والمحن والبلاء، ولا يثمر إلّا المسكنة والشقاء والفساد.

أحداث حياتنا والتجارب المرّة التي رأيناها في أيّام العمر بالنسبة إلينا وإلى الآخرين، شاهد حي على جميع النكات التي وردت في الآيات والرّوايات أعلاه بصدد اتباع الهوىٰ.

نرىٰ أفراداً يتجرعون المرارة إلى آخر أعمارهم، جزاء ساعة واحدة من أتباع الهوىٰ.

و نعرف شباباً صاروا أسارىٰ مصيدة الإدمان الخطير، والإنحرافات الجنسية و الأخلاقية، على أثر انقيادهم للهوىٰ، بحيث تحولوا إلى موجودات ذليلة لا قيمة لها، وفقدوا كل قواهم وطاقاتهم الذاتية.

في التأريخ المعاصر والماضي، نلتقي بأسماء الذين قتلوا آلافاً وأحياناً ملايين من الناس الأبرياء، من أجل أهوائهم، بحيث أن الاجيال تذكر أسماءهم المخزية بالسوء إلى الأبد.

هذا الأصل لا يقبل الإستثناء، فحتىٰ العلماء والعابدون أهل السابقة مثل (بلعم بن باعورا) سقطوا من قمة العظمة الإنسانية إلى الهاوية، نتيجة انقيادهم لهوىٰ النفس، حيث يمثلهم القرآن[٣] بالكلب النجس الذي لا ينفك عن النباح.

أخوف ما أخاف عليكم

١٠ ـ لا عجب أن يقول النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام:

«إنّ أخوف ما أخاف عليكم إثنان، اتباع الهوىٰ وطول الأمل، أمّا اتباع الهوىٰ فيصدّ عن

---

١ ـ غرر الحكم، الجملة ٢٦٥.

٢ ـ غرر الحكم، الجملة ١٠٤٨.

٣ ـ سورة الاعراف: الآية ١٧٦.

الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة».[١]

يقول علي عليه السلام: «أشجع الناس من غلب هواه».[٢]

ابغض الاصنام

١١ ـ لا صنم في الحقيقة أخطر من إتباع هوىٰ النفس الذي يوصد كلّ أبواب الرحمة وطرق النجاة بوجه الإنسان؟ وكم هو بليغ وعميق الحديث المروي عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلىٰ الله من الهوىٰ»[٣].

لا مبالغة في هذا الحديث قط، لأنّ الأصنام العادية موجودات لا خصائص لها ولا صفات فعالة مهمة، أما صنم الهوىٰ وأتباعه، فإنّه يغوي الإنسان ويسوقه إلىٰ ارتكاب أنواع المعاصي، والإنزلاق في هاوية الإنحراف.

وبصورة عامّة، يمكن القول بأنّ لهذا الصنم من الخصوصيات ما جعله مستحقاً لصفة أبغض الآلهة والأصنام، فهو يزين القبائح والسيئات في نظر الإنسان حتىٰ يصل إلىٰ درجة يفخر عندها بتلك الأعمال الطالحة، ويكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾[٤].

أفضل طريق لنفوذ الشيطان هو اتباع الهوىٰ: فما دام الشيطان لا يمتلك قاعدة وأساساً يستند إليه في داخل الإنسان، فلا قدرة له علىٰ الوسوسة ودفع الإنسان الىٰ الإنحراف والمعصية، وما تلك القاعدة والأساس إلّا اتباع الهوىٰ، وهو ذات الشيء الذي أسقط الشيطان وأرداه، وطرده من صف الملائكة، وأبعده عن مقام القرب من الله.

إنّ اتباع الهوىٰ يسلب الإنسان أهم وسائل الهداية، وهي الإدراك الصحيح للحقائق، ويلقي الحجب علىٰ عقل الإنسان وعينه، وقد أشارت هذه الآيات إلىٰ هذا الموضوع بصراحة بعد ذكر مسألة اتباع الهوىٰ واتخاذه إلهاً، وآيات القرآن الأُخرىٰ شاهدة علىٰ هذه الحقيقة أيضاً.

---

١ ـ سفينة البحار: ٧٢٨/٢ (ذيل مادة هوىٰ) ونهج البلاغة، الخطبة ٢٨ و ٤٢.

٢ ـ سفينة البحار: ٦٨٩/١ (مادة شجع).

٣ ـ تفسير القرطبي: ٥٩٨٧/٩، وتفسير روح البيان، وتفسير المراغي.

٤ ـ سورة الكهف: الآية ١٠٤.

إنّ اتباع الهوىٰ يوصل الإنسان إلىٰ مرحلة محاربة الله ـ والعياذ بالله ـ كما ابتلي بها إمام عباد الهوىٰ ـ أي الشيطان الرجيم ـ فاعترض علىٰ حكمة الله سبحانه لمّا أمره بالسجود لآدم، واعتبره أمراً عارياً عن الحكمة!

عواقب اتباع الهوىٰ مشؤومة وأليمة، بحيث أنّ لحظة من لحظات اتباع الهوىٰ قد يصاحبها عمر من الندامة والأسف والحسرة، ولحظة ـ يُتبع فيها الهوىٰ ـ قد تجعل كلّ حسنات الإنسان وأعماله الصالحة التي عملها طوال عمره هباءً منثوراً.

دخول النار

١٢ ـ عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه قال: «الجنّة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنّة، وجهنّم محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطىٰ نفسه لذتها وشهوتها دخل النّار»[١].

١٣ ـ عن الإمام الصادق، أنّه قال: «لا تدع النفس وهواها، فإنّ هواها في رداها، وترك النفس وما تهوىٰ داؤها، وكفّ النفس عمّا تهوىٰ دواؤها»[٢].

لا دين مع هوىٰ

١٤ ـ قال الإمام علي عليه السلام: «لا دين مع هوى، لا عقل مع هوى، من اتّبع هواه أعماه وأصمّه، وأذلّه وأضلّه»[٣].

العلاقة بين عبادة الهوىٰ والغفلة عن الله

الروح الإنسانية تخضع إمّا لله تعالىٰ أو للأهواء، حيثُ لا يمكن الجمع بين الإثنين، فعبادة الأهواء أساس الغفلة عن الله وعبادة الله؛ عبادة الهوىٰ هي سبب الإبتعاد عن جميع الأُصول الأخلاقية؛ وأخيراً فإنَّ عبادة الهوىٰ تُدْخل الإنسان في ذاته وتبعده عن جميع حقائق العالم.

إنَّ الإنسان الذي يعبد هواه لا يفكِّر إلاَّ في إشباع شهواته، ولا يوجد لديه معنىً للفتوّة

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٥٠٧، الحديث ٤٥.

٢ ـ المصدر السابق، الحديث ٤٦.

٣ ـ كان لنا بحث مفصّل في هذا المجال في نهاية الآية (٢٩) من سورة الأنفال.

والعفو والإيثار والتضحيه والشيم المعنوية الأُخرىٰ.

١٥ ـ قد اوضحت الآيات القرآنيّة الربط والعلاقة بين اتباع الهوىٰ والغفلة عن الله بشكل جلي في قوله تعالىٰ: ﴿ولا تُطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطا﴾[1].

لقد طرحت الآية أوّلاً (الغفلة) عن الله تعالىٰ، ثمّ ذكرت بعدها (أتباع الهوىٰ)، والطريف أنّ نتيجة هذا الأمر هو الإفراط وبالشكل المطلق الذي ذكرته الآية.

لماذا يكون عابد الهوىٰ مُصاباً بالإفراط دائماً؟

قد يكون السبب أنَّ الطبيعة الإنسانية تتجه في الملذات المادية نحو الزيادة دوماً، فالذي كان يشعر بالنشوة بمقدارٍ معين مِن المخدرات، لا يكفيه نفس المقدار في اليوم التالي لبلوغ نفس درجة النشوة، بل عليه زيادة الكمية بالتدريج، والشخص الذي كان يكفيه في السابق قصر واحد مجهَّز بجميع الإمكانات وبمساحه عدة آلاف بين الأمتار، يصبح اليوم إحساسه بهذا القصر عادياً، فينشد الزيادة. وهكذا في جميع مصاديق الهوىٰ والشهوة حيث أنّها دائماً تنشد الزيادة حتىٰ تهلك الإنسان نفسه.

مفتاح الجنّة

١٦ ـ القرآن الكريم يصف أهل الجنّة: ﴿وأمّا مَنْ خاف مقام ربّه ونهىٰ النفس عن الهوىٰ فإنّ الجنّة هي المأوىٰ﴾.

فالشرط الأوّل للحصول على نعم الجنّة والإستقرار بها هو الخوف من اللّه من خلال معرفته (معرفة اللّه والخوف من التمرد والعصيان على أوامره)، والشرط الثاني هو ثمرة ونتيجة الشرط الأوّل أي الخوف والمعرفة ويتمثل في السيطرة على هوى النفس وكبح جماحها، فهوى النفس من أقبح الأصنام المعبودة من دون اللّه، لأنّه المنفذ الرئيسي لدخول معترك الذنوب والمفاسد، ولذا فـ«أبغض إلهٍ عُبِدَ علىٰ وجه الأرض: الهوىٰ».

ونقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ومن علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعلمه من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى»[2].

---

١ ـ سورة الكهف: الآية ٢٨.

٢ ـ أُصول الكافي طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ١٩٧/٥.

مكائد الشيطان

١٧ ـ وهوىٰ النفس هو الطابور الخامس في قلب الإنسان، نعم... فالشيطان الخارجي لا يتمكن من النفوذ إلى داخل الإنسان ما لم يوافقه الشيطان الداخلي في منحاه، ويفتح له أبواب الدخول، كما تشير إلى ذلك الآية (٤٢) من سورة الحجر: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا مَنْ اتبعك من الغاوين**﴾.

٤٦

النفس الأمّارة . اللوّامة . المطمئنّة

يقسّم علماء النفس والأخلاق النفس «وهي الإحساسات والغرائز والعواطف الإنسانية» إلى ثلاثة مراحل، وقد أشار إليها القرآن المجيد:

المرحلة الأُولى: «النفس الأمّارة» وهي النفس التي تأمر الإنسان بالذنب وتجرّه إلى كلّ جانب، ولذا سمّوها «أمّارة» وفي هذه المرحلة لا يكون العقل والإيمان قد بلغا مرحلة من القدرة ليكبحا جماحها، بل في كثير من المواقع يستسلمان للنفس الأمّارة، وإذا تصارعت النفس الأمّارة مع العقل في هذه المرحلة فإنّها ستهزمه وتطرحه أرضاً.

وهذا ما أشارت إليه امرأة عزيز مصر حينما نظرت إلى عاقبة أمرها فقالت: ﴿وما ابريء نفسي إنّ النفس لأمارة بالسوء﴾.[١]

لا أُقسم بالنفّس اللوّامة

المرحلة الثّانية: «النفس اللوّامة» وهي التي ترتقي بالإنسان بعد التعلّم والتربية والمجاهدة، وفي هذه المرحلة ربّما يخطىء الإنسان نتيجة طغيان الغرائز، لكن سرعان ما يندم وتلومه هذه النفس، ويصمّم على تجاوز هذا الخطأ والتعويض عنه، ويغسل قلبه وروحه بماء التوبة.

---

١ ـ سورة يوسف: الآية ٥٣.

وبعبارة أُخرىٰ: في المواجهة بين النفس والعقل، قد ينتصر العقل أحياناً وقد تنتصر النفس، إلّا أنّ النتيجة والكفّة الراجحة هي للعقل والإيمان.

ومن أجل الوصول إلى هذه المرحلة لابدّ من الجهاد الأكبر، والتمرين الكافي، والتربية في مدرسة الأُستاذ، والإستلهام من كلام الله وسنن الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

وهذه المرحلة هي التي أقسم الله بها في سورة القيامة قسماً يدلّ على عظمتها ﴿**لا أُقسم بيوم القيامة ولا أُقسم بالنفس اللّوامة**﴾[1].

القيامة الصغرىٰ

إنّ النفس اللوامة كما قلنا هي كالقيامة الصغرىٰ في داخل الروح والتي تقوم بمحاسبة الإنسان، ولذا تحس أحياناً بالهدوء والإستقرار بعد القيام بالأعمال الصالحة وتمتليء بالسرور والفرح والنشاط.

وبالعكس فإنّها تبتلي أحياناً بكابوس الرذائل والجرائم الكبيرة وأمواج الغم والحيرة، ويحترق بذلك باطن الإنسان حتىٰ يتنفر من الحياة، وربّما يبلغ ألم الوجدان أنّه يقدم على تسليم نفسه إلى المحاكم القضائية ليرتقي منصة الإعدام لخلاص نفسه من قبضة هذا الكابوس.

وجوه الشبه مع المحكمة الإلهيّة

هذه المحكمة الداخلية العجيبة لها شَبَهٌ عجيب بمحكمة القيامة.

١ ـ إنّ القاضي والشاهد والمنفذ للأحكام واحد، كما في يوم القيامة: ﴿**عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين العبادك**﴾[2].

٢ ـ إنّ هذه المحكمة ترفض كلّ توصية ورشوة وواسطة كما هو الحال في محكمة يوم القيامة، فيقول تعالىٰ: ﴿**واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون**﴾[3].

---

١ ـ سورة القيامة: الآية ٢ ـ ١.

٢ ـ سورة الزمر: الآية ٤٦.

٣ ـ سورة البقرة: الآية ٤٨.

٣ ـ إنّ محكمة الضمير تحقق وتدقق الملفات المهمّة بأقصر مدّة وتصدر الحكم بأسرع وقت، فلا استئناف في ذلك، ولا إعادة نظر، ولا تحتاج في ذلك شهوراً وسنين، وهذا هو ما نقرأهُ أيضاً في محكمة البعث: ﴿واللّه يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾[1].

٤ ـ مجازاتها وعقوباتها ليست كعقوبات المحاكم الرسمية العالمية، فإنّ شرر النيران تتقد في الوهلة الأُولىٰ في أعماق القلب والروح، ثمّ تسري إلى الخارج، فتعذب روح الإنسان أوّلاً، ثمّ تظهر آثارها في الجسم وملامح الوجه وطبيعة النوم والأكل، فيعبّر تعالى عن ذلك في قوله: ﴿نار اللّه الموقدة التي تطّلع على الأفئدة﴾[2].

٥ ـ عدم إحتياج هذه المحكمة إلى شهود، بل إنّ المعلومات التي يعطيها الإنسان المتهم بنفسه والذي يكون شاهداً على نفسه هي التي تقبل منه، نافعة كانت لهُ أم ضارة! كما تشهد ذرات وجود الإنسان حتىٰ يداه وجلده على أعماله في محكمة البعث فيقول تعالىٰ: ﴿حتىٰ إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾[3].

وهذا التشبيه العجيب بين المحكمتين دليل آخر على فطرية الإعتقاد بالمعاد، لأنّه كيف يمكن أن يكون في الإنسان الذي يعتبر قطرة صغيرة في محيط الوجود العظيم هكذا حساب ومحاكم مليئة بالرموز والأسرار في حين لا يوجد حساب ومحاكم في هذا العالم الكبير؟ فهذا ما لا يصدق.

النفس المطمئنّة

المرحلة الثالثة: «النفس المطمئنة» وهي المرحلة التي توصل الإنسان بعد التصفية والتهذيب الكامل إلى أن يسيطر على غرائزه ويروّضها فلا تجد القدرة للمواجهة مع العقل والإيمان، لأنّ العقل والإيمان بلغا درجة من القوّة بحيث لا تقف أمامهما الغرائز الحيوانية.

وهذه هي مرحلة الإطمئنان والسكينة ... الإطمئنان الذي يحكم المحيطات والبحار حيث لا يظهر عليها الإنهزام أمام أشدّ الأعاصير.

وهذا هو مقام الأنبياء والأولياء وأتباعهم الصادقين، أُولئك الذين تدارسوا الإيمان

---

١ ـ سورة الرعد: الآية ٤١.

٢ ـ سورة الهُمزة: الآيات ٦ ـ ٧.

٣ ـ سورة فصلت: الآية ٢٠.

والتقوى في مدرسة رجال الله، وهذّبوا أنفسهم سنين طوالاً، وواصلوا الجهاد الأكبر إلى آخر مرحلة.

وإليهم وإلى أمثالهم يشير القرآن الكريم في سورة الفجر ﴿**ياأيّتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربّك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي**﴾[1].

«المطمئنة»: إشارة إلىٰ الإطمئنان الحاصل من الإيمان، بدلالة الآية (٢٨) من سورة الرعد: ﴿**ألا بذكر اللّه تطمئن القلوب**﴾[2].

ويعود اطمئنان النفس، لإطمئنانها بالوعود الإلهية من جهة، ولإطمئنانها لما اختارت من طريق..

وهي مطمئنة في الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، ومطمئنة عند أهوال حوادث يوم القيامة الرهيبة أيضاً.

أمّا (الرجوع إلىٰ اللّه)، فهو ـ على قول جمع من المفسّرين ـ رجوع إلىٰ ثوابه ورحمته..

ولكنّ الأنسب أن يقال: إنّه رجوع إليه جلّ وعلا، رجوع إلىٰ جواره وقربه بمعناها الروحي المعنوي، وليست بمعناها المكاني والجسماني.

«راضية»: لما ترىٰ من تحقق الوعود الإلهية بالثواب والنعيم بأكثر ممّا كانت تتصور، وشمول العبد برحمة وفضل اللّه سيدخل في قلبه الرضا بكّل ما يحمل الرضا من معان وأكثر.

«مرضيّة»: لرضا اللّه تبارك وتعالىٰ عنها.

فعبدٌ بما ذُكِرَ من أوصاف، بلا شكّ مكانه الجنّة، وذلك لأنّه عمل بكلّ ما يملك في سبيل رضوان معبوده الأحد الصمد، ووصل في عمله لمقام الرضا التام والتسليم الكامل لخالقه تبارك وتعالىٰ، حتىٰ نال وسام حقيقة العبودية، ودخل طائعاً وواثقاً في صف عباد اللّه الصالحين..

قبض روح المؤمن

روي أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قد سأله قائلاً: جعلت فداك يا ابن رسول اللّه، هل يكره المؤمن على قبض روحه؟

---

١ ـ سورة الفجر: الآية ٣٠ ـ ٢٧.

٢ ـ سورة الرعد: الآية ٢٨.

قال: «لا واللّه، إنّه إذا أتاه مَلَك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليّ اللّه، لا تجزع، فو الذي بعث محمّداً لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: ويمثل له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذريتهم عليهم السلام ، فيقال له: هذا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر، فينادي روحه منادٍ من قبل ربّ العِزّة فيقول: «يا أيّتها النفس المطمئنة (إلىٰ محمّد وأهل بيته) ارجعي إلىٰ ربّك راضية (بالولاية) مرضيّة (بالثواب) فادخلي في عبادي (يعني محمّداً وأهل بيته) وادخلي جنّتي»، فما شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي»[1].

١ ـ اصول الكافي: ٣/١٢٧، باب إنّ المؤمن لا يكره على قبض روحه، الحديث ٢.

٤٧

الغفلة

إنّ جوهر التقوى شيئان: ذكر الله تعالى، وذلك بالتوجّه والإنشداد إليه من خلال المراقبة الدائمة منه وإستشعار حضوره في كلّ مكان وفي كلّ الأحوال، والخشية من محكمة عدله ودقّة حسابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها في صحيفة أعمالنا .. ولذا فإنّ التوجّه إلى هذين الأساسين (المبدأ والمعاد) كان على رأس البرامج التربوية للأنبياء والأولياء، وذلك لتأثيرها العميق في تطهير الفرد والمجتمع.

نسوا الله فانساهم أنفسهم

والنقطة الجديرة بالملاحظة أنّ القرآن الكريم يعلن هنا ـ بصراحة ـ

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون﴾[١].

الغفلة عن الله تسبّب الغفلة عن الذات، ودليل ذلك واضح أيضاً، لأنّ نسيان الله يؤدّي من جهة إلى إنغماس الإنسان في اللذات المادية والشهوات الحيوانية، وينسى خالقه، وبالتالي يغفل عن إدّخار ما ينبغي له في يوم القيامة.

ومن جهة اُخرى فانّ نسيان الله ونسيان صفاته المقدّسة وأنّه سبحانه هو الوجود المطلق والعالم اللامتناهي، والغنى اللامحدود .. وكلّ ما سواه مرتبط به، ومحتاج لذاته المقدّسة .. كلّ ذلك يسبّب أن يتصوّر نفسه مستقلاً ومستغنياً عن المبدأ[٢].

---

١ ـ سورة الحشر: الآية ١٩.

٢ ـ تفسير الميزان: ١٩/٢٥٣.

وأساساً فإنّ النسيان ـ بحدّ ذاته ـ من أكبر مظاهر تعاسة الإنسان وشقائه، لأنّ قيمة الإنسان في قابلياته ولياقاته الذاتية وطبيعة خلقه التي تميّزه عن الكثير من المخلوقات، وإذا نسيها فهذا يعني نسيان إنسانيته، وفي مثل هذه الحالة يسقط الإنسان في وحل الحيوانية، ويصبح همّه الأكل والشرب والنوم والشهوات.

وهذه كلّها عامل أساس للفسق والفجور، بل إنّ نسيان الذات هو من أسوأ مصاديق الفسق والخروج عن طاعة الله، ولهذا يقول سبحانه: ﴿أُولئك هم الفاسقون﴾.

وممّا يجدر بيانه أنّ الآية لم تقل «لا تنسوا الله»، بل وردت بعبارة ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾ أي كالأشخاص الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وهي في الحقيقة بيان مصداق حسّي وواضح يمكن للإنسان أن يرى فيه عاقبة نسيان الله تعالى.

وجاء نظير هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إنّ المنافقين هم الفاسقون﴾[1].

ضيق المعيشة و نسيان الله

من أجل أن يتّضح مصير الذين ينسون أمر الحقّ يقول القرآن الكريم: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.

هنا ﴿قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾؟ فيسمع الجواب مباشرةً: ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[2] وتعمى عينك عن رؤية نعم الله ومقام قربه.

تفسير المعيشة الضنكى

قد توصد أحياناً كلّ أبواب الحياة بوجه الإنسان، فكلّما أقدم على عمل يجد الأبواب المغلقة، وقد تنعكس الصورة فأينما اتّجه يرى الأبواب مفتّحة في وجهه، وقد تهيأت له مقدّمات العمل، ولا يواجه عقبات في طريقه، فيعبّر عن هذه الحالة بسعة العيش ورغده،

---

١ ـ سورة التوبة: الآية ٦٧.

٢ ـ سورة طه: الآيات ١٢٦ ـ ١٢٤.

وعن الأُولىٰ بضيق المعيشة وشظفها، والمراد من قوله تعالى: ﴿معيشةً ضنكاً﴾ هو هذا المعنى أيضاً.

وقد يكون ضيق العيش ناتجاً أحياناً من قلّة المورد، وقد يكون المرء كثير المال موفور الثراء. إلّا أنّ البخل والحرص والطمع يضيق عليه معاشه، فلا يميل إلى فتح باب داره للآخرين لمشاركته نعيمه، بل ولا يميل إلى الإنفاق على نفسه أيضاً، وعلى قول الإمام علي عليه السلام: «**يعيش عيش الفقراء ويحاسب حساب الأغنياء**»(١).

حقّاً، لماذا يبتلي الإنسان بهذه الضائقات؟

القرآن يقول: إنّ العامل الأساس هو الإعراض عن ذكر الله، فإنّ ذكر الله يبعث على إطمئنان الروح والتقوى والشهامة، ونسيانه مبعث الإضطراب والخوف والقلق.

عندما ينسى الإنسان مسؤولياته بعد أن ينسى ذكر الله، فإنّه سيغرق في خضمّ الشهوات والحرص والطمع، ومن الوضوح بمكان أنّ نصيبه سيكون المعيشة الضنك، فلا قناعة تملأ عينه، ولا إهتمام بالمعنويات تغني روحه، ولا أخلاق تمنعه أمام طغيان الشهوات.

وأساساً فانّ ضيق الحياة ينشأ في الغالب من النقائص المعنوية وإنعدام الغنى الروحي .. ينشأ من عدم الإطمئنان إلى المستقبل، والخوف من نفاد الإمكانيات الموجودة، والعلاقة المفرطة بعالم المادّة، بينما نجد أنّ الإنسان الذي يؤمن بالله، وتعلّق قلبه بذاته المقدّسة، يعيش بعيداً عن كلّ هذه الإضطرابات، وفي مأمن منها.

العالم محضر الله

وفي قصص الوعظ المتداولة في مجالس العلماء، يقال أن أحد كبار العلماء عندما أنهىٰ دراسته الدينية في النجف الأشرف، طلب من أستاذه عندما أراد الرجوع إلىٰ بلده أن يعظه وينصحه، فقال له الأستاذ: بعد كلّ هذا التعب وتحمّل مضاق الدراسة والتحصيل فإنّ آخر نصيحتي لك هي أن لا تنسىٰ أبداً قوله تعالىٰ ﴿ألم يعلم بأنّ الله يرىٰ﴾(٢).

المؤمن الحقيقي يعتبر العالم كلّه حاضراً عند الله تعالىٰ، وإنّ كلّ الأعمال تتمّ في حضوره، وينبغي لهذا الحضور الإلهي أن يكون رادعاً كافياً للخجل والكف عن المعاصي والذنوب.

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ١٢٦.

٢ ـ سورة العلق: الآية ١٤.

٤٨

الشيطان

يحذّر الله سبحانه جميع أبناء البشر من ذرية آدم من كيد الشيطان ومكره، ويدعو إلى مراقبته، والحذر منه، لأنّ الشيطان أبدىٰ عداءه لأبيهم آدم، فكما أنّه نزع عنه لباس الجنّة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، ولهذا يقول تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما﴾[1].

وللتعريف بهذا العدو القديم أكثر فأكثر يضيف تعالى: ﴿ولقد أضلّ منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[2].

ألا ترون ماذا أحلّ بأتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تأريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أي مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟ آثار مدنهم المدمّرة أمام أعينكم، والعاقبة المؤلمة التي وصلوا إليها واضحة لكل من يمتلك القليل من التعقّل والتفكّر.

إذن لماذا أنتم غير جادّين في معاداة من أثبت أنّه عدو لكم مرّات ومرّات؟ ولا زلتم تتّخذونه صديقاً بل قائداً ووليّاً وإماماً!!

إنّ العقل السليم يوجب على الإنسان أن يحذر بشدّة من عدوٍّ خطر كهذا، لا يتورّع عن أي شيء، ولا يرحم أي إنسان أبداً، وقرابينه في كلّ زاوية ومكان هلكى صرعى، فلا ينبغي له

---

١ ـ سورة الاعراف: الآية ٢٧.

٢ ـ سورة يس: الآية ٦٢.

أن يغفل عنه طرفة عين أبداً، ولنقرأ ما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام:

«فاحذروا ـ عباد الله ـ عدوّ الله، أن يعديكم بدائه، وأن يستفزّكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، فقال: ﴿ربّ بما أغويتني لأُزيّنن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين﴾[١]»[٢].

القرآن ينذر وينبّه جميع المؤمنين فيما يخصّ مسألة وساوس الشيطان ومكائده يقول: ﴿إنّ الشيطان لكم عدو فاتّخذوه عدوّاً﴾[٣].

تلك العداوة التي شرع بها الشيطان من أوّل يوم خُلق فيه آدمعليه السلام، وأقسم حين طرد من قرب الله وجواره بسبب عدم تسليمه للأمر الإلهي بالسجود لآدم، أقسم وتوعّد بأن يسلك طريق العداء لآدم وبنيه، وحتّى أنّه دعا من الله أن يمهله ويطيل في عمره لذلك الغرض.

وقد التزم بما قال، ولم يفوّت أدنى فرصة لإبراز عدائه وإنزال الضربات بأفراد بني آدم، فهل يصحّ منكم يابني آدم أن لا تعتبروه عدوّاً لكم، أو أن تغفلوا عنه ولو لحظة واحدة، فكيف الحال باتّباعه وإقتفاء خطواته، أو تعدونه وليّاً شفيقاً وصاحباً ناصحاً ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾.[٤]

الشيطان يحاصر الإنسان

إنّه عدو يهاجم من كلّ طرف وجانب، فهو نفسه «لعنه الله» يقول: على ما نقله القرآن الكريم: ﴿ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾.[٥]

وهو يكمن لكم ويراكم ولا ترونه: ﴿إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾.[٦]

---

١ ـ سورة الحجر: الآية ٣٩.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

٣ ـ سورة فاطر: الآية ٦.

٤ ـ سورة الكهف: الآية ٥٠.

٥ ـ سورة الأعراف: الآية ١٧.

٦ ـ سورة الأعراف: الآية ٢٧.

ويمكن أن يكون هذا التعبير كناية عن أنّ الشيطان يحاصر الإنسان من كل الجهات ويتوسل إلى إغوائه بكل وسيلة ممكنة، ويسعى في إضلاله، وهذا التعبير دارج في المحاورات اليومية أيضاً، فنقول: فلان حاصرته الديون أو الأمراض من الجهات الأربع.

وعدم ذكر الفوق والتحت إنّما هو لأجل أنّ الإنسان يتحرك عادة في الجهات الأربع المذكورة، ويكون له نشاط في هذه الأنحاء غالباً.

ولقد نقل في حديث مروي عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير أعمق لهذه الجهات الأربع حيث قال: «**ثمّ قال: لآتينّهم من بين أيديهم، معناه أهوّن عليهم أمر الآخرة، ومن خلفهم، آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم. وعن أيمانهم، أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة. وعن شمائلهم، بتحبيب اللذّات إليهم وتغليب الشّهوات على قلوبهم**»[1].

العدو الخفي

إنّ الله تعالى يؤكّد على أنّ الشيطان وأعوانه يختلفون عن غيرهم من الأعداء ﴿**إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**﴾[2] فلابدّ من شدّة الحذر من مثل هذا العدّو.

وفي الحقيقة عند ما تظن أنك وحيد، فإنّه من الممكن أن يكون حاضراً معك، فيجب عليك الحذر من هذا العدوّ الخفيّ الذي لا يمكن معرفة لحظات هجومه وعدوانه المباغت، ولابدّ من اتخاذ حالة الدفاع الدائم أمامه.

موازنة القوا

وفي الختام يأتي سبحانه بجملة هي في الحقيقة إجابة على سؤال مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلّط الله العادل الرحيم عدوّاً بهذه القوة على الإنسان ... عدوّاً لا يمكن مقايسة قواه بقوى الإنسان ... عدواً يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنّه ـ حسبما جاء في بعض الأحاديث ـ يجري من الإنسان مجرى الدم في عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقة مع عدالة الله سبحانه؟!

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٤/٤٠٤.

٢ ـ سورة الاعراف : الآية ٢٧ .

القرآن الكريم يرد على هذا السؤال الإحتمالي إذ يقول: ﴿**إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**﴾[١].

أي إنّ الشياطين لا يسمح لهم قط بأن يتسلّلوا وينفذوا إلى قلوب وأرواح المؤمنين الذين لم يكونوا على استعداد لقبول الشيطان والتعامل معه.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الخطوات الأُولىٰ نحو الشيطان إنّما يخطوها الإنسان نفسه، وهو الذي يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكة جسمه. فالشيطان لا يستطيع إجتياز حدود الروح ويعبرها إلّا بعد موافقة من الإنسان نفسه، فاذا أغلق الانسان نوافذ قلبه في وجه الشياطين والأبالسة، فسوف لا تتمكن من النفوذ إلىٰ باطنه.

فلا تلوموني

يشير القرآن الكريم إلى موقف آخر من مواقف القيامة والعقاب النفسي للجبّارين والمذنبين وأتباعهم الشياطين، حيث يقول تعالى: ﴿**وقال الشيطان لمّا قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم**﴾ وبهذا الترتيب فالشيطان وجميع المستكبرين الذين هم قادة طرق الضلال، أصبحوا يلومون ويوبّخون تابعيهم البؤساء.

ثمّ يضيف ﴿**وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي**﴾ ويستمرّ في القول ﴿**فلا تلوموني ولوموا أنفسكم**﴾[٢].

أنتم فعلتم فاللعنة عليكم!!

ونستفيد بشكل أكيد من هذه الآية أنّ وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان إختياره وحرية إرادته، بل هي مجرّد دعوة ليس أكثر، فالناس هم الذين يلبّون دعوته بإرادتهم، وقد تصل الأرضيّة السابقة والدوام على الخلاف بالإنسان إلى حالة من سلب الإختيار في مقابل وساوسه، كما نشاهد بعض المدمنين على المخدرات، ولكن نعلم أنّ السبب الأوّل كان هو الإختيار.

---

١ ـ سورة الاعراف: الآية ٢٧.

٢ ـ سورة ابراهيم: الآية ٢٢.

وعلى هذا فالشيطان يجيب بشكل قاطع على الذين يعتبرونه العامل الأوّل في إنحرافهم وضلالهم، وما يقوله بعض الجهلاء لتبرئتهم من ذنوبهم، فإنّ السلطان الحقيقي على الإنسان هو إرادته وعمله ولا شيء غيره.

اعضاء حزب الشيطان

طبيعي أنّ الشيطان لا يمكنه إدخال أيّ أحد من الناس ليكون عضواً رسمياً في حزبه ويقوده إلى جهنّم، فأعضاء حزبه هم الذين يتّصفون بالصفات المذكورة في بعض الآيات القرآنية ..

* فهم الذين طوّقوا أنفسهم بطوق العبودية للشيطان **﴿إنّما سلطانه على الذين يتولّونه﴾**.[1]

* وهم الذين **﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أُولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾**.[2]

بدء وقوع الفتن

يقول الإمام علي عليه السلام في بداية وقوع الفتن والخلافات **«أيّها الناس، إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، يتولّى فيها رجال رجالاً، فلو أنّ الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، ولو أنّ الحقّ خلص لم يكن إختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى»**[3].

كما يلاحظ نفس هذا التعبير في كلام الإمام الحسين عليه السلام عندما شاهد صفوف أهل الكوفة بكربلاء كالليل المظلم والسيل العارم أمامه، حيث قال: **«فنعم الربّ ربّنا وبئس العباد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرّسول محمّد ثمّ إنّكم رجعتم إلى ذرّيته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم** ثمّ أضاف عليه السلام: **فتباً الموت لكم ولما**

---

١ ـ سورة النحل: الآية ١٠٠.

٢ ـ سورة المجادلة: الآية ١٩.

٣ ـ أُصول الكافي مطابق لنقل تفسير نور الثقلين: ٥/٢٦٧.

تريدون، إنّا لله وإنّا إليه راجعون»[١].

مقاومات الإنسان في قبال الشيطان

إنّ الله تعالى وإن كان ترك الشيطان حرّاً في القيام بوساوسه، ولكنّه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرّداً من الدفاع عن نفسه.

لأنّه **أوّلاً**: وهبه قوّة العقل التي يمكن أن توجد سدّاً قوياً منيعاً في وجه الوساوس الشيطانية خاصّة إذا لقيت تربية صالحة.

وثانياً: جعل الفطرة النقيّة وحبّ التكامل في باطن الإنسان كعامل فعال من عوامل السعادة.

وثالثاً: يبعث الملائكة التي تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوساوس الشيطانية، كما يصرّح القرآن الكريم بذلك إذ يقول: ﴿**إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزل عليهم الملائكة**﴾[٢] إنّها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات والتطمينات لهم.

ونقرأ في موضوع آخر: ﴿**إذ يوحي ربُّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبتوا الذين آمنوا**﴾[٣] وسدّدوا خطاهم في طريق الحق.

دور الشيطان في تكامل الإنسان

لو تفكّرنا قليلاً فسوف ندرك أنّ وجود هذا العدو عامل مساعد لدفع التكامل الإنساني إلى الإمام وتقدّمه.

لا نذهب بعيداً، فقوّات المقاومة التي تدافع دائماً وبشدّة ضدّ العدوّ تزداد قوّة يوماً بعد آخر..

والقادة والجنود المدرّبون الأقوياء هم الأشخاص الذين يقاتلون الأعداء بعنف في المعارك الكبيرة.

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٢٦٦.

٢ ـ سورة فصّلت: الآية ٣٠.

٣ ـ سورة الأنفال: الآية ١٢.

والسياسي المحنّك القوي هو الذي يتمكّن في الأزمات السياسيّة الشديدة أن يتصدّى للأعداء الأقوياء ويتغلّب عليهم.

وأبطال المصارعة الكبار هم الذين نازلوا مصارعين أقوياء أشدّاء، إذن فلم العجب من أنّ عباد الله الكبار بجهادهم المستمر المرير ضدّ الشيطان، يصبحون أقوياء يوماً بعد آخر.

فعلماء اليوم قالوا بشأن فلسفة وجود الميكروبات: لولا وجود هذه الميكروبات لكان جسم الإنسان ضعيفاً عديم الإحساس، ويحتمل أيضاً توقّف نمو الإنسان بسرعة بحيث لا يتجاوز طوله الثمانين سنتيمتراً، ولكان جميع البشر على شكل أقزام صغار، وبهذا الشكل فإنّ مبارزة جسم الإنسان للميكروبات المهاجمة تعطيه قوّة وقدرة على النمو.

وكذلك الحال بالنسبة إلى روح الإنسان في جهادها ضدّ الشيطان وهوى النفس.

وهذا لا يعني أنّ الشيطان مكلّف بإغواء عباد الله، فالشيطان كان طاهراً في بداية خلقه، كبقيّة الموجودات، ولكن الإنحراف والإنحطاط والتعاسة التي أُصيب بها إنّما كان برغبته وإرادته، وبهذا فإنّ الباريء عزّوجلّ لم يخلق إبليس منذ اليوم الأوّل شيطاناً، وإنّما إبليس هو الذي أراد أن يكون شيطاناً، وفي نفس الوقت فإنّ ممارساته الشيطانية لا تجلب الضرر لعباد الله المخلصين إطلاقاً، بل قد تكون سلّماً لرقيّهم وسموّهم.

سؤال و جواب

وفي النهاية يبقى هذا السؤال: لماذا تمّت الموافقة على طلبه في البقاء حيّاً، ولماذا لم يُهلك في تلك اللحظة؟

جواب هذا السؤال هو ما ذكرناه أعلاه، وبعبارة أُخرى:

إنّ عالم الدنيا هذا هو ساحة للإختبار والإمتحان (الإختبار الذي هو وسيلة لتربية وتكامل الإنسان) وكما هو معروف فإنّ الإختبار لا يتمّ من دون مواجهة عدو شرس ومجابهة مختلف أنواع الأعاصير والمشاكل.

وبالطبع، إن لم يكن هناك شيطان، فإنّ هوى النفس ووساوسها هي التي تضع الإنسان في بودقة الإختبار، ولكن حرارة هذه البودقة تزداد بوجود الشيطان، لأنّ الشيطان سيكون في هذه الحالة العامل الخارجي المؤثّر على الإنسان، وهوى النفس والوساوس ستكون العامل الداخلي.

محادثة الشيطان و نوح

صحيح أنّنا لا نرى الشيطان وجنوده وأعوانه، إلّا أننا نستطيع أن نرى آثار أقدامهم، ففي كل مجلس معصية، وفي كل مكان تهيّأت فيه وسائل الذنب، وفي كل مكان توفرت فيه زبارج الدنيا وبهارجها، وعند طغيان الغرائز، وعند اشتعال لهيب الغضب، يكون حضور الشيطان حتمياً ومسلّماً، وكأنَّ الإنسان يسمع في هذه المواقع صوت وساوس الشيطان بآذان قلبه، ويرى آثار قدمه بأُمّ عينيه.

وقد روي ـ في هذا الصعيد ـ حديث رائع عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول:

«لما دعا نوحٌ ربّه عزوجل على قومه أتاه إبليس لعنة الله فقال: يا نوح إنّ لك عندي يداً! أُريد أن أكافئك عليها.

فقال نوح: إنّه ليبغض إليّ أن يكون لك عندي يد، فما هي؟

قال: بلى دعوت الله على قومك فأغرقتهم، فلم يبق أحد أغويه، فأنا مستريح حتى ينشأ قرن آخر وأغويهم.

فقال نوح: ما الذي تريد أن تكافيني به؟

قال: أُذكرني في ثلاثة مواطن، فإنّي أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في أحدهن:

أُذكرني إذا غضبتَ؟

وأُذكرني إذا حكمت بين اثنين!

وأُذكرني إذا كنتَ مع امرأة خالياً ليس معكما أحد!»[1].

ما دمت لا ترى الشيطان ميّتاً فلا تأمن مكره

ومع ذلك، فهذا لا يعني أنّكم لا تقدرون على الدفاع عن أنفسكم أمام مكائده ووساوسه، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلوات والسلام): أنّ الله سبحانه وتعالى أوصى موسى عليه السلام أربع وصايا وطالبه بحفظها:

أُولاهنّ ما دمت لا ترى ذنوبك تغفر فلا تشتغل بعيوب غيرك!

١ ـ بحارالانوار (الطبعة الجديدة): ١١/٣١٨.

والثانية: ما دمت لا ترى كنوزي قد نفذت فلا تهتم برزقك!
والثالثة: ما دمت لا ترى زوال ملكي فلا ترج أحداً غيري!
والرابعة: ما دمت لا ترى الشيطان ميتاً فلا تأمن مكره[١]!

استعذ بالله

ثمّة منعطفات صعبة في حياة المؤمنين يكمن فيها الشيطان، ويحاول أن ينزغ ويحيد بالإنسان عن طريق السعادة وكسب رضا الله تعالىٰ.

وعلى الإنسان في مقابل وسواس الشيطان أن يعتمد في تجاوزها على الله، وإلّا فإنّه لا يستطيع ذلك لوحده، فعليه أن يتوكل على الله ليجتاز عقبات الطريق ومخاطره، ويتمسك بحبل الله المتين.

لقد ورد في الحديث أن شخصاً أساء لآخر في محضر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فثار الغضب في قلبه واشتعلت فيه هواجس الثار، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنهُ الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**».

فقال الرجل: أمجنوناً تراني؟

فاستند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى القرآن وتلا قوله تعالىٰ: ﴿**وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله**[٢]﴾[٣].

وهذه إشارة إلى أنّ ثورة الغضب من وسواس الشيطان، مثلما تعتبر ثورة الشهوة والهوىٰ من وسواسه أيضاً.

ونقرأ في كتاب «الخصال» أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام علّم أصحابه أربعمائة باب تنفع المسلمين في الدين والدنيا، من ضمنها قوله عليه السلام لهم: «**إذا وسوس الشيطان إلى أحدكم فليستعذ بالله وليقل: آمنت بالله مخلصاً له الدين**»[٤].

---

١ ـ سفينة البحار: ١/٥٠١ ـ مادّة ربع.
٢ ـ سورة فصّلت: الآية ٣٦.
٣ ـ تفسير روح المعاني: ٢٤/١١١.
٤ ـ تفسير نور الثقلين: ٤/١٥٥١.

قصّة العابد (برصيصا)

كان في بني اسرائيل عابد يدعى «برصيصا» قد عبد الله زماناً من الدهر حتّى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوذهم فيبرؤون على يديه، وانّه أُتي بامرأة قد جنّت وكان لها أُخوة فأتوه بها فكانت عنده، فلم يزل به الشيطان يزيّن له حتّى وقع عليها فحملت، فلمّا إستبان حملها قتلها ودفنها، فلمّا فعل ذلك ذهب الشيطان حتّى لقى أحد أُخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب وانّه دفنها في مكان كذا، ثمّ أتى بقيّة أُخوتها، وهكذا إنتشر الخبر فساروا إليه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذي فعل، فأُمر به فصلب، فلمّا رفع على خشبته تمثّل له الشيطان فقال: أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، وأنا والذي أوقعتك في هذا، فأطعني فيما أقول أُخلّصك ممّا أنت فيه، قال نعم. قال: اسجد لي سجدة واحدة، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة، فقال: أكتفي منك بالإيماء، فأومى له بالسجود فكفر بالله وقتل، فهو قوله تعالى: ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ...**﴾[1].

نعم هكذا هو مصير من ابتلي بوسوسة الشيطان وسار في خطّه.

اوصاف الشيطان

نيران الأنانية والغرور

من الأُمور الحسّاسة جدّاً التي تلفت النظر في قضيّة طرد إبليس من رحمة الله، هو مدى تأثير عاملي الأنانية والغرور على سقوط وتعاسة الإنسان، إذ يمكن القول بأنّهما من أهمّ وأخطر عوامل الإنحراف. وقد تسبّبا ـ في لحظة واحدة ـ في هدم عبادة ستّة آلاف سنة، وإنّهما كانا السبب وراء تدنّي موجود كان في صفّ ملائكة السماء الكبار إلى أدنى درجات الشقاء، ويستحقّ لعنة الله الأبدية.

الأنانية والغرور يحجبان الحقيقة عن بصر الإنسان، فالأنانية مصدر الحسد، والحسد مصدر العداوة والبغضاء، والعداوة والبغضاء سبب إراقة الدماء وإرتكاب الجرائم.

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٢٦٥/٩، تفسير القرطبي: ٦٥١٨/٩، وجاءت هذه القصّة مفصّلة أكثر في تفسير روح البيان: ٤٤٦/٩.

الأنانية تدفع الإنسان إلى الإستمرار في إرتكاب الخطأ، وتحبط ـ في نفس الوقت ـ مفعول أيّ عامل للصحوة من الغفلة، أي تحوّل بين ذلك العامل وبين الإنسان.

الأنانية والعناد يسلبان فرصة التوبة وإصلاح الذات من الإنسان، ويغلقان أمامه كلّ أبواب النجاة، وخلاصة الأمر فإنّ كلّ ما نقوله حول خطر هذه الصفات القبيحة والمذمومة يعدّ قليلاً.

وكم هو جميل قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فعدو الله إمام المتعصّبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادّرع لباس التعزّز، وخلع قناع التذلّل ألا ترون كيف صغّره الله بتكبّره؟ ووضعه بترفّعه؟ فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعدّ له في الآخرة سعيراً**».[1]

خطط الشيطان

إنّ الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضاً من خططه:

١ ـ أن يأخذ من عباد الله نصيباً معيناً:

﴿**وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً**﴾.

فالشيطان يعلم بعجزه عن اغواء جميع عباد الله، لأنّ من يستسلم لإرادة الشيطان ويخضع له هم فقط أُولئك المنجرفون وراء الأهواء والنزوات، والذين لا إيمان لهم، أو ضعاف الإيمان.

٢ ـ ﴿**ولأُضلنهم**﴾.

٣ ـ اشغلهم بالأُمنيات العريضة وطول الامل ﴿**ولأُمنينهم**﴾.

٤ ـ ففيها يدعو الشيطان اتباعه إلى القيام بأعمال خرافية، مثل قطع أو خرق أذان الحيوانات:

﴿**ولأمرنّهم فليبتكن أذان الأنعام**﴾ وهذه إشارة لواحد من أقبح الأعمال التي كان يرتكبها الجاهليون المشركون، حيث كانوا يقطعون أو يخرقون أذان بعض المواشي، وكانوا يحرمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أي نوع من أنواع الإنتفاع بهذه الحيوانات.

٥ ـ ﴿**ولأمرنهم فليغيّرن خلق الله ...**﴾ وهذه الجملة تشير إلى أنّ الله قد أوجد في فطرة

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ المعروفة بالقاصعة.

الإنسان منذ خلقة إياه ـ النزعة إلى التوحيد وعبادة الواحد الأحد، بالإضافة إلى بقية الصفات والخصال الحميدة الأخرى، ولكن وساوس الشيطان والإنجراف وراء الأهواء والنزوات تبعد الإنسان عن الطريق المستقيم الصحيح، وتحرفه إلى الطرق المعوجة الشاذة.

والشاهد على هذا القول أيضاً الآية (٣٠) من سورة الرّوم، إذ تقول: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾**.

ونقل عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه فسّره بأنّ القصد من التغيير المذكور هو تغيير فطرة الإنسان وحرفها عن التوحيد وعن أمر الله[١].

وهذا الضرر الذي لا يمكن التعويض عنه، يلحقه الشيطان بأساس سعادة الإنسان، لأنّه يعكس له الحقائق والوقائع ويستبدلها بمجموعة من الأوهام والخرافات والوساوس التي تؤدي إلى تغيير السعادة بالشقاء للناس.

إنّ الشيطان يستمر في إعطائه الوعود الكاذبة لأولئك ويمنيهم الأمنيات الطوال العراض، ولكنه لا يفعل شيئاً بالنسبة لهؤلاء غير الإغواء والخداع: **﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾**[٢].

دعوة الشيطان

وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام قال: **«لما نزلت هذه الآية ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾[٣] صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه فقالوا يا سيدنا لم دعوتنا؟**

قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين.

فقال: أنا لها بكذا وكذا.

قال: لست لها فقام آخر فقال مثل ذلك.

فقال: لست لها.

---

١ ـ تفسير التبيان: ٣/٣٣٤.

٢ ـ سورة النساء: الآيات ١٢٠ ـ ١١٧.

٣ ـ سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

فقال: الوسواس الخناس أنا لها.

قال: بماذا؟ قال: أعدهم وامنيهم حتّى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الإستغفار.

فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة»[١].

خطوات الشيطان

عبارة ﴿لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[٢] تكررت أربع مرات في القرآن الكريم، وهي تشير إلى مسألة تربوية دقيقة، هي إنّ الإنحرافات تدخل ساحة الإنسان بشكل تدريجي، لا دفعي فوري. فتلوّث شاب بالقمار، أو شرب الخمر، أو بالمخدرات مثلاً يتم علىٰ مراحل:

يشترك أوّلاً متفرجاً في جلسة من جلسات الخمارين أو المقامرين، ظاناً أنه عمل اعتيادي لا ضير فيه.

ثم يشترك في القمار للترويح عن النفس (دون ربح أو خسارة)، أو يتناول شيئاً من المخدرات بحجة رفع التعب أو المعالجة أو أمثالها من الحجج.

وفي الخطوة الأُخرىٰ يمارس العمل المحرم قاصداً أنه يمارسه مؤقتاً.

وهكذا تتوالى الخطوات واحدة بعد أُخرىٰ ويصبح الفرد مقامراً محترفاً أو مدمناً خطراً.

وساوس الشيطان تدفع بالفرد علىٰ هذه الصورة التدريجية نحو هاوية السقوط، وليست هذه طريقة الشيطان الأصلي فحسب، بل كل الأجهزة الشيطانية تنفذ خططها المشؤومة علىٰ شكل «خُطُوات» لذلك يحذّر القرآن كثيراً من اتّخاذ الخطوة الأُولىٰ علىٰ طريق الإنزلاق.

جدير بالذكر أن الأعمال الخرافية غير القائمة علىٰ أساس منطقي اعتبرتها النصوص الإسلامية من «خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ».

وقد ورد في رجل أقسم أن يذبح ابنه، قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «ذَلِكَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ»[٣].

---

١ ـ تفسير الميزان: ٥٥٧/٢٠.

٢ ـ سورة البقرة: الآيات ١٦٨ و ٢٠٨ و سورة الانعام: الآية ١٤٢ و سورة النور: الآية ٢١.

٣ ـ تفسير الميزان: ٤٢٨/١.

وعن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام: «كُلُّ يَمِينٍ بِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ».[١]

وعن الامام الصادق أيضاً: «إِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ عَلَىٰ شَيءٍ وَالَّذِي حَلَفَ عَلَيْهِ إِتْيَانُهُ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِهِ فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلاَ كَفَّارَةَ لَهُ وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ»[٢].

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق.

٤٩

التعصّب

لا شك أن كل إنسان يرتبط بأرضٍ أو قبيلة أو قومية فإنّه يعشقها، وهذه العلاقة بالأرض أو القبيلة، ليست غير معيبة فحسب، بل هي عامل بنّاء لأبناء المجتمع، إلّا أن لهذا الأمر حدوداً، فلو تجاوز الحدود فإنه سينقلب إلى عاملٍ مخرب، وربّما إلى عامل مفجع.

والمراد من التعصب أو العصبية القومية أو القبلية المذمومة والسلبية، هو الإفراط في التعصب أو العصبية...

«التعصب» و «العصبية» في الأصل من مادة (عصب) ومعناه واضح، وهو الغضروف الذي يربط المفاصل، ثمّ أطلق التعصب والعصبية على كل ارتباط... إلّا أن هذا اللفظ أو هذين اللفظين يستعملان عادة في المفهوم الإفراطي المذموم.

إن الدفاع المفرط عن القوم أو القبيلة أو الأرض والوطن، كان مصدراً لكثير من الحروب على طول التاريخ، وعاملاً على انتقال الخرافات والتقاليد السيئة على أنها آداب وسنن في قبيلةٍ ما أو أُمّةٍ ما! إلى أُمم أُخَر!

هذا الدفاع أو الإنتماء المتطرف، قد يبلغ حداً بحيث يرى أسوأ أفراد قبيلته في نظره جميلاً، وأحسن أفراد القبيلة الأُخرىٰ في نظره سيئاً... وكذلك الحال بالنسبة إلى السنن والآداب السيئة والحسنة... وبتعبير آخر: إنّ التعصب القومي يلقي ستاراً من الجهل والأنانية على أفكار الإنسان وعقله، ويلغي التقييم الصحيح!

هذه الحالة من العصبية كانت لها صورة أكثر حدة بين بعض الأُمم، ومنهم العرب المعروفون بالتعصب.

وقد قرأنا في الآيات القرآنيّة أنّه لو أنزل الله القرآن على غير العرب لما كانوا به مؤمنين، ﴿ولو نزّلناه علىٰ بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾[١].

جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**لو نزل القرآن على العجم ما آمنت به العرب... وقد نزل على العرب فآمنت به العجم، فهذه فضيلة العجم**».[٢]

خمسة احاديث

قد ورد في الرّوايات الإسلامية التحذير من التعصب، على أنّه خُلق مذموم، حتى أنّنا نقرأ حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه:

١ ـ «**من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبية، بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية**».[٣]

ونقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه:

٢ ـ «**من تعصب أو تُعصب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه**».[٤]

ويستفاد من الرّوايات الإسلامية أيضاً، أن إبليس أوّل من تعصب...

٣ ـ يقول الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه ـ المعروفة بالقاصعة ـ في مجال التعصب كلاماً بليغاً مؤثراً، ننقل جانباً منه هنا:

«**أمّا إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته، فقال: أنا ناري وأنت طيني**).[٥]

ثمّ يضيف الإمام علي في خطبته هذه قائلاً: «**فإن كان لا بدّ من العصبية، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأُمور**».[٦]

ويتّضح من هذا الحديث ـ بجلاء أن التعصب والدفاع المستميت عن بعض الحقائق

---

١ ـ سورة الشعراء: الآية ١٩٩ ـ ١٩٨.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ١٦٥/٤.

٣ ـ أُصول الكافي: ٣٢/٢، باب العصبية.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ نهج البلاغه، خطبة القاصعة، ١٩٢.

٦ ـ المصدر السابق.

والايجابيات ليس غير مذموماً فحسب، بل بامكانه أن يسدّ فراغاً روحياً قد ينشأ من ترك بعض العادات الجاهلية المقيتة.

لذلك نقرأ عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام حين سئل عن التعصب قوله: **«العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»**.(١)

٤ ـ يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام **«إنّ الله يعذب ستةً بست ـ العرب بالعصبية، والدهاقنة بالكبر، والأمراء بالجور، والفقهاء بالحسد، والتجار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهل»**.(٢)

٥ ـ كان رسول الله يتعوذ في كل يوم من ستٍ **«من الشكِّ والشرك والحميّة والغضب والبغي والحسد»**.(٣)

ما هي حميّة الجاهلية؟!

والتعبير الآخر عن العصبية الوارد في بعض الروايات أو الآيات هو الحمية (**حمية الجاهلية**).

إنّ **«الحميّة»** في الأصل من مادة «حَمِي» ومعناها الحرارة، ثمّ صارت تستعمل في معنىٰ الغضب، ثمّ استعملت في النخوة والتعصّب الممزوج بالغضب أيضاً..

وهذه الكلمة قد تستعمل في هذا المعنىٰ المذموم «مقرونة بالجاهلية أو بدونها» بعض الأحيان، وقد تستعمل في المدح حيناً آخر، فتكون عندئذٍ بمعنىٰ التعصّب في الأُمور الإيجابية البنّاءة!

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين انتقده بعض أصحابه الضعاف المعاندين: **«مُنيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت أما دين يجمعكم ولا حميّة تحشمكم»**(٤).

غير أنّ هذه الكلمة غالباً ما ترد في الذم كما ذكرها الإمام علي عليه السلام مراراً في خطبته القاصعة ذامّاً بها إبليس أمام المستكبرين: **«صدّقه به أبناءُ الحمية وأخوان العصبية وفرسان**

---

١ ـ أُصول الكافي: ٢٣٣/٢، باب العصبية.

٢ ـ بحار الأنوار: ٢٨٩/٧٣.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٣٩.

الكبر والجاهلية»[١].

وفي مكان آخر من هذه الخطبة يقول محذّراً من العصبيات الجاهلية: «**فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية وأحقاد الجاهلية فإنّما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته**»[٢].

وعلىٰ كلّ حال فلا شكّ أنّ وجود مثل هذه الحالة في الفرد أو المجتمع باعث علىٰ تخلّف ذلك المجتمع وتكبيل العقل والفكر الإنساني ومنعه من الإدراك الصحيح والتشخيص السالم.. وربّما تذرُ جميع مصالحه مع الرياح!..

وأساساً فإنّ انتقال السنن الخاطئة من جيل لآخر ومن قوم لآخرين ما كان إلّا في ظل هذه الحميّة المشؤومة، ومقاومة الأمم للأنبياء والقادة غالباً ما تكون عن هذه السبيل أيضاً..

اذا ظهر التعصّب في كتاب المفسّر

ومن العجيب أنّ جماعة من المفسّرين الذين وقعوا تحت تأثير العصبية القومية والعربية قالوا: إنّ المخاطب في هذه الآية ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾[٣] هم العرب! أي أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قد جاءكم من هذا الأصل!.

إنّنا نعتقد أن هذا هو أسوأ تفسير ذكر لهذه الآية، لأنا نعلم أنّ الشيء الذي لم يجر له ذكر في القرآن الكريم هو مسألة الأصل والعرق، ففي كل مكان تبدأ خطابات القرآن بـ**﴿يا أيّها الناس﴾** و **﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾** وأمثالها، ولايوجد في أي مورد «يا أيّها العرب» و «يا قريش» وأمثال ذلك.

إضافة الى أنّ ذيل الآية الذي يقول: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ ينفي هذا التّفسير بوضوح، لأنّ الكلام فيه عن كل المؤمنين، من أي قومية أو عرق كانوا.

وممّا يثير الأسف أنّ بعض العلماء المتعصبين قد حجّموا عالمية القرآن وعموميته لكل البشر، وحاولوا حصره في حدود القومية والعرق المحدودة.

ومع الأسف الشديد نلاحظ أنّ الدول العربية والتي هي مهد الإسلام قد إقترنت برامجها

---

١ ـ نهج البلاغة الخطبة القاصعة ١٩٢.

٢ ـ نهج البلاغة: المصدر السابق.

٣ ـ سورة التوبة : الآية ١٢٨.

وأهدافها بالشرك والقومية وتكالبت خلف أمجاد العروبة وعظمة العرب وأمثال ذلك من الأهداف والغايات الوهميّة، وإتّخذت الدول الأُخرىٰ لها أصناماً من هذا القبيل، وبذلك قطعوا أواصر التوحيد الإسلامي التي كانت تربط في ما مضى شرق العالم وغربه، وتغرّبوا عن مبادئهم السّماوية إلى درجة أنّ الحرب والإقتتال فيما بينهم أكثر وأشدّ من حربهم مع أعدائهم!!

إنّ العجيب أنّه مع هذه التعليمات الواسعة الغنية ذات المغزىٰ الكبير ما يزال بين المسلمين من يعوّل علىٰ الدم والنسب واللسان ويقدّمون وحدة الدم واللغة علىٰ الأخوة الإسلامية والوحدة الدينية ويحيون العصبية الجاهلية مرّةً أخرىٰ، وبالرغم من الضربات الشديدة التي يتلقّونها من جراء ذلك، إلّا أنّهم حسب الظاهر لا يريدون أن يتيقّظوا ويعودوا إلىٰ حكم الإسلام وحظيرة قدسه!

حفظ الله الجميع من شر العصبية الجاهلية.

إنّ الإسلام حارب العصبية الجاهلية في أي شكل كانت وفي أيّة صورة ليجمع المسلمين في العالم من أي قوم وقبيلة وعرق تحت لواء واحد! ـ لواء القومية ولا سواه ـ لأنّ الإسلام لا يوافق علىٰ هذه النظريات المحدودة ويعدّ جميع هذه الأُمور وهمية ولا أساس لها حتىٰ أنّه ورد في حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «**دعوها فإنّها منتنة**»[1].

ولكنّ لماذا بقيت هذه الفكرة المُنتنة مترسّخة في عقول الكثيرين ممّن يدّعون أنّهم مسلمون ويتّبعون القرآن والأخوة الإسلامية ظاهراً؟! لا ندري!!

---

١ ـ صحيح مسلم طبقاً لما نقل في ظلال الإسلام: ٧/٥٣٨.

٥٠

التكلّف

إنّ إحدى مفاخر رسولنا الأكرمﷺ أنّه غير متكلّف.

وفي الروايات الإسلامية المزيد من الأبحاث التي توضّح علامات المتصنّع والمتظاهر بما ليس فيه، ومنها:

١ ـ ورد حديث في (تفسير جوامع الجامع) عن رسول اللهﷺ، قال فيه: **«للمتكلّف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم»**[١]!

وروي مثله في الخصال عن الصادقعليه السلام عن لقمان في وصيته لإبنه.

٢ ـ كما ورد حديث آخر وهو من وصايا الرّسول الأكرمﷺ لأمير المؤمنينعليه السلام **«للمتكلّف ثلاث علامات: يتملّق إذا حضر، ويغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة»**[٢].

٣ ـ روي حديث عن الإمام الصادقعليه السلام، جاء فيه: **«المتكلّف مخطىء وإن أصاب، والمتكلّف لا يستجلب في عاقبة أمره إلّا الهوان، وفي الوقت إلّا التعب والعناء والشقاء، والمتكلّف ظاهره رياء وباطنه نفاق، وهما جناحان بهما يطير المتكلّف، وليس في الجملة من أخلاق الصالحين، ولا من شعار المتّقين المتكلّف في أي باب، كما قال الله تعالى لنبيّه قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين»**[٣].

من مجموع هذه الرّوايات يتّضح ـ بصورة جيّدة ـ أنّ المتكلّفين خارجون عن جادّة الحقّ

---

١ ـ تفسير جوامع الجامع، نقلاً عن تفسير الميزان: ٢٤٣/١٧.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٤٧٣/٤.

٣ ـ المصدر السابق.

والعدالة والصدق والأمانة، وأنّهم لا يرون الحقائق أمام أعينهم، ويتشبّثون بالأوهام والخيال، ينبّئوون بأُمور ليسوا على إطّلاع بها، ويتدخّلون بأُمور لا يعرفونها، لهم ظاهر وباطن، وحضورهم وغيابهم متضادّ. يتعبون أنفسهم ويجهدونها، ولكنّهم لا يحصدون سوى الخيبة والخسران، أمّا المتّقون والصالحون فإنّهم مطهّرون من هذه الصفة ومنزّهون عنها.

٥١

كتمان الحق

كتمان الحقائق من المسائل التي عانت منها المجتمعات البشرية علىٰ مرّ التاريخ، وكان لها دوماً آثار سيئة عميقة استمرت قروناً واعصاراً. ويتحمل تبعة هذه المساويء دون شك أولئك العلماء الذين يعلمون تلك الحقائق ويكتمونها.

لعل القرآن لم يهدد ويذمّ فئة كما هدّد وذم هذه الفئة الكاتمة للحقائق.

حيث يقول:

﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدىٰ من بعد ما بيّنّه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون﴾[1].

ولم لا؟ فإن عمل هؤلاء يجرّ أجيالاً متعاقبة إلى طريق الضلال والفساد، كما أن نشر الحقائق يدفع بالأمم إلى طريق الهداية والصلاح.

البشرية تميل للحقائق بفطرتها، وكتمان الحقائق عنها يعني صدّ البشرية عن طريق تكاملها الفطري المرسوم لها.

لو أن علماء اليهود والنصارى أعلنوا ما عندهم من حقائق بشأن النّبي الخاتمﷺ، ونشروا ما جاء في العهدين من بشائر حول رسول الإسلام، لانضوى أهل الكتاب تحت راية الإسلام، ولأصبحوا مع المسلمين أمة واحدة.

كتمان الحقائق لا ينحصر دون شك في كتمان علامات النّبوة والبشائر بالنّبي

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ١٥٩.

الخاتم ﷺ، بل يشمل كتمان كل حقيقة تستطيع أن تدفع النّاس إلى الفهم الصحيح بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.

السكوت من مصاديق كتمان الحقّ

السكوت في مواضع يجب فيها البيان قد يكون من مصاديق كتمان الحق، وذلك يكون في موارد يحتاج النّاس فيها بشدّة إلى فهم الحقائق ويستطيع العلماء فيها أن يلبّوا هذه الحاجة.

بعبارة أُخرىٰ: نشر الحقائق التي يعاني منها النّاس لا يتوقف علىٰ السّؤال، وما يذهب إليه صاحب المنار من أن كتمان الحقائق يكون في مواضع السؤال ليس بصحيح. خاصة وأن القرآن لا يتحدث عن كتمان الحقائق فحسب، بل يتحدث في مواضع أُخرىٰ عن تبيين الحقائق أيضاً، وهذا يرد علىٰ أولئك الذين يلتزمون جانب الصمت أمام الإنحرافات بحجّة عدم وجود سائل يطرح عليهم سؤالاً بشأن تلك الإنحرافات. يقول سبحانه:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾[١].

جدير بالذكر أن إلهاءَ النّاس بالمسائل الفرعية، لصرف أنظارهم عن المسائل الأسياسية الحياتية نوع من كتمان الحقائق. إذا لم يشمله فرضاً تعبير «كتمان الحقائق» فهو مشمول حتماً بملاك وفلسفة كتمان الحق.

٢ ـ كتمان الحق في الأحاديث

حملت الأحاديث بشدّة أيضاً علىٰ كاتمي الحق، فروي عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[٢].

ونعيد هنا القول أن ابتلاء الناس بمسألة والحاجة الى بيانها يحل محل السّؤال. وبيان الحقائق في هذه الحالة واجب.

وسُئل الامام أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ شَرُّ خَلقِ اللّهِ بَعدَ إبلِيسَ وَفِرعَونَ؟ قَالَ: العُلَمَاءُ إذا فَسَدوا، هُم المُظهِرُونَ لِلأَبَاطِيلِ،

---

١ ـ سورة آل‌عمران: الآية ١٨٧.

٢ ـ تفسير مجمع البيان، في تفسير الآية ١٦٠ ـ ١٥٩ من سورة البقرة.

الكَاتِمُونَ للحَقَائِقِ، وَفِيهِم قَالَ اللّهُ عَزّوجَلَّ: ﴿أُولَئك يَلعَنهُم اللّهُ ويَلعَنُهُم اللاعِنُونَ﴾[1]

فقد روى عن النّبي الأكرم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنّه قال: «**من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة بلجام من نار**».

وعن الحسن بن عمار قال: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدّثني فقال: أو ما علمت أنّي تركت الحديث، فقلت: إمّا أن تحدّثني وإمّا أن أحدثك؟ فقال: حدّثني فقلت: حدّثني الحكم بن عيينة عن نجم الجزار قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «**ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا**».

قال: فأطرق برأسه ملياً بعد أن سمع قولي ثمّ قال: اسمع لأحدثك، فحدثني أربعين حديثاً.[2]

---

١ ـ الاحتجاج للطبرسي، نقلاً عن تفسير نور الثقلين: ٢/١٣٩.

٢ ـ تفسير أبو الفتوح الرازي، وتفسير مجمع البيان عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة آل‌عمران، ومتن الحديث العلوي منقول عن نهج البلاغة الكلمات القصار، رقم ٤٧٨.

٥٢

آداب المحادثة

لقد وردت إشارة إلى آداب الحديث في مواعظ لقمان، وقد فتح في الإسلام باب واسع لهذه المسألة، وذكرت فيه آداب كثيرة من جملتها:

ـ طالما لم تكن هناك ضرورة للحديث والتكلّم، فإنّ السكوت خير منه، كما نرى ذلك في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**السكوت راحة للعقل**»[١].

ـ وجاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**من علامات الفقه: العلم والحلم والصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة**»[٢].

ـ وقد ورد التأكيد في روايات أُخرى على أنّه لا ينبغي للمؤمن أن يسكت في المواضع التي يلزم فيها الكلام، وأنّ الأنبياء بعثوا بالكلام لا بالسكوت، وأنّ وسيلة الوصول إلى الجنّة والخلاص من النار هي الكلام في الموضع المناسب[٣].

اللسان مصدر ثلاثين كبيرة

يقول علماء الأخلاق: إنّ اللسان أكثر أعضاء البدن بركة، وأكثر الوسائل تأثيراً في الطاعة والهداية والصلاح، وهو في الوقت نفسه يعدّ أخطر أعضاء البدن وأكثرها معصية وذنباً، حتّى

---

١ ـ وسائل الشيعة، الجزء صفحة ٥٣٢.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

أنّ ما يقرب من الثلاثين كبيرة تصدر من هذا العضو الصغير[١].

وفي حديث عن النّبي الأكرم ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه**»[٢].

ومن الرائع جدّاً ما ورد في حديث آخر عن الإمام السجّاد عليه السلام: «**إنّ لسان ابن آدم يشرف كلّ يوم على جوارحه فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير إن تركتنا. ويقولون: الله الله فينا، ويناشدونه ويقولون: إنّما نثاب بك ونعاقب بك**»[٣].

موعظة النّبي ﷺ الدائمة

هناك روايات كثيرة في هذا الباب تحكي جميعاً عن الأهميّة الفائقة للّسان ودوره في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس الإنسانية، ولذلك نقرأ في حديث: «**ما جلس رسول الله ﷺ على هذا المنبر قطّ إلّا تلا هذه الآية: ﴿ياأيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً[٤]﴾**»[٥].

وفي الحديث القدسي أن الله سبحانه يخاطب أبناء آدم يقول: «**يا ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فاطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما**

---

١ ـ عدّ الغزالي في إحياء العلوم عشرين كبيرة أو معصية تصدر عن اللسان، وهي: ١ ـ الكذب ٢ ـ الغيبة ٣ ـ النميمة ٤ ـ النفاق في الكلام، أي كون الإنسان ذا لسانين ووجهين ٥ ـ المدح في غير موضعه ٦ ـ بذاءة الكلام ٧ ـ الغناء والأشعار غير المرضية ٨ ـ الإفراط في المزاح ٩ ـ السخرية والإستهزاء ١٠ ـ إفشاء أسرار الآخرين ١١ ـ الوعد الكاذب ١٢ ـ اللعن في غير موضعه ١٣ ـ التخاصم والنزاع ١٤ ـ الجدال والمراء ١٥ ـ البحث في أُمور الباطل ١٦ ـ الثرثرة ١٧ ـ البحث في الأُمور التي لا تعني الإنسان ١٨ ـ وصف مجالس الشراب والقمار والمعصية ١٩ ـ السؤال عن المسائل الخارجة عن إدراك الإنسان والبحث فيها ٢٠ ـ التصنّع والتكلّف في الكلام.

ونزيد عليها عشرة مواضيع مهمّة أُخرى، وهي: ١ ـ الإتّهام ٢ ـ شهادة الزور ٣ ـ إشاعة الفحشاء، ونشر الإشاعات التي لاأساس لها ٤ ـ مدح الإنسان نفسه ٥ ـ الإصرار في غير محلّه ٦ ـ الغلظة والخشونة في الكلام ٧ ـ الأذى باللسان ٨ ـ ذم من لا يستحقّ الذمّ ٩ ـ كفران النعمة اللسان ١٠ ـ الإعلام الباطل.

٢ ـ بحار الأنوار: ٧٨/٧١.

٣ ـ بحار الأنوار: ٢٧٨/٧١.

٤ ـ سورة الاحزاب: الآية ٧٠.

٥ ـ تفسير الدر المنثور، طبقاً لنقل تفسير الميزان: ٣٧٦/١٦.

حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فاطبق...»[١].

وثمّة قصّة معروفة أيضاً عن لقمان، وهي أنّ مولاه دعاه ـ يوم كان عبداً ـ فقال: اذبح شاة، فأتني بأطيب مضغتين منها، فذبح شاة، وأتاه بالقلب واللسان.

وبعد عدّة أيّام أمره أن يذبح شاة، ويأتيه بأخبث أعضائها، فذبح شاة وأتاه بالقلب واللسان، فتعجّب وسأله عن ذلك فقال: **إنّ القلب واللسان إذا طهّرا فهما أطيب من كلّ شيء، وإذا خبثا كانا أخبث من كلّ شيء**[٢].

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٥٨١.

٢ ـ تفسير البيضاوي والثعلبي، ولكن نقل في تفسير مجمع البيان جزءه الأوّل فقط.

٥٣

طريق تسخير القلوب

كثيراً ما يلاحظ أفراد فضلاء وعلى مستوى من العلم والمعرفة، لا يمكنهم النفوذ في أفكار الآخرين، لعدم إطّلاعهم على الفنون الخاصّة بالبحث والإستدلال، وعدم رعايتهم للجوانب النفسية، على عكس البعض الآخر الذين ليسوا على وفرة من العلم، إلّا أنّهم موفّقين من ناحية جذب القلوب وتسخيرها والنفوذ في أفكار الآخرين.

والعلّة الأساسية لذلك هي أنّ طريقة البحث، وأُسلوب التعامل مع الطرف المقابل يجب أن تكون مقرونة بأُصول وقواعد تتّسق مع الخُلُق والروح، فلا تستثار الجوانب السلبية في الطرف المقابل، كي لا يندفع إلى العناد والإصرار، إذ أنّ مراعاة الجانب النفسي ستؤدّي إلى إيقاظ وجدانه وإثارة روح البحث عن الحقيقة وإحيائها فيه.

والمهمّ هنا أن نعلم أنّ الإنسان ليس فكراً وعقلاً صرفاً كي يستسلم أمام قدرة الإستدلال، بل علاوةً على ذلك فإنّ مجموعة من العواطف والأحاسيس التي تشكّل جانباً مهمّاً من روحه مطوية في وجوده، والتي يجب إشباعها بشكل صحيح ومعقول.

والقرآن الكريم علّمنا كيفية مزج البحوث المنطقية بالأُصول الأخلاقية في المحاورة، حتّى تنفذ في أرواح الآخرين.

شروط الجدال الاحسن

شرط التأثير والنفوذ في روح الطرف المقابل هو إحساس الطرف المقابل بأنّ المتحدّث يتحلّى بالصفات التالية:

١ ـ مؤمن بما يقول، وما يقوله صادر من أعماقه.

٢ ـ هدفه من البحث طلب الحقّ، وليس التفوّق والتعالي.

٣ ـ لا يقصد تحقير الطرف المقابل، وإعلاء شأن نفسه.

٤ ـ ليس له مصلحة شخصية فيما يقول، بل إنّ ما يقوله نابع من الإخلاص.

٥ ـ يكنّ الإحترام للطرف المقابل، لذا فهو يستخدم الأدب والرقّة في تعبيراته.

٦ ـ لا يريد إثارة العناد لدى الطرف المقابل، ويكتفي من البحث في موضوع بالمقدار الكافي، دون الإصرار على إثبات أنّ الحقّ إلى جانبه. ليعرض حديثه.

٧ ـ منصف، لا يفرط بالإنصاف أبداً، حتّى وإن لم يراع الطرف المقابل هذه الأُصول.

٨ ـ لا يقصد تحميل الآخرين أفكاره، بل يرغب في إيجاد الدافع لدى الآخرين حتّى يوصلهم إلى الحقيقة بمنتهى الحرية.

الدقّة المتناهية في هذه الايات، وأُسلوب تعامل الرّسول ﷺ ـ بأمر الله ـ مع المخالفين، المقترن بكثير من اللفتات الجميلة، تعتبر دليلاً حيّاً على ما ذكرناه. فهو أحياناً يصل إلى حدّ لا يشير بدقّة إلى المهتدي أو المضلّ في أحد الفريقين، بل يقول: ﴿وإنّا وإيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾[1] حتّى يثير في الذهن التساؤل عن علامات الهدى أو الضلال في أي الفريقين.

أو يقول: ﴿قل يجمع بيننا ربّنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ﴾[2].

طبعاً لا يمكن إنكار أنّ كلّ ذلك بالنسبة إلى الأشخاص المؤمّل إهتداؤهم، وإلّا فإنّ القرآن يتعامل مع الأعداء المعاندين والظلمة القساة الذين لا يؤمّل منهم القبول بذلك بطريقة أُخرى. أُسلوب محاورات الرّسول ﷺ والأئمّة عليهم السلام مع مخالفيهم يمثّل نموذجاً حيّاً في هذا المجال، وكمثال على ذلك لاحظوا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص في كتب الحديث:

وصف الامام صادق عليه السلام في لسان العدوّ

في أوائل كتاب توحيد المفضّل نقرأ «روى محمّد بن سنان قال: حدّثني المفضّل بن عمر قال: كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة الشريفة بين القبر والمنبر، وأنا مفكّر فيما

---

١ ـ سورة سبأ: الآية ٢٤.

٢ ـ سورة سبأ: الآية ٢٦.

خصّ الله تعالى به سيّدنا محمّداً صلى الله عليه وآله، من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرّفه وحباه، ممّا لا يعرفه الجمهور من الأُمّة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فإنّي لكذلك إذ أقبل «ابن أبي العوجاء، «رجل ملحد معروف». إلى أن يذكر أحاديث هذا الرجل التي سمعها المفضّل ... إلى أن (قال المفضّل): فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً، فقلت: ياعدوّ الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم وصوّرك في أتمّ صورة، ونقلك في أحوالك حتّى بلغ إلى حيث إنتهيت. فلو تفكّرت في نفسك وصدقك ولطيف حسّك، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده جلّ وتقدّس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة، فقال: ياهذا إن كنت من أهل الكلام كلّمناك فإن ثبتت لك حجّة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمّد الصادق فما هكذا تخاطبنا، ولا بمثل دليلك تجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدّى في جوابنا، وإنّه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا، ويصغي إلينا ويتعرّف حجّتنا، حتّى إذا إستفرغنا ما عندنا، وظننا أنّا قطعناه، دحض حجّتنا بكلام يسير، وخطاب قصير يلزمنا به الحجّة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه»[1].

طريق النفوذ في الآخرين

لا يكفي الأستدلال القوي المتين للنفوذ إلى قلوب الآخرين واكتسابهم بالكلام الحق، فانّ أُسلوب التعامل مع الطرف الآخر وطريقة البحث والمناظرة تترك أعمق الأثر في هذه المرحلة.. فكثيراً ما يتفق أن يوجد أناس مطّلعون ولهم يد طولى في البحوث العلمية الدقيقة، إلّا أنّهم قلّما يوفقون للنفوذ إلى قلوب الآخرين، بسبب عدم معرفتهم بكيفية المجادلة بالتي هي أحسن، وعدم معرفتهم بالبحوث البنّاءة!.

وبتعبير آخر فإنّ النفوذ الى مرحلة الوعي ـ في المخاطب ـ غير كافٍ وحده، بل ينبغي الدخول إلى مرحلة عدم الوعي الذي يمثل القسم الأكبر لروح الإنسان أيضاً.

ويستفاد من مطالعة أحوال الأنبياء، ولا سيما حال النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وأئمّة الهدى عليهم السلام ـ

---

١ ـ توحيد المفضّل ـ أوائل الكتاب.

بصورة جيدة أن هؤلاء العظام سلكوا أحسن سبل الأخلاق الإجتماعية وأسس المعارف النفسية والإنسانية، لأجل تحقيق أهدافهم التبليغية والتربوية!.

وكانت طريقة تعاملهم مع الناس أن يكتسبوهم إليهم بشكلٍ سريع فينجذبوا إليهم، وإن كان بعض الناس يميل إلى أن يضفي على مثل هذه الأُمور ثوب الإعجاز دائماً، إلّا أنّه ليس كذلك، فلو اتبعنا سنتهم وطريقتهم لاستطعنا بسرعة أن نترك في الناس عظيم الأثر، وأن ننفذ إلى أعماق قلوبهم.

والقرآن يخاطب نبيّ الأسلام ﷺ بصراحة فيقول: **﴿ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾**[1] أو كثيراً ما يرى أنّ بعضهم بعد ساعات من الجدال والمناظرة، لا أنه لا يحصل على تقدم في مناقشاته فحسب، بل على العكس يجعل الطرف الآخر متعصباً ومتشدداً فيعقيدته الباطلة بصورة أكثر... وذلك دليل على أنّه لم يتبع أُسلوب المجادلة بالتي هي أحسن.

اسباب فشل المحادثات

الخشونة في البحث، وطلب الإستعلاء، وتحقير الطرف المقابل، وإظهار التكبر والغرور، وعدم احترام أفكار الآخرين، وعدم الجدية في المناقشات والبحوث، كلها من الأُمور التي تبعث على انهزام الإنسان في بحثه، وعدم انتصاره على الطرف الآخر. لذلك فإنّنا نرى في مباحث الأخلاق الإسلامية بحثاً تحت عنوان «تحريم الجدال والمراء» والمراد منه الأبحاث التي لا يطلب من ورائها الحق، بل المراد منها الإستعلاء وإبراز العضلات لا غير!.

وتحريم الجدال والمراء ـ بالإضافة إلى الجوانب المعنوية والإخلاقية ـ إنّما هو لأنّه لا يحصل من ورائهما على نتيجة فكرية ملحوظة.

والجدال والمراء في حرمتهما متقاربان، إلّا أن العلماء من المسلمين جعلوا فرقاً بين كلّ منهما... «فالمراء» معناه إظهار الفضل والكمال، «والجدال» يراد منه تحقير الطرف المقابل!.

وقالوا: إنّ الجدال هي المراحل الهجومية الأُولىٰ في البحث... وأمّا المراء فيراد منه الصدّ الدفاعي في الكلام.

---

١ ـ سورة آل‌عمران: الآية ١٥٩.

كما أنّ هناك قولاً بأن الجدال في المسائل العلمية، أمّا المراء فهو في الأعم منها «وبالطبع فإنه لا تضادّ بين هذه التفاسير جميعاً».

وعلى كل حال، فإنّ الجدال أو البحث مع الآخرين، تارة يقع بالتي هي أحسن، وذلك ما بيّناه بالشرائط المتقدمة آنفاً، وينبغي رعايتها بدقّة. وتارة يكون بغير الأحسن، وذلك في ما لو أهملت الأُمور التي ذكرناها في مستهل كلامنا على الجدال، وجعلت في طيّ النسيان.

ونختتم هذا الكلام بعدة روايات بليغة ونافعة لنتعلم منها:

ففي حديث عن النّبيﷺ أنّه قال: «**لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقاً**»[١].

ونقرأ في حديث آخر أن سليمان النّبيعليه السلام قال لولده «**يا بني إيّاك والمراء، فإنّه ليست فيه منفعة، وهو يهيج بين الأخوان العداوة**»[٢].

---

١ ـ سفينة البحار مادة مرأ.

٢ ـ إحياء العلوم.

٥٤

الصدق والكذب

الصدق والأمانة من علائم الايمان وكمال الإنسان، حتىٰ أنّ دلالتهما علىٰ الإيمان أرقىٰ من دلالة الصلاة.

وروي عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «**لا تنظروا إلىٰ طول ركوع الرجل وسجوده، فإنّ ذلك شيء قد اعتاده ولو تركه استوحش لذلك، ولكنْ انظروا إلىٰ صدق حديثه وأداء أمانته**»[1].

فذكر الصدق مع الأمانة لاشتراكهما في جذر واحد، وما الصدق إلّا الأمانة في الحديث، وما الأمانة إلّا الصدق في العمل.

الكذب منشأ جميع الذنوب

وقد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب..

فعن عليعليه السلام أنّه قال: «**الصدق يهدي إلىٰ البِر والبر يهدي إلى الجنّة**»[2].

وعن الباقرعليه السلام أنّه قال: «**إنّ اللّه عزَّ وجلّ جعل للبشر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب**»[3].

---

١ ـ سفينة البحار، مادة (صدق)، نقلاً عن الكافي.

٢ ـ مشكاة الأنوار للطبرسي، ص ١٥٧.

٣ ـ أصول الكافي: ٢/٢٥٤.

وعن الإمام العسكري عليه السلام أنّه قال: «**جعلت الخبائث كلها في بيت وجعل مفتاحها الكذب**»[١].

فالعلاقة بين الكذب وبقية الذنوب تتلخص في كون الكاذب لا يتمكن من الصدق، لأنّه سيكون موجباً لفضحه، فتراه يتوسّل بالكذب عادةً لتغطية آثار ذنوبه.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الكذب يطلق العنان للإنسان للوقوع في الذنوب، والصدق يحدّه.

وقد جسد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحقيقة بكل وضوح عندما جاءه رجل وقال له: يا رسول اللّه، إنّي لا أُصلي وأرتكب القبائح وأكذب، فأيّها أترك أوّلاً؟.

فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**الكذب**»، فتعهد الرجل للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنْ لا يكذب أبداً.

فلمّا خرج عرضت له نيّة منكر فقال في نفسه: إنْ سألني رسول اللّه غداً عن أمري، ماذا أقول له! فإنْ أنكرت كان كاذباً، وإنْ صدقت جرىٰ عليّ الحد. وهكذا ترك الكذب في جميع أفعاله القبيحة حتىٰ تورّع عنها جميعاً.

ولذا..فترك الكذب طريق لترك الذنوب.

٣ ـ الكذب منشأ للنفاق

لأنّ الصدق يعني تطابق اللسان مع القلب، في حين أن الكذب يعني عدم تطابق اللسان مع القلب، وما النفاق إلّا الإختلاف بين الظاهر والباطن.

والآية (٧٧) من سورة التوبّة تبيّن لنا ذلك بوضوح: ﴿**فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلىٰ يوم يلقونه بما أخلفوا اللّه ما وعدوه وبما كانوا يكذبون**﴾.

٤ ـ لا انسجام بين الكذب والإيمان

روي أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم سُئل: يكون المؤمن جباناً؟ قال: «**نعم**»، قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: «**نعم**»، قيل: يكون كذّاباً؟ قال: «**لا**»[٢].

ذلك لأنّ الكذب من علائم النفاق، وهو لا يتفق مع الإيمان.

---

١ ـ جامع السعادات: ٢/٢٣٣.

٢ ـ جامع السعادات: ٢/٣٢٢.

وبهذا المعنىٰ نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه أشار لهذا المعنىٰ وقال : «**لا يجد العبد طعم الايمان حتى يترك الكذب هزله و جدّه**».[١]

٥ ـ الكذب يرفع الإطمئنان

إنّ وجود الثقة والإطمئنان المتبادل من أهم ما يربط الناس فيما بينهم، والكذب من الأُمور المؤثرة في تفكيك هذه الرابطة لما يشيعه من خيانة وتقلب، ولذلك كان تأكيد الإسلام علىٰ أهمية الإلتزام بالصدق وترك الكذب.

ومن خلال الأحاديث الشريفة نلمس بكل جلاء نهي الأئمّة عليهم السلام عن مصاحبة مجموعة معينة من الناس، منهم الكذّابون لعدم الثقة بهم.

فعن علي عليه السلام أنّه قال: «**إيّاك ومصادقة الكذّاب، فإنّه كالسراب يقرّب عليك البعيد ويبعد عليك القريب**»[٢].

١ ـ مشكاة الانوار : ص ١٥٦.

٢ ـ نهج البلاغة، الكمات القصار، رقم ٣٧.

٥٥

الغيبة

إنّ رأس مال الإنسان المهم في حياته ماءُ وجهه وحيثيّته، وأي شيء يهدّده فكأنّما يهدّد حياته بالخطر.

وأحياناً يعدّ اغتيال وقتل الشخصية أهم من اغتيال الشخص نفسه، ومن هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحياناً.

حكمة تحريم الغيبة

إنّ واحدةً من حِكم تحريم الغيبة أن لا يتعرّض هذا الإعتبار العظيم للأشخاص ورأس المال آنف الذكر لخطر التمزّق والتلوّث وأن لا تهتك حرمة الأشخاص ولا تلوّث حيثيّاتهم، وهذا مطلب مهم تلقّاه الإسلام باهتمام بالغ!

والأمر الآخر إنّ الغيبة تولّد النظرة السيئة وتضعف العلائق الإجتماعية وتوهنها وتتلف رأس مال الإعتماد وتزلزل قواعد التعاون «الإجتماعي»!

ونعرف أنّ الإسلام أولىٰ أهميةً بالغةً من أجل الوحدة والإنسجام والتضامن بين أفراد المجتمع، فكلّ أمر يقوي هذه الوحدة فهو محل قبول الإسلام وتقديره، وما يؤدّي إلىٰ الإخلال بالأواصر الاجتماعية فهو مرفوض، والاغتياب هو أحد عوامل الوهن والتضعيف...

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ الإغتياب ينثر في القلوب بذور الحقد والعداوة وربّما أدّىٰ أحياناً إلىٰ الاقتتال وسفك الدماء في بعض الأحيان.

والخلاصة أنّنا حين نقف علىٰ أنّ الإغتياب يعدّ واحداً من كبائر الذنوب فإنّما هو لآثاره

السيئة فرديةً كانت أم اجتماعية!

وفي الروايات الإسلامية تعابير مثيرة في هذا المجال نورد هنا علىٰ سبيل المثال بعضاً منها!

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأربىٰ الربىٰ عِرض الرجل المسلم**»[١].

وما ذلك إلّا لأنّ الزنا وإن كان قبيحاً وسيئاً، إلّا أنّ فيه جَنبة حق الله، ولكنّ الربا وما هو أشدّ منه كإراقة ماء وجه الإنسان وما إلىٰ ذلك فيه جنبة حق الناس.

آخر من يدخل الجنّة و أوّل من يدخل النار

٢ ـ وقد ورد في رواية أُخرىٰ أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب يوماً بصوت عالٍ ونادىٰ: «**يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه! لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتّبع عورة أخيه تتّبع الله عورته ومن تتّبع الله عورته يفضحه في جوف بيته**»[٢].

٣ ـ كما ورد في حديث ثالث أنّ الله أوحىٰ لموسىٰ عليه السلام قائلاً: «**من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنّة، ومن مات مصرّاً عليه فهو أوّل من يدخل النّار**»[٣].

كما نقرأ حديثاً آخر عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه**»[٤].

وهذا التشبيه يدلُّ علىٰ أنّ الاغتياب كمثل الجَرب الذي يأكل اللحم، فإنّه يذهب بالإيمان بسرعة.

ومع الإلتفات إلىٰ أنّ بواعث الغيبة ودوافعها أمور متعدّدة كالحسد والتكبّر والبخل والحقد والأنانية وأمثالها من صفات دميمة وقبيحة يتّضح السرّ في سبب كون الغيبة وتلويث سمعة المسلمين وهتك حرمتهم لها هذا الأثر المدمّر لإيمان الشخص.

٤ ـ نقل عن الإمام الصادق عليه السلام إذ يقول: «**من روىٰ علىٰ مؤمن روايةً يريد بها شينه وهدم**

---

١ ـ المحجّة البيضاء: ٥/٢٥٣.

٢ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٢.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ أصول الكافي، ج ٢، باب الغيبة، الحديث ١ ـ الآكلة نوع من الأمراض الجلدية.

مروّته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلىٰ ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»[١].

إنّ جميع هذه التأكيدات والعبارات المثيرة إنّما هي للأهمية القصوىٰ التي يوليها الإسلام لصون ماء الوجه وحيثيّة المؤمنين الإجتماعية، وكذلك للأثر المخرّب ـ الذي تتركه الغيبة ـ في وحدة المجتمع والإعتماد المتبادل في القلوب، وأسوأ من كل ذلك أنت الغيبة تسوق إلىٰ إشعال نار العداوة والبغضاء والنفاق وإشاعة الفحشاء في المجتمع. لأنّه حين تنكشف عيوب الناس الخفيّة عن طريق الغيبة لا تبقىٰ لها خطورة في أعين الناس ويكون التلوّث بها في غاية البساطة!

مفهوم الإغتياب

«الغيبة» أو الإغتياب كما هو ظاهر الاسم ما يقال في غياب الشخص، غاية ما في الأمر أنّه بقوله هذا يكشف عيباً من عيوب الناس. سواءاًكان عيباً جسدياً أو أخلاقيّاً أو في الأعمال أو في المقال بل حتىٰ في الأومور المتعلّقة به كاللباس والبيت والزوج والأبناء وما إلىٰ ذلك!

فبناءً علىٰ هذا ما يقال عن الصفات الظاهرة للشخص، الآخر لا يُعدّ اغتياباً، إلّا أن يراد منه الذم والعيب فهو في هذه الصورة حرام، كما لو قيل في مقام الذم أنّ فلاناً أعمىٰ أو أعور أو قصير القامة أو شديد الأدمة والسمرةأكوس اللحية إلخ...

فيتّضح من هذا أنّ ذكر العيوب الخفية بأي قصد كان يعدّ غيبةً وهو حرام أيضاً، وذكر العيوب الظاهرة إذا كان بقصد الذم فهو حرام، سواءً أدخلناه في مفهوم الغيبة أم لا؟!

كل هذا في ما لو كانت هذه العيوب في الطرف الآخر واقعية، أمّا إذا لم تكن أصلاً فتدخل تحت عنوان «البهتان» وإثمه أشدّ من الإغتياب بمراتب.

ففي حديث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وأمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحدّة والعجلة فلا، والبهتان أن تقول ما ليس فيه»**[٢].

ومن هنا يتبيّن أنّ ما يتبجّح به العوام من أعذار في الغيبة غير مقبول كأن يقول المغتاب:

---

١ ـ وسائل الشيعة: ٦٠٨/٨، الباب ١٥٧، الحديث ٢.

٢ ـ أصول الكافي، ج ٢، باب الغيبة والبهت، الحديث ٧.

ليس هذا اغتياباً بل هو صفته، في حين إذا لم يكن قوله الذي يعيبه فيه صفة له فهو بهتان لا أنّه غيبة.

أو أن يقول: هذا كلام أقوله في حضوره أيضاً، في حين أنّ كلامه أمام الطرف الآخـر لا يترتّب عليه إثم الاغتياب فحسب، بل يتحمّل بسبب الإيذاء إثماً أكبر ووزراً أثقل.

علاج الغيبة والتوبة منها!

إنّ الغيبة كسائر الصفات الذميمة تتحوّل تدريجاً إلىٰ صورة مرض نفسي بـحيث يـلتذ المغتاب من فعله ويحس بالاغتباط والرضا عندما يريق ماء وجه فلان، وهذه مرتبة مـن مراتب المرض القلبي الخطير جداً.

ومن هنا فينبغي علىٰ المغتاب أن يسعىٰ إلىٰ علاج البواعث الداخلية للإغتياب التي تكمن في أعماق روحه وتحضّه علىٰ هذا الذنب، من قـبيل البـخل والحسـد والحـقد والعـداوة والإستعلاء والأنانية!

فعليه أن يطهّر نفسه عن طريق بناء الشخصية والتفكير في العواقب السيئة لهذه الصفات الذميمة وما ينتج عنها من نتائج مشؤومة، ويغسل قلبه عن طريق الرياضة النفسية ليستطيع أن يحفظ لسانه من التلوّث بالغيبة.

ثمّ يتوجّه إلىٰ مقام التوبة، وحيث أنّ التوبة من الغيبة فيها «جنبة» حق الناس، فإنّ عليه إذا كان ممكناً ولا يحصل له أيّ مشكل أو معضل ـ أن يعتذر ممّن اغتابه حتىٰ ولو بصورة مجملة أو معمّاة كأن يقول: إنّني أغتابك أحياناً لجهلي فسامحني واعفُ عني ولا يطيل في بيان الغيبة وشرحها لئلّا يحدث عامل آخر للفساد أو الإفساد!

وإذا لم يستطع الوصول إلىٰ الطرف الآخر، أو لا يعرفه، أو أنّه مضىٰ إلىٰ ربّه فـيستغفر له ويعمل صالحاً، فلعلّ الله يغفر له ببركة العمل الصالح ويرضي عنه الطرف الآخر.

موارد الإستثناء!

وآخر ما ينبغي ذكره في شأن الغيبة أنّ قانون الغيبة كأي قانون آخر له استثناءات، مـن جُملتها أنّه يتّفق أحياناً في مقام «الإستشارة» مثلاً لإنتخاب الزوج أو الشريك في الكسب وما إلىٰ ذلك أن يسأل إنسان أنساناً آخر، فالأمانة في المشورة التي هي قانون إسلامي مسلّم به

توجب أن تبيّن العيوب إن وجدت في الشخص الآخر لئلّا يتورّط المسلم في مشكلة، فمثلُ هذا الإغتياب بمثل هذا القصد لا يكون حراماً.

وكذلك في الموارد الأُخرىٰ التي فيها أهداف مهمّة كهدف المشورة في العمل أو لإحقاق الحق أو التظلّم وما إلىٰ ذلك.

وبالطبع فإنّ «المتجاهر بالفسق» خارج عن موضوع الغيبة، ولو ذكر إثمه في غيابه فلا إثم علىٰ مغتابه، إلّا أنّه ينبغي الإلتفات إلىٰ أنّ هذا الحكم خاص بالذنب الذي يتجاهر به فحسب.

وممّا يسترعي الإلتفات أيضاً هو أنّ الغيبة ليست حراماً فحسب، فالإستماع إليها حرام أيضاً، والحضور في مجلس الإغتياب حرام، بل يجب طبقاً لبعض الروايات أن يردّ علىٰ المغتاب، يعني أن يدافع عن أخيه المسلم الذي يراد إراقة ماء وجهه، وما أحسن مجتمعاً تُراعىٰ فيه هذه الأُصول الأخلاقية بدقّة!

٥٦

البهتان

إنّ ذكر العيوب الخفية بأي قصد كان يعدّ غيبةً وهو حرام أيضاً، وذكر العيوب الظاهرة إذا كان بقصد الذم فهو حرام، سواءً أدخلناه في مفهوم الغيبة أم لا؟!

كل هذا في ما لو كانت هذه العيوب في الطرف الآخر واقعية، أمّا إذا لم تكن أصلاً فتدخل تحت عنوان «البهتان» وإثمه أشدّ من الاغتياب بمراتب.

ففي حديث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وأمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحدّة والعجلة فلا، والبهتان أن تقول ما ليس فيه»**[١].

اثقل من الجبال

إنّ اتهام إنسان بريء يعتبر من أقبح الأعمال التي أدانها الإسلام بعنف.

ينقل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام عن أحد الحكماء أنّه قال: **«أن البهتان على البريء أثقل من جبال راسيات»**[٢] ونقل عنه عليه السلام قوله: **«إذا أتهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء»** أي أن الإيمان يذوب ويزول من قلب المؤمن بسبب إتهامه لأخيه المؤمن، كما يذوب الملح في الماء ويزول عن النظر[٣].

فالتهمة والبهتان ـ في الحقيقة ـ هما أقبح أنواع الكذب، لأنّهما بالإضافة إلى احتوائهما

١ ـ أصول الكافي، ج ٢، باب الغيبة والبهت، الحديث ٧.

٢ ـ سفينة البحار، الجزء الأوّل، في مادة بهت.

٣ ـ أصول الكافي: ٢/٢٦٩، باب التهمة وسوء الظن.

لمفاسد الكذب، فإنّهما أيضاً يحملان أضرار الغيبة، وهما كذلك من أسوأ أنواع الظلم والجور ولهذا السبب يقول صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الخصوص: **«من بهت مؤمناً أو مؤمنة أو قال فيهما ما ليس فيهما أقامه الله تعالى يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج ممّا قاله»**[١].

وحقيقة الأمر أن إشاعة مثل هذا العمل الجبان ـ في أي محيط إنساني كان ـ يؤدي في النهاية إلى إنهيار نظام العدالة الإجتماعية، واختلاط الحق بالباطل، وتورط البريء وتبرئة المذنب، وزوال الثقة من بين الناس.

١ ـ سفينة البحار: ١/١١١ مادة (بهت).

٥٧

النميمة

نقرأ في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ألا أُنبئّكم بشراركم؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: المشّاءون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباعثون للبرءاء المعايب»[(١)].

لقد كان رسول الله ﷺ يؤكّد كثيراً على البناء الأخلاقي للشخصية الإسلامية، حتّى أنّه قال: «لا يبلّغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإنّي أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[(٢)].

---

١ ـ أُصول الكافي، ج ٢، باب النميمة / حديث رقم ١.

٢ ـ (سنن أبي داود) أو (صحيح الترمذي) مطابقاً لما نقل تفسير في ظلال القرآن: ٨/٢٣٠.

٥٨

اشاعة الفحشاء

بما أن الإنسان مخلوق إجتماعي، فالمجتمع البشري الذي يعيش فيه لَهُ حُرْمة يجب أن لا تقِلَّ عَنْ حرْمتِهِ الشخصيَّةِ، وطهارةُ كِلِّ مِنْهُما تُساعِدُ في طهارةِ الآخر، وقبح كلٍّ منهما يسري إلىٰ صاحِبه. وبموجب هذا المبدأ كافح الإسلام بشدّة كُلَّ عمل ينشر السموم في المجتمع، أو يدفعه نحو الهاوية والإنحطاط.

ولهذا السبب حارب الإسلام ـ بقوة ـ الغيبة والنميمة، لأن الغيبة تكشف العيوب الخفية، وتسيء إلى حرمة المجتمع.

أوجب الإسلام ستر العيوب والسبب في ذلك هو ما تقدم من الحيلولة دون انتشار الذنوب في المجتمع، واكتسابها طابع العمومية والشمول.

وعندما نرىٰ اختصاص الذنب العلني بأهمية أكثر من الذنب الذي يرتكب في الخفاء، حتى أن الإمام علي بن موسىٰ الرضاعليه السلام قال:

«المذيع بالسيئة مخذول والمستتر بالسيئة مغفور له»[1]. فالسبب هو ماذكرنا.

وهكذا لنفس السبب يدين القرآن ـ بشدّة ـ ارتكاب الذنوب في العلن، كإشاعة الفحشاء التي ذكرتها الآيات السابقة فارتكاب الذنوب كالنار التي تسري في الهشيم، تأتي علىٰ المجتمع مِن أساسه فتنخُره حتى تَهْدِمَهُ وَتَذْروهُ، لهذا يجب الإسراع لإطفاء هذه النار، أو لمحاصرتها على الأقل. أمّا إذا زدنا النار لهيباً، ونقلناها من مكان إلى آخر، فإنّها ستحرق

١ ـ أصول الكافي، المجلد الثاني، باب ستر العيوب.

الجميع، ولا يمكن بَعْدَئذٍ إطفاؤُها أو السيطرة عليها.

وإضافة إلى ذلك، فإنّه لو عظم الذنب في نظر عامّة الناس، وتمّت المحافظة على سلامة ظاهر المجتمع من التلوث والفساد، فإن ذلك يمنع انتشار الفاحشة بصورة مؤكدة. أمّا اشاعة الفحشاء والذنوب والتجاهر بالفسق، فمن نشأنها أن تحطم هذا السد الحاجز للفساد. ويستصغر شأن الذنوب من قبل الناس، ويسهل التورط فيها.

وقد جاء في حديث للرسول الأكرمﷺ قوله «**من أذاع فاحشة كان كمبتدئها**»[١].

إن شهد عندك خمسون قسامة

وجاء في حديث آخر عن محمد بن الفضيل الإمام موسى بن جعفرعليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك الرجل من اخواني بلغني عنه الشيء الذي اكرهه فاسأله عنه فينكر ذلك وقد أخبرني عنه قوم ثقات؟ فقال الإمامعليه السلام لي: «**يا محمّد كذب سمعك وبصرك عن أخيك، وإن شهد عندك خمسون قسامة. وقال لك قول فصدقه وكذبهم، ولا تذيعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروءته، فتكون من الذين قال الله عزّوجلّ: ﴿إن الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾**»[٢][٣].

وممّا يلزم ذكره أنّ لإشاعة الفحشاء صوراً عديدةً فتارة يكون من قبيل افتعال تهمةٍ كاذبةٍ ونَقلِها بين الناس.

واخرىٰ يكون بانشاء مراكِزَ للفساد ونشر الفحشاء.

وثالثة بتوفير وسائل المعصية للناس، أو تشجيعهم على ارتكاب الذنوب.

ورابعة يرتكب الذنب في العلن دون ملاحظة الدين، ولا رعايةٍ لقانونٍ ولا التفاتٍ لآدابٍ عامّة، وكل هذه مصاديق لإشاعة الفحشاء. لانّ لهذه الكلمة مفهوماً واسعاً.

---

١ ـ أصول الكافي، المجلد الثاني، باب القبح.

٢ ـ كتاب ثواب الأعمال، حسبما ذكره تفسير نور الثقلين: ٥٨٢/٣.

٣ ـ لهذه القضية استثناءات، منها موضوع الشهادة في المحكمة، أو حالات النهي عن المنكر حيث لا سبيل إلّا بكشف العمل القبيح الذي يرتكبه شخص ما والشهادة ضده.

العين

استقبل شاب من الأنصار أمرأة بالمدينة وكان النساء يقنعن خلف آذانهن، فنظر إليها وهي مقبلة، فلمّا جازت نظر إليها ودخل زقاق قد سمّاه يعني فلان، فجعل ينظر خلفها واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه، فلمّا مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره، فقال: والله لاتين رسول الله ﷺ ولأخبرنّه، قال: فآتاه فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال له: ما هذا فأخبره، مهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآية: **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكىٰ لهم أن الله خبير بما يصنعون﴾**.[١]

إنّ الله سبحانه و تعالىٰ يقول:

﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[٢].

وعندما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنىٰ الآية فأجاب: **«ألم تر إلىٰ الرجل ينظر إلى الشيء وكأنّه لا ينظر إليه، فذلك خائنة الأعين»**[٣]. أي يوهم أنّه لا ينظر إليه.

قد يتطاول البعض بنظره إلىٰ أعراض الناس وإلى ما يحرم النظر إليه، وقد يستطيع الفاعل أن يخفي فعلته عن الآخرين، لكن ذلك لايخفىٰ عن علم الله المحيط بكل ذرات الوجود إذ:

---

١ ـ وسائل الشيعة: ٣٩/١٤، تفسير نور الثقلين، وتفسير الميزان، وتفسير روح المعاني مع بعض الإختلاف في تفسير الآية ٣١ ـ ٣٠ من سورة النور.

٢ ـ سورة مؤمن (غافر): الآية ٢٠.

٣ ـ تفسير الصافي أثناء الحديث عن الآيات ٢٠ ـ ١٨ من سورة المؤمن.

﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض﴾[١].

وقد روي أنّه (لماجيء بعبد الله بن أبي سرح إلىٰ رسول الله ﷺ بعد ما اطمأن أهل مكّة وطلب له الأمان عثمان صمت رسول الله طويلاً ثمّ قال (نعم) فلما انصرف قال رسول الله لمن حوله: «ما صمت طويلاً إلّا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجلٌ من الأنصار: فهلا أومأت إليّ يا رسول الله، فقال: «إن النّبي لا تكون له خائنة الأعين»[٢].

وبالطبع فإنّ لخيانة العين أشكال مختلفة، إذ تتمثل في بعض الأحيان باستراق النظر إلىٰ ما يحرم كالنساء وغيرهن، وأحياناً تتمثل بإشارات معينة للعين تهدف تحقير الآخرين والإستهزاء بكلامهم. وقد تكون حركات العين مقدمة لمخططات شيطانية ضدّ الآخرين.

عقاب من يتلصّص علىٰ منازل الناس

جاء في كتب الفقه والحديث. إذا تلصّص شخص علىٰ داخل منزل وشاهد امرأة فيه لم تتحجب، فلاهل الدار أوّلاً نهيهُ عن هذا العمل، وإن امتنع رموه بالحجارة. وإن عاود، فبامكانهم الدفاع عن أعراضهم بآلة جارحة، فلو قُتل هذا الشخص في هذه الحالة فدمه هدر ولا ديّة له.

وطبيعي أنّه لابدّ من تتبع هذه الخطوات أوّلاً بأول. أي: عليهم أوّلاً إتباع السبيل اليسير لمنعه، ثمّ اتباع أُسلوب العنف.

---

١ ـ سورة سبأ: الآية ٣.

٢ ـ تفسير القرطبي ذيل الآية.

٦٥

العفو و الصفح

يقول سبحانه و تعالىٰ في وصف المتقين :

١ ـ أنّهم قادرون على السيطرة على غضبهم : ﴿والكاظمين الغيظ﴾.

حالات الغيظ والغضب من أخطر الحالات التي تعتري الإنسان، ولو تركت وشأنها دون كبح لتحولت إلى نوع من الجنون الذي يفقد الإنسان معه السيطرة على أعصابه وتصرفاته وردود فعله.

ولهذا فإن أكثر ما يقترفه الإنسان من جرائم وأخطاء وأخطرها على حياته هي التي تحصل في هذه الحالة، ولهذا تجعل الآية «كظم الغيظ» و «كبح جماح الغضب» الصفة البارزة الثانية من صفات المتقين.

قال النبي الأكرم ﷺ «من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً».

وهذا الحديث يفيد أن كظم الغيظ له أثر كبير في تكامل الإنسان معنوياً، وفي تقوية روح الإيمان لديه.

٢ ـ أنّهم يصفحون عمن ظلمهم ﴿والعافين عن الناس﴾.

إن كظم الغيظ أمر حسن جداً، إلّا أنه غير كاف لوحده، إذ من الممكن أن لا يقلع ذلك جذور العداء من قلب المرء، فلابدّ للتخلص من هذه الجذور والرواسب أن يقرن «كظم الغيظ» بخطوة أُخرى وهي «العفو والصفح» ولهذا أردفت صفة «الكظم للغيظ» التي هي بدورها من

أنبل الصفات بمسألة العفو.

ثمّ إنّ المراد هو العفو والصفح عمّن يستحقون العفو، لا الأعداء المجرمون الذين يحملهم العفو والصفح على مزيد من الإجرام، وينتهي بهم إلى الجرأة أكثر.

٣ ـ أنهم محسنون: ﴿والله يحب المحسنين﴾[1].

وهنا إشارة إلى مرحلة أعلى من «العفو والصفح» وبهذا يرتقي المتقون من درجة إلى أعلى في سلّم التكامل المعنوي.

وهذه السلسلة التكاملية هي أن لا يكتفي الإنسان تجاه الإساءة إليه بكظم الغيظ بل يعفو ويصفح عن المسيء ليغسل بذلك آثار العداء عن قلبه، بل يعمد إلى القضاء على جذور العداء في فؤاد خصمه المسيء إليه أيضاً، وذلك بالإحسان إليه، وبذلك يكسب وده وحبه، ويمنع من تكرار الإساءة إليه في مستقبل الزمان.

وخلاصة القول أن القرآن يأمر المسلم بأن يكظم غيظه أولاً ثمّ يطهر قلبه بالعفو عنه، ثمّ يطهر فؤاد خصمه من كلّ رواسب الضغينة وبقايا العداء بالإحسان إليه.

إنه تدرج عظيم من صفة إنسانية خيّرة إلى صفة إنسانية أعلى هي قمة الخلق وذروة الكمال المعنوي.

قصّة من الإمام زين العابدين عليه السلام

ولقد روي في المصادر الشيعية والسنية في ذيل هذه الآية أن جارية لعلي بن الحسين جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية: إن الله تعالى يقول: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي. قالت: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: «قد عفوت وقد عفى الله عنك» قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله[2].

إن هذا الحديث شاهد حي بأن كلّ مرحلة متأخرة من تلك المراحل أفضل من المرحلة المتقدمة.

---

١ ـ سورة آل‌عمران: الآية ١٣٤.

٢ ـ راجع تفسير الدر المنثور، وتفسير نور الثقلين في ذيل الآية ١٣٤ من سورة آل‌عمران.

الذين اجرهم على الله

وقد ورد في حديث عن الرّسول الأكرمﷺ أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان أجره على الله فليدخل الجنّة، فيقال: من ذا الذي أجره على الله؟ فيقال: العافون عن الناس، فيدخلون الجنّة بغير حساب»[1].

١ ـ تفسير مجمع البيان ـ نهاية الآية ٣٧ من سورة الشورىٰ.

٦١

الصدقه و الإنفاق

من المشكلات الإجتماعية الكبرىٰ التي يعاني منها الإنسان دوماً ولازال يعاني رغم كلّ ما حقّقه البشر من تقدّم صناعي ومادّي هي مشكلة التباين الطبقي المتمثّلة بالفقر المدقع في جانب، وتراكم الثروة في جانب آخر.

إنّك لترىٰ بعضهم يكتنز من الثروة بحيث إنّه لا يستطيع أن يحصيها، وترى بعضهم من الفقر في عذاب ممض بحيث لا يستطيع أن يجد حتّى الضروريّ اللازم لحياته كالحدّ الأدنىٰ من الغذاء والملبس والمأوىٰ.

لاشكّ أنّ المجتمع الذي يقوم قسم من بنيانه على الغنى الفاحش، والقسم الأعظم على الفقر المدقع والجوع القاتل، لا دوام له، ولن يصل إلى السعادة الحقيقة أبداً، إنّ مجتمعاً كهذا يسوده حتماً الهلع والإضطراب والقلق والخوف وسوء الظن، ومن ثمّ العداء والصراع.

هذا التباين الطبقي الذي كان موجوداً في القديم قد تفشّىٰ فينا اليوم ـ مع الأسف ـ بأكثر وأخطر ممّا سبق، ذلك لأنك تجد أبواب التعاون الإنساني الحقيقي قد أُغلقت بوجوه الناس، وفُتحت بمكانها أبواب الربا الفاحش الذي هو من أهمّ أسباب اتساع الهوة الطبقية بين الناس، ولا أدلّ على ذلك من ظهور الشيوعية وأمثالها، وإراقة الدماء في أنواع الحروب المروعة التي اندلعت في قرننا الأخير وما زالت مندلعة هنا وهناك في أنحاء مختلفة من العالم، ومعظمها ذات منشأ اقتصادي وردّ فعلٍ لحرمان أكثرية شعوب العالم.

وقد سعى العلماء والمذاهب الإقتصادية في العالم للبحث عن علاج، واختار كلّ طريقاً، فالشيوعية اختارت إلغاء الملكية الفردية، والرأسمالية اختارت طريق استيفاء الضرائب

الثقيلة وإنشاء المؤسّسات الخيرية العامّة (وهي شكلية أكثر من كونها حلاً لمشكلة الطبقية)،ظانّين أنّهم بذلك يكافحون هذه المشكلة، لكن أيّاً من هؤلاء لم يستطع في الحقيقة أن يخطو خطوة فعّالة في هذا السبيل، وذلك لأنّ حلّ هذه المشكلة غير ممكن ضمن الروح المادّية التي تسيطر على العالم.

بالتدقيق في احكام الدين يتّضح أنّ واحداً من الأهداف التي يسعىٰ لها الإسلام هو إزالة هذه الفوارق غير العادلة الناشئة من الظلم الإجتماعي بين الطبقتين الغنية والفقيرة، ورفع مستوى معيشة الذين لا يستطيعون رفع حاجاتهم الحياتية ولا توفير حدّ أدنىٰ من متطلّباتهم اليومية دون مساعدة الآخرين. وللوصول إلى هذا الهدف وضع الإسلام برنامجاً واسعاً يتمثّل بتحريم الربا مطلقاً، وبوجوب دفع الضرائب الإسلامية كالزكاة والخُمس، والحثّ على الإنفاق، وقرض الحسنة، والمساعدات المالية المختلفة، وأهمّ من هذا كلّه هو إحياء روح الأخوّة الإنسانية في الناس.

الإنفاق المقبول

القرآن يبيّن شرائط الانفاق المقبول ويقول:

﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذىٰ لهم اجرهم عند ربّهم﴾[1].

يستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ الإنفاق في سبيل الله لا يكون مقبولاً عند الله تعالىٰ إذا تبعته المنّة وما يوجب الأذىٰ والألم للمعوزين والمحتاجين، وعليه فإنّ من ينفق ماله في سبيل الله ولكنّه يمنّ به على من ينفق عليه، أو ينفقه بشكلٍ يوجب الأذىٰ للآخرين فإنّه في الحقيقة يحبط ثوابه وأجره بعمله هذا.

إنّ ما يثير الإهتمام أكثر في هذه الآية هو أنّ القرآن لايعتبر رأسمال الإنسان في الحياة مقتصراً على رأس المال المادّي، بل يحسب حساب رؤوس الأموال المعنوية والإجتماعية أيضاً.

إنّ من يعطي شيئاً لأحد ويمنّ عليه بِهِ أو يقوم بما يثير الألم في نفس المعطي له ويجرح

١ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٢.

عواطفه فإنّه لا يكون قد أعطاه شيئاً في الواقع، لأنّه إذا كان قد أعطاه رأسمال، فإنّه قد أخذ منه رأسمال أيضاً، بل لعلّ المنّة التي يمنّ بها عليه ونظرة التحقير التي ينظر بها إليه ذات أضرار باهضة يفوق ثمنها ما أنفقه من مال.

إذا لم ينل أمثال هؤلاء الأشخاص أيّ ثواب على إنفاقهم هذا فهو أمر طبيعي وعادل. وقد يصحّ القول إنّ هؤلاء في كثير من الأحوال هم المدينون لا الدائنون لأنّ كرامة الإنسان أغلىٰ بكثير من أيّ مال وثروة.

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قال: «**من أسدىٰ إلى مؤمن معروفاً ثمّ آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل صدقته**»[1].

قول معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من ...

إنّ الكلمة الطيّبة للسائلين والمحتاجين والصفح عن أذاهم أفضل من الصدقة التي يتبعها الأذىٰ ﴿قولٌ معروفٌ ومغفرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً﴾[2].

تبيّن هذه الآية منطق الإسلام في قيمة الأشخاص الإجتماعيّة وكرامتهم، وترى أن أعمال الذين يسعون في حفظ رؤوس الأموال الإنسانية، ويعاملون المحتاجين باللطف ويقدّمون لهم التوجيه اللازم، ولا يفشون أسرارهم، أفضل وأرفع من إنفاق أُولئك الأنانيّين ذوي النظرة الضيّقة الذين إذا قدّموا عوناً صغيراً يتبعونه تجريح الناس المحترمين وتحطيم شخصيّاتهم.

في الحقيقة إنّ أمثال هؤلاء الأشخاص ضررهم أكثر من نفعهم، فهم إذا أعطوا ثروة عرضوا ثروات للإبادة والضياع.

«المغفرة» بمعنى العفو بإزاء خشونة المحتاجين، أُولئك الذين طفح كيل صبرهم بسبب تراكم الإبتلاءات عليهم، فتزلّ ألسنتهم أحياناً بالخشن من القول ممّا لا يودُونه قلبياً.

هؤلاء بعنفهم هذا إنّما يريدون أن ينتقموا من المجتمع الذي ظلمهم وغمط حقوقهم، فأقلّ ما يمكن للاشخاص الأثرياء في مقابل حرمان هؤلاء المحرومين هو أن يتحمّلوا منهم اندفاعاتهم اللفظية التي هي شرر النار التي تستعر في قلوبهم فتنطلق على ألسنتهم.

---

١ ـ تفسير البرهان: ٢٥٣/١.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٣.

لاشكّ أنّ تحمّل عنفهم وخشونتهم والعفو عنها يخفّف عنهم ضغط عُقدِهم النفسية، وبهذا تتّضح أكثر أهميّة هذه الأوامر الإلهيّة.

دواعي الإنفاق في مثالين

يضرب القرآن مثلاً للإنفاق المقترن بالمنّ والأذى، ومثلاً آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص والعواطف الإنسانية.

يقول تعالىٰ في المثال الأوّل: **﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذىٰ كالذي ينفق ماله رئاء النّاس و لا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون علىٰ شيء ممّا كسبوا﴾**[١].

تصوّر قطعة حجر صلد تغطّيه طبقه خفيفة من التراب، وقد وضعت في هذا التراب بذور سليمة، ثمّ عرّض الجميع للهواء الطلق وأشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئاً سوى اكتساح التراب والبذور وبعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته وصلابته التي لا تنفذ فيها الجذور، وهذا ليس لأنّ أشعة الشمس والهواء الطلق والمطر كان لها تأثير سيء، بل لأنّ البذر لم يزرع في المكان المناسب، ظاهر حسن وباطن خشن لا يسمح بالنفوذ إليه. قشرة خارجية من التربة لا تعين على نموّ النبات الذي يتطلّب الوصول إلى الأعماق لتتغذّى الجذور.

ويشبّه القرآن الإنفاق الذي يصاحبه الرياء والمنّة والأذى بتلك الطبقة الخفيفة من التربة التي تغطّي الصخرة الصلدة والتي لا نفع فيها، بل أنّها بمظهرها تخدع الزارع وتذهب بأتعابه أدراج الرياح.

ما أجمل تمثيلاً

في الآية التالية نقرأ مثالاً جميلاً آخر يقع في النقطة المقابلة لهذه الطائفة من المنفقين، وهؤلاء هم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بدافع من الإيمان والإخلاص فتقول الآية:

﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم إبتغاء مرضات الله و تثبيتاً من انفسهم كمثل جنّة بربوة اصابها

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل﴾[١].

تصوّر هذه الآية مزرعة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل لنسيم الطلق وأشعة الشمس الوافرة والمطر الكثير النافع،وإذا لم يهطل المطر ينزل الطلّ وهو المطر الخفيف وذرّات الهباب ليحافظ على طراوة المزرعة ولطافتها، فتكون النتيجة أنّ مزرعة كهذه تعطي ضعف ما تعطي المزارع الأُخرى، فهذه الأرض فضلاً عن كونها خصبة بحيث يكفيها الطلّ والمطر الخفيف ناهيك عن المطر الغزير لأيناع حاصلها، وفضلاً عن كونها تستفيد كثيراً من الهواء الطلق وإشعّة الشمس وتلفت الأنظار لجمالها، فإنّها لوقوعها على مرتفع تكون في مأمن من السيول.

فالآية الشريفة تريد أن تقول: إنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لتمكّن الإيمان واليقين في قلوبهم وأرواحهم هم أشبه بتلك المزرعة ذات الحاصل الوافر المفيد والثمين.

المثال الثالث في تجسيد دواعي الإنفاق

هنا يضرب القرآن مثلاً آخر يبيّن حاجة الإنسان الشديدة إلى الأعمال الصالحات يوم القيامة، وكيف أنّ الرياء والمنّ والأذىٰ تؤثّر على الأعمال الصالحات فتزيل بركتها.

يتجسّد هذا التمثيل في صاحب مزرعة مخضرة ذات أشجار متنوّعة كالنخيل والأعناب، وتجري فيها المياه بحيث لا تتطلّب السقي، لكن السنون نالت من صاحبها وتحلّق حوله أبناؤه الضعفاء، وليس ثمّة ما يقيم أودهم سوى هذه المزرعة، فإذا جفّت فلن يقدر هو ولا أبناؤه على إحيائها، وفجأةً تهبّ عاصفة محرقة فتحرقها وتبيدها.في هذه الحالة ترىٰ كيف يكون حال هذا العجوز الهرم الذي لا يقوىٰ على الإرتزاق وتأمين معيشته ومعيشة أبنائه الضعفاء ؟ وما أعظم أحزانه وحسراته !.

﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار فيها من كل الثمرات وأصابه الكبرُ وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت...[٢]﴾.

إنّ حال أُولئك الذين يعملون عملاً صالحاً ثمّ يحبطونه بالرياء والمنّ والأذىٰ أشبه بحال

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٥.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٦.

من تعب وعانىٰ كثيراً حتّى إذاحان وقت اقتطاف النتيجة ذهب كلّ شيء ولم يبق سوى الحسرات والآهات.

هذه الأمثلة بالتوالي كلّ واحدة منها تدلّ على الأمور الزراعية اللطيفة، لأن هذه الآيات لم تنزل على أهل المدينة الذين كانوا زرّاعاً فحسب، بل أنها نزلت على جميع الناس، على أية حال كانت الزراعة تشكل جانباً من حياتهم.

آداب الانفاق

جاء في تفسير «مجمع البيان» عن رسول الله ﷺ حديثاً يبيّن جانباً من آداب الانفاق حيث يقول: «**إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتّى يفرغ منها، ثمّ ردّوا عليه بوقار ولين إمّا ببذل يسير أو ردّ جميل، فإنّه قد يأتيكم من ليس بإنسٍ ولا جانٍ ينظرونكم كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله تعالى**»[١].

من أي مال يجب أن ينفق

يقول سبحانه و تعالىٰ: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا انفقوا من طيّبات ما كسبتم و ممّا اخرجنا لكم من الارض و لاتيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلّا أن تغمضوا فيه واعلموا أنّ الله غنيّ حميد**﴾[٢].

اعتاد معظم الناس أن ينفقوا من فضول أموالهم التي لا قيمة لها أو الساقطة التي لم تعد تنفعهم في شيء. إنّ هذا النوع من الإنفاق لا هو يربّي روح المنفق، ولاهو يرتق فتقاً لمحتاج، بل لعلّه إهانة له وتحقير. فجاءت هذه الآية تنهي بصراحة عن هذا وتقول للناس: كيف تنفقون مثل هذا المال الذي لا تقبلونه أنتم إذا عرض عليكم إلّا إذا اضطررتم إلى قبوله؟ أترون إخوانكم المسلمين، بل أترون الله الذي في سبيله تنفقون أقلّ شأناً منكم؟

اهانة الفقير أو الله عزّوجلّ

الآية تشير في الواقع إلى فكرة عميقة وهي أنّ للإنفاق في سبيل الله طرفين، فالمحتاجون

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ١/٣٧٥، تفسير نورالثقلين: ١/٢٨٣.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٧.

في طرف، والله في طرف آخر. فإذا اختير المال المنفق من زهيد الأشياء ففي ذلك إهانة لمقام الله العزيز الذي لم يجده المنفق جديراً بطيّبات ما عنده كما هو إهانة للذين يحتاجونه، وهم ربما يكونون من ذوي الدرجات الإيمانية السامية، وعندئذٍ يسبّب لهم هذا المال الرديء الألم والعذاب النفسي.

ونظير هذه الآية ما جاء في سورة آل‌عمران حيث يقول: ﴿**لن تنالوا البرّ حتىٰ تنفقوا ممّا تحبون**﴾[1].

لاشكّ أنّ الإنفاق في سبيل الله هو من أجل نيل القرب من ساحته المقدّسة، وعندما يريد الناس التقرّب إلى السلاطين وأصحاب النفوذ فإنّهم يقدّمون إليهم هدايا من أفضل أموالهم وأحسن ثرواتهم، في حين أنّ هؤلاء السلاطين أناسٌ مثلهم فكيف يتقرّب الإنسان إلى ربّه وخالقه وربّ السموات والأرض لتقديم بعض أمواله الدنيئة كهديّة؟! فما نرىٰ في الأحكام الشرعيّة من وجوب كون الزكاة وحتّى الهديّ في الحجّ من المرغوب والجيّد يدخل في دائرة هذا الإعتبار. وعلى كلّ حال يجب الإلتزام ونشر هذه الثقافة القرآنية بين صفوف المسلمين في إنفاقهم الجيّد من الأموال.

وعلى هذا فإن للوصول إلى مراتب الأبرار الحقيقيين شروطاً عديدة، منها: لإنفاق ممّا يحبه الإنسان من الأموال، لأن الحبّ الواقعي لله، والتعلّق بالقيم الأخلاقية والإنسانية إنما يتضح ويثبت إذا انتهى المرء إلى مفترق طريقين، وواجه خيارين لا ثالث لهما، ويقع في أحد الجانبين الثروة، أو المنصب، والمكانة المحببة لديه، وفي الجانب الآخر رضا الله والحقيقة والعواطف الإنسانية وفعل الخير، ويتعين عليه أن يختار أحدهما ويضحي بالآخر، ويتغاضى عنه.

فإذا غض نظره عن الأول لحساب الثاني أثبت صدق نيته، وبرهن على حبه، وعلى واقعيته في ولائه وانتمائه.

وإذا اقتصر ـ في هذا السبيل ـ على إنفاق الحقير القليل، وبذل ما لايحبه ويهواه، فإنه يكون بذلك قد برهن على قصوره في الإيمان والمحبة، والتعلّق المعنوي عن تلك المرتبة

١ ـ الآية ٩٢.

السامية، وأنه ليس إلّا بنفس الدرجة التي أظهرها في سلوكه وعطائه لا أكثر، وهذا هو المقياس الطبيعي والمنطقي لتقييم الشخصية، ومعرفة مستوى الإيمان لدى الإنسان، ومدى تجذره في ضميره.

معارضة موانع الإنفاق

يشير القرآن الكريم إلى أحد الموانع المهمّة للإنفاق، وهو الوساوس الشيطانيّة التي تخوّف الإنسان من ا لفقر والعوز وخاصّة إذا أراد التصدّق بالأموال الطيّبة والمرغوبة، وما اكثر ما منعت الوساوس الشيطانيّة من الإنفاق المستحبّ في سبيل الله وحتّى من الإنفاق الواجب كالزكاة والخُمس أيضاً.

فيقول في هذا الصدد ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ ويقول لكم: لا تنسوا مستقبل أطفالكم وتدبّروا في غدكم، وأمثال هذه الوساوس المظلّة، ومضافاً إلى ذلك يدعوكم إلى الإثم وإرتكاب المعصية ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾[١].

(الفحشاء) تعني كلّ عملٍ قبيح وشنيع، ويكون المراد به في سياق معنىٰ الآية البخل وترك الإنفاق في كثير من الموارد حيث يكون نوعٌ من المعصية والإثم (رغم أنّ مفرده الفحشاء تعني عادةً الأعمال المنافية للعفّة ولكنّنا نعلم أنّ هذا المعنىٰ لا يناسب السياق).

حتّى أنّ بعض المفسّرين صرّح بأنّ العرب يسمّون الشخص البخيل (فاحش)[٢].

ويحتمل أيضاً أنّ الفحشاء هنا بمعنىٰ إختيار الأموال الرديئة وغير القابلة للمصرف والتصدّق بها، وقيل أيضاً: أنّ المراد بها كلّ معصية، لأنّ الشيطان يحمل الإنسان من خلال تخويفه من الفقر على إكتساب الأموال من الطرق غير المشروعة.

والتعبير عن وسوسة الشيطان بالأمر ﴿ويأمركم﴾ إشارة لنفس الوسوسة أيضاً، وأساساً فكلّ فكرةٍ سلبيّة وضيّقة ومانعة للخير فإنّ مصدرها هو التسليم مقابل وساوس الشيطان، وفي المقابل فإنّ كلّ فكرةٍ إيجابيّة وبنّاءة وذات بعد عقلي فإنّ مصدرها هو الإلهامات الإلهيّة والفطرة السليمة.

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

٢ ـ تفسير روح البيان: ٤٣١/١ ذيل الآية ٢٦٨ من سورة البقرة.

ولتوضيح هذا المعنىٰ ينبغي أن نقول: إنّ النظرة الأُولى إلى الإنفاق وبذل المال توحي أنه يؤدي إلى نقص المال، وهذه هي النظرة الشيطانية الضيّقة، ولكنّنا بتدقيق النظر ندرك أن الإنفاق هو ضمان بقاء المجتمع، وتحكيم العدل الإجتماعي، وتقليل الفواصل الطبقية، والتقدّم العام.

وبديهيّ أنّ تقدّم المجتمع يعني أنّ الأفراد الذين يعيشون فيه يكونون في رخاء ورفاه، وهذه هي النظرة الواقعية الإلهيّة.

يريد القرآن بهذا أن يعلم الناس أنّ الإنفاق وإن بدأ في الظاهرأنّه أخذ، ولكنّه في الواقع عطاء لرؤوس أموالهم ماديّاً ومعنوياً.

في عالمنا اليوم حيث نشاهد نتائج الإختلافات الطبقية والمآسي الناتجة عن الظلم واحتكار الثروة، نستطيع أن نفهم معنى هذه الآية بوضوح.

كما أنّ الآية تفيد أيضاً أنّ هناك نوعاً من الإرتباط بين ترك الإنفاق والفحشاء. فإذا كانت الفحشاء تعني البخل، فتكون علاقتها بترك الإنفاق هو أنّ هذا الترك يكرّس صفة البخل الذميمة في الإنسان شيئاً فشيئاً. وإذا كانت تعني الإثم مطلقاً أو الفحشاء في الأُمور الجنسية فإن علامة ذلك بترك الإنفاق لا تخفىٰ، إذ أنّ منشأ كثير من المعاصي والإنحرافات الجنسية هو الفقر والحاجة. يضاف إلى ذلك أن للإنفاق آثاراً ونتائج معنوية مباركة لا يمكن إنكارها.

هديتين من الله و حيلتين من الشيطان

جاء في تفسير «مجمع البيان» عن الإمام الصادق عليه السلام: **أنّ في الإنفاق شيئين من الله وشيئين من الشيطان، فاللذان من الله هما غفران الذنوب والسعة في المال، واللذان من الشيطان هما الفقر والأمر بالفحشاء»**.

وقد جاء عن الإمام علي أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**اذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة**»[1].

الإنفاق العلني والخفيّ

يقول سبحانه و تعالىٰ: ﴿**إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**﴾[2].

---

١ ـ نهج البلاغة: الكلمات القصار: رقم ٢٥٨.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ٢٧١.

لاشكّ أنّ لكلّ من الإنفاق العلني والإنفاق الخفيّ في سبيل الله آثاراً نافعة، فإذا كان الإنفاق واجباً فالإعلان عنه يشجع الآخرين على القيام بمثله، كما يرفع عن المنفق تهمة إهماله لواجبه.

أمّا إذا كان الإنفاق مستحبّاً، فإنّه يكون في الواقع أشبه بالدعاية والإعلان العملي لحثّ الناس على فعل الخير، ومساعدة المحتاجين، والقيام بالأعمال الخيرية الإجتماعية العامّة.

أمّا الإنفاق الخفيّ البعيد عن الأنظار فلا شكّ أنه أبعد عن الرياء وحبّ الظهور وخلوص النيّة فيه أكثر، خاصّة وأن مدّ يد العون إلى المحتاجين في الخفاء يحفظ لهم ماء وجههم وكرامتهم، ولذلك تثني الآية على كلا الأسلوبين.

وذهب بعض المفسرين إلى أنّ الإخفاء يقتصر على الإنفاق المستحب، وأمّا الإنفاق الواجب كالزكاة وغيره فيفضّل في حالة الجهر، وليست هذه بقاعدة عامّة، بل تختلف باختلاف حالات الإنفاق.

ففي الحالات التي يكون فيها الجانب التشجيعي أكثر ولا يصادر فيها الإخلاص فالاظهار أولىٰ،وفي الحالات التي يكون فيها المحتاجون من ذوي العزّة والكرامة فإن حفظ ماء وجوههم يقتضي إخفاء الإنفاق، كما أنّه إذا خشي الرياء وعدم الإخلاص فالإخفاء أولىٰ.

وقد جاء في بعض الأحاديث أنّ الإنفاق الواجب يفضّل فيه الإظهار، والمستحبّ يفضّل فيه الإخفاء.

وقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **الزكاة المفروضة تخرج علانية وتدفع علانية، وغير الزكاة إن دفعه سرّاً فهو أفضل**[1].

إلّا أنّ هذه الأحاديث لا تتعارض مع ما قلناه آنفاً، لأنّ أداء الواجب يكون أقلّ امتزاجاً بالرياء، فهو واجب لابدّ أن يؤدّيه كلّ مسلم في محيط الاسلامي كالضريبة اللازمة التي يدفعها الجميع، وعليه فإنّ إظهار الإنفاق أفضل. أمّا الإنفاق المستحبّ فليس إلزامياً لذلك، فإنّ إظهار إنفاقه قد يشوبه شيء من الرياء وعدم خلوص النيّة، فيكون الأجدر إخفاؤه.

احد عشر حديثاً حول الإنفاق

هنالك أحاديث كثيره بشأن الإنفاق وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفي كتب أهل السنّة.

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ١/٣٨٤ نقلاً عن علي بن إبراهيم: ١/٩٣.

١ ـ من ذلك: «صدقة السرّ تطفيء غضب الربّ وتطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار»[١].

٢ ـ كما جاء أيضاً: «سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: الإمام العدل، والشابّ الذي نشأ في عبادة الله تعالىٰ، ورجل قلبه يتعلّق بالمساجد حتّى يعود إليها، ورجلان تحابّا في الله واجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنّي أخاف الله تعالىٰ، ورجل تصدّق فأخفاه حتّى لم تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[٢].

٣ ـ وروي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أشبع جائعاً في يوم سغب ادخله اللّه يوم القيامة من باب من أبواب الجنّة لا يدخلها إلّا من فعل مثل ما فعل»[٣].

٤ ـ وروي أنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إذا أكل أتى بصحفة فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتىٰ به فيأخذ من كلّ شيء شيئاً فيضع في تلك الصفحة ثمّ يأمر بها للمساكين، ثمّ يتلو هذه الآية: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾

ثمّ يقول: «علم اللّه عزّوجلّ أنّه ليس كلّ إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنّة»[٤].

افضل الصدقة

٥ ـ نقل عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «جهد المقل».[٥]

٦ ـ في رواية عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الصدقة تقع في يد الله قبل أن تصل إلى يد السائل»[٦]!

٧ ـ في حديث آخر عن الإمام السّجاد عليه السلام: «إنَّ الصدقة لا تقع في يد العبد حتى تقع في

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ١/٣٨٥.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠/٤٩٥.

٤ ـ تفسير الميزان: ٢٠/٢٩٥، نقلاً عن اصول الكافي.

٥ ـ اصول الكافي: ٤/١٨.

٦ ـ تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات ١٠٥ ـ ١٠٣ من سورة التوبة.

يد الرّب»[١].

٨ ـ بل إنّ رواية صرّحت بأنّ كلّ أعمال ابن آدم تتلقاها الملائكة إلّا الصدقة، فإنّها تصل مباشرة إلى يد الله سبحانه[٢].

الصدقة تقع في يد الله

٩ ـ نقل عن النّبيﷺ في صحيح مسلم والبخاري: **«ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ـ ولا يقبل الله إلّا الطيب ـ إلّا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل»**[٣].

إنَّ هذا الحديث المشحون بالتشبيهات والكنايات، والعظيم المعنى، مؤشر ودليل على الأهمية الخاصّة للخدمات الإنسانية ومساعدة المحتاجين والمحرومين في الأحكام الإسلامية.

لقد وردت عبارات حديثية أُخرىٰ في هذا المجال، وهي مهمّة وملفتة للنظر إلى درجة أن اتباع هذا الدين يرون أنفسهم خاضعين لمن يأخذ منهم صدقاتهم، وكأنّ ذلك المحتاج يمن على المتصدّق ويتفضل عليه بقبول صدقته.

قبّلوا الصدقة و شمّوها

١٠ ـ نجد في بعض الأحاديث، أن الأئمّة المعصومينعليهم السلام كانوا أحياناً يقبلون الصَّدقة احتراماً وتعظيماً للصدقة، ثمّ يعطونها الفقراء، أو إنَّهم كانوا يعطونها للفقير ثمّ يأخذونها منه يقبّلونها ويشمّونها ثمّ يعيدونها إليه، لماذا؟ لأنَّهم وضعوها في يدالله سبحانه!

وبهذا ندرك عظيم الفاصلة بين الآداب الإسلامية وبين الأشخاص الذين يحقرون المحتاجين فيما إذا أرادوا أن يعطوا الشيء اليسير، أو يعاملونهم بخشونة وقسوة، بل ويرمون مساعدتهم أحياناً بلا أدب وخلق؟!

---

١ ـ تفسير العياشي، على ما نقل في تفسير الصافي في ذيل الآية ١٠٤ من سورة التوبة.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ تفسير المنار: ١١/٣٣. وقد نقل هذا الحديث عن طريق أهل البيتعليهم السلام عن الإمام الصادقعليه السلام أيضاً. راجع: بحارالانوار: ٩٦/١٣٤.

١١ ـ نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يقول[١]: «لكنّ الله عزّوجلّ فرض في أموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة فقال عزّوجلّ ﴿والذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل﴾، فالحقّ المعلوم غير الزكاة وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله ... إن شاء في كلّ يوم وإن شاء في كلّ جمعة وإن شاء في كلّ شهر».

نماذج ثلاثة من التاريخ

١ ـ كان «أبو طلحة» أكثر أنصاري المدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت ﴿لن تنالوا البر حتّى تنفقوا ممّا تحبون﴾[٢] قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن الله يقول: لن تنالوا البر حتّى تنفقوا ممّا تحبون وأن أحب أموالي إلي بيرحاء، وأنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بخ بخ ذلك مال رابح لك وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. قال أبو طلحة: افعل يا رسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه[٣].

٢ ـ أضاف أبو ذر الغفاري ضيفاً، فقال للضيف: إني مشغول، وأن لي إبلاً فاخرج وآتني بخيرها، فذهب فجاء بناقة مهزولة، فقال أبو ذر: خنتني بهذه، فقال: وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إن يوم حاجتي إليه ليوم اوضع في حفرتي، مع أن الله يقول:

﴿لن تنالوا البر حتّى تنفقوا ممّا تحبّون﴾[٤][٥].

٣ ـ كان لزبيدة زوجة هارون الرشيد مصحف ثمين جدّاً، قد زينت غلافه بأغلى أنواع المجوهرات والأحجار الكريمة وكانت تحبه حباً شديداً وتعتز به أكبر إعتزاز، وفيما هي تتلو

---

١ ـ وسائل الشيعة: ٧٢/٦ باب ما تجب فيه الزكاة الباب السابع الحديث الثاني.

٢ ـ سورة آل‌عمران: الآية ٩٢.

٣ ـ تفسير مجمع البيان وصحيح مسلم والبخاري كتاب التفسير باب ما جاء في سورة آل‌عمران، وبرحاء موضع كان لأبي طلحة بالمدينة.

٤ ـ سورة آل‌عمران: الآية ٩٢.

٥ ـ تفسير مجمع البيان: ٤٧٤/٢.

القرآن في ذلك المصحف ذات يوم وإذا بها مرت على قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتّى تنفقوا ممّا تحبّون﴾[١] فتأملت فيه، وغاصت في معناه وتأثرت بندائه فقالت في نفسها: «إنه ليس هناك ما هو أحب إلي من هذا المصحف المزين الثمين فلأنفقه في سبيل الله»، فأرسلت إلى باعة الجواهر وباعت جواهره وأحجاره الكريمة عليهم ثمّ هيأت بثمنها آباراً وقنوات من الماء في صحراء الحجاز ليشرب منه سكان الصحراء وينتفع به المسافرون، ويقال أن بقايا هذه الآبار لا تزال باقية وتدعى[٢] باسمها عند الناس.

الكلام الأخير حول الإنفاق

يشير القرآن الكريم إلى الصفة الممتازة لـ «عباد الرحمن» التي هي الإعتدال والإبتعاد عن أي نوع من الإفراط والتفريط في الأفعال، خصوصاً في مسألة الإنفاق، فيقول تعالىٰ: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾[٣].

الملفت للإنتباه أنه يعتبر أصل الإنفاق أمراً مسلماً لا يحتاج إلى ذكر، ذلك لأن الإنفاق أحد الأعمال الضرورية لكل إنسان، لذا يورد الكلام في كيفية إنفاقهم فيقول: إن إنفاقهم إنفاق عادل (معتدل) بعيد عن أي إسراف وبخل، فلا يبذلون بحيث تبقىٰ أزواجهم وأولادهم جياعاً، ولا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم وعطاياهم.

في تفسير «الإسراف» و «الإقتار» كنقطتين متقابلتين، أقوال مختلفة يرجع جميعها إلى أمر واحد، وهو أنّ «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، وفي غير حق، وبلا داعٍ، و«الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

تشبيه رائع

في إحدىٰ الروايات الإسلامية، ورد تشبيه رائع للإسراف والإقتار وحد الإعتدال، تقول الرّواية: تلا أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك

١ ـ سورة آل‌عمران: الآية ٩٢.

٢ ـ راجع تفسير أبي الفتوح الرازي: ١٥٧/٣ في تفسير الآية ٩٢ من سورة آل‌عمران.

٣ ـ سورة الفرقان: الآية ٦٧.

قواماً﴾[١]. قال: فأخذ قبضة من حصىً وقبضها بيده، فقال: هذا الإقتار الذي ذكره الله عزّوجلّ في كتابه، ثمّ قبض قبضة أُخرىٰ فأرخىٰ كفّه كلّها، ثمّ قال: هذا الإسراف، ثمّ أخذ قبضة أخرىٰ فأرخىٰ بعضها وأمسك بعضها وقال: هذا القوام».[٢]

روايات حول اطعام المؤمن

١ ـ عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من الإيمان حسن الخُلق، وإطعام الطعام: وإراقة الدّماء»[٣]. (النحر في سبيل اللّه).

٢ ـ عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال: «إنّ أحبّ الأعمال إلى اللّه إدخال السرور على المؤمن، شبعة مسلم أو قضاء دينه»[٤]

٣ ـ عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «ما أرى شيئاً يعدل زيارة المؤمن إلّا إطعامه، وحقّ على اللّه أن يطعم من أطعم مؤمناً من طعام الجنّة»[٥].

٤ ـ وسأل رجل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: أي الأعمال أفضل؟ قال: «اطعام الطعام واطياب الكلام»[٦].

٥ ـ عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من عال أهل بيت من المسلمين يومهم وليلتهم غفر اللّه ذنوبه»[٧].

٦ ـ قال النّبي صلى الله عليه وآله: «من أطعم ثلاث نفر من المسلمين أطعمه الله من ثلاث جنان في ملكوت السموات»[٨].

٧ ـ في حديث للإمام الصادق عليه السلام قال: « من أطعم مؤمناً حتىٰ يشبعه لم يَدْرِ أحد من خلق

---

١ ـ سورة الفرقان: الآية ٦٧.

٢ ـ اصول الكافي: طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٢٩/٤.

٣ ـ بحار الانوار: ٣٦٥/٧٤، ح ٣٨.

٤ ـ المصدر السابق، ح ٣٥.

٥ ـ اصول الكافي، ج ٢، باب إطعام المؤمن، ح ١٧.

٦ ـ بحار الانوار: ٣٨٨/٧٤، ح ١١٣.

٧ ـ المصدر السابق، ص ٣٨٩، ح ٢.

٨ ـ أُصول الكافي، ج ٢ باب (إطعام المؤمن) الحديث ٣.

الله ما له من الأجر في الآخرة، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلّا الله ربّ العالمين»[١].

٨ ـ في حديث آخر عنه عليه السلام قال: **«لئن أطعم مؤمناً محتاجاً أحبُّ إليَّ من أن أزوره، ولئن أزوره أحبُّ إليَّ من أن أعتق عشر رقاب»**[٢].

اطعام المؤمن و إن لم يكن محتاجاً

والجدير بالذكر أنّ الرّوايات لم تؤكّد على إطعام المحتاجين والجياع فحسب، بل صرّحت بعض الروايات أنّ إطعام المؤمنين وإن لم يكونوا محتاجين هو كعتق رقبة العبد، وهذا يدلّ على أنّ الهدف لا يقتصر على رفع الاحتياج، بل جلب المحبّة وتحكيم وشائج المودة بعكس ما هو السائد في عالم اليوم المادي، كدخول صديقين إلى المطعم ودفعهما حساب الطعام كلّ على انفراد وكأنّ استضافة الأفراد سيما إذا كثروا مدعاةً للعجب في تلك المجتمعات!!

وورد في بعض الرّوايات أنّ إطعام الجياع بصورة عامّة من أفضل الأعمال (وإن لم يكونوا مسلمين ومؤمنين) كما جاء في الحديث عن النّبي صلى الله عليه وآله إذ قال: **«من أفضل الأعمال عند الله إبراد الكباد الحارة وإشباع الكباد الجائعة والذي نفس محمد بيده لا يؤمن بي عبد يبيت شبعان وأخوه ـ أوقال جاره ـ المسلم الجائع»**[٣].

١ ـ المصدر السابق، الحديث ٦.

٢ ـ المصدر السابق، الحديث ١٨.

٣ ـ بحار الأنوار: ٣٦٩/٧٤ والملاحظ أن العلّامة المجلسي أورد عنواناً في هذا الباب وذكر فيه ١١٣ حديث يتعلق بإطعام المؤمن وإشباعه ولبسه وأداء دينه. ولبعض منها عمومية.

٦٢

الحسد

دور الحسد في الجرائم

«الحسد» يعني تمني زوال النعمة عن الآخرين سواء وصلت تلك النعمة إلى الحسود، أم لم تصل إليه، وعلى هذا الأساس تنصب جهود الحسود على فناء ما لدى الآخرين وزواله عنهم أم تمني ذلك، لا أن تنتقل تلك النعمة إليه.

إن الحسد منشأ للكثير من المآسي والمتاعب الإجتماعية، من ذلك.

فقدان رؤوس المال

١ ـ إنّ الحاسد يصرف كل أو جلّ طاقاته البدنية والفكرية ـ التي يجب أن تصرف في ترشيد الأهداف الإجتماعية ـ في طريق الهدم والتحطيم لما هو قائم، ولهذا فهو يبدد طاقاته الشخصية والطاقات الإجتماعية معاً.

شرارة من النّار

٢ ـ إنّ الحسد هو الدافع لكثير من الجرائم في هذا العالم، فلو أنّنا درسنا العلل الأصلية وراء جرائم القتل والسرقة والعدوان وما شابه ذلك لرأينا ـ بوضوح ـ أنّ أكثر هذه العلل تنشأ من الحسد، ولعلّه لهذا السبب شُبّه الحسد بشرارة من النار يمكنها أن تهدد كيان الحاسد أو المجتمع الذي يعيش في وسطه بالخطر، وتعرضه للضرر.

يقول أحد العلماء: إنّ الحسد من أخطر الصفات، ويجب أن يعتبر من أعدى أعداء

السعادة، فيجب أن يجتهد الإنسان لدفعه والتخلص منه.

إنّ المجتمعات التي تتألف من الحاسدين الضيقي النظرة مجتمعات متأخرة متخلفة، والحساد ـ في الأغلب ـ عناصر قلقة وأفراد مرضى يعانون من متاعب وآلام جسدية وعصبية، وذلك قد أصبح من المسلم اليوم أن أكثر الأمراض والآلام الجسدية تنشأ من علل نفسية، فإننا نلاحظ الآن بحوثاً مفصلة في الطب حول الأمراض التي تختص بمثل هذه.

هذا والجدير بالذكر ورود التأكيد على هذه المسألة في أحاديث أئمّة الدين وقادة الإسلام، ففي رواية عن الإمام علي عليه السلام نقرأ قوله: «**صحة الجسد من قلّة الحسد**»[١] و «**العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد**»[٢].

بل ووردت روايات تصرح بأن الحسد يضرّ بالحاسد قبل أن يضرّ بالمحسود، بل ويؤدي إلى القتل والموت تدريجاً.

ضعف الشخصيّة

٤ ـ إنّ الحسد يعدـ من الناحية المعنوية ـ من علائم ضعف الشخصية وعقدة الحقارة، ومن دلائل الجهل وقصر النظر وقلّة الإيمان، لأنّ الحاسد ـ في الحقيقة ـ يرى نفسه أعجز وأقل من أن يبلغ ما بلغه المحسود من المكانة أو أعلى من ذلك، ولهذا يسعى الحاسد إلى أن يرجع المحسود إلى الوراء، هذا مضافاً إلى أنّه بعمله يعترض على حكمة الله سبحانه واهب جميع النعم وجميع المواهب، وعلى إعطائه سبحانه النعم إلى من تفضل بها عليه من الناس، ولهذا جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام «**الحسد أصله من عمىٰ القلب والجحود لفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً**»[٣].

فهذا هو القرآن الكريم يصرّح بأنّ أوّل جريمة قتل أُرتكبت في الأرض كان منشؤها الحسد[٤].

---

١ ـ بحار الانوار: ٢٥٦/٧٣، نهج البلاغة الكلمات القصار، رقم ٢٥٦.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ مستدرك الوسائل: ٣٢٧/٢.

٤ ـ سورة المائدة: الآية ٢٧.

وجاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب**»(١) وذلك لأنّ الحاسد يزداد سوء ظنه بالله وبحكمته وعدالته شيئاً فشيئاً، وهذا الأمر يؤدي به إلى الخروج عن جادة الإيمان.

إنّ آثار الحسد وأضراره المادية والمعنوية وتبعاته الفردية والإجتماعية كثيرة جدّاً، وما ذكرناه إنّما هو في الحقيقة جدول سريع عن بعض هذه الآثار والمضار.

اربعة انفعالات

وأساساً إذا حرم الإنسان من نعمة أنعمها الله على عبدٍ سواه، فإنّه سيكون امام أربع حالات مُختلفة.

الأُولى: أن يتمنّى أن ينعم الله عليه مثل ما أنعم على غيره، وهذه الحالة تدعى «**الغبطة**» وهي جديرة بالثناء والمدح، وليس لها أثر سيء، لأنّها تدعو صاحبها للسعي والجدّ والمثابرة حتى ينال مثل ما نال المغبوط.

الثّانية: أن يتمنّى أن تُسلب هذه النعمة عن الآخرين، ويسعى من أجل تحقيق هذا التمني، وهذه هي الحالة المذمومة الموسومة «بالحسد» التي تدعو صاحبها الى التخريب وسلب النعمة عن الآخرين، دون أن تدعوه لأنّ يطلب من الله مثل ما أعطي غيره من النعم.

الثّالثة: أن يتمنّى أن تكون هذه النعمة له فقط ويُحرم الآخرون منها وهذه الحالة تُسمّى «**البُخل**» والأنانية التي تدعو الإنسان أن يطلب شيئاً لنفسه، ويلتذّ من حرمان الآخرين.

الرّابعة: أن يتمنّى ويحب تنعّم الآخرين بهذه النعمة وإن كان محروماً منها، وهو مستعدّ أن يقدّم ما عنده من أجلهم ... وبغض النظر عن منافعه الشخصية، وهذه الحالة الرفيعة هي ما يسمّى بـ«**الإيثار**» التي هي من أهم الصفات الإنسانية الحميدة.

وعلى كل حال فإنّ الحسد لا يقتصر على قتل إخوة يوسف لأخيهم فحسب، بل قد يوصل الإنسان إلى قتل نفسه.

روايات حول الحسد

ونجد في الأحاديث الإسلامية تعابير مؤثرة تدعو الى مكافحة هذه الرّذيلة، وعلى سبيل المثال نورد منها ما يلي:

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

١ ـ في حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «إنّ الله نهىٰ موسى عن الحسد وقال له: إنّ الحاسد ساخط لنعمي صادّ لقسمي الذي قسمتُ بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّي»(١).

٢ ـ ونقرأ حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يقول: «آفة الدين الحسد والعجب والمفاخرة» كما نقرأ له حديثاً يقول: «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط»(٢).

٤ ـ وقد جاء أيضاً عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «إنّ للمعاصي شعباً، فأوّل ما عصي الله به الكبر، وهي معصية إبليس حين أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين، والحرص وهي معصية آدم وحواء ... ثمّ الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله»(٣).

٥ ـ وكذا نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أُصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، فأمّا الحرص فإن آدم حين نهي عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأمّا الاستكبار فإبليس حيث أُمِر بالسجود لآدم فأبىٰ، وأمّا الحسد فإبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه»(٤).

---

١ ـ أصول الكافي: ٣٠٧/٢.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ سفينة البحار، مادة كبر.

٤ ـ أصول الكافي: ٢١٩/٢، باب أُصول الكفر.



نظرية الإسلام بشأن المال والثروة

بشأن المال والثروة، اختلفت وجهات نظر النّاس بين افراط وتفريط، بعضهم أسبغ على المال أهمية فائقة فجعله مفتاح حلّ كلّ المشاكل. وإلى ذلك ذهب الشاعر.في قوله:

فصاحة سحبان وخط ابن مقلة وحكمة لقمان وزهد ابن أدهم
إذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس فليس له قدر بمقدار درهم

ولذلك فإنّ دأب هؤلاء الأفراد جمع المال، ولا يدخرون وسعاً على هذا الطريق ولا يتقيدون بقيد، ولا يهتمون بحلال أو حرام ومقابل هذه المجموعة هناك من لا يعير أية أهمية للمال والثروة، يمتدحون الفقر ويشيدون به، ويرون في المال عائقاً للتقوى وللقرب الإلهي.

المال مطلوب بشروط

وإزاء ذاك الإفراط وهذا التفريط، تقف النصوص الإسلامية لتبيّن أنّ المال مطلوب، ولكن بشروط، أوّلها أن يكون وسيلة لا غاية.

والآخر، أن لا يكون الإنسان له أسيراً، بل أن يكون عليه أميراً.

والثّالث: أن يأتي بالطرق المشروعة وأن ينفق في سبيل رضا اللّه.

الرغبة في مثل هذا المال ليس دليلاً على حبّ الدنيا، بل هو دليل على الإنشداد بالآخرة. ولذلك ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه لعن الذهب والفضة، فتعجب أحد أصحابه وسأل الإمام فأجابه: «ليس حيث تذهب إليه إنّما الذهب الذي ذهب بالدين، والفضة التي أفاضت الكفر»[1].

---

١ ـ بحار الأنوار: ١٤١/٧٣، الحديث ١٧.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «السكر أربع سكرات: سكر الشراب، وسكر المال، وسكر النوم، وسكر الملك».[١]

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن كان الحساب حقّاً فالجمع لماذا؟ وإن كان الخلف من اللّه عزّوجلّ حقّاً فالبخل لماذا؟»[٢].

كثيرون هم الذين ينشغلون حتى آخر حياتهم بجمع المال، ثمّ يتركونه للآخرين. هم مسؤولون عن حسابه، والآخرون ينالون ثماره.

وروي عن ابن عباس أنّ النّبي صلى الله عليه وآله قال: «لا تزول قدما العبد حتىٰ يسأل عن أربعة: عن عمره فيما أفناه، وعن ماله من اين جمعه، وفى ماذا أنفقه، وعن عمله ماذا عمل به، وعن حبّنا أهل البيت»[٣].

اعظم النّاس حسرة

سئل أمير المؤمنين علي عليه السلام: من أعظم النّاس حسرة؟

قال: «من رأى ماله في ميزان غيره، وأدخله به النّار، وأدخل وارثه به الجنّة»[٤].

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وكذلك يريهم اللّه أعمالهم حسرات عليهم﴾[٥] قال: «هو الرجل يدع المال لا ينفقه في طاعة اللّه بخلاً ثمّ يموت فيدعه لمن يعمل به في طاعة اللّه أو في معصيته».

ثمّ قال الإمام: «فإن عمل به في طاعة اللّه رآه في ميزان فزاده حسرة، وقد كان المال له أو عمل به في معصية اللّه فهو قوّاه بذلك المال حتى عمل به في معاصي اللّه»[٦].

نعم، رؤية الإنسان للمال قد تصير من المال وثناً خطراً، وقد تجعل منه وسيلة لسعادة كبرى.

---

١ ـ المصدر السابق، ص ١٤٢.

٢ ـ التوحيد للصدوق، نقلاً عن تفسير نور الثقلين: ٥/٦٦٨، الحديث ٨.

٣ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠/٤٩٤؛ وبهذا المعنىٰ أيضاً ورد في تفسير روح البيان: ١٠/٤٣٥.

٤ ـ بحار الأنوار: ٧٣/١٤٢.

٥ ـ سورة البقرة: الآية ١٦٧.

٦ ـ المصدر السابق، الحديث ٢٠.

قرّة عين الشيطان

نختتم هذه الوقفة بما ورد عن ابن عباس عن كلام عميق الدلالة قـال: «إنّ أوّل درهـم ودينار ضربا في الأرض نظر إليهما إبليس فلما عاينهما أخذهما فوضعهما على عينيه، ثـمّ ضمهما إلى صدره، ثمّ صرخ صرخة، ثمّ ضمهما إلى صدره، ثمّ قال: أنتما قرّة عيني! وثمرة فؤادي، ما أُبالي من بني آدم إذا أحـبّوكما أن لا يـعبدوا! وثـناً! حسـبي مـن بـني آدم أن يحبّوكما»[1].

١ ـ المصدر السابق، ص١٣٧، الحديث ٣.

٦٤

هل الدّنيا والآخرة متضادتان؟

إنّنا نرىٰ في كثيرٍ مِن الآيات القرآنية مدحاً وتمجيداً للدنيا وبإمكاناتها المادية، ففي بعض الآيات اعتبر المال خيراً ﴿إن ترك خيراً﴾[١].

وفي آيات كثيرة وصفت العطايا والمواهب المادية بأنّها فضل اللّه ﴿وابتغوا مِن فضل اللّه﴾[٢].

وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[٣].

وفي آياتٍ كثيرة أُخرىٰ وصفت نعم الدنيا بأنها مسخّرة لنا ﴿سخر لكم﴾.

وإذا أردنا أن نجمع كل الآيات التي تهتم بالإمكانات المادية وتؤكد عليها، وتجعلها في سياقٍ واحد، فستكون أمامنا مجموعة كبيرة مِنها.

ولكن، وبرغم الأهمية الكبرىٰ التي تختص بها النعم المادية، فإنَّ القرآن الكريم استخدم تعابير أُخرىٰ تحقّرها وتحطّ مِنها بقوة، إذ نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾[٤].

وفي مكانٍ آخر نقرأ قوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾[٥].

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ١٨٠.

٢ ـ سورة الجمعة: الآية ١٠.

٣ ـ سورة البقرة: الآية ٢٩.

٤ ـ سورة النساء: الآية ٩٤.

٥ ـ سورة الحديد: الآية ٢٠.

ونقرأ: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب﴾[١].

أمّا في الآية (٣٧) مِن سورة النّور، فإنا نلتقي مع قوله تعالىٰ: ﴿رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر اللّه﴾.

هذه المعاني المزدوجة إزاء النعم والمواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضاً في الأحاديث والرّوايات الإسلامية، فالدنيا في وصفٍ لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام هي «مسجدُ أحباء اللّه، ومصلىٰ ملائكة اللّه، ومهبط وحي اللّه، ومتجر أولياء اللّه»[٢].

وفي جانبٍ آخر، نرىٰ أنَّ الأحاديث والرّوايات الإسلامية تعتبر الدنيا دار الغفلة والغرور، وما شابه ذلك.

والسؤال هنا: هل تتعارض هذه المجاميع من الآيات والرّوايات فيما بينها؟

جواب من القرآن

في الواقع، عندما تلام الدنيا، فإنَّ اللوم ينصب علىٰ أُولئك الناس الذين لا هدف لهم ولاهمّ سواها. مِن هنا نقرأ في سورة النجم قوله تعالىٰ: ﴿ولم يرد إلّا الحيٰوة الدنيا﴾[٣].

وبعبارة أُخرىٰ، فإنَّ الذم الذي يَرد للدنيا يقصد به الأشخاص الذين باعوا آخرتهم بدنياهم. ولا يتناهون عن أي منكرٍ وجريمة في سبيل الوصول إلىٰ أهدافهم المادية.

يقول سبحانه و تعالىٰ : ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيّبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾[٤].

وخلاصة القول: إنَّهُ إذا تمت الإستفادة مِن مواهب الدنيا وعطاياها التي تُعتبر مِن النعم الإلٰهية؛ ويعتبر وجودها ضرورياً في نظام الخلق والوجود، وتمت الإستفادة في سعادة الإنسان الأخروية وتكامله المعنوي، فإنَّ ذلك يعتبر أمراً جيداً، وتمتدح معه الدنيا. أمّا إذا اعتبرناها هدفاً لا وسيلة، وأبعدناها عن القيم المعنوية والإنسانية، عندها سَيُصاب الإنسان بالغرور والغفلة والطغيان والبغي والظلم.

---

١ ـ سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ١٣١.

٣ ـ الآية ٢٩.

٤ ـ سورة الاعراف : الآية ٣٢.

من أبصر بها و من ابصر إليها

وما أجمل وصف الإمام علي عليه السلام للدنيا حينما يقول: «**مَن أَبصر بها بصرته، ومَن أَبصر إليها أعمته**»[١].

وفي أنَّ الفرق بين الدنيا المذمومة والدنيا الممدوحة، هو نفس الفرق الذي نستفيده، بين «إليها» و«بها»، إذ تعني الأُولىٰ أنَّ الدنيا هدف، بينما تعني الثّاني أنّها مجرد وسيلة!

لا شكّ أنّ كثيراً من مظاهر الحياة الدنيا غارّة ومضلّة، وقد تشغل الإنسان بها أحياناً حتّى يغفل عن كلّ شيء، ولا يشتغل إلّا بها، ولذلك نقرأ في بعض الروايات عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله بعضهم: أيّ الناس أثبت رأياً؟ قال: «**من لم يغرّه الناس من نفسه، ولم تغرّه الدنيا بتشويقها**»[٢].

الدنيا مزرعة الآخرة

الإسلام ينظر إلى الدنيا على أنّها مزرعة يقتطف ثمارها يوم القيامة.

والعبارات الواردة في الروايات أو في آيات قرآنية أُخرىٰ تؤّكد هذا المعنىٰ.

فمثلاً تشبّه الآية (٢١٦) من سورة البقرة المنفقين بالبذر الذي له سبعة سنابل، وفي كلّ سنبلة مئة حبة، وأحياناً أكثر. وهذا نموذج لمن يبذر البذور للآخرة.

ونقرأ في حديث عن الرّسول صلى الله عليه وآله. «**وهل يكب الناس على مناخرهم في النّار إلّا حصائد ألسنتهم**»[٣].

وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام**»[٤].

ويمكن أن نستفيد هذه الملاحظة من الآية أعلاه، وهي أن الدنيا والآخرة تحتاجان إلى

---

١ ـ يراجع نهج البلاغة، الخطبة رقم (٨٢).

٢ ـ من لا يحضره الفقيه، وفقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٤/٢١٧.

٣ ـ المحجة البيضاء: ٥/١٩٣ (كتاب آفات اللسان).

٤ ـ اصول الكافي، وفقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٤/٥٦٩.

السعي، ولا يمكن نيلهما دون تعب وأذى، كما أن البذر والثمر لا يخلوان من التعب والأذى، لذا فالأفضل للإنسان أن يزرع شجرة ويبذل جهده في تربيتها، ليكون ثمرها حلو المذاق ودائمياً وأبدياً، وليست شجرة تموت بسرعة وتُفنىٰ.

ونُنهي هذا الكلام بحديث عن الرّسول الأكرمﷺ حيث يقول: «**من كانت نيّته الدنيا فرق الله عليه أمره، وجعل الفقر بين عينيه، ولم يأته من لدنيا إلّا ما كتب له، ومن كانت نيّته الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»[١].

وما هو مشهور بين العلماء أن (**الدنيا مزرعة الآخرة**) فهو في الحقيقة اقتباس من مجموع ما ذكرناه أعلاه.

تعلمت معنىٰ الآية من بائع ثلج

الفخر الرازي في تفسير الآية ﴿**إنّ الإنسان لفي خسر**﴾ ينقل عن أحد الصالحين ما ملخصه أنّه تعلّمت معنى هذه الآية الكريمة من بائع ثلج كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله[٢]

على أي حال، الدنيا في المنظور الإسلامي سوق تجارة. كما يقول الإمام علي بن محمّد الهاديعليه السلام: «**الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون**»[٣]

١ ـ تفسير مجمع البيان، نهاية الآيات ٢٠ ـ ١٩ من سورة الشورىٰ.

٢ ـ تفسير الفخر الرازي: ٨٥/٣٢.

٣ ـ تحف العقول، ص ٣٦١، كلمات الإمام الهاديعليه السلام.

الرياء

قيمة كلّ عمل تتوقف على دافعه، وبالتعبير الإسلامي، أساس كلّ عمل نية عامله.

الإسلام يركز على النية في تقويم الأعمال. لذلك ورد عن رسول اللّهﷺ قال: «**إنّما الأعمال بالنيات، ولكل إمرىء ما نوى**».

وجاء في ذيل هذا الحديث: «**فمن غزى ابتغاء ما عند اللّه فقد وقع أجره على اللّه عزّوجلّ ومن غزى يريد عرض الدنيا أو نوىٰ عقالاً لم يكن له إلّا ما نوىٰ**».[١]

وهذا يعود إلى أنّ النية هي التي تصوغ شكل العمل دائماً. من كان يعمل للّه جعل أساس عمله مستحكماً، وسعى بكل جهده إلى أن يستفيد منه النّاس أكثر الإستفادة. لكن المتظاهر المرائي يكتفي بزخرفة الظاهر وتنميقه من دون أن يهتم بعمق العمل وباطنه وبحاجة المحتاجين إليه.

المجتمع الذي يتعود على الرياء لا يبتعد عن اللّه وعن الأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة فحسب، بل تصبح كلّ برامجه الإجتماعية فارغة خالية المحتوى، لا تتعدى مجموعة من المظاهر، وإنّها لمأساة أن يكون مصير الفرد ومصير المجتمع بهذا الشكل.

عشرة احاديث حول الرياء

الرّوايات في ذم الرياء كثيرة، بعضها وصفته بأنّه نوع من الشرك. وهنا نذكر قسماً منها:

---

١ ـ وسائل الشيعة: ١/٣٥، ح ١٠.

١ ـ عن رسول اللّه ﷺ قال: «سيأتي على النّاس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربّهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يعمهم اللّه بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق، فلا يستجيب لهم!»[١]

٢ ـ وعن رسول اللّه ﷺ أيضاً قال: «إنّ المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك، وبطل أجرك، فلا خلاص لك فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له»[٢].

٣ ـ وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال مخاطباً زرارة (أحد أصحابه): «من عمل للناس كان ثوابه على النّاس يا زرارة! كلّ رياء شرك»[٣].

٤ ـ جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَلرِّيَاءُ شَجَرَةٌ لاَ تُثْمِرُ إِلاَّ الشِّرْكَ الْـخَفِيَّ، وَأَصْلُهَا النِّفَاقُ»[٤].

٥ ـ في كتاب «تفسير الدر المنثور» حديث منقول عن النّبي ﷺ «قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة صارت أُمتي على ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياءً. فرقة يعبدون الله يصيبون به دُنيا».

فيقول للذي كان يعبد الله للدنيا: بعزّتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ فيقول: الدنيا، فيقول: لاجرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه. انطلقوا به إلى النّار.

ويقول للذي يعبد الله رياءً: بعزّتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ قال: الرياء، فيقول: إنّما كانت عبادتك التي كنت ترائي بها لا يصعد إلي منها شيء ولا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النّار.

ويقول للذي كان يعبد الله خالصاً: بعزّتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ فيقول: بعزّتك وجلالك لأنت أعلم منّي، كنت أعبدك لوجهك ولدارك. قال: صدق عبدي، انطلقوا به إلى الجنّة»[٥].

---

١ ـ أُصول الكافي، ج ٢، باب الرياء، الحديث ١٤.

٢ ـ وسائل الشيعة: ١/٥١ (ذيل الحديث ١٦).

٣ ـ وسائل الشيعة: ١/٤٩ (ذيل الحديث ١١).

٤ ـ سفينة البحار، ج ١، مادة (رئى).

٥ ـ تفسير الميزان: ١٠/١٨٦.

هل لنا من أجر؟

٦ ـ ورد عن رسول الله ﷺ، جاء فيه أن رجلاً قال لرسول الله: يا رسول الله! إنّا نعطي أموالنا التماس الذكر، فهل لنا من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، قال: يا رسول الله! إنّا نعطي التماس الأجر والذكر، فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا يقبل إلاّ من أخلص له، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾[1]»[2].

٧ ـ العمل الخالص يعتبر مهماً في الإسلام إلىٰ الحد الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «مَن أخلص لله أربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة مِن قلبه علىٰ لسانه»[3].

٨ ـ وفي هذا المجال ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾[4]. أنّه قال «ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوَبكم عملاً، وإنّما الإصابة خشية الله والنيّة الصادقة. ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله عزّوجلّ»[5].

٩ ـ جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «الشرك أخفى من دبيب النحل»[6].

١٠ ـ أو نقرأ: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم: «اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء»[7].

---

١ ـ سورة الزمر: الآية ٣.

٢ ـ تفسير روح المعاني: ٢١٢/٢٣ ذيل الآيات ٣ ـ ١ من سورة الزمر.

٣ ـ سفينة البحار: ٤٠٨/١ مادة (خلص).

٤ ـ سورة الملك: الآية ٣.

٥ ـ تفسير الصافي ذيل الآيات ٥ ـ ١ من سورة الملك.

٦ ـ سفينة البحار: ٦٩٧/١ مادة (شرك).

٧ ـ تفسير في ظلال القرآن: ٥٣/٥.

٦٦

تزكية النفس

«تزكية النفس» قبيح إلى درجة أنّها يضرب بها المثل! فيقال تزكية المرء نفسه قبيحة.

وأساس هذا العمل القبيح وأصله عدم معرفة النفس، لأنّ الإنسان إذا عرف نفسه حقّاً تصاغر أمام عظمة الخالق ورأى أعماله لا شيء لما عليه من مسؤولية، ولما وهبه الله من النعم العظيمة، وإذاً لما خطا أيّة خطوة نحو تزكية النفس.

والغرور والغفلة والإستعلاء والأفكار الجاهلية أيضاً بواعث أُخر على هذا العمل القبيح!

وحيث أنّ تزكية النفس تكشف عن إعتقاد الإنسان بكماله فهي مدعاة إلى تخلّفه! لأنّ رمز التكامل الإعتراف بالتقصير وقبول وجود النواقص والضعف!

ومن هنا نرى أولياء الله يعترفون بتقصيرهم أمام الله وما عليهم من وظائف من قِبَلِه! وينهون الناس عن تزكية النفس وتعظيم أعمالهم!.

فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية الكريمة ﴿فلا تزكّوا أنفسكم﴾[1] أنّه قال: «**لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته .. وصومه وزكاته ونسكه لأنّ الله عزّوجلّ أعلم بمن اتّقى**»[2].

ويقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في إحدى رسائله إلى معاوية مشيراً إلى هذا المضمون في ما يقول: «**ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذان السامعين**» «يعني بذلك نفسه عليه السلام»[3].

---

١ ـ سورة النجم: الآية ٣٢.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/١٦٥.

٣ ـ نهج البلاغة، من كتاب له برقم ٢٨.

الاعجاب بالنفس والغرور مصدر لتزكية النفس

قال تعالىٰ : ﴿ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم﴾ وفي هذه إشارة إلى إحدى الصفات الذميمة التي قد يبتلى بها كثير من الأفراد والشعوب، إنّها صفة مدح الذات وتزكية النفس، وادعاء الفضيلة لها.

ثمّ يقول سبحانه: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ فهو وحده الذي يمدح الأشخاص ويزكيهم طبقاً لما يتوفر عندهم من مؤهلات وخصال حسنة دون زيادة أو نقصان، وعلى أساس من الحكمة والمشئية البالغة، وليس اعتباطاً أو عبثاً. ولذلك فهو لا يظلم أحداً مقدار فتيل: ﴿ولا يظلمون فتيلاً[١]﴾[٢].

وفي الحقيقة أنّ الفضيلة هي ما يعتبرها الله سبحانه فضيلة لا ما يدعيه الإشخاص لأنفسهم انطلاقاً من أنانيتهم، فيظلمون بذلك أنفسهم وغيرهم.

إنّ القرآن يخاطب جميع المسلمين فيقول: ﴿فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾[٣].

إنّ مصدر هذا العمل هو الإعجاب بالنفس والغرور، والعجب الذي يتجلى شيئاً فشيئاً في صورة امتداح الذات وتزكية النفس، بينما ينتهي في نهاية المطاف إلى التكبر والإستعلاء على الآخرين.

إنّ هذه العادة الفاسدة ـ مع الأسف ـ من العادات الشائعة بين كثير من الشعوب والفئات والأشخاص، وهي مصدر الكثير من المآسي الإجتماعية والحروب وحالات الإستعلاء والاستعمار.

إنّ التاريخ يرينا كيف أن بعض الأمم في العالم كانت تزعم تفوقها على الشعوب والأُمم الأُخرىٰ تحت وطأة هذا الشعور والإحساس الكاذب، ولهذا كانت تمنح لنفسها الحق في أن تستعبد الآخرين، وتتخذهم لأنفسها خولاً وعبيداً.

---

١ ـ سورة النساء : الآية ٤٩.

٢ ـ الفتيل في اللغة بمعنىٰ الخيط الدقيق الموجود بين شقي نواة التمر، ويأتي كناية عن الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً، وأصله من مادة «فتل» بمعنىٰ البرم.

٣ ـ سورة النجم : الآية ٣٢.

العنصرية

لقد كان العرب الجاهليون مع كل التخلف والإنحطاط والفقر الشامل الذي كانوا يعانون منه، يرون أنفسهم «العنصر الأعلى» بل وكانت هذه الحالة سائدة حتى بين قبائلهم حيث كان بعض القبائل يرى نفسه الأفضل والأعلى.

ولقد تسبب الإحساس بالتفوق لدى العنصر الألماني والإسرائيلي في وقوع الحروب العالمية أو الحروب المحلية.

ولقد كان اليهود والنصارى في صدر الإسلام يعانون ـ أيضاً ـ من هذا الإحساس والشعور الخاطىء وهذا الوهم، ولهذا كانوا يستثقلون الخضوع أمام حقائق الإسلام، ولهذا السبب شدد القرآن الكريم النكير على هذا التصور وشجب هذا الوهم، وهم التفوق العنصري، ويعتبره نوعاً من الكذب على الله والإفتراء عليه سبحانه، ومعصية كبرى وذنباً بيّناً إذ يقول سبحانه: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب، وكفى به اثماً مبيناً﴾[1] أي أنظر كيف أن هذه الجماعة بافتعالها لهذه الفضائل وادعائها لنفسها من ناحية، ونسبتها إلى الله من ناحية أُخرىٰ، تكذب على الله، ولو لم يكن لهذه الجماعة أي ذنب إلّا هذا لكفى في عقوبتهم.

يقول الإمام عليعليه السلام في حديثه المعروف لـ«همام» الذي يذكر فيه صفات المتقين:

«لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشتفقون إذا زكى أحد منهم خاف ممّا يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم بي من نفسي، اللّهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل ما يظنون، واغفرلي ما لا يعلمون»[2].

تزكية النفس في الضرورات

ولا ننسى أن نقول إنّ الضرورات قد توجب على الإنسان أحياناً تزكية نفسه أمام الغير بكلّ ما لديه من إمتيازات حتّى لا تسحق أهدافه المقدّسة، وبين هذا النوع من التعريف

---

١ ـ سورة النساء: الآية ٥٠.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

بالنفس وتزكية النفس المذموم إختلافاً كبيراً.

ومن أمثلة ذلك خطبة الإمام زين العابدين في مسجد بني أُميّة في الشام لما أراد أن يعرف نفسه وأهل بيته لأهل الشام ليحبط مؤامرة الأمويين بكون الحسين والشهداء معه خوارج ويفضحهم!!

وقد ورد في بعض الرّوايات أنّه سئل الإمام الصادق عن «تزكية النفس» **فقال نعم إذا اضطرّ إليه ـ أما سمعت قول يوسف أحياناً للضرورة** ـ ثمّ استدلّ بموضعين من كلام الأنبياء أحدهما إقتراح يوسف على عزيز مصر أن يكون مسؤولاً ومشرفاً على خزائن مصر وتعقيبه: **﴿إنّي حفيظ عليم﴾**[1] .. وقول العبد الصالح: **﴿أنا لكم ناصح أمين﴾**[2].[3]

ومن هنا يتّضح لنا جليّاً فلسفة مدح الإمام علي عليه السلام نفسه في بعض الخطب، فمثلاً يقول في خطبة الشقشقية واصفاً نفسه: «... **إنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليّ الطير** ...»[4] فمثل هذه الأوصاف هي في الواقع لأجل إيقاظ الغافلين وإرشادهم إلى الإستفادة من هذا المنهل العذب في سبيل الوصول إلى سعادة الفرد والمجتمع.

---

١ ـ سورة يوسف: الآية ٥٥.

٢ ـ سورة الاعراف: الآية ٦٨.

٣ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/١٦٦.

٤ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٣.

٦٧

الذنوب صدأ القلب

تناول القرآن الكريم في مواضع متعددة ما للذنوب من تأثيرات سلبية على إظلام القلب وتلويثه، فقد جاء في سورة المؤمن: ﴿كذلك يطبع اللّه على قلب كلّ متكبر جبّار﴾[1].

وقال في موضع آخر: ﴿ختم اللّه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[2].

وجاء في الآية (٤٦) من سورة الحج: ﴿فإنّها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصّدور﴾.

نعم.. فأسوأ ما للإستمرار في الذنوب من آثار: إسوداد القلب، فقدان نور العلم، موت قدرة التشخيص بين ما هو حق وباطل.

فآثار ما تقترفه الجوارح من ذنوب تصل إلى القلب وتحوله إلى مستنقع آسن، وعندها لا يقوى الإنسان على تشخيص طريق خلاصه، فيهوىٰ في حفر الضلالة التي توصله لأدنىٰ دركات الإنحطاط، وتكون النتيجة أن يرمي ذلك الإنسان مفتاح سعادته بنفسه من يده، ولا يجني حينها إلّا الخيبة والخسران.

وروي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كثرة الذنوب مفسدة للقلب».[3]

وفي حديث آخر: «إنّ العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونـزع

---

١ ـ الآية (٣٥).

٢ ـ سورة البقرة: الآية ٧.

٣ ـ تفسير الدر المنثور: ٣٢٦/٦.

واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرين الذي ذكر اللّه في القرآن: ﴿كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[١].

وروي الحديث (بتفاوت يسير) عن الإمام الباقر عليه السلام[٢].

الحديث جلاء القلب

وعن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإنّ الحديث جلاء للقلوب، إنّ القلوب لترين كما يرين السيف، وجلائه الحديث».[٣]

ومن الثابت في علم النفس، أنّ للأعمال الأثر الكبير على نفسية وروحية الإنسان، فنفسية الإنسان تتكيف تدريجياً على ضوء تلك الآثار، وبالنتيجة سينعكس ذلك على فكر وآراء الإنسان.

وينبغي التنويه إلى: أنّ روح الإنسان تتعامل طردياً مع الذنوب، فمع استمرار الذنوب تغوص الروح في أعماق الظلام لحظة بلحظة، حتىٰ تصل إلى درجة يبدأ الإنسان يرىٰ سيئاته حسنات، وربّما يتفاخر بها! وعندها.. ستغلق أمامه أبواب العودة: ﴿إلّا أن يشاء اللّه﴾، وهذه الحال من أخطر ما تعرض للإنسان في حياته الدنيوية من حالات.

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٣٢٥.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٥٣١، الحديث ٢٢.

٣ ـ المصدر السابق، الحديث ٢٣.

٦٨

آثار الذنوب

يتصور العديد من الناس أن علاقة أعمال الإنسان بالجزاء الإلهي مثل العقود الدنيوية وما تحتويه من الأجر والعقاب، في حين قلنا ـ مراراً ـ إن هذه العلاقة أقرب ما تكون إلى الإرتباط التكويني منه إلى الإرتباط التشريعي.

وبعبارة أُخرىٰ فإنّ الأجر والعقاب أكثر ما يكون بسبب النتيجة الطبيعية والتكوينية لأعمال الإنسان حيث يشملهم ذلك.

احد عشر حديثاً

وبهذا الخصوص هناك روايات كثيرة في المصادر الإسلامية نشير إلى بعضها لتكميل الموضوع:

١ ـ ورد في إحدى خطب نهج البلاغة: «**ماكان قوم قط في غض نعمة من عيش، فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربّهم بصدق من نياتهم، ووله من قلوبهم، لردّ عليهم كلّ شارد، وأصلح لهم كلّ فاسد**»[١].

٢ ـ وهناك حديث آخر عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في (جامع الأخبار) حيث يقول: «**إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة**»[٢].

---

١ ـ نهج البلاغة ـ الخطبة ١٧٨.

٢ ـ بحار الأنوار: ١٩٨/٨١.

٣ـ وورد في حديث آخر عن الإمام الصادقعليه السلام في الكافي أنّه قال: «**إن العبد إذا كثرت ذنوبه، ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها، ابتلاه بالحزن ليكفرها**»[١].

الموت بالذنوب

٤ـ ورد في حديث غني المحتوىٰ عن الامام الصادقعليه السلام قال: «**من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار**».[٢]

٥ ـ ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الرجل ليذنب الذنب، فيدرأ عنه الرزق**، وتلا هذه الآية: ﴿**إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ولا يستثنون، فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون**[٣]﴾[٤].

٦ ـ ونقل عن ابن عبّاس أيضاً أنّه قال: إنّ العلاقة بين الذنب وقطع الرزق، أوضح من الشمس، كما بيّنها الله عزّوجلّ في سورة ن والقلم[٥].

٧ ـ نقرأ في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «**إذا أحدث العبد ذنباً جدّد له نعمة فيدع الإستغفار، فهو الإستدراج**»[٦].

والذي يستفاد من هذا الحديث ـ والأحاديث الأُخرى في هذا المجال ـ أنّ الله تعالى يمنح ـ أحياناً ـ عباده المعاندين نعمة وهم غارقون في المعاصي والذنوب وذلك كعقوبة لهم. فيتصوّرون أنّ هذا اللطف الإلهي قد شملهم لجدارتهم ولياقتهم له فيأخذهم الغرور المضاعف، وتستولي عليهم الغفلة .. إلّا أنّ عذاب الله ينزل عليهم فجأة ويحيط بهم وهم بين أحضان تلك النعم الإلهية العظيمة .. وهذا في الحقيقة من أشدّ ألوان العذاب ألماً.

إنّ هذا اللون من العذاب يشمل الأشخاص الذين وصل طغيانهم وتمردّهم حدّه الأعلى، أمّا من هم دونه في ذلك فإنّ الله تعالى ينبّههم وينذرهم عن ممارساتهم الخاطئة عسى أن

---

١ ـ اصول الكافي ـ المجلد الثّاني، كتاب الإيمان والكفر ـ باب تعجيل عقوبة الذنب ـ الحديث ٢.

٢ ـ سفينة البحار: ٤٨٨/١، مادة (ذنب).

٣ـ سورة القلم: الآية ١٧.

٤ ـ تفسير نور الثقلين: ٣٩٥/٥، (حديث ٤٤).

٥ ـ تفسير الميزان: ٣٧/٢٠.

٦ ـ تفسير مجمع البيان: ٣٤٠/١٠.

يعودوا إلى رشدهم، ويستيقظوا من غفلتهم، ويتوبوا من ذنوبهم، وهذا من ألطاف البـاريء عزّوجلّ بهم.

احوال الانسان الثلاثة عند ارتكاب الذنب

إذا أذنب عبد فإنّه لا يخرج من واحدة من الحالات الثلاث التالية:

إمّا أن ينتبه ويرجع عن خطئه ويتوب إلى ربّه.

أو أن ينزل الله عليه العذاب ليعود إلى رشده.

أو أنّه غير أهل للتوبة ولا للعودة للرشد بعد التنبيه له، فيعطيه الله نعمة بدل البلاء وهذا هو: (عذاب الإستدراج) والذي أُشير له في الآيات القرآنية بالتعبير أعلاه وبتعابير أُخرى.

لذا يجب على الإنسان المؤمن أن يكون يقظاً عند إقبال النعم الإلهية عليه، وليحذر من أن يكون ما يمنحه الله من نعم ظاهرية يمثّل في حقيقته (عذاب الإستدراج) ولذلك فإنّ المسلمين الواعين يفكّرون في مثل هذه الأُمور ويحاسبون أنفسهم باستمرار، ويعيدون تقييم أعمالهم دائماً، كي يكونوا قريبين من طاعة الله، ويؤدّون حقّ الألطاف والنعم التي وهبها الله لهم.

جاء في حديث أنّ أحد أصحاب الإمام الصادقعليه السلام قال: إنّي سألت الله تبارك وتعالى أن يرزقني مالاً فرزقني، وإنّي سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني، وسألته أن يرزقني داراً فرزقني، وقد خفت أن يكون ذلك إستدراجاً؟ فقال: «**أمّا مع الحمد فلا**»[1].

٨ ـ ورد عن الإمام الصّادق في هذا الشأن إذ قالعليه السلام «**ما أنعم الله على عبد بنعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنباً يستحقق بذلك السلب**»[2].

٩ ـ ونقرأ في حديث آخر لهعليه السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ بعث نبياً من أنبيائه إلىٰ قومه وأوحى إليه أن قل لقومك: إنّه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء، فتحولوا عمّا أحبّ إلى ما أكره إلّا تحولت لهم عمّا يحبّون إلى ما يكرهون. وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عمّا أكره إلى ما أحبّ إلّا**

١ ـ أُصول الكافي نقلاً عن تفسير نور الثقلين: ١٩٧/٢، ح٥٩.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ١٩٣/٢.

تحولت لهم عمّا يكرهون إلى ما يحبّون»[١].

المحروم من صلاة الليل

١٠ ـ عن الإمام الصادقعليه السلام أيضاً: «إنّ الرجل يذنب فيحرم صلاة الليل، وإنّ العمل السيء أسرع في صاحبه من السكّين في اللحم»[٢].

فساد البرّ والبحر

١١ ـ نقرأ حديثاً عن الإمام الصادقعليه السلام: «حياة دواب البحر بالمطر، فإذا كفّ المطر ظهر الفساد في البحر والبرّ، وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي»[٣].

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ سفينة البحار: ١/٤٨٨.

٣ ـ تفسير القمي: طبقاً لنقل تفسير الميزان: ١٦/٢١٠.

تراكم الذنوب

ورد في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: «ائتوا بحطب، فقالوا: يارسول الله، نحن بأرض قرعاء! قال: فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه. فجاؤوا به حتّى رموا بين يديه، بعضه على بعض، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. هكذا تجمع الذنوب، ثمّ قال: **إيّاكم والمحقّرات من الذنوب، فإنّ لكلّ شيء طالباً، ألا وإنّ طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين**»[١].

هذا الحديث المؤثّر، صورة معبّرة عن أنّ تراكم صغائر الذنوب والمعاصي يمكنه أن يولد ناراً عظيمة اللهب.

نقرأ في حديثٍ للإمام عليعليه السلام قوله: «**أشد الذنوب ما استهان به صاحبهُ**»[٢]

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٣٧٨/٤، ح ٢٥.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٣٤٨.



تبرير الذنوب

مهما كان الذنب كبيراً فإنّه ليس أكبر من تبريره وتوجيهه، لأنّ المذنب المعترف بالذنب غالباً ما يؤوب للتوبة، لكنّ المصيبة تبدأ حين يقوم المذنب بتبرير ذنوبه، فلا ينغلق باب التوبة بوجه الإنسان فحسب بل يتجرّأ علىٰ الذنب ويشتدّ علىٰ مقارفته!

وهذا التعليل أو التوجيه يقع أحياناً لحفظ ماء الوجه وتحسباً من الافتضاح، ولكنّ أسوأ من هذا كلّه حين ينخدع به الضمير و«الوجدان»!

وهذا التعليل ليس أمراً جديداً، ويمكن العثور علىٰ أمثالٍ له علىٰ امتداد التاريخ البشري، وكيف وجّه أكبر مجرمي التاريخ جناياتهم لخداع أنفسهم بتوجيهات مضحكة تجعل كلّ إنسان غارقاً في ذهوله وتعجّبه منها!.

والقرآن المجيد الذي يسعىٰ لتربية وصناعة الإنسان يعالج مسائل من هذا الباب كثيرة منها ما قرأناه في الآيات الآنفة ـ محلّ البحث ـ

ولا بأس بأن نقف علىٰ آيات القرآن لإكمال البحث في هذا الصدد.

١ ـ كان العرب المشركون يتذرّعون أحياناً بسيرة السلف لتوجيه شركهم وتبريره وكانوا يقولون: ﴿إنّا وجدنا آباءنا علىٰ أمّةٍ وإنّا علىٰ آثارهم مقتدون﴾![١].

كما كانوا يتذرّعون أحياناً بنوع من الإجبار فكأنّهم مُجبرون! ويقولون: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾[٢].

---

١ ـ سورة الزخرف: الآية ٢٣.

٢ ـ سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

٢ ـ كما كان بعض ضعفاء الإيمان يأتون إلى النّبي أحياناً متذرّعين عن عدم مشاركتهم في الحرب بأن بيوتهم عورة ﴿ويستأذن فريق منهم النّبي يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلّا فراراً﴾[١].

٣ ـ وربّما تذرّعوا بعدم ذهابهم إلىٰ الحرب لأنّ وجوه نساء الرومان النضرة تسلب قلوبهم وتفتنهم!! ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي﴾![٢].

٤ ـ وربّما تذرّعوا بانشغالهم بأموالهم وأهليهم ونسائهم فيوجّهون ذنبهم الكبير في الفرار عن طاعة أمر رسول الله ﷺ، ﴿سيقول لك المخلّفون من الاعراب شغلتنا اموالنا واهلونا﴾[٣].

٥ ـ والشيطان أيضاً وجّه عدم طاعته لله بمقايسة خاطئة فقال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾![٤].

٦ ـ وفي العصر الجاهلي ومن أجل أن يوجّهوا ذنبهم الكبير وخطأهم في وأد البنات كانوا يقولون نخشىٰ أن تؤسر بناتنا في الحرب وإن غيرتنا وناموسنا يدعواننا إلىٰ قتلهن ودسّهنّ في التراب! وربّما قالوا إنّما نقتل الأطفال خشية الاملاق كما صرّحت به سورة الإسراء وغيرها في القرآن.

كما أنّه يظهر من بعض الآيات أنّ المجرمين يتشبّثون بالكبراء والاقتداء بهم في توجيه ذنوبهم ﴿وقالوا انّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا﴾[٥].

بلاء توجيه الذنوب

إنّ بلاء توجيه الذنب بلاء واسع شمل طائفة عظيمة من الناس عامّهم وخاصهم، وخطره الكبير أنّه يغلق سُبل الإصلاح في وجوههم وربّما غيّر حتىٰ الواقعيات وأعطاها وجهاً آخر عند المذنبين!

---

١ ـ سورة الأحزاب: الآية ١٣.

٢ ـ سورة التوبة: الآية ٤٩.

٣ ـ سورة الفتح : الآية ١١ .

٤ ـ سورة الأعراف: الآية ١٢.

٥ ـ سورة الأحزاب: الآية ٦٧.

اللعب بالألفاظ

فكثير من يوجّه الخوف والجبن بأنّه: إحتياط.

والحرص بأنّه تأمين علىٰ الحياة في «المستقبل».

والتهوّر بأنّه حسم وجرأة.

وضعف النفس بالحياء!

وعدم الاكتراث بالزهد.

وارتكاب الحرام بالحيلة الشرعية.

والفرار من تحمّل المسؤولية بعدم ثبوت الموضوع!!

والتقصير والتفريط بالقضاء والقدر.

وهكذا يغلق الإنسان بيده سبيل نجاته!

وبالرغم من أنّ هذه المفاهيم كلّاً منها له معنىٰ صحيح في محلّه وموقعه، ولكن الإشكال في أنّها حرّفت واتخذت نتيجة مقلوبة، وكم نال المجتمعات البشرية والأُسر والأفراد من أضرار من هذا المنفذ!!.. حفظنا الله جميعاً من هذا البلاء العظيم «آمين».

إن الوجه الحقيقي للذنب لا يتغير أبداً بانقلاب ظاهره، وباستخدام ما يسمى بالحيلة الشرعية، فالحرام حرام سواء أتي به صريحاً، أو تحت لفافات كاذبة، ومعاذير واهية.

إنّ الذين تصوروا أنّه يمكن بالتغيير الصوري تبديل عملٍ حرام إلى حلال يخدعون أنفسهم في الحقيقة، ومن سوء الحظ أن هذا العمل رائج بين بعض الغفلة الذين ينسبون أنفسهم إلى الدين وهذا هو الذي يشوّه وجه الدين في نظر الغرباء عن الدين، ويكرّهه إليهم بشدّة.

إن العيب الأكبر الذي يتسم به هذا العمل ـ مضافاً إلى تشويه صورة الدين ـ هو أن هذا العمل التحايلي يصغر الذنب في الأنظار ويقلّل من أهميته وخطورته وقبحه، ويجرّىء الإنسان في مجال الذنب إلى درجة أنّه يتهيأ شيئاً فشيئاً لإرتكاب الذنوب والمعاصي بصورة صريحة وعلينة. فنحن نقرأ في نهج البلاغة أنّ الإمام علياً عليه السلام قال: **«إنّ القوم سيفتنون بأموالهم، ويمنون بدينهم على ربّهم، ويتمنون رحمته، ويأمنون سطوته، ويستحلّون حرامه**

بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية، فيستحلّون الخمر بالنّبيذ[١] **والسحت بالهدية، والربا بالبيع»**[٢].

ويجب الإنتباه إلى الدافع وراء أمثال هذه الحيل، إمّا إلباس الباطن القبيح بلباس قشيب وإظهاره بمظهرٍ حَسَنٍ أمام الناس، وإمّا خداع الضمير، وإكتساب طمأنينة نفسية كاذبة.

١ ـ كان النبيذ عبارة عن وضع مقدار من التمر أو الشعير أو الزبيب في الماء، عدّة أيّام، ثمّ شربه وهذا وإن لم يكن حراماً شرعاً، ولكنّه على أثر سخونة الهواء تتبدل المواد السكرية فيه إلى مواد كحولية خفيفة.

٢ ـ نهج البلاغة : الخطبة ١٥٦.



الذنوب الكبيرة والصغيرة

إنّ المعاصي والذنوب على قسمين:

القسم الأوّل: هو ما يسمّيه القرآن الكريم بالمعصية الكبيرة.

والقسم الثّاني وهو ما يسمّيه القرآن الكريم بالسّيئة.

والآن يجب أن نعرف ما هو الملاك والضابطة في تحديد الصّغيرة والكبيرة.

يذهب البعض إلى أنّ هذين الوصفين من الأُمور النسبية، تكون كل معصية بالنسبة إلى ما هو أكبر منها صغيرة، وبالنسبة إلى ما هو أصغر منها كبيرة[1].

ولكننا إذا راجعنا المعنى اللغوي للكبيرة وجدنا أنّ الكبيرة هي كل معصية بالغة الأهميّة من وجهة نظر الإسلام، ويمكن أن تكون علامة تلك الأهمية أن القرآن لم يكتف بالنهي عنها فقط، بل أردف ذلك بالتهديد بعذاب جهنم، مثل قتل النفس والزنا وأكل الربا وأمثال ذلك، ولهذا جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام: «**الكبائر التي أوجب الله عز وجل عليها النار**»، وقد روي مضمون هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام، والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام[2].

وعلى هذا الأساس تسهل معرفة المعاصي الكبيرة إذا أخذنا بنظر الإعتبار الضابطة

---

١ ـ وقد نسب العلّامة الطبرسي رحمه الله في تفسير مجمع البيان هذا الإعتقاد إلى علماء الشيعة في حين أنّ الأمر ليس كذلك، فلكثير من علماء الشيعة رأي آخر سنأتي على ذكره بالتفصيل.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ١/٤٧٣.

المذكورة، وما قد ذكر في بعض الروايات من أنّ عدد الكبائر سبع وفي بعضها عشرون وفي بعضها سبعون لا ينافي ما ذكرناه قبل قليل، إذ أنّ بعض هذه الروايات يشير ـ في الحقيقة ـ إلى المعاصي الكبيرة من الدرجة الأُولىٰ، وبعضها الآخر يشير إلى المعاصي الكبيرة من الدرجة الثّانية، وبعضها الثالث يشير إلى جميع الذّنوب الكبيرة.

متى تنقلب الصّغيرة إلى الكبيرة؟

إلّا أنّ هاهنا نقطة مهمّة لابدّ من الإلتفات إليها، وهي أنّ المعاصي الصغيرة تبقى صغيرة ما لم تتكرر، هذا مضافاً إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور وطغيان، لأنّ الصغائر ـ كما يستفاد من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة ـ تتبدل إلى الكبيرة في عدّة موارد هي:

١ ـ إذا «تكررت الصغيرة»، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**لا صغيرة مع الإصرار**»[١].

٢ ـ إذا استصغر صاحب المعصية معصيته واستحقرها، فقد جاء في نهج البلاغة: «**أشدّ الذّنوب ما استهان به صاحبه**»[٢].

٣ ـ إذا ارتكبها مرتكبها عن عناد واستكبار وطغيان وتمرد على أوامر الله تعالى، وهذا هو ما يستفاد من آيات قرآنية متنوعة إجمالاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿**فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى**﴾[٣].

٤ ـ إن صدرت المعصية ممن لهم مكانة إجتماعية خاصّة بين الناس وممن لا تحسب معصيتهم كمعصية الآخرين، فقد جاء في القرآن الكريم حول نساء النّبي صلى الله عليه وآله في سورة الإحزاب: ﴿**يا نساء النّبي من يأتِ منكنّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذاب ضعفين**﴾[٤]، وقد روي عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: ﴿**من سن سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً**﴾[٥].

٥ ـ أن يفرح مرتكب المعصية بما إقترفه من المعصية، ويفتخر بذلك كما روي عن رسول

١ ـ اصول الكافي: ٢٨٨/٢.

٢ ـ نهج البلاغة: الكلمات القصار، رقم ٣٤٨.

٣ ـ سورة النازعات: الآيات ٣٧ ـ ٣٩.

٤ ـ الآية (٣٠).

٥ ـ محجّة البيضاء: ٦١/٧.

الله ﷺ أنّه قال: «من أذنب ذنباً وهو ضاحك دخل النّار وهو باك»[١].

٦ـأن يعتبر تأخير العذاب العاجل عنه على المعصية دليلاً على رضاه تعالى، ويرى العبد نفسه محصناً من العقوبة آمناً من العذاب، أو يرى لنفسه مكانة عند الله لا يعاقبه الله على معصية لأجلها، كما جاء في سورة المجادلة الآية (٨) حاكياً عن لسان بعض العصاة المغرورين الذين يقولون في أنفسهم: ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾، ثمّ يرد عليهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿حسبهم جهنّم﴾[٢].

١ـ ثواب الاعمال : ٢٦٦ .

٢ـ المحجة البيضاء: ٦١/٧.

٧٢

جرس الإنذار

إنّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنّ الله سبحانه ينبّه العصاة الذين لم يتوغّلوا في الخطيئة ولم يغرقوا في الآثام غرقاً، فهو سبحانه ينبّههم بالنذر تارةً، وبما يتناسب مع أعمالهم من البلاء والجزاء تارة أُخرىٰ، فيعيدهم بذلك إلى جادة الحق والصواب. وهؤلاء هم الذين لم يفقدوا بالمرّة قابلية الهداية، فيشملهم اللطف الإلهي، فتكون المحن والبلايا نعمة بالنسبة إليهم، لأنها تكون بمثابة جرس إنذار لهم تنبّههم من غفلتهم، وتنتشلهم من غفوتهم كما يقول الله سبحانه:

﴿ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون﴾[1].

ولكن الذين تمادوا في الذنوب وغرقوا فيها، وبلغ طغيانهم نهايته فإنّ الله يخذلهم، ويكلهم إلى نفوسهم، أيّ أنّه يملي لهم لتثقل ظهورهم بأوزارهم، ويستحقوا الحدّ الأكثر من العقوبة والعذاب المهين.

هؤلاء هم الذين نسفوا كلّ الجسور، وقطعوا كلّ علاقاتهم مع الله، ولم يتركوا لأنفسهم طريق لا العودة إلى ربّهم، وهتكوا كل الحجب، وفقدوا كل قابلية للهداية الإلهية، وكل أهلية للّطف الرّباني.

---

١ ـ سورة الروم: الآية ٤١.

القرآن الكريم يقول: ﴿ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[١].

أجل، إنّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمرض الخبيث، فيأكل إيمانه ويعدمه، ويبلغ الأمر حدّاً يكذب الإنسان فيه آيات الله، وأبعد من ذلك أيضاً إذ يحمل الذنب صاحبه على الإستهزاء بالأنبياء، والسخرية بآيات الله، ويبلغ مرحلة لا ينفع معها وعظ ونصيحة أبداً، ولا تؤثر فيه أية حكمة وأيّة آية، ولا يبقى طريق سوى أسواط عذاب الله المؤلمة له.

إنّ نظرة واحدة في صفحات تاريخ كثير من الجناة والبغاة تكشف أنّهم لم يكونوا هكذا في بداية الأمر، إذ كان لديهم على الأقل نور إيمان ضعيف يشع في قلوبهم، ولكن ارتكابهم للذنوب المتتابعة سبّب يوماً بعد آخر أن ينفصلوا عن الإيمان والتقوى، وأن يبلغوا آخر الأمر إلى المرحلة النهائية من الكفر.

ونلاحظ في خطبة العقيلة زينب عليها السلام أمام يزيد بن معاوية في الشام، النتيجة ذاتها التي أشرنا إليها آنفاً... لأنّها حين رأت يزيد يسخر بكل شيء ويتكلم بكلمات الكفر وأنشد أشعاراً من ضمنها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

وهذه الكلمات تكشف عن عدم إيمانه بأساس الإسلام، فحمدت زينب الله تعالى وصلّت وسلّمت على النّبي صلى الله عليه وآله وقالت:

«صدق الله، كذلك يقول: ﴿ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾»[٢].

أي إذا أنكرت الإسلام والإيمان هذا اليوم بأشعارك المشوبة بالكفر، وتقول لأسلافك المشركين الذين قتلوا على أيدي المسلمين في معركة بدر: ليتكم تشهدون انتقامي من بني هاشم، فلا مجال للتعجب، فذلك ما قاله الله سبحانه: ﴿ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[٣].. وقد ذكرت في هذا الصدد مطالب كثيرة.

---

١ و ٢ ـ سورة الروم: الآية ١٠.

٣ ـ سورة الروم: الآية ١٠.

وعن الإمام علي عليه السلام: «**ولئن أمهل اللّه الظالم فلن يفوت أخذه، وهو له بالمرصاد، على مجاز طريقه، وبموضع الشجى من مساغ ريقه**».[١]

قصّة العابد (برصيصا)

نقل بعض المفسّرين وأئمّة الحديث رواية قصيرة عن عابد إسرائيلي إسمه (برصيصا) وهذه القصّة في الحقيقة يمكن أن تكون موضع إعتبار وعظة للبشرية أجمع، كي يتجنّبوا طريق الهلاك، ويحذروا من الوقوع في مصيدة الشراك الشيطانية النخرة والتي تكون نتيجتها ـ حتماً ـ السقوط في الهاوية.

وخلاصة ما جاء في هذه القصّة ما يلي:

يدّعي «برصيصا» قد عبد الله زماناً من الدهر حتّى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوذهم فيبرؤون على يديه، وانّه أُتي بامرأة قد جنّت وكان لها أُخوة فأتوه بها فكانت عنده، فلم يزل به الشيطان يزيّن له حتّى وقع عليها فحملت، فلمّا إستبان حملها قتلها ودفنها، فلمّا فعل ذلك ذهب الشيطان حتّى لقى أحد أُخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب وانّه دفنها في مكان كذا، ثمّ أتى بقيّة أُخوتها، وهكذا إنتشر الخبر فساروا إليه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذي فعل، فأُمر به فصلب، فلمّا رفع على خشبته تمثّل له الشيطان فقال: أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، وأنا والذي أوقعتك في هذا، فأطعني فيما أقول أُخلّصك ممّا أنت فيه، قال نعم. قال: اسجد لي سجدة واحدة، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة، فقال: أكتفي منك بالإيماء، فأومى له بالسجود فكفر بالله وقتل، فهو قوله تعالى: ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ...**﴾[٢].

نعم هكذا هو مصير من ابتلي بوسوسة الشيطان وسار في خطّه.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.

٢ ـ تفسير مجمع البيان: ٢٦٥/٩، تفسير القرطبي: ٦٥١٨/٩، وجاءت هذه القصّة مفصّلة أكثر في تفسير روح البيان: ٤٤٦/٩.

٧٣

التوبة

من المشاكل التي تقف عائقاً في طريق بعض المسائل التربوبة، هو إحساس الإنسان بعقدةالذنب من جراء الأعمال القبيحة السابقة التي ارتكبها، خاصة إذا كانت هذه الذنوب كبيرة، إذ أنّ الذي يستحوذ على ذهن الإنسان إن أراد التوجّه نحو الطهارة والتقوىٰ والعودة إلى الله، فكيف يتخلص من أعباء الذنوب الكبيرة السابقة.

هذا التفكير يبقىٰ كابوساً مخفياً يرافقه كالظل، فكلّما خطا خطوة نحو تغيير منهاج حياته وسعىٰ نحو الطهارة والتقوىٰ، تحدثه نفسه: ما الفائدة من التوبة؟ فسلاسل أعمالك السابقة تطوق يديك ورجليك، لقد اصطبغت ذاتك بلون الذنب، وهو لون ثابت ولا يمكن إزالته

والمطلعون على مسائل التربية وتوبة المذنبين يدركون جيداً ما ذكرناه، يعلمون حجم هذه المشكلة الكبيرة.

التعاليم الإسلامية في القرآن المجيد حلت هذه المشكلة عندما أفصحت عن أنّ التوبة والإنابة يمكن أن تكون أداة قاطعة وحازمة للإنفصال عن الماضي وبدء حياة جديدة، أو حتىٰ يمكن أن تكون بمثابة (ولادة جديدة) للتائب إذا تحققت بشرطها وشروطها، إذ تكرر الحديث في الروايات الإسلامية بشأن بعض المذنبين التائبين، حيث ورد (كمن ولدته أُمه).

وبهذا الشكل فإنّ القرآن الكريم يبقي أبواب اللطف الإلهي مفتّحة أمام كلّ الناس مهما كانت ظروفهم، والمثال على ذلك الآيات المذكورة آنفاً التي تدعو المجرمين والمذنبين بلطف للعودة إلى الله، وتعدهم بإمكانية محو الماضي.

ونقراً في رواية وردت عن رسول الله ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[١].

كما ورد حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيه: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء**»[٢].

اركان التوبة

يقول سبحانه و تعالىٰ: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً**﴾[٣].

نعم. إنّ أوّل خطوة على طريق النجاة هي التوبة والإقلاع عن الذنب، التوبة التي يكون هدفها رضا الله والخوف منه.

التوبة الخالصة من أي هدف آخر كالخوف من الآثار الإجتماعية والآثار الدنيوية للذنوب. وأخيراً التوبة التي يفارق بها الإنسان الذنب ويتركه إلى الأبد.

ومن المعلوم أنّ حقيقة التوبة هي الندم على الذنب، وشرطها التصميم على الترك في المستقبل. وأمّا إذا كان العمل قابلاً لأن يجبر ويعوّض فلابدّ من الجبران والتعويض، والتعبير بـ﴿يكفّر عنكم﴾ إشارة إلى هذا المعنى. وبناءً على هذا يمكننا تلخيص أركان التوبة بخمسة أُمور (ترك الذنب، الندم، التصميم على الإجتناب في المستقبل، جبران ما مضى، الإستغفار).

توبة النصوح

«نصوح» من مادّة نصح، بمعنى طلب الخير بإخلاص، ولذلك يقال للعسل الخالص بأنّه (ناصح) وبما أنّ من يريد الخير واقعاً يجب أن يكون عمله توأماً للإتقان جاءت كلمة «نصح» أحياناً بهذا المعنى، ولذا يقال للبناء المتين بأنّه «نصاح» ـ على وزن كتاب ـ ويقال للخيّاط «ناصح»، وكلا المعنيين ـ أي الخلوص والمتانة ـ يجب توفّرهما في التوبة النصوح[٤].

وأمّا حول المعنى الحقيقي للتوبة النصوح؟ فقد وردت تفاسير مختلفة ومتعدّدة حتّى

---

١ ـ سفينة البحار: ١٢٧/١، مادة (تاب).

٢ ـ أصول الكافي: ٢١٦/٢، باب التوبة، الحديث ١٠.

٣ ـ سورة التحريم: الآية ٨.

٤ ـ يتصوّر البعض أنّ «نصوح» اسم شخص معيّن، وذكروا له قصّة مفصّلة، ولكن يجب الإلتفات إلى أنّ «نصوح» ليس إسماً لشخص، بل يعطي معنىً وصفيّاً رغم أنّه لا يبعد صحّة القصّة المذكورة.

أوصلها البعض إلى ٢٣ تفسيراً[١].

غير أنّ جميع هذه التفاسير تعود إلى حقيقة واحدة وفروعها والأُمور المتعلّقة بها وشرائطها المختلفة.

ومن هذه التفاسير القول بأنّ التوبة (النصوح) يجب أن تتوفّر فيها أربعة شروط: الندم الداخلي، الإستغفار باللسان، ترك الذنب، والتصميم على الإجتناب في المستقبل.

وقال البعض الآخر بأنّها (أي التوبة النصوح) ذات شروط ثلاثة (الخوف من عدم قبولها، والأمل بقبولها، والإستمرار على طاعة الله.

أو أنّ التوبة «النصوح» التي تجعل الذنوب دائماً أمام أعين أصحابها، ليشعر الإنسان بالخجل منها.

أو أنّها تعني إرجاع المظالم والحقوق إلى أصحابها، وطلب التحليل وبراءة الذمّة من المظلومين، والمداومة على طاعة الله.

أو هي التي تشتمل على أُمور ثلاثة: قلّة الأكل، قلّة القول، قلّة النوم.

أو التوبة النصوح هي التي يرافقها بكاء العين، واشمئزاز القلب من الذنوب وما إلى ذلك من فروع التوبة الواقعية وهي التوبة الخالصة التامّة الكاملة.

التوبة النصوح في كلام النّبيﷺ

جاء في حديث عن رسول اللهﷺ عندما سأله معاذ بن جبل عن «التوبة النصوح» أجابه قائلاً: **«أن يتوب التائب ثمّ لا يرجع في الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع»**[٢].

وبهذا التعبير اللطيف يتّضح أنّ التوبة يجب أن تحدث إنقلاباً في داخل النفس الإنسانية، وتسدّ عليها أي طريق للعودة إلى الذنب، وتجعل من الرجوع أمراً مستحيلاً كما يستحيل إرجاع اللبن إلى الضرع والثدي.

وقد جاء هذا المعنى في روايات أُخرى، وكلّها توضّح الدرجة العالية للتوبة النصوح، فإنّ الرجوع ممكن في المراتب الدنيا من التوبة، وتتكرّر التوبة حتّى يصل الإنسان إلى المرحلة التي لا يعود بعدها إلى الذنب.

---

١ ـ تفسير القرطبي: ١٠/٦٦ و٦٧.

٢ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠/٣١٨.

يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام في مناجاة التائبين:

«إلهي أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك سمّيته التوبة، فقلت ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه !!»[١].

وقد شدّدت الروايات على أهميّة التوبة إلى الحدّ الذي نقرأ في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها»[٢].

كلّ هذه الروايات العظيمة تحثّ وتؤكّد على هذا الأمر الحياتي المهمّ.

نكتة بيضاء في قلب المؤمن

في حديث عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلّا وَفي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجُ فِي تِلْكَ النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا تَابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السَّوَادُ، فَإِنْ تَمَادىٰ في الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السَّوَادُ حَتّىٰ يُغَطِّيَ الْبَيَاضَ، فَإِذَا غُطِّيَ الْبَيَاضُ لَمْ يَرْجِعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَدَاً، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلّا بَلْ رَانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٣]﴾»[٤].

انّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة

وجاء في حديث: أنّ حذيفة بن اليمان يقول: كنت رجلاً ذرب اللسان علىٰ أهلي، فقلت: يا رسول الله إنّي لأخشىٰ أن يدخلني لساني في النّار، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأين أنت من الإستغفار؟ إنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة»[٥]. وجاء في بعض الروايات أنّه كان يستغفر في اليوم سبعين مرّة.

إذا كان الآخرون يستغفرون ممّا ارتكبوا من المعاصي والذنوب، فإنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر الله من تلك اللحظة التي شغل فيها عن ذكره، أو أنّه ترك فعل الأحسن وفعل الحسن.

---

١ ـ المناجات الخامسة عشر بحار الانوار: ١٤٢/٩٤.

٢ ـ أُصول الكافي، ج ٢، باب التوبة، الحديث ٨.

٣ ـ سورة المطففين: الآية ١٤.

٤ ـ أُصول الكافي: ٢٠٩/٢ باب الذنوب، ح ٢٠.

٥ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠٢/٩، ذيل الآيات مورد البحث.

وفي مصادر أهل السنة عن تلميذ الإمام علي «ابن عباس» أنّه قال ﷺ: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. وقرأ هذه الآية»[١].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٢].

خطّة الشيطان

وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾[٣] صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه فقالوا يا سيدنا لم دعوتنا؟

قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين.

فقال: أنا لها بكذا وكذا.

قال: لست لها فقام آخر فقال مثل ذلك.

فقال: لست لها.

فقال: الوسواس الخناس أنا لها.

قال: بماذا؟ قال: أعدهم وامنيهم حتّى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الإستغفار.

فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة»[٤].[٥]

أبناء الاربعين

وقد ورد في حديث: «إنّ الشيطان يمر يده علىٰ وجه من زاد علىٰ الأربعين ولم يتب، ويقول: بأبي وجه لا يفلح»[٦].

ونقل عن ابن عباس: من أتىٰ عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شرّه، فليتجهز إلىٰ النّار.

---

١ ـ نهج البلاغه، الكلمات القصار.

٢ ـ سورة الانفال: الآية ٣٣.

٣ ـ سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

٥ ـ تفسير الميزان: ٢٠/٥٥٧.

٦ ـ تفسير روح المعاني: ٢٦/١٧.

إن لم أكن قد أذنبت في اليوم الّا ذنباً واحداً ...

ونقل عن العالم الكبير (الشيخ البهائي) ما نصّه هكذا: (كان هنالك رجل كثير الحساب لنفسه واسمه (توبة)، حوّل عمره البالغ ستّين عاماً إلى أيّام فكان مجموعها (٢١٥٠٠) وعند ذلك قال: ياويلي إذا لم أكن قد أذنبت في اليوم إلّا ذنباً واحداً فإنّ مجموع ذنوبي الآن يربو على واحد وعشرين ألف ذنب؟ فكيف اُلاقي ربّي بواحد وعشرين ألف ذنب؟ وبينما هو في هذه الحال إذ صرخ صرخة سقط على أثرها على الأرض وسلّم روحه إلى بارئها)[١].

«وحشي» الذي ارتكب أفظع جريمة في ساحة معركة أحد، عندما قتل حمزة عمّ النّبي ﷺ غدراً، وقد كان حمزة قائداً شجاعاً كرّس كلّ حياته في سبيل الدفاع عن النّبي الكريم. وبعبارة اُخرىٰ: إنّه كان درعاً للرسول ﷺ. فبعد أن بلغ الإسلام أوج عظمته وانتصر المسلمون على أعدئهم، أراد وحشي أن يدخل الدين الإسلامي، ولكنّه كان خائفاً من عدم قبول إسلامه،

فنزلت هذه الآية: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً انّه هو الغفور الرحيم﴾**[٢].

فأسلم وقال له النّبي ﷺ: «أخبرني كيف قتلت عمي» فأخبره، فبكى ﷺ، وقال: **«غيب وجهك عنّي فإنّي لا أستطيع النظر إليك»** فلحق بالشام فمات في الخمر[٣]. وهنا تساءل أحدهم: هل أن هذه الآية تخص وحشياً فقط أم تشمل كلّ المسلمين، فأجاب رسول الله ﷺ: إنّها تشمل الجميع.

قصّة النبّاش

دخل معاذ بن جبل على رسول الله باكياً فسلّم فردّ عليه السلام ثمّ قال: «ما يبكيك، يا

---

١ ـ سفينة البحار: ص٤٨٨ مادّة ذنب (باقتباس).

٢ ـ سورة الزمر: الآية ٥٣.

٣ ـ سفينة البحار: ٦٣٧/٢، مادة (وحش) وتفسير الفخر الرازي: ٤/٢٧؛ وتفسير نور الثقلين: ٤٩٣/٤.

معاذ؟» فقال: يا رسول الله، إنّ بالباب شاباً طريّ الجسد نقي اللون حسن الصورة يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك.

فقال النّبي ﷺ: **«ادخل عليّ الشاب يا معاذ»** فأدخله عليه فسلم فردّ عليه السلام قال: **«ما يبكيك يا شاب؟»**

قال: كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوباً، إن أخذني الله عزّوجلّ ببعضها أدخلني نار جهنم؟ ولا أراني إلّا سيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً.

فقال رسول الله ﷺ: **«هل أشركت بالله شيئاً؟»**.

قال: أعوذ بالله أن أشرك بربّي شيئاً.

قال: **«أقتلت النفس التي حرّم الله؟»**.

قال: لا.

فقال النّبي ﷺ: **«يغفر الله لك ذنوبك، وإن كانت مثل الجبال الرواسي»**.

فقال الشاب: فإنّها أعظم من الجبال الرواسيّ.

فقال النّبي ﷺ: **«يغفر الله لك ذنوبك، وإن كانت مثل الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق»**.

قال: فإنها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيه من الخلق.

فقال النّبي ﷺ: **«يغفر الله ذنوبك وإن كانت مثل السماوات ونجومها ومثل العرش والكرسي»**.

قال: فإنّها أعظم من ذلك.

قال: فنظر النّبي ﷺ إليه كهيئة الغضبان ثمّ قال: **«ويحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربّك؟»**.

فخرّ الشاب لوجهه وهو يقول: سبحان ربّي ما شيء أعظم من ربّي، ربّي أعظم يا نبيّ الله من كلّ عظيم.

فقال النّبي ﷺ: **«فهل يغفر الذنب العظيم إلّا الربّ العظيم»**.

قال الشاب: لا والله يا رسول الله، ثمّ سكت الشاب فقال له النّبي ﷺ: **«ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك؟»**.

قال: بلى، أخبرك: إنّي كنت أنبش القبور سبع سنين، أخرج الأموات وأنزع الأكفان، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار فلمّا حملت إلىٰ قبرها ودفنت وانصرف عنها أهلها وجنّ

عليهم الليل، أتيت قبرها فنبشتها ثمّ استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها وتركتها متجرّدة على شفير قبرها ومضيت منصرفاً، فأتاني الشيطان فأقبل يـزيّنها لي... ولم أمـلك نفسي حتى جامعتها وتركتها مكانها. فاذا أنا بصوت من ورائي يقول: يا شاب ويل لك من ديّان يوم الدين،... فما أظن أنّي أشم رائحة الجنّة أبداً فما ترى يا رسول الله.

فقال النّبيﷺ: تنحىٰ عنّي يا فاسق؛ إنّي أخاف أن أحترق بنارك، فما أقربك من النّار!...

فذهب فأتىٰ المدينة فتزوّد منها ثمّ أتى بعض جبالها متعبّداً فيها، ولبس مسحاً وغل يديه جميعاً إلى عنقه، ونادىٰ: يا ربّ هذا عبدك (بهلول) بين يديك مغلول... ثمّ قال: اللّهم ما فعلت في حاجتي إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوح إلى نبيّك، وإن لم تستجب لي دعائي... فأنزل الله تبارك وتعالىٰ على نبيّهﷺ ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الّا الله ولم يصرّوا علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون[١]﴾[٢].

نهاية فضيل

يحكى عن فضيل أنّه كان في أوّل أمره يقطع الطريق بين «أبيورد» و «سرخس»، وعشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾[٣] قال: (بلى والله قد آن) فرجع وأوى إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتّى نصبح، فإنّ فضيلاً قد قطع الطريق علينا. فتاب الفضيل وأمّنهم.

وحكي أنّه جاور الحرم حتّى مات[٤].

المشتاق القلق

نقل بعض المفسّرين أنّ أحد رجال البصرة المعروفين قال: بينما كنت أسير في طريق فسمعت فجأة صيحة، فذهبت متتبعاً آثارها، فشاهدت رجلاً مغمى عليه على الأرض، قلت:

---

١ ـ سورة آل‌عمران: الآية ١٣٥.

٢ ـ بحار الأنوار: ٦/ ٢٤ (طبع بيروت).

٣ ـ سورة الحديد : الآية ١٦.

٤ ـ سفينة البحار: ٢/ ٣٦٩. وتفسير روح البيان: ٩/ ٣٦٥. وتفسير القرطبي: ٩/ ٦٤٢.

ما هذا! قالوا: رجل واعي القلب سمع آية من القرآن وإندهش، قلت: أي آية؟ قالوا: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله...﴾[١] وفجأة أفاق الرجل عند سماع صوتنا وبدأ بقراءة هذا الشعر المؤثّر:

أمـا آن للـهجران أن يـنصرما ... وللـغصن غـصن البـان أن يـتبسّما
وللعاشق الصبّ الذي ذاب وإنحنى ... ألم يأن أن يـبكي عـليه ويـرحـما
كتبت بماء الشـوق بـين جـوانـحي ... كتاباً حكى نـقش الوشـي المـنمنما

قال ذلك ثمّ سقط على الأرض. مدهوشاً مرّة أُخرى، فحرّكناه وإذا به قد سلّم روحه إلى بارئه وربّه[٢].

توبة أبي لبابة

(أبي لبابة الأنصاري) فهو ـ حسب رواية ـ قد امتنع مع اثنين ـ أو أكثر ـ من أصحاب رسول الله ﷺ من الإشتراك في غزوة تبوك، لكنّهم لما سمعوا الآيات التي نزلت في ذم المتخلفين ندموا أشدّ الندم، فجاؤوا إلى مسجد النّبي ﷺ وربطوا أنفسهم بأعمدته، فلمّا رجع رسول الله ﷺ وبلغه أمرهم قالوا بأنهم أقسموا أن لا يفكوا رباطهم حتى يفكّه رسول الله ﷺ، فأجابهم رسول الله ﷺ بأنّه يقسم أيضاً أن لا يفعل ذلك حتى يأذن له الله، فنزلت هذه الآية: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً عسىٰ الله أن يتوب عليهم إنّ الله غفور رحيم﴾[٣]، وقبل الله توبتهم، ففكّ رسول الله ﷺ رباطهم.

فأراد هؤلاء أن يشكروا ذلك، فقدموا كل أموالهم بين يدي رسول الله ﷺ وقالوا: إنّ هذه الأموال هي التي صرفتنا ومنعتنا عن الجهاد، فاقبلها منّا، وأنفقها في سبيل الله، فأخبرهم النّبي ﷺ بأنّه لم ينزل عليه شيء في هذا. فلم تمض مدّة حتى نزلت الآية التي تلي هذه الآية، وأمرت النّبي ﷺ أن يأخذ قسماً من أموال هؤلاء، وحسب بعض الرّوايات فإنّه قبل ثلثها.

ونقرأ في بعض الرّوايات، أن هذه الآية قد نزلت في قصّة بني قريظة مع أبي لبابة، فإن بني

١ ـ سورة الحديد: الآية ١٦.
٢ ـ تفسير نور المعاني: ١٥٦/٢٧.
٣ ـ سورة التوبة: الآية ١٠٢.

قريظة قد استشاروا أبا لبابة في أن يسلّموا لحكم النّبي صلى الله عليه وآله وأوامره، فأشار إليهم بأنّهم إن سلّموا له فسيقتلهم جميعاً، ثمّ ندم على ما صدر، فتاب وشدّ نفسه بعمود المسجد، فنزلت الآية، وقبل الله تعالى توبته[1].

أرجىٰ آية في كتاب الله

إنّ آيات القرآن فتحت الأبواب أمام المذنبين وأعطتهم الأمل، لأنّ الهدف الرئيسي من كلّ هذه الأمور هو التربية والهداية وليس الإنتقام والعنف، فبلهجة مملوءة باللطف والمحبة يفتح الباريء أبواب رحمته أمام الجميع ويصدر أوامر العفو عنهم، عندما يقول: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾**[2].

التدقيق في عبارات هذه الآية يبيّن أنّها من أكثر آيات القرآن الكريم التي تعطي الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة قال بشأنّها أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **«ما في القرآن آية أوسع من يا عبادي الذين أسرفوا...»**[3].

والدليل علىٰ ذلك واضح من وجوه:

١ ـ التعبير بـ **﴿يا عبادي﴾** هي بداية لطف الباريء عزّوجلّ.

٢ ـ التعبير بـ(إسراف)بدلاً من (الظلم والذنب والجريمة) هو لطف آخر.

٣ ـ التعبير بـ **﴿على أنفسهم﴾** يبيّن أنّ ذنوب الإنسان تعود كلّهاعليه، وهذا التعبير هو علامة أُخرىٰ من علامات محبّة الله لعباده، وهو يشبه خطاب الأب الحريص لولده، عندما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هذا!!

٤ ـ التعبير بـ **﴿لا تقنطوا﴾** مع الأخذ بنظر الاعتبار أن «القنوط» يعني ـ في الأصل ـ اليأس من الخير، فإنّها لوحدها دليل على أن المذنبين يجب أن لا يقنطوا من اللطف الإلهي.

٥ ـ عبارة **﴿من رحمة الله﴾** التي وردت بعد عبارة **﴿لا تقنطوا﴾** تأكيد آخر على هذا الخير والمحبّة.

٦ ـ عندما نصل إلى عبارة **﴿إنّ الله يغفر الذنوب﴾** التي بدأت بتأكيد، وكلمة **«الذنوب»**

---

١ ـ تفسير مجمع البيان في ذيل الآية ١٠٢ من سورة التوبة وتفاسير أُخرىٰ.

٢ ـ سورة الزمر: الآية ٥٣.

٣ ـ تفسير مجمع البيان وتفسير القرطبي وتفسير الصافي ذيل الآية ٥٣ من سورة الزمر.

التي جمعت بالألف واللام تشمل كلّ الذنوب من دون أيّ استثناء، فإنّ الكلام يصل إلى أوجه، وعندها تتلاطم أمواج بحر الرحمة الالهية.

٧ـ إنّ ورود كلمة (جميعاً) كتأكيد آخر للتأكيد السابق يوصل الإنسان إلى أقصىٰ درجات الأمل.

٨ و ٩ ـ وصف الباريء عزّوجلّ بالغفور والرحيم في آخر الآية، وهما وصفان من أوصاف الله الباعثة علىٰ الأمل، فلا يبقى عند الإنسان أدنىٰ شعور باليأس أو فقدان الأمل.

نعم، لهذا السبب فإنّ الآية المذكورة أعلاه من أوسع وأشمل آيات القرآن المجيد، حيث تعطي الأمل بغفران كلّ أنواع الذنوب، ولهذا السبب فإنّها تبعث الأمل في النفوس أكثر من بقية الآيات القرآنية. وحقّاً، فإنّ الذي لانهاية لبحر لطفه، وشعاع فيضه غير محدود، لا يتوقع منه أقل من ذلك.

وفي حديث رواه محمّد بن علي عليه السلام عن عمّه محمّد الحنفية عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«أشفع لاُمّتي حتّىٰ يناديني ربّي: أرضيت يا محمّد؟ فأقول: نعم يا ربّ رضيت»**

ثمّ إنّ أمير المؤمنين التفت إلى جماعة وقال:

«يا أهل العراق تزعمون أن أرجى آية في كتاب الله عزّوجلّ: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم...﴾ الآية، وإنّا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله: ﴿ولسوف يعطيك ربّك فترضى﴾ وهي والله الشفاعة ليعطيها في أهل لا إله إلّا الله حتى تقول: ربّ رضيت».[1]

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: دخل رسول اللّه على فاطمة عليها السلام وعليها كساء من خلة الإبل وهي تطحن بيدها وترضع ولدها فدمعت عينا رسول اللّه لما أبصرها فقال: **«يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل اللّه عليَّ ولسوف يعطيك ربّك فترضىٰ»**.[2]

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٥٩٥، الحديث رقم ١٢، في الأصل تفسير أبوالفتوح الرازي: ١٢/١١٠.

٢ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠/٥٠٥.

٧٤

الاستغفار و نزول البركات

إنّ القرآن يقيم رابطة بين المسائل المعنوية والماديّة، فيعدّ الإستغفار من الذنب والتوبة إلى الله أساس العمران والخصب والخضرة والنضرة وزيادة في القوة والاقتدار.

هذه الحقيقة نلمسها في كثير من آيات القرآن الكريم، من هذه الآيات ما ورد في سورة نوح على لسان هذا النّبي العظيم لقومه، حيث تقول الآيات ﴿فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾[١].

دواء لكلّ داء

الطريف هنا أنّنا نقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الربيع بن صبيح: قال: كنت عند الحسن بن علي عليه السلام فجاءه رجل وشكا له من الجدب والقحط، فقال له الحسن عليه السلام: استغفر اللّه، فجاءه آخر فشكا له من الفقر، فقال: استغفر اللّه، فجاءه ثالث وقال له: ادع لي أن يرزقني اللّه ولداً، فقال الحسن عليه السلام: استغفر اللّه، يقول الربيع بن صبيح: فتعجبت وقلت له: ما من أحدٍ يأتيك ويشكو إليك أمره ويطلب النعمة إلّا أمرته بالإستغفار والتوبة إلى اللّه..

فأجابه: «إنّ ما قلته لم يكن من نفسي، وإنّما استفدت ذلك من كلام اللّه الذي يحكيه عن

---

١ ـ سورة نوح: الآيات ٩ ـ ١٢.

لسان نبيّه نوح»، ثمّ تلا الآيات المتقدمة.[1]

بعض الاشخاص اعتادوا على المرور بهذه المسائل مرور الكرام بأن يـقيمون ارتـباطاً معنوياً وعلاقة «غير معروفة» بين هذه الأُمور ويُريحون أنفسهم من كل تحليل. ولكـن إذا دققنا النظر أكثر نجد بين هذه الأُمور علائق متقاربة تشد المسائل المـادية بـالمعنوية فـي المجتمع كالخيط الذي يربط بين قطع القماش مثلاً.

فأيّ مجتمع يكون ملوّثاً بالذنب والخيانة والنفاق والسرقة والظلم والكسل وأمثال ذلك، ثمّ يكون هذا المجتمع عامراً كثير البركات!؟

وأي مجتمع ينزع عنه روح التعاون ويلجأ إلى الحرب والنزاع وسفك الدماء، ثمّ تكـون أرضه خصبة خضراء، ويكون مرفهاً في وضعه الاقتصادي أيضاً؟!

وأي مجتمع يغرق أفراده في دوامة الهوى والميول النفسيّة، ثمّ في الوقت ذاته يكون قويّاً راسخ القدم ويثبت أمام عدوّه؟!

ينبغي القول بصراحة أنّه ما من مسألة أخلاقية إلّا ولها أثر مفيد ونافع في حـياة النـاس المادّية، ولا يوجد اعتقاد وإيمان صحيح إلّا وكان لهما نصيب في بناء مجتمع عـامر حـرّ مستقلّ وقوي..

الافراد الذين يفصلون المسائل الأخلاقية والإيمان بـالدين والتـوحيد عـن المسـائل المادّية لا يعرفون المسائل المعنوية حقّاً ولا المسائل المادّية.

وإذا كان الدين عبارة عن سلسلة مـن التشـريعات والآداب الظـاهرية والخـالية مـن المحتوى بين الناس، فمن البديهي أن لا يكون له تأثير في النظام المادي.

ولكن حين تكون الإعتقادات المعنوية والروحانيّة نافذة في روح الإنسان إلى درجـة تظهر آثارها على يده ورجله ولسانه وأذنه وعينه وجميع ذرات وجوده، فإنّ الآثار البنّاءة لهذه الإعتقادات في المجتمع لا تخفىٰ على أحد.

وقد لا نستطيع إدراك علاقة الإستغفار بنزول البركات المادية جيداً، ولكن دون شك فإنّ قسماً كبيراً منها يمكن أن ندركه!

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٣٦١/١.

من بركات الاجتناب عن الذنب

نقرأ في حالات ابن سيرين مفسر الأحلام المشهور أنّه كان رجلاً بزازاً وكان جميلاً للغاية فعشقته امرأة وتعلق قلبها به، واستدرجته الى بيتها بأساليب وحيل خاصّة، ثمّ غلّقت الأبواب عليه (لينال منها الحرام) لكنه لم يستسلم لهوى تلك المرأة وأخذ ينصحها ويذكر مفاسد هذا الذنب العظيم، ولكن نار الهوى كانت متأججة في قلبها بحيث لم يطفئها ماء الموعظة، ففكر ابن سيرين في الخلاص من قبضتها، فلوّث جَسده بما كان في بيتها من أقذار تنفّر الرائي، فلما رأته المرأة نفرت منه وأخرجته من البيت.

يقال أنّ ابن سيربن أصبح ذكيّاً بعد هذه الحادثة ورزق موهبة عظيمة في تفسير الأحلام، وذكروا قصصاً عجيبة عنه في الكتب التي تتناول تفسير الأحلام تدل على عمق اطلاعه في هذا المجال!

الاستغفار والفرج من كلّ هم

وفي حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**من أكثر الإستغفار جعله الله له من كلّ هم فرجاً ومن كلّ ضيق مخرجاً**»[1].

وفي حديث ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**أكثر الإستغفار تجلب الرّزق**»[2].

ونقل في حديث آخر عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**من أنعم اللّه عليه نعمة فليحمد اللّه تعالى ومن استبطأ الرّزق فليستغفر اللّه، ومن حزنه أمر فيقل: لا حول ولا قوّة إلّا باللّه**»[3].

الاستغفار و ازدياد الرزق

ونقرأ في نهج البلاغة أيضاً[4] : «**وقد جعل اللّه سبحانه الإستغفار سبباً على الرّزق ورحمة**

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٣٥٧، حديث ٤٥.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٤٢٤.

٣ ـ نهج البلاغة : الخطبة ١٤٣ .

٤ ـ المصدر السابق.

الخلق، فقال سبحانه: ﴿استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً﴾[١].

والحقيقة أنّ الحرمان في هذا العالم سببه العقوبات على الذنوب، وفي الوقت الذي يتوب فيه الإنسان ويتخذ طريق الطهارة والتقوىٰ يصرف اللّه تعالى عنه هذه العقوبات.

---

١ ـ سورة نوح: الآية ١١.



اسباب الغفران في القرآن

في كتاب الله أُمور كثيرة تكون أسباباً وعناوين للمغفرة ومحو الذنوب والسيئات، وفيما يلي نشير إلى بعض هذه العناوين:

١ ـ التوبة: ﴿يا أيّها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسىٰ ربّكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾[١].

٢ ـ الإيمان والعمل الصالح: ﴿والذين آمنوا و عملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل علىٰ محمد وهو الحق من ربّهم كفر عنهم سيئاتهم﴾[٢].

٣ ـ التقوىٰ: ونرىٰ مصداقها في قوله تعالى: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم﴾[٣].

٤ ـ الهجرة والجهاد والشهادة: ومصداقها قوله تعالىٰ: ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرنّ عنهم سيئاتهم﴾[٤].

٥ ـ صدقة السر: وذلك قوله تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وأن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئائكم﴾[٥].

---

١ ـ سورة التحريم: الآية ٨.

٢ ـ سورة محمد صلى الله عليه وآله: الآية ٢.

٣ ـ سورة الأنفال، الآية ٢٩.

٤ ـ سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

٥ ـ سورة البقرة، الآية ٢٧١.

٦ ـ الإقراض: كما في قوله تـعالىٰ: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يـضاعفه لكـم ويـغفر لكم﴾[١].

٧ ـ اجتناب كبائر الذنوب: حيث يقول تعالى في[٢]: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم﴾.

وهكذا يتبيّن لنا أن أبواب المغفرة الإلهية مفتوحة من كلّ مكان، وأنّ عباد الله بـوسعهم طرق هذه الأبواب والولوج إلى المغفرة الإلهية. وقد رأينا في الآيات الآنفة الذكر سبعة مـن هذه الأبواب التي تضمن الخلاص لمن يلج أي واحد منها، أو كلّها جميعاً.

١ ـ سورة التغابن: الآية ١٧.

٢ ـ سورة النساء، الآية ٣١.

٧٦

الصبر

الصبر يعني المقاومة والثبات أمام جميع المشاكل والحوادث.

لذلك قال علماء الأخلاق إن الصبر علىٰ ثلاث شعب:

الصبر علىٰ الطّاعة: أي المقاومة أمام المشاكل التي تعتري طريق الطاعة.

الصبر علىٰ المعصية: أي الثبات أمام دوافع الشهوات العادية وارتكاب المعصية.

الصبر علىٰ المصيبة: أي الصمود أمام الحوادث المرّة وعدم الإنهيار وترك الجزع والفزع.

الحديث عن الصبر سبعون مرّة

قلّما كرر القرآن موضوعاً وأكد عليه كموضوع «الصبر»، ففي سبعين موضعاً قرآنياً تقريباً دار الحديث عن الصبر. بينها عشرة تختص بالنّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

تاريخ العظماء يؤكد أن أحد عوامل انتصارهم ـ بل أهمها ـ صبرهم واستقامتهم. والأفراد الفاقدون لهذه الصفة سرعان ما ينهزمون وينهارون. ويمكن القول أن دور هذا العامل في تقدم الأفراد والمجتمعات يفوق دور الإمكانات والكفاءات والذكاء ونظائرها.

من هنا طرح القرآن هذا الموضوع بعبارات مؤكدة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]

وفي موضع آخر يقول سبحانه بعد أن ذكر الصبر أمام الحوادث: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ

---

١ ـ سورة الزمر: الآية ١٠.

الْأُمُورِ﴾[١].

من خصائص الصبر أن بقية الفضائل لا يكون لها قيمة بدونه، لأن السند والرصيد في جميعها هو الصبر، لذلك يقول أميرالمؤمنين علي عليه السلام:

«وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيْمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلاَ خَيْرَ في جَسَدٍ لاَ رَأْسَ مَعَهُ وَلاَ فِي إِيمَانٍ لاَ صَبْرَ مَعَهُ»[٢].

كان نبيّ الإسلام مثال الصبر والإستقامة

إنّ حياة أنبياء الله العظام ـ وخاصة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ـ تبيان لمقاومتهم اللامحدودة أمام الحوادث الصعبة والشدائد العسيرة، والعواصف الهوجاء، والمشاكل القاصمة، ولما كان طريق الحق مليئاً بهذه المشاكل دائماً، فيجب علىٰ سالكيه أن يستلهموا العبر من أولئك العظماء في هذا المسير.

إنّنا ننظر عادة من نقطة مضيئة في تاريخ الإسلام إلىٰ أيّام مرّت علىٰ الإسلام ونبيّه صلى الله عليه وآله وسلم صعبة مظلمة، وهذه النظرة من المستقبل إلىٰ الماضي تجسم الوقائع والحقائق بشكل آخر، فينبغي علينا أن ندرك أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان وحيداً فريداً لا يرىٰ في أفق الحياة أية علامة للإنتصار.

فأعداؤه شمروا عن سواعدهم للفتك به، حتىٰ أنّ أقاربه وعشيرته كانوا في الخط الأوّل في هذه المجابهة!

كان يذهب دائماً إلىٰ قبائل العرب ويدعوهم، ولكن لم يكن يجيبه أحد.

كانوا يرجمونه حتىٰ تسيل الدماء من عقبيه، لكنه لم يكن يكف عن عمله.

لقد فرضوا عليه الحصار الإجتماعي والإقتصادي والسياسي بحيث أغلقوا جميع الأبواب والطرق بوجهه وبوجه أتباعه، حتىٰ مات بعضهم جوعاً، وأقعد المرض بعضهم الآخر.

اللهمّ اليك اشكو

لقد مرّت علىٰ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أيّام يصعب علىٰ القلم واللسان وصفها، فعندما جاء إلىٰ الطائف

---

١ ـ سورة لقمان: الآية ١٧.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٨٢.

ليدعو الناس إلىٰ الإسلام، لم يكتفوا بعدم إجابة دعوته، بل رموه بالحجارة حتىٰ سال الدم من قدميه.

لقد كانوا يحثون الجهلاء من الناس علىٰ أن يصرخوا، ويسيؤوا في كلامهم إليه، فيضطر إلىٰ أن يلتجئ إلىٰ بستان ويستظل بظل شجرة، ويناجي ربّه فيقول: «**اللّهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين: أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلىٰ من تكلني؟ إلىٰ بعيد يتجهمني؟ أم إلىٰ عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي...**»[1].

كانوا يسمونه ساحراً تارة، وأُخرىٰ يخاطبونه بالمجنون.

كانوا يلقون التراب والرماد علىٰ رأسه حيناً، وحيناً يجمعون علىٰ قتله، فيحاصرون بيته بالسيوف والرماح.

إلّا أنّه رغم كلّ تلك الظروف استمر في صبره وصموده واستقامته.

وأخيراً جنىٰ الثمرة الطيبة لهذه الشجرة المباركة، فقد عمّ دينه شرق العالم وغربه، لا جزيرة العرب وحدها، ويدوّي اليوم صوت انتصاره صباح مساء في كلّ أرجاء الدنيا، وفي قارات العالم الخمسة، وهذا هو معنى: ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**﴾[2].

وهذا هو طريق محاربة الشياطين، وطريق الإنتصار عليهم، والوصول إلىٰ الأهداف الإلهية السامية.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف يطمح طلاب الراحة والسلامة إلىٰ أن يصلواإلىٰ أهدافهم الكبيرة من دون صبر وتحمل للعذاب والآلام؟

وكيف يأمل مسلمو اليوم أن ينتصروا علىٰ كلّ هؤلاء الأعداء الذين اجتمعت كلمتهم علىٰ إفنائهم والقضاء عليهم، دون الإستلهام من دين نبي الإسلام الأصيل؟

والقادة الإسلاميون بخاصة مأمورون بهذا الأمر قبل الجميع، كما ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**إنّ الصبر علىٰ ولاة الأمر مفروض، لقول الله عزَّ وجلَّ لنبيّه: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾**[3] **وإيجابه مثل ذلك علىٰ أوليائه وأهل طاعته بقوله: ﴿لقد كان**

---

١ ـ سيرة ابن هشام: ٢/٦١.

٢ و ٣ ـ سورة الاحقاف: الآية ٣٥.

لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[١]»[٢].

وصف استقامة النّبيﷺ في كلام الإمام الصادقؑ

وقد روي في هذا الباب حديث جامع ورائع عن الإمام الصادق ؑ حيث قال لأحد أصحابه: إنّ من صبر صبر قليلاً (وبعده الظفر) وإنّ من جزع جزع قليلاً (ومن بعده الخسران).

ثمّ قال: عليك بالصبر في جميع اُمورك، فإنّ الله عزّوجلّ بعث محمّداً فأمره بالصبر والرفق؛ فقال: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾[٣] وقال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه ولي حميم وما يلقّاها إلّا الذين صبروا وما يلقّاها إلّا ذو حظّ عظيم﴾[٤].

فصبر رسول الله حتّى نالوه بالعظائم ورموه بها ـ فسمّوه ساحراً ومجنوناً وشاعراً، وكذّبوه في دعوته ـ فضاق صدره، فأنزل الله عزّوجلّ عليه: ﴿ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربّك وكن من الساجدين﴾[٥] ـ أي إنّ هذه العبادة تمنحك الإطمئنان والهدوء ـ.

ثمّ كذّبوه ورموه فحزن لذلك، فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿قد نعلم انّه ليحزنك الذي يقولون فإنّهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا واُوذوا حتّى أتاهم نصرنا﴾[٦].

فألزم النّبي نفسه الصبر، فتعدّوا فذكروا الله تبارك وتعالى وكذّبوه، فقال: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي، فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿واصبر على ما يقولون﴾[٧]، فصبر النّبي في جميع أحواله.

ثمّ بُشّر في عترته بالأئمّة ووصفوا بالصبر، فعند ذلك قال: الصبر من الإيمان كالرأس من

---

١ ـ سورة الاحزاب: الآية ٢١.

٢ ـ احتجاج الطبرسي طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٥/٢٣.

٣ ـ سورة المزمّل: الآية ١٠.

٤ ـ سورة فصّلت: الآية ٣٥ ـ ٣٤.

٥ ـ سورة الحجر: الآية ٩٧.

٦ ـ سورة الانعام: الآية ٣٣.

٧ ـ سورة المزمّل: الآية ١٠.

الجسد، فشكر الله عزّوجلّ ذلك له، فأباح له قتال المشركين، فقتلهم الله على يدي رسول الله وأحبّائه، وجعل له ثواب صبره مع ما ادّخر له في الآخرة».

ثمّ أضاف الإمام الصادق عليه السلام: «فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتّى يقرّ الله له عينه في أعدائه مع ما يدّخر له في الآخرة»[1].

ثمانية ابحاث حول الصبر

١ ـ جاء في الحديث الذي رواه الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان، ولم ينشر لهم ديوان، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾»[2].

٢ ـ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ـ يقول في وَصف المتقين: «نَزَلت أنفسهم مِنهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء»[3].

٣ ـ وعن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «واعلم أنّ مع العسر يسراً، وأنّ مع الصبر النصر، وأنّ الفرج مع الكرب...»[4].

٤ ـ ورد في حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال حول أجر الصابرين: «قال اللّه تعالىٰ: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثمّ استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً»[5].

نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين

٥ ـ يقول تعالىٰ:﴿انّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا﴾[6].

---

١ ـ اُصول الكافي: ٢/٧٢ باب الصبر باختصار قليل.

٢ ـ تفسير مجمع البيان ذيل الآية ١٠ من سورة الزمر و نفس المعنىٰ مع اختلاف بسيط ورد في تفسير القرطبي نقلاً عن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٣.

٤ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٦٠٤، حديث ١١، ١٣.

٥ ـ تفسير روح المعاني : ٢٩/١٢٠.

٦ ـ سورة فصّلت: الآية ٣٠.

إنّه تعبيرجميل وشامل يتضمّن كلّ الخير والصفات الحميدة، فأولاً يوجّه القلب إلى الله ويوثق الإيمان به تعالىٰ ويقويه، ثمّ سيطرة هذا الإيمان وهيمنته علىٰ كلّ مرافق الحياة، وثبات السير في هذا الطريق؛ طريق الأستقامة.

هناك الكثير من الذين يدّعون محبة الله، إلّا أنّنا لا نرىٰ الاستقامة واضحة في عملهم وسلوكهم، فهم ضعفاء وعاجزون بحيث عندما يشملهم طوفان الشهوة يودّعون الإيمان ويشركون في عملهم؛ وعندما تكون منافعهم في خطر يتنازلون عن إيمانهم الضعيف ذلك.

٦ ـ في نهج البلاغة يفسّر الإمام علي عليه السلام هذه الآية بعبارات حيّة وناطقة عميقة المعنىٰ يقول عليه السلام: **«وقد قلتم «ربنا الله» فاستقيموا علىٰ كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلىٰ الطريقة الصالحة من عبادته، ثمّ لا تمرقوا منها، ولاتبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها»**[١].

٧ ـ في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه بعد أن تلا هذه الآية : **﴿إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا﴾** قال: **«قد قالها الناس ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها»**[٢].

٨ ـ في مكان آخر نرىٰ أنّ الإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام أجاب في تفسير معنىٰ الاستقامة بقوله: **«هي والله ما أنتم عليه»**[٣].

وهذا لا يعني أنّ الاستقامة تختص بالولاية فقط، بل إنّ قبول قيادة أئمّة أهل البيت عليهم السلام سيضمّن بقاء خط التوحيد، والطريق الإسلامي الأصيل، واستمرار العمل الصالح، وهذا هو تفسيره عليه السلام لمعنىٰ الاستقامة.

وخلاصة القول أن قيمة الإنسان هي بالإيمان والعمل الصالح، وهذه القيمة يتحدث عنها الله تبارك وتعالىٰ بقوله: **﴿قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا﴾**.

٩ ـ روي أنّ رجلاً جاء إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: أخبرني بأمر أعتصم به؟ فقال رسول الله: **«قل ربّي الله ثمّ استقم»**.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٦.

٢ ـ تفسير مجمع البيان في نهاية الحديث عن الآية ٣٢ ـ ٣٠ من سورة فصّلت.

٣ ـ المصدر السابق .

ثم سأن الرجل رسول الله ﷺ عن أخطر شيء ينبغي عليه أن يخشاه. فمسك رسول الله لسانه وقال: هذا[١].

انفعالات اربعة في قبال الحوادث

لا بأس بذكر هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ الناس ينقسمون الى عدّة جماعات إزاء الحوادث العسيرة الصعبة:

١ ـ فجماعة تفقد شخصيّتها فوراً، وكما يعبر القرآن ﴿وإذا مسّه الشر جزوعاً﴾[٢].

٢ ـ وجماعة آخرون يصمدون أمام الأزمات بكل تحمّل وتجلّد.

٣ ـ وجماعة آخرون بالإضافة الى صمودهم وتحملهم للأزمة، فإنّهم يؤدّون الشكر لله.

٤ ـ وجماعة آخرون يتجهون الى الأزمات والمصاعب بشوق وعشق، ويفكرون في كيفية التغلب عليها. ولا يعرفون التعب والنصب في متابعة الأُمور، ولا يهدأون حتى تزول المشاكل.

وقد وعد الله مثل هؤلاء الصابرين بالنصر المؤزر ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين﴾[٣].

وأنعم عليهم وأثابهم في الدار الأُخرىٰ بالجنّة ﴿وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً﴾[٤].

---

١ ـ تفسير روح البيان: ٢٥٤/٨.

٢ ـ سورة المعارج: الآية ٢٠.

٣ ـ سورة الأنفال: الآية ٦٥.

٤ ـ سورة الإنسان: الآية ١٢.



الزهد

ممّا ينبغي الالتفات إليه أن الزهد في الأديان السماوية لا يعني أن لا يتمتع الإنسان بماله وثرواته وإمكاناته الدنيوية، بل حقيقة الزهد هي أن لا يكون أسير هذه الأُمور.. بـل أمـيراً عليها..

ونقرأ حديثاً للإمام الصادقعليه السلام يقول فيه:

«**الدنيا أصغر قدراً عند الله وعند أنبيائه وأوليائه من أن يفرحوا بشيءٍ منها، أو يـحزنوا عليه، فلا ينبغي لعالم ولا لعاقل أن يفرح بعرض الدنيا**»[1].

وكم هو تعبير رائع ما قاله أمير المؤمنينعليه السلام إذ يقول: «**الزهد كلّه بين كلمتين في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾**[2]**، ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطر فيه**»[3].

زهد الأئمة العظماء

لقد وردت في مختلف مصادر الحديث والتّفسير روايات كثيرة عن زهد أئمّة الإسـلام العظماء، ومن جملتها:

---

١ ـ تفسير روح البيان ذيل الآيات ٣٧ ـ ٣٦ من سورة النمل .

٢ ـ سورة الحديد : الآية ٢٣ .

٣ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار ٤٣٩.

جاء في حديث أنّ عمر أتىٰ يوماً رسول الله ﷺ في مشربة أُم إبراهيم ـ وهو موضع قرب المدينة ـ وكان مضطجعاً علىٰ حصير من الخوص، وجزء من بدنه الشريف علىٰ التراب، وكانت تحت رأسه وسادة من ليف النخل، فسلّم وجلس، وقال: أنت نبيّ الله وأفضل خلقه، هذا كسرىٰ وقيصر ينامان علىٰ أسرة الذهب وفرش الديباج والحرير، وأنت علىٰ هذا الحال؟! فقال ﷺ: «**أُولئك قوم عجلت طيّباتهم وهي وشيكة الإنقطاع، وإنّما أخرت لنا طيباتنا**»[1].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه أُتي يوماً بحلوىٰ، فامتنع من تناولها، فقالوا: أتراها حراماً؟ قال: «**لا، ولكني أخشىٰ أن تتوق نفسي فأطلبه، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا...﴾**»[2].

وجاء في حديث آخر: «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إشتهىٰ كبداً مشوية علىٰ خبزة لينة، فأقام حولاً يشتهيها، وذُكر ذلك للحسن عليه السلام وهو صائم يوماً من الأيّام فصنعها له، فلما أراد أن يفطر قرّبها إليه، فوقف سائل بالباب، فقال: **يا بني احملها إليه، لا تقرأ صحيفتنا غداً: ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾**»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: دخل رسول اللّه على فاطمة عليها السلام وعليها كساء من خلة الإبل وهي تطحن بيدها وترضع ولدها فدمعت عينا رسول اللّه لما أبصرها فقال: «**يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل اللّه عليَّ ولسوف يعطيك ربّك فترضىٰ**»[4].

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٨٨/٩.

٢ ـ تفسير البرهان: ١٧٥/٤، ذيل الآية ٢٠ من سورة الاحقاف.

٣ ـ سفينة البحار، الجزء الثاني، مادة كبد.

٤ ـ تفسير مجمع البيان: ٥٠٥/١٠.

٧٨

التوكل

«التوكّل» في الأصل من «الوكالة» وكما قال الراغب: التوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك. ونحن نعلم أنّ الوكيل الصالح له أربع خصال رئيسيّة: العلم الكافي، والأمانة، والقدرة، والمبالغة في رعاية مصلحة موكّله. فإنتخاب الوكيل المحامي يتمّ في الأعمال التي لا يستطيع الإنسان نفسه أن يدافع عنها، فيستفيد من مساعدة قوّة الآخرين في حلّ مشاكله.

وعلى ذلك فالتوكّل على الله يتمّ في حالة عدم إستطاعة الإنسان من حلّ المشاكل الحياتية وفي مقابل الأعداء وإصرار المخالفين، وأحياناً في الطرق المسدودة التي تواجهه في مسيرة أهدافه. ولذلك فهو يستند إلى الله جلّ وعلا ويستمر في سعيه، بل حتّى لو كان مستطيعاً في أداء أعماله، فيجب أن يعلم أنّ الله هو المؤثّر الأصلي، لأنّ الله تعالى في نظر المؤمن هو منبع لكلّ القدرات.

التوكّل ثمرة التوحيد

والنقطة التي تقابل التوكّل على الله هي التوكّل على غيره، يعني الإتّكالية في الحياة والتبعية للآخرين، وعدم الإستقلاليّة، يقول علماء الأخلاق: التوكّل الثمرة المباشرة لتوحيد أفعال الله، لأنّه ـ وكما قلنا ـ من وجهة نظر المؤمن يرتبط كلّ ما في الكون بالنهاية بذات الله المقدّسة، ولذلك فالموحّد يرى أنّ جميع أسباب القدرة والنصر من عند الله.

فلسفة التوكّل

نستفيد ممّا ذكرناه أنّه:

أوّلاً: إنّ الانسان سوف تزداد مقاومته للمشاكل الصعبة لتوكّله على الله الذي هو منبع جميع القدرات والإستطاعات.

ولهذا السبب فعندما إنهزم المسلمون في «أُحد» يقول تعالى: ﴿**الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾.[١]

وهناك نماذج أُخرىٰ للمقاومة والثبات في ظلّ التوكّل، ومن جملتها الآية ١٢٢ من آل‌عمران يقول تعالى: ﴿**إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما وعلى الله فليتوكّل المؤمنون**﴾.

وفي الآية (١٢) من سورة إبراهيم يقول تعالى: ﴿**ولنصبرنّ على ما آذيتمونا**﴾.

وفي الآية (١٥٩) آل‌عمران ﴿**فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحبّ المتوكّلين**﴾.

وكذلك يقول القرآن الكريم: ﴿**إنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون**﴾.[٢]

نستفيد من مجموع هذه الآيات أنّ القصد من التوكّل أن لا يحسّ الإنسان بالضعف في مقابل المشكلات العظيمة، بل بتوكّله على قدرة الله المطلقة يرى نفسه فاتحاً ومنتصراً، وبهذا الترتيب فالتوكّل عامل من عوامل القوّة وإستمداد الطاقة وسبب في زيادة المقاومة والثبات. وإذا كان التوكّل يعني الجلوس في زاوية ووضع إحدى اليدين على الأُخرىٰ، فلا معنى لأنّ يذكره القرآن بالنسبة للمجاهدين وأمثالهم.

رأس المتوكّلين يستفيد من الاسباب الظاهريّة

وإذا إعتقد البعض أنّ التوكّل لا ينسجم مع التوجه إلى العلل والأسباب والعوامل الطبيعيّة، فهو في خطأ كبير، لأنّ فصل العوامل الطبيعيّة عن الإرادة الالهيّة يعتبر شركاً بالله، أو ليست

---

١ ـ سورة آل‌عمران: الآية ١٧٣.

٢ ـ سورة النحل: الآية ٩٩.

هذه العوامل تسير بأوامر ومشيئة الله؟

نعم إذا إعتقدنا أنّ العوامل مستقلّة عن إرادته فهي لا تتناسب مع روح التوكّل. فهل من الصحيح أن نفسّر التوكّل بهذا التّفسير، مع أنّ الرّسول الأكرم ﷺ الذي هو رأس المتوكّلين لم يغفل من إستخدام الخطط الصحيحة والإستفادة من الفرص المتاحة وأنواع الوسائل والأسباب الظاهرية لتحقيق أهدافه، إنّ هذا يثبت أنّ التوكّل ليس له مفهوم سلبي.

ثانياً: إنّ التوكّل ينجّي الإنسان من التبعية التي هي أصل الذلّ والعبودية، ويمنحه الحرية والإعتماد على النفس.

«التوكّل» و «القناعة» لهما جذور مشتركة، وفلسفتهما متشابهة، وفي نفس الوقت متفاوتة، ولا بأس هنا أن نذكر عدّة روايات في مجال التوكّل وأصله وجذوره:

١ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الغنا والعزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطنا**»[١] وقد عرّف الإمام التوكّل بأنّه موطن العزّة وعدم الحاجة للآخرين.

٢ ـ وعن النّبي ﷺ قال: **سألت جبرئيل: ما هو التوكّل؟ قال: (العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وإستعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله فهذا هو التوكّل)**[٢].

٣ ـ وسئل الإمام الرضا عليه السلام: **ما حدّ التوكّل؟ فقال: «أن لا تخاف مع الله أحداً»**[٣].

٤ ـ ونقرأ في حديث أنّ النّبي ﷺ سأل الله سبحانه ليلة المعراج: **يارِبّ أيّ الأعمال أفضل؟!**

فقال تعالى: «ليس شيء عندي أفضل من التوكّل عليّ والرضا بما قسمت، يامحمّد! وجبت محبّتي للمتحابّين فيّ ووجبت محبّتي للمتعاطفين فيّ ووجبت محبّتي للمتواصلين فيّ، ووجبت محبّتي للمتوكّلين عليّ وليس لمحبّتي علم ولا غاية ولا نهاية[٤].

---

١ ـ أُصول الكافي، المجلّد الثّاني، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه حديث ـ ٣.

٢ ـ بحار الأنوار، ج ١٥ القسم الثّاني في الأخلاق، ص ١٤ الطبعة القديمة.

٣ ـ سفينة البحار: ٢/٦٨٢ مادة (وكل).

٤ ـ المصدر السابق.

٧٩

تفويض الأمور إلى الله

فيما يخص التفويض إلى الله تبارك وتعالىٰ يكفي أن نفتتح الحديث بقول لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جاء فيه: «الإيمان له أربعة أركان: التوكل علىٰ الله، وتفويض الأمر إلى الله عزّوجلّ والرضى بقضاء الله، والتسليم لأمر الله»[١].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق أنّه عليه السلام قال: «المفوض أمره إلىٰ الله في راحة الأبد، والعيش الدائم الرغد، والمفوض حقّاً هو العالي عن كلّ همة دون الله»[٢].

«التفويض» كما يقول الراغب في مفرداته، يعني «التوكل، لذا فإنّ تفويض الأمر إلى الله يأتي بمعنىٰ توكيل الأعمال إليه، وهذا لا يعني أن يترك الإنسان الجد والجهد، إذ أنّ هذا السلوك ينطوي على فهم محرّف لمعنىٰ التفويض، بل عليه أن يبذل كلّ جهده ولا يتخوّف الصعاب التي تواجهه، أو يترك العمل إذعاناً لها، بل عليه أن يسلّم أمره وعمله إلى الله، ويستمر في بذل الجهد بعزم راسخ وهمة عالية.

وبالرغم من أنّ «التفويض» يشبه «التوكل» إلى حدٍ كبير، إلّا أنّه يعتبر مرحلة أفضل منه. لأنّ حقيقة (التوكل) هي أن يعتبر الإنسان الله تبارك وتعالىٰ وكيلاً عنه، لكن التفويض يعني التسليم المطلق لله تعالىٰ. وفي حياتنا العملية نرىٰ أنّ الانسان الذي يتخذ لنفسه وكيلاً يواصل إشرافه على عمله. إلّا أنّه في حالة التفويض لا يبقىٰ أي مجال لإشراف من أي نوع، بل تترك الأمور إلى من فوّضت إليه.

---

١ ـ بحار الأنوار: ٣٤١/٦٨.

٢ ـ سفينة البحار: ٣٨٤/٢، مادة «فوض».

٨٥

النفاق العملي

للنفاق معنى واسع يشمل كلّ أنواع إختلاف الظاهر عن الباطن، ومصداقه البارز هو النفاق العقائدي الذي تتحدّث عنه سورة المنافقون.

أمّا النفاق العملي فهو وصف لحالة بعض الناس المؤمنين بالإسلام حقّاً، ولكنّهم يرتكبون أعمالاً تناقض إعتقادهم، كالكذب ونقض العهد وخيانة الأمانة.

جاء في رواية عن الرّسول ﷺ «ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً، وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف»[١].

وفي حديث آخر عن الرّسول ﷺ «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»[٢].

وفي حديث آخر عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام «إنّ المنافق ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي»[٣].

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَلرِّيَاءُ شَجَرَةٌ لاَ تُثْمِرُ إلاَّ الشِّرْكَ الْخَفِيَّ، وَأَصْلُهَا النِّفَاقُ»[٤].

---

١ ـ سفينة البحار: ٢/٦٠٥ مادة (نفق).

٢ ـ أُصول الكافي ج ٢ (باب صفة النفاق حديث ٦).

٣ ـ المصدر السابق، حديث ٣.

٤ ـ سفينة البحار، ج ١، مادة (رئى).

٨١

الشكر

ممّا لا شكّ فيه أنّ الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى شكرنا في مقابل نعمه علينا، وإذا أمرنا بالشكر فذاك لنستوجب نعمة أُخرىٰ وهي واحدة من المبادىء السامية في التربية.

المهمّ أن نعرف ما هي حقيقة الشكر؟ لكي يتّضح علاقته في زيادة النعمة من أين؟ وكيف تستطيع أن تكون عاملاً مهمّاً للتربية؟

إنّ حقيقة الشكر ليس فقط ما يقوله الإنسان (الحمد لله) أو الشكر اللفظي، بل هناك ثلاث مراحل للشكر:

الأُولىٰ: يجب أن نعلم مَن هو الواهب للنعم؟ هذا العلم والإيمان الركن الأوّل للشكر.

والثّانية: الشكر باللسان.

والثّالثة: وهي الأهمّ الشكر العملي، أي أن نعلم الهدف من منحنا للنعمة، وفي أيّ مورد نصرفها، وإلّا كفرنا بها، كما قال العظماء: **(الشكر صرف العبد جميع ما أنعمه الله تعالى فيما خلق لأجله)**.

يقول سبحانه و تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها**﴾[١].

ويقول: ﴿**قليلاً ما تشكرون**﴾[٢].

ويقول: ﴿**ولكن اكثرهم لا يشكرون**﴾[٣].

---

١ ـ سورة ابراهيم: الآية ٣٤.

٢ ـ سورة الاعراف: الآية ١٠.

٣ ـ سورة يونس: الآية ٦٠.

إنّكم غارقون في النعم الإلٰهية وفي كل نفس يصعد وينزل آلاف النعم (ولكل نعمة شكر واجب).

إنّ كل دقيقة تمر من عمرنا نكون فيها مدينين لفعاليات ملايين الموجودات الحيّة في داخل بدننا وملايين الموجودات الحية وغير الحية في خارجه، والتي لا يمكننا أن نحيا ولو للحظة واحدة بدونها.

ولكنّ ضبابية الغفلة حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجمة التي كلّما خطا العلم الحديث خطوة إلىٰ الأمام اتّضحت لنا أبعاد واسعة وانفتحت لنا آفاقاً جديدة في معرفة النعم الإلٰهية، وكل ما ندركه في هذا المجال قليل جدّاً ممّا قدّره الباري لنا، فهل بإمكان المحدود أن يعد ما أعطاه المطلق؟!

ونواجه في هذا المقام سؤالاً وإستفساراً: كيف إذَنْ نؤدي حق الشكر للّه؟ و.. ألسنا مع ما نحن فيه زمرّة الجاحدين؟

وقوله تعالىٰ: ﴿إنّ اللّه لغفور رحيم﴾ خير جواب لما واجهنا به.

نعم، فهو سبحانه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا علىٰ عدم الإستطاعة في أداء أتمّ الشكر علىٰ نعمه.

ويكفينا من لطفه تعالىٰ بأن يحسبنا من الشاكرين في حال اعتذرنا له واعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

ولكن هذا لا يمنع من أن نتتبع ونحصي النعم الرّبانية بقدر المستطاع، لأنّ ذلك يزيدنا معرفة للّه، وعلماً بعالم الخليقة، وآفاق التوحيد الرحبة، كما يزيد من حرارة عشقه سبحانه في أعماق قلوبنا، وكذا يحرك فينا الشعور المتحسس بضرورة ووجوب شكر المنعم جل وعلا.

ولهذا نجد أنّ الأئمّة عليهم السلام يتطرقون في أقوالهم وأدعيتم ومناجاتهم إلىٰ النعم الإلٰهية ويعدون جوانب منها، عبادةً للّه وتذكيراً ودرساً للآخرين.

بتعبير آخر، فإنّ «الشكر المطلق»، هو أن يكون الإنسان على ذكر دائم لله بلا أدنى نسيان، سائراً في طريقه تعالى بدون أيّة معصية، طائعاً لأوامره بلا أدنى لفّ أو دوران، ومسلّم بأنّ هذه الأوصاف لا تجتمع إلّا في القلّة النادرة، ولا يصغى إلى قول من يقول: إنّه أمر بما لا يطاق،

فإنّه ناشيء من قلّة التدبّر في هذه الحقائق والبعد من ساحة العبودية[١].

افضل طريق الشكر

لماذا أعطانا الله تعالى العين؟ ولماذا وهبنا السمع والنطق؟ فهل كان السبب غير أن نرى عظمته في هذا العالم، ونتعرّف على الحياة؟

وبهذه الوسائل نخطو إلى التكامل، ندرك الحقّ وندافع عنه ونحارب الباطل، فإذا صرفنا النعم الإلهيّة في هذا المسير كان ذلك هو الشكر العملي له، وإذا أصبحت هذه الأدوات وسيلة للطغيان والغرور والغفلة والإبتعاد عن الله فهذا هو عين الكفران!

يروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«**أدنى الشكر رؤية النعمة من الله من غير علّة يتعلّق القلب بها دون الله، والرضا بما أعطاه، وأنّ لا تعصيه بنعمة وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب من نعمته**»[٢].

وهنا يتّضح أنّ شكر العلم والمعرفة والفكر والمال والسلامة، كلّ واحد منها من أي طريق يتمّ؟ وكيف يكون كفرانها؟

الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام دليل واضح على هذه التّفسيرات حيث يقول: «**شكر النعمة إجتناب المحارم**»[٣].

وتتضّح أيضاً هذه العلاقة بين الشكر وزيادة النعمة، لأنّ الناس لو صرفوا النعم الإلهيّة في هدفها الحقيقي، فسوف يثبتون عمليّاً إستحقاقهم لها وتكون سبباً في زيادة الفيوضات الإلهيّة عليهم.

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: «نعم» قلت: ما هو؟ قال: **يحمد الله على كلّ نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حقّ أدّاه**»[٤].

---

١ ـ تفسير الميزان: ٣٨/٤.

٢ ـ سفينة البحار: ٧١٠/١ مادة (شكر).

٣ ـ تفسير نور الثقلين: ٥٢٩/٢.

٤ ـ اصول الكافي: ٩٥/٢، باب الشكر، ح ١٢ و ح ١٠.

الشكر التكويني والشكر التشريعي

من الثابت أنّ هناك نوعين من الشكر، (شكر تكويني) و (شكر تشريعي). «الشكر التكويني» هو أن يستفيد الكائن الحي من مواهبه في نموّه ورشده، فمثلاً يرى المزارع أنّ القسم الفلاني من مزرعته تنمو فيه الأشجار بشكل جيد، وكلّما يخدمها أكثر تنتج أكثر، فهذا الأمر سوف يؤدّي إلى أن يقوم المزارع على خدمة وتربية ذلك القسم بشكل أكبر، ويوصي مساعديه بها، لأنّ الأشجار تناديه بلسان حالها: أيّها المزارع، نحن لائقون مناسبون، أفض علينا من النعم، وهو يجيبهم بالإثبات.

أمّا إذا رأى في قسم آخر أشجاراً ذابلة ويابسة وليس لها ثمر، فكفران النعمة من قبلها بهذه الصورة يسبّب عدم إعتناء المزارع بها، وإذا استمرّ الوضع بهذا الحال سوف يقوم بقلعها.

وهذه الحالة موجودة في عالم الإنسانيّة بهذا التفاوت، وهو أنّ الأشجار ليس لها الإختيار، بل هي خاضعة للقوانين التكوينيّة، أمّا الإنسان فباستفادته في إرادته وإختياره وتربيته التشريعيّة يستطيع أن يخطو في هذا المجال خطوات واثقة.

ولذلك فمن يستخدم نعمة القوّة في الظلم، ينادي بلسان حاله: إلهي، أنا غير لائق لهذه النعمة، ومن يستخدمها لإقامة الحقّ والعدالة يقول بلسان حاله: إلهي، أنا مناسب ولائق فزد نعمتك عليّ!

وهناك حقيقة غير قابلة ـ أيضاً ـ للترديد، وهي أنّنا في كلّ مرحلة من مراحل الشكر الإلهي ـ إن كان باللسان أو العمل ـ سوف نحتاج إلى شكر جديد لمواهب وعطايا جديدة، ولذلك فلسنا قادرين أن نؤدّي حقّ الشكر، كما نقرأ في مناجاة الشاكرين للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: **«كيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد»**!

ولهذا فإنّ أعلى مراحل الشكر أن يُظهر الإنسان عجزه أمام شكر نعمائه تعالى، كما جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **«فيما أوحى الله عزّوجلّ إلى موسى: اشكرني حقّ شكري، فقال: ياربّ، وكيف أشكرك حقّ شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: ياموسى، الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك منّي»**[١].

---

١ ـ أُصول الكافي: ٤/٨٠ باب الشكر.

وأمّا بنعمة ربّك فحدّث

هذه هي خصلة الإنسان السخي الكريم... يشكر اللّه على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، خلافاً للسخفاء البخلاء الذين لا يكفون عن الشكوىٰ والتأوه، ولا يكشفون عن نـعمة ولو حصلوا على الدنيا وما فيها، وجوههم يعلوها سيماء الفقر، وكلامهم مفعم بالتذمّر والحسرة، وعملهم يكشف عن فقر!

بينما روي عن رسول اللّهﷺ قال: «**إنّ اللّه تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه**»[١]

عن الرّسول الأكرم ﷺ: «**الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر**»[٢].

عدّة نقاط في مجال شكر النعمة

١ ـ قال الإمام عليعليه‌السلام في إحدى حكمه: «**إذا وصلت إليكم أطراف النعم فـلا تـنفروا أقصاها بقلّة الشكر**»[٣].

ورد عن رسول اللهﷺ هذه المعاني (**من أوتي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على أمر دنياه وأُخراه فقد أُوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسـنة ووُقـي عـذاب النار**)[٤].

يقول الامام الباقرعليه‌السلام في حديثٍ عن نوحعليه‌السلام: «**كان نوحعليه‌السلام يدعو حين يمسي ويصبح بهذا الدعاء: «أمسيت أشهد أنّه ما أمسىٰ بي من نعمة في دين أو دنيا فإنّها من اللّه لا شريك له، له الحمد بها عليّ والشكر كثيراً، فأنزل اللّه: ﴿إنّه كان عـبداً شكـوراً﴾[٥] فـهذا كـان شكره**»[٦].

---

١ ـ نهج الفصاحة، حديث ٦٨٣.

٢ ـ تفسير مجمع البيان، والقرطبي، والفخر الرازي، والصافي.

٣ ـ نهج البلاغة الكلمات القصار، رقم ١٣.

٤ ـ تفسير مجمع البيان: ١/ ٢٩٨.

٥ ـ سورة الاسراء: الآية ٣.

٦ ـ بحار الأنوار: ١١/ ٢٩١، ح ٣.

اشكركم لله اشكركم للنّاس

٢ ـ يجب الإلتفات إلى هذا الموضوع، وهو أنّ الشكر والحمد ليس كافياً في مقابل نعمائه تعالى، بل يجب أن نشكر ـ كذلك ـ الأشخاص الذين كانوا وسيلة لهذه المواهب ونؤدّي حقوقهم من هذا الطريق، ونشوّقهم أكثر بالخدمة في هذا السبيل، كما نقرأ في الحديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «**وإنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين ويحبّ كلّ عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يارب، فيقول: لِمَ تشكرني إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس**»[1].

٣ ـ إنّ الوعد في زيادة نعم الشاكرين لا ينحصر في النعم المادية فقط، بل الشكر نفسه مصحوباً بالتوجّه الخاص لله والحبّ لساحته المقدّسة هو واحد من النعم الإلهيّة الروحيّة الكبيرة، والتي لها تأثير كبير في تربية نفوس الناس، ودعوتهم لطاعة الأوامر الإلهيّة، بل الشكر ذاته طريق إلى معرفة الله، ولهذا السبب ورد عن علماء العقائد في علم الكلام أنّ وجوب شكر المنعم طريق إلى إثبات وجوب معرفة الله.

٤ ـ إنّ إحياء روح الشكر في المجتمع وتقديمه إلى مستحقّيه وتقديرهم وحمدهم وثنائهم على خدمتهم في طريق تحقيق الأهداف الإجتماعية بعلمهم ومعرفتهم وإيثارهم وإستشهادهم، هو عامل مهمّ في حركة ورُقيّ المجتمع.

ففي المجتمع الفاقد للشكر والتقدير نجد القليل جدّاً ممّن يريد الخدمة، وعلى العكس فالمجتمع الذي يقيّم ويثني على خدمات الأشخاص، يكون أكثر نشاطاً وحيوية.

والإلتفات إلى هذه الحقيقة أدّى إلى أن تقام في عصرنا مراسيم إحتفال لتقدير وشكر الأساطين في الذكرى المئوية، أو الذكرى الألفية، وضمن هذا الشكر لخدماتهم يدعى الناس إلى الحركة والسعي بشكل أكبر.

---

١ ـ أُصول الكافي: ٢/٩٩ ـ ح ٣٠.

٨٢

الكفر بالنعم

تصور لنا الآيات القرآنيّة عاقبة الكفر بالنعم الإلٰهية علىٰ شكل مثل واقعي.

ويبتدأ التصوير القرآني بضرب مثل لمن لم يشكر نعمة اللّه عليه: ﴿**ضرب اللّه مثلاً قرية كانت آمنة**﴾ لا تضطر إلىٰ هجرة إجبارية، بل تعيش في أمن وأمان (**مطمئنة**) ومضافاً الىٰ ذلك ﴿**يأتيها رزقها رغداً من كل مكان**﴾.

ولكنّ حالها قد تبدّل في النهاية ﴿**فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**[١]﴾[٢].

انذار عظيم

وعرض الحادثة ما هو إلّا تنبيه للناس ولكل الأمم الغارقة بالنعم الإلٰهية، علىٰ أنّ الإسراف والتبذير وتضييع النعم لا ينجو من عقوبة وغرامة ثقيلة الوقع.

وهو تنبيه أيضاً للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) في أكياس الأوساخ دائماً.

وهو تنبيه كذلك لأُولئك الذين يهيئون غذاءً يكفي لعشرين شخصاً، وليس لهم من الضيوف إلّا أربعة، ولا يصل الزائد منه إلىٰ بطون الجياع من الناس.

---

١ ـ سورة النحل: الآية ١١٢.

٢ ـ سورة النحل: الآية ١١٢.

وهو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية في بيوتهم لاستعمالهم الخاص، ويملؤون مخازنهم انتظاراً لارتفاع سعرها في الأسواق حتىٰ يفسد ويذهب هباءً من غير أنْ يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم، فلا يخلو أيّ عمل ممّا ذكر من عقوبة إلٰهية، وأقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.

وتتّضح أهمية المسألة إذا علمنا أنّ المواد الغذائية علىٰ سطح الكرة الأرضية محددة بنسبة، فأيُّ إفراطٍ في أيِّ نوع من المواد يؤدي إلىٰ حرمان نسبة من البشر من تلك المواد.

ولذلك جاء التأكيد الشديد حول هذه المسألة في الأحاديث الشريفة، حتىٰ روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: **«كان أبي يكره أن يمسح يده في المنديل وفيه شيء من الطعام تعظيماً له، إلّا أنْ يمصها، أو يكون إلىٰ جانبه صبي فيمصها، قال: فإنّي أجد اليسير يقع من الخوان فأتفقده فيضحك الخادم، ثمّ قال: إنّ أهل قرية ممن كان قبلكم كان اللّه قد وسّع عليهم حتىٰ طغوا، فقال بعضهم لبعض: لو عمدنا إلىٰ شيء من هذا النقي فجعلناه نستنجي به كان ألين علينا من الحجارة، قال عليه السلام: فلما فعلوا ذلك بعث اللّه علىٰ أرضهم دواباً أصغر من الجراد فلم تدع لهم شيئاً خلقه اللّه إلّا أكلته من شجر أو غيره، فبلغ بهم الجهد إلىٰ أنّ أقبلوا علىٰ الذي كانوا يستنجون به، فأكلوه، وهي القرية التي قال اللّه تعالىٰ: ﴿ضرب اللّه مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة﴾ إلىٰ قوله: ﴿بما كانوا يصنعون﴾»**[١]

فروع كفران النعمة

ليس «**كفران النعم**» عدم الشكر اللساني فقط، بل كلّ إستفادة غير صحيحة ومنحرفة للنعم، تلك هي حقيقة الكفران، وأمّا عدم الشكر باللسان ففي الدرجة الثانية، وكما قلنا سابقاً فإنّ شكر النعمة تعني صرفها في الهدف الذي خُلِقَت من أجله، والشكر عليها باللسان يأتي في الدرجة الثانية، فإذا قلنا آلاف المرّات: الحمد لله، ولكنّنا أسأنا عمليّاً الإستفادة من النعم، فذلك كفران للنعم.

وفي عصرنا الحاضر أفضل نموذج لتبديل النعم بالكفران هو إستخدام الإنسان لمواهب

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٣/٩١ و ٩٢

الطبيعة بفكره ومهارته التي منحها الله للإنسان لخدمة منافعه الخاصّة. فالإكتشافات العلميّة والخبرات الصناعية غيّرت وجه العالم ورفعت عن كاهل الإنسان عبئاً ثقيلاً ووضعته على عجلات المعامل. فالمواهب والنعم الإلهيّة أكثر من أي زمن آخر، ووسائل نشر المعارف وإنتشار العلوم ومعرفة جميع أخبار العالم متوفّرة في أيدي الجميع، فيجب على الناس في هذا العصر أن يكونوا سعداء من الناحية الماديّة والمعنوية.

ولكن بسبب تبديل النعم الإلهيّة الكبيرة إلى كفران، وصرف القوى الطبيعيّة في طريق الظلم والطغيان وإستخدام الإختراعات والإكتشافات في طريق الأهداف المخربة بحيث أنّ كلّ تطور صناعي يستخدم أوّلاً في عمليات التدمير. وخلاصة القول: إنّ عدم الشكر هذا والذي هو بعيد عن التعاليم الصالحة للأنبياء أدّى إلى أن يجرّوا قومهم ومجتمعهم إلى دار البوار.

83

ذكر الموت

إنّ الإعتقاد بعالم ما بعد الموت وبقاء آثار الأعمال البشرية، وخلود الأعمال ـ سواء كانت خيراً أو شرّاً ـ يترك أثره العميق على فكر وأعصاب وجسد الإنسان، ويمكنه أن يكون عاملاً مؤثّراً في التشجيع على الأعمال الحسنة.

إنّ تأثير الإيمان بالحياة بعد الموت في إصلاح الأفراد الفاسدين والمنحرفين وتشجيع الأفراد المضحّين والمجاهدين، أكثر بكثير من تأثير المحاكم والعقوبات المعمول بها عادةً في الدنيا، للمزايا التي يتمتّع بها ذلك الإيمان عن المحاكم العادية، ففي محكمة المعاد لا وجود لإعادة النظر، ولا أثر للإضطهاد الفكري على صاحبها، ولا فائدة من إعطاء وثائق كاذبة ومزوّرة، ولا تستغرق ـ عبر روتينها ـ مدّة من الزمن.

القرآن الكريم يقول: ﴿**واتّقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون**﴾.[١]

كذلك يقول تعالى: ﴿**ولو أنّ لكلّ نفس ظلمت ما في الأرض لأفتدت به وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون**﴾.[٢]

كذلك قوله تعالى: ﴿**ليجزي الله كلّ نفس ما كسبت إنّ الله سريع الحساب**﴾.[٣]

وإنّ حسابه تعالى سريع وحاسم كما نقلت بعض الروايات: «إنّ الله تعالى يحاسب

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٤٨.

٢ ـ سورة يونس: الآية ٥٤.

٣ ـ سورة إبراهيم: الآية ٥١.

الخلائق كلّها في مقدار لمح البصر»[١].

فمن يعمل مثقال ذرّة ...

روي عن عبد اللّه بن مسعود قال: إنّ أحكم آية في القرآن: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرّاً يره**﴾. وكان رسول اللّهﷺ يسميها «**الجامعة**»[٢]. وحقّاً، لو تدبر الإنسان في محتوى هذه الآية تكفيه دافعاً إلى طريق الخير وناهياً عن طريق الفساد والإنحراف.

لذا ورد أنّ رجلاً جاء النّبيﷺ وقال له: علمني ممّا علمك اللّه.

فأوكله النبيّﷺ إلى أحد أصحابه ليعلمه القرآن، فعلمه: ﴿**إذا زلزلت الأرض**﴾ إلى آخر السّورة. فنهض الرجل وقال: هذه تكفيني... وفي رواية قال: تكفيني هذه الآية.

فأخبر بذلك النبيّﷺ فقال: «**دعه فقد فقه الرجل**»[٣]

وعن أبي سعيد الخدري قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره**﴾ قلت: يارسول اللّه إنّي لراء عملي؟ قال: **نعم**. قلت: الكبار الكبار. قال: **نعم**. قلت: الصغار الصغار. قال: **نعم**. قلت واثكلى أُمي، قال: **ابشر يا أبا سعيد فإنّ الحسنة بعشر أمثالها يعني إلى سبعمائة ضعف، واللّه يضاعف لمن يشاء والسيئة بمثلها أو يعفو اللّه، ولن ينجو أحد بعمله**. قلت: ولا أنت يا نبيّ اللّه؟ قال: **ولا أنا إلّا أن يتغمدني اللّه منه بالرحمة**.[٤]

كلام سلمان الجميل

نزيّن هذه الرّوايات بقول لسلمان الفارسي تلميذ مدرسة الوحي جواباً لرجل استهدف اهانته وقال له: من أنت، وما قيمتك! فقال: «**أمّا أولي وأولك فنطفة قذرة، وأمّا أخري وأخرك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة، ونصبت الموازين، فمن ثقلت موازينه فهو الكريم، ومن**

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ١/٢٩٨، تفسير سورة البقرة الآية ٢٠٢.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/١٦٤.

٣ ـ تفسير روح البيان: ١٠/٤٩٥.

٤ ـ تفسير الدر المنثور: ٨/٥٩٤

خفت موازينه فهو اللئيم»[١].

نسيان المعاد سبب الذنوب

وقد اعتبر القرآن الكريم أنّ سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء، فقال تعالى: **﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾**.[٢]

حتّى أنّه يستفاد من بعض الآيات أنّ الإنسان إذا كان معتقداً بالقيامة فإنّه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفة، فقد ورد في وصفه تعالى لمن يُخسرون الميزان في البيع قوله تعالى: **﴿ألا يظنّ اُولئك أنّهم مبعوثون ليوم عظيم﴾**.[٣]

انعكاس الاعتقاد بالمعاد

والحماسة الخالدة لمجاهدي الإسلام سابقاً وحاضراً في ميادين الجهاد، والتضحية والفداء والإيثار الذي يظهره الكثير من المسلمين في الدفاع عن بلدان الإسلام وعن المحرومين والمستضعفين، يدلّل على أنّه بجميعه إنعكاس لحالة الإعتقاد بالحياة الخالدة في الدار الآخرة، وقد دلّت الدراسات من قبل المفكّرين، والتجارب المختلفة على أنّ تلك المظاهر لا يمكن أن تكون ـ في المقياس الواسع الشامل ـ إلّا عن طريق العقيدة بالحياة بعد الموت.

فإنّ المجاهد الذي منطقه **﴿قل هل تربّصون بنا إلّا إحدى الحسنيين﴾**.[٤] أي الوصول إلى إحدى السعادتين إمّا النصر أو الشهادة، وهو قطعاً مجاهد لا يقبل الهزيمة.

إنّ الموت الذي يبعث على الوحشة لدى كثير من الناس، وحتّى أنّهم يحاذرون من ذكر إسمه أو كلّ ما يذكّر به، ليس موحشاً ولا قبيحاً قطّ بالنسبة إلى المعتقدين بالحياة بعد الموت، بل إنّه بالنسبة إليهم نافذة على عالم رحيب، وتحطّم القفص الدنيوي وكسر القيود المادّية التي تأسر الروح، وبلوغ الحريّة المطلقة.

---

١ ـ تفسير نورالثقلين: ٥/٦٦، حديث ١٤.

٢ ـ سورة السجدة: الآية ١٤.

٣ ـ سورة المطفّفين: الآية ٤.

٤ ـ سورة التوبة: الآية ٥٢.

الموت أو ولادة جديدة

إنّ مسألة المعاد تعتبر الخطّ الفاصل بين الإلهيين والماديّين، لوجود نظرتين مختلفتين هنا:

فالماديّ يرى الموت فناءً مطلقاً، ويفرّ منه بكلّ وجوده، لأنّ كلّ شيء سينتهي به.

والإلهي يرى الموت ولادة جديدة، وولوجاً في عالم واسع كبير مشرق، والإنطلاق في السماء اللامحدودة. ومن الطبيعي فإنّ المعتقدين بهذا المذهب لا يفسحون المجال للخوف والوحشة للدخول إلى أنفسهم عند سلوكهم طريق الموت والشهادة. بل إنّهم يستلهمون من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه أفضل الصلاة والسلام) «**والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه**»[1] ويستقبلون الموت في سبيل الهدف برحابة صدر. ولهذا فإنّ أمير المؤمنين حينما تلقّى الضربة السامّة من اللعين الخاسر «**عبدالرحمن بن ملجم**» لم يقل سوى «**فزت وربّ الكعبة**».

خلاصة القول: فإنّ الإيمان بالمعاد يجعل من الإنسان الخائف الضائع، إنساناً شجاعاً شهماً هادفاً، تمتلىء حياته بالحماسة والتضحية والصدق والتقوى.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٥ صفحة ٥٢.

٨٤

حقيقة الموت

يتصوّر أغلب الناس أنّ الموت أمر عدمي ومعناه الفناء، إلّا أنّ هذه النظرة لا تنسجم مع ما ورد في القرآن المجيد وما تدلّ عليه الدلائل العقلية ولا توافقها أبداً.

فالموت في نظر القرآن أمر وجودي، وهو إنتقال وعبور من عالم إلى آخر، ولذلك عُبّر عن الموت في كثير من الآيات بـ «تُوفّي» ويعني تسلّم الروح وإستعادتها من الجسد بواسطة الملائكة.

والتعبير في الآيات القرآنية ﴿وجاءت سكرة الموت بالحقّ﴾[1] هو إشارة إلى هذا المعنى أيضاً، وقد جاء في بعض الآيات التعبير عن الموت بالخلق: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾[2].

وهناك تعبيرات متعدّدة عن حقيقة الموت في الرّوايات الإسلامية، ففي رواية أنّ الإمام علي بن الحسين سئل: **ما الموت؟** فقال عليه السلام: **«للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة وفكّ قيود وأغلال ثقيلة والإستبدال بأفخر ثياب وأطيبها روائح وأوطىء المراكب وآنس المنازل وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن منازل أنيسة والإستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب».**

وسئل الإمام محمّد بن علي عليه السلام السؤال الآنف ذاته فقال: **«هو النوم الذي يأتيكم كلّ ليلة إلّا أنّه طويل مدّته لا ينتبه منه إلّا يوم القيامة»**[3].

---

١ ـ سورة ق: الآية ١٩.

٢ ـ سورة الملك: الآية ٢.

٣ ـ بحار الأنوار: ١٥٥/٦ [ويظهر أنّ المراد من الإمام محمّد بن علي هو الإمام التاسع محمّد الجواد عليه السلام].

الموت أو شمّ وردة

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عندما طلب شخص منه أن يوصف له الموت فقال الإمام عليه السلام: «للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب أو أشدّ»![١].

الموت او القنطرة

وقد بيّن الإمام الحسين عليه السلام لأصحابه حقيقة الموت يوم عاشوراء عند إشتداد المأزق والقتال بتعبير لطيف بليغ فقال: «صبراً بني الكرام، فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة، والنِعم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب إنّ أبي حدّثني عن رسول الله إنّ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جنانهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم»[٢].

الموت هو المصفّاة

ونقرأ في حديث آخر أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام دخل على رجل يعاني سكرات الموت ولم يُكلّم أحداً، فسأل الحاضرون الإمام موسى بن جعفر: يابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف الموت وكيف هو حال صاحبنا؟

فقال عليه السلام: «الموت هو المصفاة يصفّي المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم كفّارة آخر وزر بقي عليهم ويصفّي الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذّة أو راحة تلحقهم وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم، وأمّا صاحبكم هذا فقد نخل من الذنوب نخلاً وصفّي من الآثام تصفية وخلص حتّى نقي كما ينقّى الثوب من الوسخ وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا دار الأبد»[٣].

---

١ ـ بحار الأنوار: ٦/١٥٢.

٢ ـ معاني الأخبار ص ٢٨٩ باب معنى الموت الحديث ٣.

٣ ـ المصدر السابق.

٨٥

لماذا نكره الموت؟

قلّة من الناس فقط لا يخافون الموت ويبتسمون له ويحتضنونه ويهبون تلك النفس المتعبة ليحصلوا على الخلود.

والآن لماذا تخاف الموت الأغلبية الغالبة من الناس وتخاف من أعراضه، بل حتّى من إسمه؟

اسباب الخوف من الموت

١ ـ إنّ السبب الأساسي وراء هذا الخوف هو عدم إيمان هؤلاء بالحياة بعد الموت، أو إذا كانوا مؤمنين بذلك فإنّهم لم يصدّقوا به تصديقاً حقيقيّاً، ولم يتمكّن من جميع أفكارهم وإحساساتهم ومشاعرهم.

إنّ خوف الإنسان من العدم شيء طبيعي، بل إنّ الإنسان يخاف من الظلمة في الليل التي هي عدم النور، وأحياناً يصل بالإنسان الخوف إلى أنّه يخاف من الميّت.

ولكن إذا صدقت النفس أنّ «**الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر**»[1] وإذا أيقنت هذه النفس أنّ هذا البدن الترابي إنّما هو سجن للروح وسور يضرب الحصار عليها، إذا آمنت بذلك حقّاً وكانت نظرة الإنسان إلى الموت هكذا فإنّه سوف لن يخشى الموت أبداً، وفي نفس الوقت الذي يعتزّ بالحياة من أجل الإرتقاء في سلّم التكامل.

---

١ ـ سفينة البحار: مادة (سجن).

لهذا نجد في قصّة عاشوراء: أنّه كلّما ضاقت حلقة الأعداء وإزداد ضغطهم على الإمام الحسين وأصحابه إزدادت وجوههم إشراقاً، حتّى أنّ الشيوخ من أصحابه كانت الإبتسامة تطفو على وجوههم في صبيحة عاشوراء، وحينما كانوا يسألون يقولون: إنّنا سنستشهد بعد ساعات فنعانق الحور العين[١].

التعلّق بالدنيا

٢ ـ السبب الآخر الذي يجعل الإنسان يخاف من الموت هو التعلّق بالدنيا أكثر من اللازم، الأمر الذي يجعله يرى الموت الشيء الذي سيفصله عن محبوبه ومعشوقه التي هي الدنيا.

ورد في حديث رائع أنّه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، ما لي لا أحبّ الموت؟ قال: «ألك مال» قال: نعم. قال: «فقدّمه» قال: لا أستطيع. قال: **«فإنّ قلب الرجل مع ماله، إن قدّمه أحبّ أن يلحق به، وإن أخّره أحبّ أن يتأخّر معه»**[٢].

خراب الآخرة

٣ ـ كثرة السيّئات وقلّة الحسنات في صحيفة الأعمال هي السبب الثالث وراء الخوف من الموت، فقد جاء أنّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ وقال: يارسول الله، ما بالي لا أُحبّ الموت؟ فقال ﷺ: لك مال؟ قال: نعم، قال ﷺ: قد قدّمته؟ قال: لا. قال: فمن ثمّة لا تحبّ الموت»[٣] (لأنّ صحيفة أعمالك خالية من الحسنات).

وجاء رجل آخر وسأل (أبا ذرّ) نفس السؤال فأجابه أبو ذرّ قائلاً: **«لأنّكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب»**[٤].

---

١ ـ مقتل الحسين ـ المقرّم ـ ص ٢٦٣.

٢ ـ تفسير مجمع البيان: ٤/٤٠٧.

٣ ـ المحجّة البيضاء: ٨/٢٥٨.

٤ ـ المحجّة البيضاء: ٨/٢٥٨.

٨٦

ملك الموت

إنّ الله سبحانه يدبّر أُمور هذا العالم بواسطة مجموعة من الملائكة، كما في سورة النازعات حيث يقول: ﴿فالمدبّرات أمراً﴾[1] ونعلم أنّ السنّة الإلهيّة قد جرت على أن تمضي الأُمور بأسبابها.

وقسم من هؤلاء الملائكة هم الملائكة الموكّلون بقبض الأرواح، والذين أشارت إليهم الآيات (٢٨ و٣٣) من سورة النحل، وبعض الآيات القرآنية الأُخرى، وعلى رأسهم ملك الموت.

وقد رويت أحاديث كثيرة في هذا الباب، تبدو الإشارة إلى بعضها لازمة من جهات:

رسل الموت

١ ـ في حديث روي عن الرّسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «الأمراض والأوجاع كلّها بريد الموت ورسل الموت! فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال: ياأيّها العبد، كم خبر بعد خبر؟ وكم رسول بعد رسول؟ وكم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر! وأنا الرّسول أجب ربّك طائعاً أو مكرهاً.

فإذا قبض روحه وتصارخوا عليه، قال: على مَن تصرخون؟ وعلى من تبكون؟ فوالله ما ظلمت له أجلاً، ولا أكلت له رزقاً، بل دعاه ربّه، فليبك الباكي على نفسه، وإنّ لي فيكم

---

١ ـ الآية (٥).

عودات وعودات حتّى لا أُبقي فيكم أحداً»[١].

طالعوا هذا الحديث المروّع مرّة أُخرى، فقد أُخفيت فيه حقائق كثيرة.

انّي لأعرف بصغيرهم و كبيرهم

٢ ـ وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «دخل رسول الله على رجل من الأنصار يعوده، فإذا ملك الموت عند رأسه، فقال رسول الله: ياملك الموت، ارفق بصاحبي فإنّه مؤمن، فقال: أبشر يامحمّد، فإنّي بكلّ مؤمن رفيق، واعلم يامحمّد، أنّي لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله، فأقوم في جانب الدار فأقول: والله، ما لي من ذنب، وإنّ لي لعودة وعودة، الحذر الحذر، وما خلق الله من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر، في برّ ولا بحر إلّا وأنا أتصفّحهم في كلّ يوم وليلة خمس مرّات حتّى أنّي لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم»[٢].

وقد وردت روايات أُخرى بهذا المضمون في مختلف المصادر الإسلامية، تحذّر جميعاً كلّ البشر أنّ المسافة بينهم وبين الموت ليست كبيرة! ومن الممكن جدّاً أن ينتهي كلّ شيء في لحظة قصيرة.

أيحسن بالإنسان والحال هذه أن يغترّ وينخدع بزخارف هذه الدنيا وزبرجها، ويتلوّث بأنواع المعاصي والظلامات، ويبقى غافلاً عن عاقبة أعماله؟!

كلّ نفس من أنفاس الإنسان يقربه خطوة نحو الموت، أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: «نَفَسُ المرء خُطاه إلى أجله»[٣].

موت المأمون أو عبرة التاريخ

حكى المسعودي في مروج الذهب في أخبار المأمون وغزاته أرض الروم ما هذا ملخّصه: وإنصرف من غزاته إلى منزل على (عين البديدون) المعروفة بالقشيرة فأقام هنالك، فوقف على العين فأعجبه برد مائها وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع، وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طويل منبسط على العين كالجسر، وجعل فوقه كالأزج من الخشب وورق

---

١ ـ تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، وتفسير نور الثقلين: ٤/٢٢٥.

٢ ـ تفسير الدرّ المنثور طبقاً لنقل تفسير الميزان: ١٦/٢٥٥.

٣ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٧٤.

الشجر، وجلس تحت الكنسية التي عقدت له، والماء تحته، وطرح في الماء درهم صحيح، فقرأ كتابته وهو في قرار الماء لصفاء الماء، ولم يقدر أحد أن يدخل يده من شدّة برده.

فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنّها سبيكة فضّة، فجعل لمن يخرجها سيفاً فبدر بعض الفراشين فأخذها وصعد فلمّا صارت على حرف العين أو على الخشب الذي عليه المأمون إضطربت وإنفلتت من يد الفراش فوقعت في الماء كالحجر، فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلّت ثوبه، ثمّ إنحدر الفرّاش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب، فقال المأمون: تقلى الساعة ثمّ أخذته رعدة من ساعته، فلم يقدر يتحرّك من مكانه، فغطّي باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح: البرد البرد، ثمّ حوّل إلى المغرب ودثّر وأُوقدت النيران حوله وهو يصيح: البرد البرد، ثمّ أُتي بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ما هو فيه عن تناول شيء منها.

ولمّا اشتدّ به الأمر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسوية في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت، وما الذي يدلّ عليه علم الطبّ من أمره، وهل يمكن برؤه وشفاؤه، فتقدّم ابن ماسوية وأخذ إحدى يديه وبختيشوع الأُخرى، وأخذا يجسّان كلتا يديه فوجدا نبضه خارجاً عن الإعتدال منذراً بالفناء والإنحلال، والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر منه من سائر جسده كالزيت أو كلعاب بعض الأفاعي، فأخبر المعتصم بذلك، فسألهما عن ذلك فأنكرا معرفته، وأنّهما لم يجداه في شيء من الكتب وأنّه دالّ على إنحلال الجسد، فأحضر المعتصم الأطباء حوله وهو يأمل خلاصه ممّا هو فيه، فلمّا ثقل قال: أخرجوني أشرف على عسكري وأنظر إلى رحالي وأتبيّن ملكي، وذلك في الليل، فأُخرج فأشرف على الخيم والجيش وإنتشاره وكثرته وما قد وقد من النيران، فقال: **يامن لا يزول ملكه، إرحم من زال ملكه**، ثمّ ردّ إلى مرقده وأجلس المعتصم رجلاً يشهده.

ولمّا ثقل رفع الرجل صوته ليقولها (أي الشهادة) فقال له ابن ماسوية: لا تصحّ فوالله ما يفرّق بين ربّه وبين ماني في هذا الوقت، ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظمة والكبر والإحمرار ما لم ير مثله قطّ. وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه، ورام مخاطبته فعجز عن ذلك، وقضى عن ساعته وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة

ومائتين وحمل إلى طرطوس فدفن بها[١].

ويحتمل أن يكون لمرضه سابقة، ويقول بعض المؤرخّين: إنّ كلّ شخص شرب من ماء تلك العين مرض، أو أنّ السمكة كانت تحتوي على رشح سامّ، وكيفما كان فإنّ الحكومة بتلك العظمة قد إنهارت في بضع لحظات، وإنحنى بطل ميادين الحرب أمام شراع الموت، ولم تكن القدرة لأي شخص أن يصنع شيئاً للمأمون، أو على الأقل ليوصله إلى مقرّه ومسكنه.

وللتاريخ خواطر وقصص كثيرة فيها دروس وعبر من هذا القبيل.

١ ـ مروج الذهب، طبقاً لنقل سفينة البحار: ١/٤٤ مادة (أمن).

٨٧

سكرة الموت

سكرة الموت: هي حال تشبه حالة الثمل السكران إذ تظهر على الإنسان بصورة الإضطراب والإنقلاب والتبدّل، وربّما إستولت هذه الحالة على عقل الإنسان وسلبت شعوره وإختياره.

وكيف لا تكون كذلك مع أنّ الموت مرحلة إنتقالية مهمّة ينبغي أن يقطع الإنسان فيها جميع علائقه بالدنيا التي تعلّق بها خلال سنين طويلة، وأن يخطو في عالم جديد عليه مليء بالأسرار، خاصّة أنّ الإنسان ـ لحظة الموت ـ يكون عنده إدراك جديد وبصر حديد ـ فهو يلاحظ عدم إستقرار هذا العالم بعينيه ويرى الحوادث التي بعد الموت، وهنا تتملّكه حالة الرعب والإستيحاش من قرنه إلى قدمه فتراه سَكِراً وليس بسكر.

حتّى الأنبياء وأولياء الله الذين يواجهون حالة النزع والموت بإطمئنان كامل ينالهم من شدائد هذه الحالة نصيب، ويصابون ببعض العقبات في حالة الإنتقال، كما قد ورد في حالات إنتقال روح النّبي الأكرم ﷺ إلى بارئها عند اللحظات الأخيرة من عمره الشريف المبارك أنّه كان يدخل يده في إناء فيه ماء ويضعها على وجهه ويقول: «لا إله إلّا الله» ثمّ يقول: «إنّ للموت سكرات»[1].

ترسيم من سكرات الموت

وللإمام علي كلام بليغ يرسم لحظة الموت وسكراتها بعبارات حيّة بليغة إذ يقول:

---

١ ـ تفسير روح المعاني: ١١٨/٩.

«إجتمعت عليهم سكرت الموت وحسرت الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثمّ إزداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم ومنطقه وانّه لبيّن أهله ينظر ببصره ويسمع بأُذنه على صحّة من عقله وبقاءٍ من لبّه يفكّر فيم أفنى عمره؟ وفيم أذهب دهره؟ ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتّعون بها»[١].

لو عاينتم!!

كما أنّ هذا المعلّم الكبير ينذر في مكان آخر البشرية فيقول: «إنّكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم وسمعتم وأطعتم ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا وقريب ما يطرح الحجاب»[٢].

ثلاثة ايّام مخيفة

صحيح أنّ الموت هو للمؤمنين بداية إنتقال إلى عالم أوسع مليء بمواهب الله، إلّا أنّه مع ذلك فإنّ هذه الحالة الإنتقالية ليست سهلة لأي إنسان، لأنّ روحه تطبّعت مع البدن سنين طوالاً وإرتبطت به.

ولذلك فإنّه حين يسأل الإمام الصادق عليه السلام عن سبب إضطراب الجسد حين خروج الروح منه يجيب: لأنّه نما عليها البدن[٣].

وهذا يشبه تماماً حالة قلع السنّ الفاسد من اللثّة، فإنّه عند قلعه يحسّ الإنسان بالالم إلّا أنّه يشعر بالراحة بعدئذ.

ونقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الانسان يستوحش من ثلاثة أيّام، يوم يولد فيه فيرى هذا العالم الذي لم يعرفه، ويوم يموت ويرى عالم ما بعد الموت، ويوم يبعث حيّاً في عرصات القيامة فيرى أحكاماً لم يرها في هذه الدنيا .. لذلك فإنّ القرآن يقول في شأن يحيى

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠.

٣ ـ بحار الأنوار: ١٥٦/٦.

بن زكريا: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّاً[١]﴾[٢].. ويحكى على لسان عيسى بن مريم مثل هذا الكلام، فهذان النبيّان مشمولان بعناية الله في هذه الأيّام الثلاثة!.

وبالطبع فإنّه من المسلّم به أنّ المرتبطين بهذه الدنيا يكون إنتقالهم منها أصعب وقطع القلوب منها أشدّ، كما أنّ الآثمين وأصحاب الذنوب تكون عليهم سكرات الموت أكثر ألماً ومرارة!.

قبض روح المؤمن

روي أنّ أحد أصحاب الإمام الصادقعليه السلام قد سأله قائلاً: جعلت فداك يا ابن رسول اللّه، هل يكره المؤمن على قبض روحه؟

قال: «لا واللّه، إنّه إذا أتاه مَلَك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليّ اللّه، لا تجزع، فو الذي بعث محمّداً لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: ويمثل له رسول اللّهصلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذريتهمعليهم السلام، فيقال له: هذا رسول اللّهصلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّةعليهم السلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر، فينادي روحه منادٍ من قبل ربّ العِزّة فيقول: «يا أيّتها النفس المطمئنة (إلىٰ محمّد وأهل بيته) ارجعي إلىٰ ربّك راضية (بالولاية) مرضيّة (بالثواب) فادخلي في عبادي (يعني محمّداً وأهل بيته) وادخلي جنّتي»، فما شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي»[٣].

روح و ريحان

وفي حديث لرسول اللهصلى الله عليه وآله نقرأ ما يلي: «إنّ أوّل ما يبشّر به المؤمن عند الوفاة بروح وريحان وجنّة نعيم، وإنّ أوّل ما يبشّر به المؤمن في قبره أن يقال له: أبشر برضا الله تعالى

---

١ ـ سورة مريم: الآية ١٥.

٢ ـ المصدر السابق مع شيء من التلخيص: نقرأ في سورة مريم الآية ١٥ في شأن يحيى: (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّاً) كما نقرأ في شأن عيسى بن مريم في السورة ذاتها (والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حيّاً).

٣ ـ اصول الكافي: ١٢٧/٣، باب إنّ المؤمن لا يكره على قبض روحه، الحديث ٢.

والجنّة قدمت خير مقدم، وقد غفر الله لمن يشيّعك إلى قبرك، وصدّق من شهد لك، واستجاب لمن إستغفر لك»[١].

التحدث مع الاموال والاولاد والاعمال

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين أنّه قال: «إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيّام الدنيا وأوّل يوم من أيّام الآخرة، مَثُلَ له ماله وولده وعمله فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنّي كنت فيك لزاهد، وإن كنت عليّ لثقيلاً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك، ويوم نشرك حتّى أعرض أنا وأنت على ربّك، قال: فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم منظراً، وأحسنهم رياشاً، فيقول: أبشر بروح وريحان، وجنّة نعيم، ومقدمك خير مقدم، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، ارتحل من الدنيا إلى الجنّة»[٢].

١ ـ تفسير الدر المنثور: ٦/١٦٦.

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ٥/٢٢٨، حديث ١٠٦.

٨٨

منابع الخلود

إنّ طبيعة الحياة في هذا العالم المادي هي الفناء والهلاك، فأقوىٰ الأبنية وأكثر الحكومات دواماً وأشد البشر قدرة لا يعدون أن يصيروا في نهاية أمرهم إلىٰ الضعف فالفناء، وكل شيء معرض للتلف بلا استثناء في هذا الأمر.

أمّا لو تمكنت الكائنات من أنْ توجد لها ارتباطاً علىٰ نحوٍ ما مع الذات الإلٰهية المقدسة، وتبقىٰ تعمل لأجلها وفي سبيلها، فإنّها والحال هذه ستصطبغ بصبغة الخلود، لأنّ ذات اللّه المقدسة أبدية وأزلية وكل من ينتسب اليه يحصل علىٰ صبغة الأبدية.

فالأعمال الصالحة أبدية، الشهداء لهم حياة أبدية، والأنبياء والعلماء المخلصون والمجاهدون في سبيل اللّه يبقىٰ ذكرهم خالداً في ذاكرة التاريخ.. لأنّهم يحملون الصبغة الإلٰهية.

صندوق الذخيرة

ولهذا، تذكّرنا الآيات القرآنيّة وتدعونا لأنْ ننقذ ذخائر وجودنا من الفناء، ونودعها في صندوق لا تطاله يد الزمان ولا تفنيه الليالي والأيّام.

فهلموا لبذل الطاقات في سبيل اللّه وفي خدمة خلق اللّه، وكسب رضا الباري، لتصبح من مصاديق ﴿عند اللّه﴾ ولتكون باقية بمقتضىٰ ﴿ما عند اللّه باق﴾.

ثلاث باقيات بعد الموت

روي عن النّبيﷺ أنّه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ عن ثلاث: صدقة جارية،

علم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»[١].

وعن علي عليه السلام أنّه قال: «شتّان ما بين عملين: عمل تذهب لذته وتبقىٰ تبعته، وعمل تذهب مؤنته ويبقىٰ أجره»[٢].

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلّا ثالث خصال: صدقة أجراها في حياته، فهي تجري بعد موته، وسنّة هدى سنّها، فهي تعمل بها بعد موته، وولد صالح يستغفر له»[٣].

وفي رواية أُخرىٰ: «ست خصال يتنفع بها المؤمن بعد موته: ولد صالح يستغفر له، مصحف يقرأ منه، وقليب (بئر) يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنة حسنة يؤخذ بها بعده»[٤].

فيما أكّدت بعض الرّوايات على (العلم) الذي يخلّفه بعده.[٥]

وقد حذّرت كثير من الرّوايات من أنْ يسنّ الإنسان سنّة سيئة، لأنّ الفاعل الأوّل ستتابع عليه آثام تلك السنة إلىٰ يوم القيامة.

وكذلك حثت وشوقت على استنان السنن الحسنة، لينتفع الفاعل الأوّل لها بثوابها الجاري إلى يوم القيامة.

السنّة الحسنة والسّيئة

إنّ سائلاً قام على عهد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل، فسكت القوم، ثمّ أنّ رجلاً أعطاه، فأعطاه القوم.. فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَنْ استن خيراً فاستن به فله أجره، ومثل أُجور مَنْ اتبعه، غير منتقص من أُجورهم، ومَنْ استن شرّاً فاستن به فعليه وزره، مثل أوزار مَنْ اتبعه غير منتقص من أوزارهم» فتلا حذيفة بن

---

١ ـ إرشاد الديلمي.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ١٢١.

٣ ـ بحار الأنوار: ٢٥٧/٧١.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ منية المريد، ص ١١.

اليمان قوله تعالى: ﴿علمت نفسٌ ما قدّمت وأخّرت﴾[١].[٢]

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «فكيف بكم لو تناهت بكم الأُمور وبعثرت القبور، هناك تبلو كلُّ نفسٍ ما اسلفت، وردّوا إلى اللّه مولاهم الحق، وضل عنهم ما كانوا يفترون»[٣].

فتعكس هذه الآيات والرّوايات أبعاد مسؤولية الإنسان أمام أعماله، وتبيّن عظم المسؤولية، فأثار فعل الخيرات أو المنكرات يتصل إليه وإنْ امتدت الآلاف السنين بعد موته!

---

١ ـ سورة الإنفطار: الآية ٥.

٢ ـ تفسير مجمع البيان: ١٠/٤٤٩.

٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٦.

٨٩

الاسراف و التبذير

لا ريب في أنَّ النعم الموجودة علىٰ الكرة الأرضية كافية لساكنيها، بشرط واحد، هو أن لا يبذروا هذه النعم بلا سبب، بل عليهم استثمارها بشكلٍ معقول وبلا إفراطٍ أو تفريط، والّا فإنَّ هذه النعم ليست غير متناهيه حتىٰ لو أُسيء استثمارها والتصرف بها. وقد يؤدي الإسراف والتبذير في منطقةٍ معينة الىٰ الفقر في منطقةٍ أُخرىٰ، أو إنَّ إسراف وتبذير الناس في هذا الزمان يسبِّب فقر الأجيال القادمة.

وفي ذلك اليوم الذي لم تكن فيه الأرقام والإحصاءات في متناول الإنسان، حذّر الإسلام مِن مغبة الإسراف والتبذير في نعم اللّه علىٰ الأرض. لذلك فالقرآن أدان في أماكن كثيرة وبشدّة المسرفين والمبذرين.

ففي الآيتين نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿ولا تسرفوا إنَّهُ لا يحب المسرفين﴾[1].

أمّا في غافر (٤٣) فنقرأ: ﴿وإنّ المسرفين هم أصحاب النّار﴾.

والآية (٥١) مِن الشعراء تنهىٰ عن طاعة المسرفين: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾.

أمّا الآية (٨٣) مِن يونس فتجعل الإسراف صفة فرعونية: ﴿وإنَّ فرعون لعالٍ في الأرض وإنّه لمن المسرفين﴾.

والهداية ممنوعة عن المسرفين كما هو مفاد الآية (٢٨) مِن سورة غافر: ﴿إنَّ اللّه لا يهدي مَن هو مسرف كذّاب﴾.

---

١ ـ سورة الانعام: الآية ١٤١ و سورة الاعراف: الآية ٣١.

وأخيراً تتحدث الآية (٩) مِن سورة الأنبياء عن مصيرهم: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾.

وقد جعل المسرفين إخوان الشياطين ﴿إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾[١]

والإسراف بمعناه الواسع هو الخروج وتجاوز الحد في أي عمل يقوم به الإنسان، ولكنّها عادةً تستخدم في المصروفات.

ومِن آيات القرآن نفسها نستفيد أنَّ الإسراف هو في مقابل التقتير، بينما هناك طريق ثالث هو منزلة بين الأمرين، كما في الآية (٦٧) مِن سورة الفرقان: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكانَ بين ذلك قواماً﴾.

الفرق بين الإسراف والتبذير

في الواقع لا يوجد هناك بحث واضح عند المفسّرين في التفاوت الموجود بين الإسراف والتبذير، ولكن عند التأمُّل بأصل هذه الكلمات في اللغة، يتبيَّن أنَّ الإسراف هو الخروج عن حدّ الإعتدال، ولكن دون أن نخسر شيئاً، فمثلاً نلبس ثياباً ثميناً بحيث أنَّ ثمنهُ يُعادل أضعاف سعر الملبس الذي نحتاجه، أو أنّنا نأكل طعاماً غالياً بحيث يمكننا إطعام عدد كبير مِن الفقراء بثمنه. كل هذه أمثلة علىٰ الإسراف، وهي تُمثِّل خروجنا عن حدَّ الإعتدال، ولكن مِن دون أن نخسر شيئاً.

أمّا كلمة «تبذير» فهي تعني الصرف الكثير، بحيث يؤدي إلىٰ إتلاف الشيء وتضييعه، فمثلاً نهيء طعام عشرة أشخاص لشخصين، كما يفعل ذلك بعض الجهلاء ويعتبرون ذلك فخراً، حيث يرمون الزائد في المزابل.

ولكن بالرغم مِن هذا التمييز، لا بدَّ مِن القول بأنَّ كثيراً ما تستخدم هاتين الكلمتين للتدليل علىٰ معنىٰ واحد، وقد تتابعان في الجملة الواحدة لغرض التأكيد.

فالإمام علي في نهج البلاغة يقول:

«ألا إنَّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعهُ في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينهُ عند اللّه»[٢].

---

١ ـ سورة الاسراء: الآية ٢٧.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٢٦.

الإسلام يحث كثيراً علىٰ عدم الإسراف والتبذير إلىٰ درجة أنّه نهىٰ عن الإسراف في ماء الوضوء حتىٰ إذا كان ذلك قرب نهرٍ جارٍ؛ وحتىٰ في نوى التمر.

وعالم اليوم الذي بدأ يتحسّس الضائقة في بعض الموارد. أخذ يهتم بهذه الفكرة، حتىٰ بات يستفيد مِن كلّ شيء، فهو مثلاً يستفيد مِن فضولات المنازل في صنع السماد، ومِن ماء المجاري لسقي المزروعات، لأنَّهُ أحسَّ أنَّ المصادر الطبيعية محدودة، لذا لا يمكن التفريط بها بسهولة، وإنّما ينبغي الإستفادة مِنها ضمن ما يعرف بـ«دورة المصادر الطبيعية».

لا تلق نوى التمر

وينقل عن الإمام الصادقعليه‌السلام أيضاً أنّه دعا برطب (لضيوفه) فاقبل بعضهم يرمي بالنوىٰ، فقال: «لا تفعل إن هذا من التبذير، وإن اللّه لا يحب الفساد»[١].

وفي مكانٍ آخر نقرأ، أنَّ رسول الهدىٰصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مرّ بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفي الوضوء سرف؟ فقالصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: «نعم وإن كُنت علىٰ نهرٍ جار»[٢].

---

١ ـ تفسير الصافي في تفسير الآيات ٣٠ ـ ٢٦ من سورة الاسراء.

٢ ـ المصدر السابق.

٩٥

الزّينة والتّجمل من وجهة نظر الإسلام

لقد اختار الإسلام ـ كسائر الموارد ـ حدّ التوسط والإعتدال في مجال الإنتفاع والإستفادة من أنواع الزينة، لا كما يظن البعض من أنّ التمتع والإستفادة من الزينة والتجمل ـ مهما كان بصورة معتدلة ـ أمر مخالف للزّهد، ولا كما يتصور المفرطون في إستعمال الزينة والتجمل الذين يجوّزون لأنفسهم فعل كل عمل شائن بغية الوصول إلى هذا الهدف الرخيص.

ولو أننا أخذنا بناء الجسم والروح بنظر الإعتبار، لرأينا أنّ تعاليم الإسلام في هذا الصعيد تنسجم تماماً مع خصائص الروح الإنسانية وبناء الجسم البشري ومتطلباتهما، واحتياجاتهما الذاتية.

توضيح ذلك: إنّ غريزة حبّ الجمال ـ باعتراف علماء النفس ـ هي إحدى أبعاد الروح الإنسانية الأربعة، والتي تشكل مضافاً إلى غريزة حب الخير، وغريزة حب الإستطلاع، وغريزة التّدين، الأبعاد الأصيلة في النفس الإنسانية. ويعتقدون بأنّ جميع الظواهر الجمالية الأدبية والشعرية، والصناعات الجميلة، والفن بمعناه الواقعي، إنّما هو نتيجة هذه الغريزة وهذا الإحساس.

ومع هذا كيف يمكن أن يعمد قانون صحيح إلى خنق هذا الحس المتأصل والمتجذر في أعماق الروح الإنسانية، ويتجاهل العواقب السيئة في حال عدم إشباعه بصورة صحيحة.

ولهذا لم يكتف في الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعة والإستفادة من الألبسة الجميلة والمناسبة، واستعمال كل أنواع العطور، وما شابه ذلك، بل أوصى بذلك وَحُثَّ عليه أيضاً، ورويت في هذا المجال أحاديث كثيرة عن أئمّة الدين في المصادر والكتب الموثوقة.

انّ الله جميل يحبّ الجمال

فإننا نقرأ ـ مثلاً ـ في تاريخ حياة الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام أنّه عندما كان ينهض إلى الصلاة كان يرتدي أحسن ثيابه، ولما سئل: لماذا يلبس أحسن ثيابه؟ قال: «**إنّ الله جميل يحبّ الجمال، فأتجمل لربّي وهو يقول: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾**[1]»[2].

وفي الحديث أنّ أحد الزهاد، ويدعى عباد بن كثير البصري، رأى الإمام الصادق عليه السلام وهو يلبس ثياباً غالية الثمن فقال معترضاً عليه: يا أبا عبدالله، إنّك من أهل بيت نبوة وكان أبوك وكان، فما لهذه الثياب المزينة عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب. فقال له أبو عبدالله عليه السلام: «**ويلك ـ يا عباد ـ من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرّزق؟**»[3].

وأحاديث أُخرىٰ.

إنّ هذا التعبير، أي أنّ الله جميل يحب الجمال، أو أنّ الله مصدر الجمال إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي: أنّ الإستفادة من كل نوع من أنواع الزينة والجمال لو كان ممنوعاً لما خلق الله تلك الزينة أبداً، إنّ خلق الأشياء الجميلة في عالم الوجود دليل على أنّ خالقها يحبّ الجمال.

يمنع حبّ التجمّل

ولكن المهم هنا أنّ الناس يسلكون ـ غالباً ـ في مثل هذه المواضيع طريق الإفراط والمبالغة، ويعمدون إلى الترف بمختلف الحجج والمعاذير.

ولهذا يعمد القرآن الكريم فوراً وبعد ذكر هذا الحكم الإسلامي ـ كما أسلفنا ـ إلى تحذير المسلمين من الإسراف والإفراط والمبالغة في الإستفادة من هذه الأُمور، ففي أكثر من عشرين موضعاً من القرآن الكريم يشير إلى مسألة الإسراف ويذمّه بشدّة.

وعلى كل حال، فإنّ أُسلوب القرآن الكريم والإسلام في هذا الصعيد أسلوب يتسم بالتوازن والإعتدال، فلا جمود فيه يقمع الرغبات المودعة في الروح الإنسانية إلى الجمال، ولا هو يؤيد مسلك المسرفين المتطرفين وذوي البطنة والجشع في التمتع بالزينة والجمال.

---

١ ـ سورة الاعراف: الآية ٣١.

٢ ـ وسائل الشيعة، المجلد الثالث، أبواب أحكام الملابس.

٣ ـ وسائل الشيعة، أبواب أحكام الملابس الباب ٧، ح ٣.

بل هو ينهي حتى عن التزين والتجمل المعتدل في المجتمعات التي يعيش فيها محرومين مساكين، ولهذا نلاحظ في بعض الرّوايات والأحاديث أنّه عندما يُسأل أحد الأئمّة: لماذا يلبس ثياباً فاخرة، وقد كان جدّه لا يلبس مثل هذه الثياب؟ فيجيب الإمام عليه السلام قائلاً: «إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام كان في زمان ضيق، فإذا اتّسع الزمان فأبرار الزّمان أولى به»[1].

١ ـ وسائل الشيعة، ج ٣، أبواب الملابس الباب ٧، ح ١١.

٩١

القيم الحقّة والقيم الباطلة

لا شكّ أنّ كلّ إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمة وافتخار، ولذلك فهو يسعىٰ بجميع وجوده لكسب القيم...

إلّا معرفة معيار القيم يختلف باختلاف الثقافات تماماً، وربّما أخذت القيم الكاذبة مكاناً بارزاً ولم تُبق للقيم الحقّة مكان في قاموس الثقافة للفرد.

فجماعة ترىٰ بأنّ قيمتها الواقعية في الإنتساب إلىٰ القبيلة المعروفة، ولذلك فإنّهم من أجل أن تعلوَ سمعةُ قبيلتهم وطائفتهم يظهرون نشاطات وفعاليات عامة ليكونوا برفعة القبيلة وسمّوها كبراء أيضاً.

وكان الإهتمام بالقبيلة والإفتخار بالإنتساب إليها من أكثر الأُمور الوهميّة رواجاً في الجاهلية إلىٰ درجة كانت كلّ قبيلة تعدّ نفسها أشرف من القبيلة الأُخرى، ومن المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهلية في أعماق نفوس الكثيرين من الأفراد والمجتمعات!! وجماعة أُخرىٰ تعوّل علىٰ مسألة المال والثروة وامتلاكها للقصور والخدم والحشم وأمثال هذه الأُمور، فتعدّها دليلاً علىٰ القيمة الشخصيّة وتسعىٰ من أجل كلّ ذلك دائماً.

وجماعة تعتبر (المقامات) السياسية والإجتماعية العليا معياراً للشخصية والقيم الإجتماعية!

وهكذا تخطو كلّ جماعة في طريق خاص وتنشدّ قلوبها إلىٰ قيمة معينة وتعدّها معيارها الشخصي!

القيمة الحقيقيّة للإنسان في صفاته الذاتيّة

وحيث أنّ هذه الأُمور جميعها أمور متزلزلة ومسائل ذاتية ومادية وعابرة فإنّ مبدأ سماوياً كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبداً.. لذلك يشطب عليها بعلامة البطلان ويعتبر القيمة الحقيقية للإنسان في صفاته الذاتية وخاصة تقواه وطهارة قلبه والتزامه الديني.

حتىٰ أنّه لا يكترث بموضوعات مهمّة كالعلم والثقافة إذا لم تكن في خطّ «الايمان والتقوىٰ والقيم الأخلاقية»...

ومن العجيب أن يظهر القرآن في محيط يهتمّ بالقيمة القبلية أكثر من اهتمامه بالقيم الأُخرىٰ، إلّا أنّ القرآن حطّم هذه الوثنية وحرّر الإنسان من أسر العِرق والدم والقبيلة واللون والمال والمقام والثروة وقاده إلىٰ معرفة نفسه والعثور علىٰ ضالّته داخل نفسه وصفاتها العليا.

اذان بلال

إنّ النّبي ﷺ أمر «بلالاً» بعد فتح مكّة أن يؤذّن، فصعد بلال وأذّن علىٰ ظهر الكعبة، فقال «عتّاب بن أسيد» الذي كان من الأحرار: أشكر الله أن مضىٰ أبي من هذه الدنيا ولم يرَ مثل هذا اليوم.. وقال «الحارث بن هشام»: ألم يجدْ رسول الله غير هذا الغراب الأسود للأذان؟! «فنزلت هذه الآية : **﴿يا أيّها النّاس انّا خلقناكم من ذكرٍ و أنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إنّ الله عليم خبير﴾**[1]. الآنفة وبيّنت معيار القيم الواقعية»[2].

الناس بنوآدم و آدم من تراب

ونقرأ في بعض الروايات الإسلامية أنّ النّبي ﷺ خطب يوماً في مكّة فقال: «**يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برّ تقي كريم علىٰ الله وفاجر شقي هيّن علىٰ الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالىٰ: ﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله**

---

١ ـ سورة الحجرات، الآية ١٣.

٢ ـ تفسير روح البيان: ٩/٩٠، كما ورد في تفسير القرطبي: ٩/٦١٦٠.

أتقاكم إنّ الله عليم خبير﴾»(١).

وقد جاء في كتاب «آداب النفوس» للطبري أنّ النّبي ﷺ التفت إلىٰ الناس وهو راكب علىٰ بعيره في أيّام التشريق بمنىٰ «وهي اليوم الحادي عشر والثّاني عشر والثّالث عشر» من ذي الحجة فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربي علىٰ عجمي ولا لعجمي علىٰ عربي ولا لأسود علىٰ أحمر ولا لأحمر علىٰ أسود إلّا بالتقوىٰ ألا هل بلّغت: قالوا نعم! قال: ليبلغ الشاهد الغائب»(٢).

انّ الله ينظر الى قلوبكم

كما ورد في حديث آخر بهذا المعنىٰ ضمن كلمات قصيرة ذات معاني غزيرة أنّه ﷺ قال: «إنّ الله لا ينظر إلىٰ أحسابكم ولا إلىٰ أنسابكم ولا الىٰ أجسامكم ولا إلىٰ أموالكم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه وإنّما أنتم بنو آدم وأحبّكم إليه أتقاكم»(٣).

وما أحسن أن يُبنىٰ المجتمع علىٰ أساس معيار القيم الإسلامي ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وإن تطوىٰ القيم الكاذبة من قوميّة ومال وثروة ومناطق جغرافية وطبقية عن هذا المجتمع.

أجل، التقوىٰ الإلهية والإحساس بالمسؤولية الداخلية والوقوف بوجه الشهوات والإلتزام بالحق والصدق والطهارة والعدل، هي وحدها معيار القيم الإنسانية لا غير، بالرغم من أنّ هذه القيم الأصيلة نسيت وأهملت في سوق المجتمعات المعاصرة وحلّت محلها القيم الكاذبة.

في نظام القيم الجاهلية الذي كان يدور حول محور «التفاخر بالآباء والأموال والأولاد» لم ينتج سوىٰ حفنة سرّاق وناهبين، غير أنّه بتبدّل هذا النظام وإحياء أصل ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ الكبير كان من ثمراته أناس أمثال سلمان وأبو ذر وعمّار وياسر والمقداد. والمهم

---

١ ـ تفسير القرطبي: ٦١٦١/٩.

٢ ـ المصدر السابق، ص ٦١٦٢، والتعبير «بالأحمر» في هذه الرواية لا يعني من بشرته حمراء بل من بشرته حنطيّة لأنّ أغلب الناس في ذلك المحيط كانوا بهذه الصفة ومن الطريف أن يطلق الأحمر علىٰ الحنطة أيضاً.

٣ ـ المصدر السابق.

في ثورات المجتمعات الإنسانية هو الثورة علىٰ القيم» وإحياء هذا الأصل الإسلامي الأصيل!

ونختتم كلامنا هذا بحديثين للنبي ﷺ إذ قال:

١ ـ «كلكم بنو آدم وآدم خُلِقَ من تراب ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون علىٰ الله من الجعلان»[١].

٢ ـ وورد حديث لنبيّنا محمّد ﷺ يخاطب فيه بني هاشم **«لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»** أي أنّهم مرتبطون بي رسالياً وأنتم مرتبطون بي جسدياً[٢].

---

١ ـ في ظلال القرآن: ٥٣٨/٧.

٢ ـ تفسير روح البيان: ٤٧٩/٧.

٩٢

السنّة الحسنة والسيّئة

القيام بأي عمل يحتاج بلا شك إلىٰ مقدمات كثيرة، وتعتبر السنن السائدة في المجتمع سواء كانت حسنة أم سيئة من ممهدات الأرضية الفكرية والإجتماعية التي تساعد القائد (سواء كان مرشداً أم مضلاً) للقيام بدوره بكل فاعلية، وحتىٰ أنّه قد يفوق دور الموجهين وواضعي السنن علىٰ جميع العاملين في بضع الأحيان.

ولهذا لا يمكن فصل دور واضعي السنن عن العاملين بتلك السنن، فهم شركاء في العمل الصالح إذا ما سنوا سنة حسنة، وشركاء في جرم المنحرفين إذا ما سنوا لهم سنة سيئة.

وقد اهتم القرآن الكريم، وكذا الأحاديث الشريفة كثيراً بمسألة السنّة الحسنة والسنّة السيئة وواضعيها.

يقول سبحانه و تعالىٰ: ﴿**ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة و من أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون**﴾[١].

وهذا الأمر من الأهمية بمكان حتىٰ قال عنه النّبيﷺ: «**الدال علىٰ الخير كفاعله**»[٢].

اجر المستنّين

روي عن النّبيﷺ قال: «**أيما داعٍ دعا إلىٰ الهدىٰ فاتبع، فله مثل أُجورهم، من غير أن**

---

١ ـ سورة النحل: الآية ٢٥.

٢ ـ وسائل الشيعة: ٤٣٦/١١.

ينقص من أجورهم شيئاً، وأيما داعٍ دعا إلىٰ ضلالة فاتبع عليه، فإنّ عليه مثل أوزار مَنْ اتبعه، من غير أنْ ينقص من أوزارهم شيئاً»[1].

وكذلك روي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَنْ استنّ بسنّة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء، ومَنْ استنّ سنّة جور فاتبع كان عليه مثل وزر مَنْ عمل به، من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء»[2].

وفي صحيح مسلم ورد حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعاً عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنّا عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء ومتقلدي السيوف... فتمعر وجه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لما رأىٰ بهم من الفاقة، فدخل ثمّ خرج فأمر بلالاً فأذّن وأقام فصلىٰ وخطب فقال: ﴿يا أيّها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة... إنّ اللّه عليكم رقيباً﴾ والآية التي في الحشر ﴿اتقوا اللّه ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا اللّه﴾، تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره (حتىٰ قال) ولو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفّه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثمّ تتابع الناس حتىٰ رأيت كومين من طعام ثياب حتىٰ رأيت وجه رسول اللّه يتهلل كأنّه مذهبة، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أُجورهم شيء، ومَنْ سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[3].

سؤال و جواب

وهنا، يواجهنا سؤال..كيف تنسجم هذه الرّوايات مع ما يعاضدها من آيات مع هذه الآية: ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرىٰ﴾[4]؟

وتتّضح الإجابة من خلال ملاحظة أنّ هؤلاء ليسوا عن ذنوب الآخرين بل عن ذنوبهم فقط، ولكنّهم من خلال اشتراكهم في تحقق ذنوب الآخرين يشاركوهم فيها، اي ان تلك الذنوب تعتبر من ذنوبهم بهذا اللحاظ.

---

١ ـ تفسير مجمع البيان، في تفسير الآيات ٢٤ ـ ٢١ من سورة النحل.

٢ ـ وسائل الشيعة: ٤٣٧/١١.

٣ ـ صحيح مسلم: ٧٠٤/٢ (باب الحث علىٰ الصدقة ولو بشق تمرة).

٤ ـ سورة الانعام: الآية ١٦٤.

٩٣

السياحة والسير في الأرض

إن الآثار المتبقية في مختلف بلدان العالم من الأُمم والعهود السابقة ما هي ـ في الحقيقة ـ إلّا وثائق التاريخ الحية والناطقة. بل هي قادرة على أن تعطينا من الحقائق والأسرار أكثر ممّا يعطينا التاريخ المدون.

إن الآثار الباقية من العصور السالفة بما فيها من أشكال وصور ونقوش وكيفيات تدلنا على ما كانت تتمتع به الأُمم البائدة من روح وفكر، وثقافات ومبادىء، وعظمة أو صغار، في حين لا يجسّد التاريخ المدون سوى الحوادث الواقعة وسوى صور خاوية عنها.

أجل، إن خرائب قصور الطغاة وبقايا آثار عظيمة مثل الأهرام، وبرج بابل، وقصور كسرى، وآثار الحضارة المندثرة لقوم سبأ، ومئات من نظائرها الأُخرى من هذه الآثار المنتشرة في شتى أنحاء هذا الكوكب تنطوي ـ رغم صمتها ـ على ألف حديث وحديث، وألف كلمة وكلمة.

مرور اميرالمؤمنين عليه السلام على المدائن

فقد ورد في رواية أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام لما مرّ علىٰ المدائن، ورأىٰ آثار كسرىٰ مشرفة علىٰ السقوط والإنهيار، أنشد أحد أصحابه الذين كانوا معه:

جرت الرياح علىٰ رسومهم ... فكأنّهم كانوا علىٰ ميعاد!

فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**أفلا قلت ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم**

ونعمة كانوا فيها فاكهين... فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانو منظرين﴾[١]»[٢].

إنّ آثارنا تدلّ علينا

ولهذا عمد كبار الشعراء إلى الإستلهام من هذه الأطلال والآثار واستوحوا منها الدروس والعبر والعظات، ونقلوا إلى الآخرين عبر قصائدهم ما كان يجيش في صدورهم، وينقدح في نفوسهم من المشاعر والأحاسيس المختلفة، تجاه ما تحكيه هذه الأطلال والآثار من معاني وتعطيه من دلالات.

ولقد لخص أحد الأدباء هذه الحقيقة في بيت شعري إذ قال:

ان آثـــارنا تـــدل عـــلينا فانظروا بعدنا إلى الآثـار

إن مطالعة سطر واحد من هذه التواريخ الحية الناطقة تعادل ـ في الحقيقة ـ مطالعة كتاب ضخم في مجال التاريخ، وأن ما تبعثه تلك المطالعة في النفس والروح البشرية لا يقاس به شيء مهما عظم.

ذلك لأننا عندما نقف أمام آثار الماضين تتمثل أمامنا تلك الآثار وكأنها قـد اسـتعادت حياتها، ودب فيها الروح، وكأن العظام النخرة قد خرجت من تحت الأرض حية، وكأن كلّ شيء قد عاد إلى سيرته الأُولى، وكأن جميع الأشياء تنطق وتتحدث، ثمّ إذا أعـدنا النـظر وجدناها صامتة ميتة منسية، وهـذه المـقايسة بـين هـاتين الحـالتين تـرينا غـباء أُولئك المستبدون الذين يرتكبون آلاف الجرائم، وأفظع الجنايات للوصول إلى الشهوات العـابرة، واللذائذ الخاطفة.

ولهذا يحث القرآن المسلمين على السير في الأرض، والنظر إلى آثار الماضين المدفونة تحت التراب أو الباقية على ظهر الأرض بأم أعينهم، وأن يتخذوا من كلّ ذلك العظة والعبرة وما أكثر العبر.

أجل، إن الإسلام يقر مسألة السياحة والسير في الأرض، ويوليها أهمية كبرى، لكن لا كما يريد السياح وطلاب اللذة والهوى، بل لدراسة آثار الأُمم الماضية والتدبر فيها، والإعتبار بها،

---

١ ـ سورة الدخان: الآيات ٣٠ ـ ٢٦.

٢ ـ سفينة البحار: ٢/ ٥٣١ (مادة مدن).

والوقوف على آثار العظمة الإلهية في شتى نقاط العالم وهذا هو ما يسميه القرآن الكريم بالسير في الأرض.

ولهذا يقول الإمام علي عليه السلام في حديثه التاريخي خلال وصاياه لولده الحسن المجتبىٰ في هذا الصدد:

«أي بني إني وإن لم أكن عمّرت عُمْرَ من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكّرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عُدت كأحدهم، بل كأنّي بما إنتهى إلي من أُمورهم قد عمرت من أوّلهم الى آخرهم»[1].

ما اكثر العبر

نعم، إنّه درس ما أكثر العبر فيه، ولكن المعتبرين منه قليل **«ما أكثر العبر وأقلّ الإعتبار»**[2].

ونقرأ في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«أغفل الناس من لم يتّعظ بتغيّر الدنيا من حال إلى حال»**[3] ولا يفكّر في تقلّب الليل والنهار وتعاقبهما.

فلسفة السير في الأرض

لقد وردت مسألة «السير في الأرض» ست مرات في القرآن المجيد، (في سورة آل‌عمران والأنعام والنحل والنمل والعنكبوت والروم) حيث وردت مرّة بقصد التفكر في أسرار الخلق (سورة العنكبوت الآية ٢٠) وخمس مرات بقصد العبرة من العواقب الوخيمة التي نالها الظالمون والجبابرة والطغاة الآثمون!

والقرآن يهتمّ بالمسائل العينية والحسية ـ التي يمكن لمس آثارها في الأُمور التربوية ـ اهتماماً خاصاً، ولا سيما أنّه يأمر المسلمين أن ينطلقوا من محيطهم المحدود إلى المدى الأرحب، ويسيروا ويسيحوا في هذا العالم، وليفكروا في أعمال الآخرين وسجاياهم وعواقب أُمورهم، وأن يستوحوا من هذه «الحياة» العابرة «ويدخروا ذخيرة قيمة» من العبرة والإطلاع!

---

١ ـ نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام لولده الحسن المجتبى عليه السلام.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٩٧.

٣ ـ سفينة البحار: ١٤٦/٢، مادّة (عبر).

إنّ القوى الشيطانية في العصر الحاضر ـ من أجل سعة استثمارها في العالم كافة ـ مشطت وفحصت جميع الدول والبلدان والأمم وطريقة حياتهم وثقافتهم ونقاط القوّة والضعف فيهم بصورة جيدة.

إنّ القرآن يقول: بدلاً من هؤلاء المستكبرين سيروا أنتم في أرجاء الأرض وبدلاً من خططهم ومؤامراتهم الشيطانية تعلموا دروساً رحمانية.

العبرة والإعتبار من حياة الآخرين أهم من التجارب الشخصية وأكثر قيمة، لأنّ الإنسان ينبغي أن يتحمل خلال تجاربه أضراراً ليتعلم مسائل جديدة إلّا أن الإنسان عند استلهام العبرة من الآخرين يربح معارف جمة وثمينة دون أن يتحمل ضرراً.

وأمر القرآن بالسير فيالأرض ينطبق على أكمل الأساليب والطرق التي حصل عليها البشر في العصر الحاضر، وذلك بأن يأخذوا بأيدي التلاميذ ـ بعد استيعاب المسائل في الكتب ـ ويسيروا في الأرض، ويطالعوا الشواهد العينية التي قرأوها في الكتب!

السياحة الشيطانيّة

وبالطبع فهناك اليوم نوع آخر من السير في الأرض بعنوان «السياحة» في العالم، وذلك من قبل «الحضارة الشيطانية» لجلب الأموال والثروة «الحرام» التي راجت سوقها، وغالباً ما تكون فيها أهداف منحرفة وتضليلية، كنقل الثقافة السقيمة وإشاعة الهوى والسفاهة والحماقة واللهو هذه هي «السياحة المخربة»!

ولكن الإسلام يؤيد السياحة التي تكون وسيلة لنقل الثقافات الصحيحة والتجارب المتراكمة، واستكناه أسرار الخلق في عالم البشر وعالم الطبيعة، واستلهام دروس العبرة من عواقب المفسدين والظالمين الوخيمة.

نماذج من الآيات القرآنيّة

نذكر هنا بعض الآيات القرآنيّة في هذا المجال:

١ ـ ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾[١].

---

١ ـ سورة النمل: الآية ٧١.

٢ ـ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾[١].

٣ ـ ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[٢].

ولكن هذا التعليم الإسلامي الحي قد نسي ـ مع الأسف ـ كبقية التعاليم الإسلامية ولم يلتفت إليه المسلمون، بل إنّ بعض العلماء والمفكرين الإسلاميين حصروا الزمان والمكان في فكرهم، فعاشوا في عالم غير عالم الحياة هذا، وبقوا في معزل عن التحولات الإجتماعية، وأشغلوا أنفسهم بأُمور حقيرة وقضايا جزئية قليله الأثر بالقياس إلى الأعمال الجوهرية والقضايا الأساسية.

ففي عالم نجد فيه البابوات والقساوسة المسيحيين الذين طال ما حبسوا أنفسهم بين جدران الكنائس قد خرجوا من تلك العزلة الطويلة والإنقطاع عن الحياه الإجتماعية إلى العالم الخارجي وراحوا يسيحون في الأرض، ويقيمون الجسور والعلاقات مع الأُمم والشعوب ليزدادوا خبرة بالعصر، ويقفوا على متطلباته ومستجداته ومتغيراته الكثيرة، أفلا يجدر بالمسلمين أن يعملوا بهذا التعليم الإسلامي الصريح، ويخرجوا من النطاق الفكري الضيق الذي هم فيه حتّى يتحقق التحول المطلوب في حياة الأُمة الإسلامية، وتحل الحركة الصاعدة محل الجمود والتقهقر، والتقدّم المطرد مكان التخلّف والتراجع.

---

١ ـ سورة الحج : الآية ٤٦.

٢ ـ سورة العنكبوت : الآية ٢٠.

94

تعليم وتربية العائلة

إنّ مسؤولية الإنسان تجاه زوجته وأبنائه أكد من غيرها وأشدّ إلزاماً، كما يتجلّى ذلك بشكل واضح من الروايات الواردة في مصادر عديدة، وكذلك الآيات التي تدعو الإنسان لأن يبذل أقصى جهده لتربية أهله وتعليمهم، ونهيهم عن إرتكاب الذنوب وحثّهم على اكتساب الخيرات، ولا ينبغي عليه أن يقنع ويكتفي بتوفير الغذاء الجسمي لهم.

وبما أنّ المجتمع عبارة عن عدد معيّن من وحدات صغيرة تدعى «العائلة» فإنّ الإهتمام بالعائلة وتربيتها تربية إسلامية صحيحة سيجعل أمر إصلاح المجتمع أسهل وأيسر.

وتبرز هذه المسؤولية أكثر وتكتسب أهميّة خاصّة في العصر الراهن، حيث تجتاح المجتمع موجات من الفساد والضلال الخطرة، وتحتاج إلى وضع برنامج دقيق ومدروس لتربية العائلة لمواجهة هذه الموجات دون التأثّر بها والإنجراف مع تيارها.

جاء في الحديث أنّ أحد الصحابة سأل النبيﷺ: كيف أقي أهلي ونفسي من نار جهنّم، فأجابهﷺ: «تأمرهم بما أمر الله، وتنهاهم عمّا نهاهم الله، إن أطاعوك كنت قد وقيتهم، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك»[1].

وفي حديث آخر جامع ولطيف عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «ألا كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته، فالأمير على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على أهل بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، ألا فكلّكم راع

---

١ ـ تفسير نور الثقلين: ٣٧٢/٥.

وكلّكم مسؤول عن رعيته»[١].

ونختم هذا البحث بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية قال فيه: «علّموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدّبوهم»[٢].

الازواج والاولاد قرّة العين

يشير القرآن الكريم الىٰ أنّ الصفة الخاصّة للمؤمنين الحقيقيين، هي التوجه الخاص إلى تربية أبنائهم وعوائلهم، وإيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء ﴿والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾[٣].

بديهي أن معنىٰ هذا ليس أن يقبعوا في زاوية ويتضرعوا بالدعاء، بل إن الدعاء دليل شوقهم وعشقهم الداخلي لهذا الأمر، ورمز جدهم واجتهادهم.

من المسلَّم أنّ أفراداً كهؤلاء لا يقصرون في بذل مالديهم من طاقة وقدرة في تربية أبنائهم وأزواجهم، وتعريفهم بأصول وفروع الإسلام، وسبل الحق والعدالة وفي ما لا تصل إليه قدرتهم وطاقتهم، فإنّهم يدعون الله، يسألونه التوفيق بلطفه.

فالدعاء الصحيح من حيث الأصل، ينبغي أن يكون هكذا: السعي بمقدار الإستطاعة، والدعاء خارج حدّ الإستطاعة.

---

١ ـ (مجموعة ورام): ٦/١.

٢ ـ (تفسير الدر المنثور): ٢٤٤/٦.

٣ ـ سورة الفرقان: الآية ٧٤.

٩٥

الانسان في القرآن

لقد وردت حول الإنسان تعبيرات مختلفة في القرآن الكريم:
إنّ في كثير من الآيات التي عبّرت عنه بالإنسان، ذكرت صفاته المذمومة وغير الحميدة.

الصفات المذمومة للإنسان في القرآن

١ ـ فقد عرّفته الآيات في سورة يونس بأنّه موجود كثير النسيان وناكر للجميل، ﴿فلمّا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا الىٰ ضرّ مسّه﴾[١].

٢ ـ وفي آية أُخرىٰ بأنّه موجود ضعيف: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[٢].

٣ ـ وفي آية أُخرىٰ بأنّه ظالم وكافر: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾[٣].

٤ ـ وفي موضع آخر أنّه بخيل: ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾[٤].

٥ ـ وفي موضع آخر أنّه عجول: ﴿وكان الإنسان عجولا﴾[٥].

٦ ـ وفي مكان آخر أنّه كفور: ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾[٦].

---

١ ـ سورة يونس : الآية ١٢.

٢ ـ سورة النساء: الآية ٣٨.

٣ ـ سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

٤ ـ سورة الإسراء: الآية ١٠٠.

٥ ـ سورة الإسراء: الآية ١١.

٦ ـ سورة الإسراء: الآية ٦٧.

٧ ـ وفي مورد آخر أنّه موجودكثير الجدل: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾[١].

٨ ـ وفي موضع آخر أنّه ظلوم جهول: ﴿إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾[٢].

٩ ـ وفي مكان آخر أنّه كفور مبين: ﴿إن الإنسان لكفور مبين﴾[٣].

١٠ ـ وفي مكان آخر أنّه موجود قليل التحمل والصبر، يبخل عند النعمة، ويجزع عند البلاء: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشر جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً﴾[٤].

١١ ـ وفي مورد آخر مغرور: ﴿يا أيّها الإنسان ماغرك بربك الكريم﴾[٥].

١٢ ـ وفي موضع آخر أنّـه مـوجود يـطغى عـند الغـنى: ﴿إن الإنسـان ليـطغى أن رآه استغنى﴾[٦].

وبناء على هذا فإنّا نرى القرآن المجيد قد عرّف الإنسان بأنّه موجود يـتضمّن جـوانب وصفات سلبية كثيرة، ونقاط ضعف متعددة.

الصفات الحميدة للإنسان في القرآن

فهل أنّ هذا هو نفس ذلك الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وأفضل تكوين: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحن تقويم﴾[٧]؟

وهل أن هذا هو نفس الإنسان الذي علمه الله مالم يعلم: ﴿علم الإنسان مالم يعلم﴾[٨]؟

وهل هو نفس الإنسان الذي علمه الله البيان: ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾[٩].

وأخيراً، فهل أنّ هذا هو الإنسان الذي حثّه الله على السعي والكدح في المسير إلى الله: ﴿يا

---

١ ـ سورة الكهف: الآية ٥٤.

٢ ـ سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

٣ ـ سورة الزخرف: الآية ١٩.

٤ ـ سورة المعارج: الآية ١٩ ـ ٢١.

٥ ـ سورة الأنفطار: الآية ٦.

٦ ـ سورة العلق: الآية ٦.

٧ ـ سورة التين: الآية ٤.

٨ ـ سورة العلق: الآية ٥.

٩ ـ سورة الرحمن: الآية ٣.

أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً﴾(١).

يجب أن نرى من هم الذين تتكرّس فيهم كل نقاط الضعف هذه، بالرغم من كل هذه الكرامة والمحبة الإلهية؟

الجواب

الظاهر أنّ هذه المباحث تتعلق بمن لم ينشأ في حجر القادة الإلهيين، بل نشأ ونما كما تنمو الأعشاب، فلا معلم ولا دليل، وقد اطلق العنان لشهواته وغاص وسط الأهواء والميول.

من الطبيعي أنّ مثل هذا الإنسان لا يستفيد من إمكاناته وثرواته العظيمة، ويسخرها في طريق الإنحرافات والأخطاء، وعند ذلك سيظهر كموجود خطر، وفي النهاية عاجز وبائس. وإلّا فالانسان الذي يستفيد من وجود القادة الإلهيين، ويستغل فكره في مسير الحركة التكاملية والحق والعدل، فإنّه يخطو نحو مرتبة الآدمية، ويستحق اسم «بني آدم» ويصل إلى درجة لا يرى فيها إلّا الله سبحانه، كما يقول القرآن: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾(٢).

---

١ ـ سورة الإنشقاق: الآية ٦.

٢ ـ سورة الإسراء: الآية ٧٠.

٩٦

العجلة

إنَّ تعلق الإنسان واندفاعه نحو موضوعٍ معين، والتفكير السطحي المحدود، والهوىٰ والإضطراب، وحسن الظن أكثر من الحد الطبيعي إزاء أمرٍ ما، كُلّها عوامل للعجلة في الأعمال. ثمّ إنَّ الإقتصار علىٰ بحث المقدمات بشكلٍ سطحي سريع ومرتجل لا يكفي في التوصل إلىٰ حقيقة الأمر، وعادة تؤدي العجلة والتسرع في الأعمال إلىٰ الخسران والندامة!

إنَّ عجلة الإنسان تقوده إلىٰ أن يطلب الشر لِنفسه ويسعىٰ إليه، بنفس الحالة والسرعة التي يطلب فيها الخير ويسعىٰ إليه!

إنّنا لا نستطيع أن نحصي ما أصاب الإنسان علىٰ طول التاريخ جرّاء استعجاله وتسرّعه، وفي التجربة الحياتية الخاصّة لأي واحدٍ مِنّا ثمّة ما يكفي لنتعلّم دروس العجلة والتسرُّع مِن خلال النتائج المرّة التي جنيناها.

إنَّ «التثبت» و«التأني» هي الصفات التي تقابل العجلة.

ففي حديثٍ عن رسول اللّه نقرأ قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنّما أهلك الناس العجلة، ولو أنَّ الناس تثبتوا لم يهلك أحد»[1].

وفي حديثٍ آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السلام: **«مع التثبت تكون السلامة، ومع العجلة تكون الندامة»**[2].

---

١ ـ سفينة البحار: ١٢٩/١، مادة (ثبت).

٢ ـ المصدر السابق.

وعن رسول اللّه ﷺ قوله: «**إنَّ الأناة مِن اللّه والعجلة مِن الشيطان**»[١].

طبعاً هناك باب في الرّوايات الإسلامية بعنوان «**تعجيل فعل الخير**» ففي حديث عن رسول اللّه نقرأ قوله ﷺ: «**إنّ اللّه يحب مِن الخير ما يعجل**»[٢].

إنَّ الرّوايات في هذا المجال كثيرة، والمقصود مِنها هي السرعة في مقابل الإهمال والتأخير غير الموَّجَّه، والإتكاء إِلىٰ الأعذار والتسويف باليوم وغداً، التي غالباً ما تؤدي إِلىٰ ظهور المشاكل في الأعمال.

وشاهد هذا الكلام هو الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَن همَّ بشيء مِن الخير فليعجله فإنَّ كل شيء فيه تأخير فإنَّ للشيطان فيه نظرة**»[٣].

لذلك نقول: نعم للجدية والسرعة في الأعمال، ولكن لا .. للعجلة والتسرُّع.

وبعبارة أُخرىٰ: إنَّ العجلة المذمومة هي التي تكون أثناء البحث والدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أمّا السرعة والعجلة الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، والتصميم علىٰ التنفيذ، لذلك نقرأ في الرّوايات «**سارعوا في عمل الخير**» أي بعد أن يثبت أن هذا العمل خير فلا مجال للتأخير والتسويف.

---

١ ـ المصدر السابق .

٢ ـ أصول الكافي، ج ١، كتاب الإيمان والكفر، باب تعجيل فعل الخير.

٣ ـ سفينة البحار : مادة (ثبت) .

٩٧

نبذة من حكمة لقمان

كان لقمان يقول لإبنه:

يابني، إنّ الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله، واجعل شراعها التوكّل على الله، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك[١].

وقد ورد نفس هذا المطلب ضمن كلام الإمام الكاظم عليه السلام مع هشام بن الحكم بصورة أكمل، نقلاً عن لقمان الحكيم: «**يابنيّ، إنّ الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله**، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر»[٢].

وفي حوار آخر مع إبنه حول آداب السفر يقول:

يابنيّ، سافر بسيفك وخفّك وعمامتك، وخبائك وسقائك، وخيوطك ومخرزك، وتزوّد معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً إلّا في معصية الله عزّوجلّ.

يابنيّ، إذا سافرت مع قوم فاكثر إستشارتهم في أمرك وأُمورهم.

وأكثر التبسّم في وجوههم.

وكن كريماً على زادك بينهم.

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٣١٦/٨، ذيل الآيات ١٥ ـ ١٢ من سورة لقمان.

٢ ـ أُصول الكافي: ١٣/١ كتاب العقل والجهل.

وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم.

واستعمل طول الصمت، وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابّة أو ماء أو زاد.

وإذا استشهدوك على الحقّ فاشهد لهم.

واجهد رأيك إذا استشاروك، ثمّ لا تعزم حتّى تتثبّت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتّى تقوم فيها وتقعد، وتنام وتأكل وتصلّي، وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته، فإنّ من لم يمحض النتيجة من إستشاره سلبه الله رأيه.

وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم.

واسمع لمن هو أكبر منك سنّاً.

وإذا أمروك بأمر، وسألوك شيئاً فقل: نعم، ولا تقل: لا، فإنّ (لا) عي ولؤم.

يابنيّ، إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشيء، صلّها واسترح منها فإنّها دَين.

وصلّ في جماعة ولو على رأس زجّ.

وإن إستطعت أن لا تأكل طعاماً حتّى تبتديء فتتصدّق منه فافعل.

وعليك بقراءة كتاب الله[1].

وثمّة قصّة معروفة أيضاً عن لقمان، وهي أنّ مولاه دعاه ـ يوم كان عبداً ـ فقال: اذبح شاة، فأتني بأطيب مضغتين منها، فذبح شاة، وأتاه بالقلب واللسان.

وبعد عدّة أيّام أمره أن يذبح شاة، ويأتيه بأخبث أعضائها، فذبح شاة وأتاه بالقلب واللسان، فتعجّب وسأله عن ذلك فقال: **إنّ القلب واللسان إذا طهّرا فهما أطيب من كلّ شيء، وإذا خبثا كانا أخبث من كلّ شيء**[2].

ونهي هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«والله ما أُوتي لقمان الحكمة لحسب ولا مال ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنّه كان رجلاً قويّاً في أمر الله، متورّعاً في الله، ساكتاً سكيناً عميق النظر، طويل التفكّر، حديد البصر.

ولم ينم نهاراً قطّ ـ أي أوّله ـ ولم يتكيء في مجلس قطّ ـ وهو عرف المتكبّرين ـ ولم يتفل في مجلس قوم قطّ، ولم يعبث بشيء قطّ، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ تفسير البيضاوي والثعلبي، ولكن نقل في تفسير مجمع البيان جزءه الأوّل فقط.

قطّ، ولا على إغتسال لشدّة تستّره وتحفّظه في أمره.

ولم يمرّ بين رجلين يقتتلان أو يختصمان إلّا أصلح بينهما، ولم يسمع قولاً إستحسنه من أحد قطّ إلّا سأله عن تفسيره وعمّن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والعلماء، ويتعلّم من العلوم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه، وكان لا يظعن إلّا فيما ينفعه، ولا ينظر إلّا فيما يعنيه، فبذلك أُوتي الحكمة ومنح القضيّة»[١].

١ ـ تفسير مجمع البيان بتلخيص.

٩٨

الرهبانيّة

كانت نوعاً من الرهبانية الممدوحة بين المسيحيين، بالرغم من أنّها لم تكن أصلاً وإلزاماً فيما جاء به السيّد المسيح من عند الله تعالى، إلّا أنّ أتباع السيّد المسيح عليه السلام أخرجوا (الرهبانية) من حدودها وجرّوها إلى الإنحراف والتحريف، ولهذا فإنّ الإسلام ندّد فيها بشدّة، حتّى أنّ الكثير من المصادر الإسلامية أوردت الحديث المعروف: «لا رهبانية في الإسلام»[1].

ومن جملة الممارسات القبيحة للمسيحيين في مجال الرهبانية تحريم الزواج للنساء والرجال بالنسبة لمن يتفرّغ (للرهبنة) والإنزواء الإجتماعي، وإهمال كافّة المسؤوليات الإنسانية في المجتمع، والركون إلى الصوامع والأديرة البعيدة، والعيش في محيط منزوٍ عن المجتمع .. بالإضافة إلى جملة من المفاسد التي حصلت في الأديرة ومراكز الرهبان، كما سنشير إلى جوانب منها في هذا البحث إن شاء الله.

وبالرغم من أنّ هؤلاء الرجال البعيدين عن الدنيا (الرهبان والراهبات) قد أدّوا خدمات إيجابية كثيرة كتمريض المصابين بأمراض خطرة كالجذام وما شابهه، بالإضافة إلى القيام بالتبليغ والإرشاد بين أقوام بدائية متوحّشة، وقيامهم ببرامج للدراسة والتحقيق .. إلّا أنّ هذه الأُمور تعتبر قليلة الأهميّة قياساً إلى المفاسد التي إقترنت معها.

وأساساً فإنّ الإنسان مخلوق إجتماعي، وتكامله المادّي والمعنوي مبتنٍ على هذا

١ ـ جاء هذا الحديث في مجمع البحرين في مادّة (رهب) كما ذكر ذلك في النهاية لإبن الأثير.

الأساس، وما جاءت به الأديان السماوية لا ينفي دور الإنسان في المجتمع، بل يحكم قواعده وأُسسه بصورة أفضل.

إنّ الله سبحانه أوجد الغريزة الجنسية في الإنسان لحفظ النسل، وكلّ مذهب أو قانون يتعارض مع هذه الغريزة فإنّه باطل.

الفرق بين الزهد والرهبانيّة

الزهد الإسلامي الذي يعني البساطة في الحياة والإبتعاد عن الكماليات، وعدم الوقوع في أسر المال والموقع ـ لا يرتبط أصلاً بمسألة الرهبانية، لأنّ الرهبانية تعني الإنفصال والغربة عن المجتمع، والزهد يعني التحرّر من الماديّات والترفّع عن المغريات لكي تتمّ المعايشة بصورة إجتماعية أفضل.

ونقرأ في قصّة «عثمان بن مظعون» في موت ولده أنّه لم يعد يخرج للعمل حزناً عليه، وإنشغل في العبادة وترك كلّ عمل سواها وجعل من بيته مسجداً ... فعندما وصل خبره للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أحضره وقال له:

«ياعثمان، إنّ الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنّما رهبانية أُمّتي الجهاد في سبيل الله»[1].

وذلك إشارة إلى أنّ الإعراض عن الحياة الماديّة والإنزواء الإجتماعي، وتعطيل الأعمال بصورة سلبية، يجب أن يصبّ في مسير إيجابي، وذلك بالجهاد في سبيل الله. ثمّ أنّ الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بيّن له بعض فضائل صلاة الجماعة، والتي هي تأكيد على نفي الرهبانية في الشرع الإسلامي.

وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عندما سأله أخوه علي بن جعفر: **الرجل المسلم هل يصلح أن يسيح في الأرض أو يترهّب في بيت لا يخرج منه قال** عليه السلام: «لا»[2].

وتوضيح ذلك: إنّ السياحة التي نهي عنها في هذه الرواية، هي تلك الممارسة التي تكون على مستوى الرهبانية ويمكن أن نطلق عليها (الرهبانية السيّارة) وذلك أنّ بعض الأفراد قبل

---

١ ـ بحار الأنوار: ١١٤/٧٠ باب النهي عن الرهبانية، حديث ١.

٢ ـ بحار الانوار: ١١٩/٧٠.

أن يوفّروا لأنفسهم المستلزمات الأساسية لحياتهم من سكن أو عمل أو مصدر عيش .. فإنّهم يقومون بالسياحة والتجوّل في ربوع الدنيا وبدون تهيئة مستلزمات الطريق من الزاد والمال .. بل يعتمدون على أخذ المساعدات من الناس عند كلّ نقطة يصلون إليها، ظانّين أنّ ذلك نوعاً من الزهد وترك الإنشغال بالدنيا.

إلّا أنّ الإسلام كما نفى الرهبانية الثابتة، فإنّه قد نفى الرهبانية السيّارة أيضاً إنسجاماً مع التعاليم الإسلامية، فإنّ الزهد والصلاح مهمّ للإنسان المسلم، شريطة أن يكون في قلب المجتمع وليس في الإنزواء والغربة عنه والبعد منه.

المصدر التأريخي للرهبانية

لم تكن الرهبانية موجودة بشكلها الحالي في القرون الأُولى للتاريخ المسيحي، وقد ظهرت بعد القرن الميلادي الثالث في حكم الإمبراطور الروماني (ديسيوس) ـ وقتاله الشديد لأتباع السيّد المسيح عليه السلام، ونتيجة لما لحق بهم من الأذى من قبل هذا الإمبراطور المتعطّش للدماء، فإنّهم لجأوا إلى الجبال والصحاري[1].

وجاء هذا المعنى بصورة أدقّ في الروايات الإسلامية حيث نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لابن مسعود: «**هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟**

فقلت: الله ورسوله أعلم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضبت أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرّات، فلم يبق منهم إلّا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرّق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام (يعنون محمّداً) ـ فتفرّقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسّك بدينه، ومنهم من كفر**».

ثمّ قال: «**أتدري ما رهبانية أُمّتي؟**»

قلت: الله ورسوله أعلم.

---

١ ـ دائرة المعارف القرن العشرين مادّة (رهب).

قال: «**الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحجّ والعمرة**»[١].

والمؤرّخ المسيحي المشهور (ويل دورانت) ينقل في تأريخه المعروف في ج١٣ بحثاً مفصّلاً حول الرهبانية، حيث يعتقد أنّ إرتباط الراهبات (النساء التاركات للدنيا) بالرهبان بدأ منذ القرن العاشر الميلادي[٢].

وبدون شكّ فإنّ هذه الظاهرة الإجتماعية ـ كما هو شأن كلّ ظاهرة أُخرى لها أُسساً روحية بالإضافة إلى الأُسس التأريخية، حيث يمكن الإشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ مسألة ردّ الفعل الروحي للأشخاص والأقوام تختلف فيما بينها مقابل الإندحارات والمصاعب التي يواجهوها. حيث يميل البعض نتيجة لذلك إلى الإنزواء والإنشغال بالأُمور الشخصية فقط، ويبعدون أنفسهم بصورة كاملة عن المجتمع والنشاطات الإجتماعية، في الوقت الذي يتعلّم آخرون من الإنتكاسات والمصاعب دروس الإستقامة والصلابة والقدرة على تحدّي المشاكل ومقاومتها.

ومن هنا فإنّ القسم الأوّل يلتمس طريق الرهبانية أو أي سلوك مشابه له، بعكس القسم الثاني الذي يصبح أكثر تماساً بالمجتمع وأقوى في مواجهة تحديّاته.

المفاسد الأخلاقية والإجتماعية الناشئة من الرهبانية

إنّ الإنحراف عن قوانين الخلقة غالباً ما يكون مصحوباً بإنفعالات سلبية، وبناءً على هذا فلا عجب فيمن يبتعد عن الحياة الإجتماعية التي هي جزء من فطرته أن يصاب بردود فعل شديدة، لذلك فإنّ الرهبانية ـ لأنّ منهجها خلافاً لطبيعة الإنسان وفطرته ـ فإنّها استبطنت مفاسد كثيرة من جملتها:

١ ـ إنّ الرهبانية تتعارض مع طبيعة الإنسان المدنية وبالتالي فإنّها تؤدّي بالمجتمعات الإنسانية إلى الإنحطاط والتخلّف.

٢ ـ ليست الرهبانية عائقاً عن كمال النفس وتهذيب الروح والأخلاق فقط، بل تجرّ إلى الإنحرافات الأخلاقية والكسل وسوء الظنّ والغرور والعجب والتشاؤم وما إلى ذلك، وعلى

---

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٢٤٣/٩ بتلخيص قليل، ونقل حديث آخر شبيه بهذا في تفسير الدر المنثور: ١٧٧/٦.

٢ ـ تاريخ ويل دورانت: ٤٤٣/١٣.

فرض أنّ الإنسان إستطاع أن يصل إلى فضيلة أخلاقية في حالة الإنزواء، فإنّها في الواقع لا تعدّ كذلك، إذ أنّ الفضيلة أن يحرّر الإنسان نفسه من التلوث الأخلاقي في قلب المجتمع.

٣ ـ إنّ ترك الزواج والإعراض عنه، والذي هو من مبادىء الرهبانية، ليس فقط يعوق عن الكمال، بل هو سبب لظهور العقد والأمراض النفسية وما إلى ذلك.

ونقرأ في دائرة المعارف أنّ بعض الرهبان كانوا يعتبرون الإهتمام بجنس المرأة عمل شيطاني، لحدّ أنّهم منعوا وجود أُنثى أي حيوان في الدير خوفاً من الروح الشيطانية لهذه الأُنثى التي قد تدنّس روحانيّتهم وتسبّب لها إنتكاسة.

ومع هذه الحالة فإنّ التأريخ يذكر لنا فضائح عديدة من الأديرة إلى حدّ أن وصفها (ويل دورانت) بأنّها بيوت للفحشاء والدعارة، ومراكز لتجمّع عبّاد البطون وطلّاب الدنيا واللاهين، بحيث أنّ أفضل المشروبات كانت توجد في الأديرة.

وطبقاً لشهادة التأريخ فإنّ السيّد المسيح عليه السلام لم يتزوّج أبداً، وهذا لم يكن بسبب موقف له من سنّة الزواج، بل لقصر عمره، وإنشغاله المستمر في مسؤولياته الرسالية التي كانت تستدعي منه السفر والتجوّل والتبليغ في المناطق النائية في العالم، وهي التي لم تسمح له بالزواج.

إنّ البحث حول الرهبانية يستحقّ كتاباً مستقلاً، وإذا أردنا أن نستفيض في هذا البحث فإنّنا سنخرج عن بحث التّفسير.

وننهي بحثنا هذا بحديث للإمام علي عليه السلام تعقيباً على المفهوم الذي طرحته الآية التالية حيث تقول الآية: **﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾**[١]

فقد قال عليه السلام في تفسيرها: **«هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري»**[٢].

---

١ ـ سورة الكهف: الآية ١٠٣ ـ ١٠٤.

٢ ـ كنز العمّال، ج ٢، الحديث ٤٤٩٦.

٩٩

الزنا

القرآن الكريم يشير إلىٰ ذنب عظيم هو الزنا
﴿ولا تقربوا الزنا إنَّهُ كان فاحشة و ساءَ سبيلاً﴾[١].

وفي هذا التعبير القرآني تمت الإشارة إلىٰ ثلاث نقاط:

ألف ـ لم تقل الآية: لا تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، وهذا الأُسلوب في النهي فضلاً عمّا يحملهُ مِن تأكيد، فإِنَّهُ يوضح أنَّ هناك مقدمات تجر إلىٰ الزنا ينبغي تجنبها وعدم مقاربتها، فخيانة العين تعتبر واحدة مِن المقدمات، والسفور والتعري مقدمة أُخرىٰ، الكتب السيئة والأفلام الملوّثة والمجلات الفاسدة ومراكز الفساد كل واحدة مِنها تعتبر مقدمة لِهذا العمل.

كذلك فإِنَّ الخلوة بالأجنبية (يعني خلوة المرأة والرجل الأجنبي عليها في مكانٍ واحد ولوحدهما) يعتبر عاملاً في إثارة الشهوة.

وأخيراً فإِنَّ امتناع الشباب عن الزواج خاصة مع ملاحظة الصعوبات الموضوعة أمام الطرفين، هي مِن العوامل التي قد تؤدي إلىٰ الزنا. والآية نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مُختصر، ولكنّا نرىٰ في الأحاديث والرّوايات نهياً مُفصلاً عن كل واحدة مِن هذه المقدمات.

ب ـ إنَّ جملة ﴿إنَّه كان فاحشة﴾ بتأكيداتها الثلاثة المستفادة مِن «إن» والفعل الماضي «كان» وكلمة «فاحشة» تكشف عن فظاعة هذا الذنب.

---

١ ـ سورة الاسراء: الآية ٣٢.

ج -إنَّ جملة ﴿ساء سبيلاً﴾ توضح حقيقة أنَّ هذا العمل «الزنا» يؤدي إلىٰ مفاسد أُخرىٰ في المجتمع.

في حديث عن الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام يقول: سمعت رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم يقول: «في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة. فأمّا اللاتي في الدنيا، فيذهب بنور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفناء. وأمّا اللّواتي في الآخرة، فغضب الرب، وسوء الحساب، والدخول في النّار، أو الخلود في النّار»[1].

١ ـ تفسير مجمع البيان: ٦/٤١٤.

١٠٠

آفات العمل الصالح

إنّ الشيء الذي يعطي عمل الإنسان الشكل والمحتوىٰ، هو النّية والدافع وغاية العمل النهائية، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهي وعلى أساس أهداف مقدسة طاهرة، وخطط سليمة صحيحة، في حين أن من لا إيمان لهم، فغالباً يقعون أسارىٰ التظاهر والرياء والغرور و العجب، فيكون سبباً في انعدام أية قيمة لأعمالهم.

على سبيل المثال، نحن نعرف مساجد من مئات السنين، لم تترك عليها القرون الماضية أدنىٰ تأثير، وبعكسها نرىٰ بيوتاً تظهر فيها الشروخ وعلامات الضعف مع مضي شهر واحد أو سنة واحدة، فالأُولىٰ بنيت من كل النواحي بناءً محكماً بأفضل المواد مع توقع الحوادث المستقبلية، أمّا الثّانية فلأن الهدف من بنائها هو تهيئة المال والثروة عن طريق المظاهر والحيلة، فالعناية فيها كانت بالزخرفة فقط.

من وجهة نظر المنطق الإسلامي، فإن للأعمال الصالحة آفات، ينبغي مراقبتها بدقة، فقد يكون العمل أحياناً خراباً وفاسداً منذ البداية، كمثل العمل الذي يتخذ (رياءً).

و احياناً أُخرىٰ يلحقه الفساد أثناء العمل كما لو اصاب الانسان الغرور والعجب حينه فتزول قيمة عمله بسبب ذلك.

و قد يمحىٰ أثر العمل الصالح بعد الانتهاء منه بسبب القيام بأعمال مخالفة ومنافية، كمثل الإنفاق الذي تتبعه «منّة»، أو كالأعمال الصالحة التي يعقبها كفر وارتداد.

حتىٰ ارتكاب الذنوب أحياناً يترك أثره على العمل الصالح بعدها ـ طبقاً لبعض الرّوايات

الإسلامية ـ كما نقرأ في مسألة شارب الخمر حيث لا تقبل أعماله عند الله أربعين يوماً.[١]

على أية حال، فللإسلام منهج فذ، دقيق وحساس في مسألة خصوصيات العمل الصالح.

نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

يبعث الله عزّوجلّ يوم القيامة قوماً بين أيديهم نور كالقباطي، ثمّ يقول له: ﴿كن هباءً منثوراً﴾ ثمّ قال: أمّا والله ـ يا أبا حمزة ـ إنّهم كانوا يصومون ويصلون، ولكن كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام أخذوه، وإذا ذكر لهم شيء من فضل أمير المؤمنين عليه السلام أنكروه، قال: والهباء المنثور هو الذي تراه يدخل البيت في الكوة مثل شعاع الشمس».[٢]

والعوامل التي تؤدي إلىٰ إحباط أعمال الإنسان، أو تهددها بذلك الخطر كثيرة، ومن جملتها:

١ ـ **المن والأذىٰ** كما يقول القرآن الكريم: **﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾**[٣]. فهنا ذكر عاملان لبطلان العمل: أحدهما المنّ والأذىٰ، والآخر الرياء والكفر، فالأوّل يأتي بعد العمل والثّاني قرينه، وهما كالنّار يحرقان الأعمال الصالحة.

٢ ـ **العجب** عامل آخر في إحباط آثار العمل، كما ورد ذلك في الحديث: **«العجب يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب»**[٤].

٣ ـ **الحسد** ـ أيضاً ـ أحد هذه الأسباب، والذي ورد فيه تعبير شبيه بما ورد في العجب، فقد روي عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: **«إيّاكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب»**[٥].

وكما تذهب الحسنات السيئات **﴿إنّ الحسنات يذهبن السيئات﴾**[٦]، فإنّ السيئات تمحو

١ ـ سفينة البحار: ٤٢٧/١، مادة «خمر».

٢ ـ تفسير علي بن إبراهيم طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين: ٩/٤.

٣ ـ سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

٤ ـ تفسير روح البيان: ٥٢٢/٨.

٥ ـ بحار الأنوار: ٢٥٥/٧٣.

٦ ـ سورة هود: الآية ١١٤.

كلّ الحسنات أحياناً.

٤ ـ المحافظة على الإيمان إلىٰ آخر لحظات العمر، وهذا أهم شرط لبقاء آثار العمل، لأنّ القرآن يقول بصراحة: ﴿ولقد أوحي إليك والىٰ الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من الخاسرين﴾[١].

من هنا نعرف أهمية ومشاكل وصعوبات مسألة المحافظة علىٰ الأعمال، ولذلك ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**الإبقاء علىٰ العمل أشدّ من العمل**»، قال ـ أي الراوي ـ: وما الإبقاء علىٰ العمل؟ قال: «**يصل الرجل بصلة، وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فكتب له سرّاً، ثمّ يذكرها فتمحىٰ فتكتب له علانية، ثمّ يذكرها فتمحىٰ وتكتب له رياءً**»[٢].

□ □ □

١ ـ سورة الزمر: الآية ٦٥.

٢ ـ اصول الكافي، المجلد الثاني، باب الرياء، الحديث ١٦.

الفهرست التفصيلي